و « الدكتاتورية » و « الاشتراكية » و « التخلف » ، الاولى الولايات المتحدة الاميركية والاخرى دولة الصهاينة ٠

وخطيئة السادات انه رفض لا تجربة عبد الناصر فقط ، بل تجارب الحركات الوطنية العربية كلها ، وهي تجارب علمتها استحالة التقدم نحو اي مكسب بغير الخروج من منطقة النفوذ الدولي الواحد ٠

ولقد كانت السمة الرئيسية لثورة عبد الناصر هي الانفلات من اسر « العالم الحر » الذي ليس فيه الا اميركا ، الى العالم الواسع الذي فيه اميركا وغير اميركا ٠ ولم يكن الخيار الذي اتخذه الانتقال من نفوذ اميركا الى نفوذ الاتحاد السوفياتي ، وانما الخروج من دائرة النفوذ الواحد الى دنيا التناقضات والمنافسات الدولية الحرة ٠

وقبل عبد الناصر ، كان الوطنيون العرب يعرفون بالتجربة مخاطر النفوذ الواحد ، حتى انهم كانوا يفضلون وجود جيشين محتلين على وجود جيش واحد ٠

وتاريخ الاستقلال في سوريا ولبنان عام ١٩٤٣ يروي انه اتفق الانكليز والفرنسيون مرة على خروج الجيش الانكليزي اولا ثم الجيش الفرنسي ، فطلب الحكم الوطني في كلا البلدين ان يبقى الانكليز مدة اضافية حتى يخرجوا مع الفرنسيين في موعد واحد ! اذ كانت الحكمة تقول : ان طريق الحرية ايسر بوجود مستعمرين منها بوجود مستعمر واحد ٠

والحسين بن علي لم ينزل في ذاكرة العرب القومية كرمز للسياسي الفاشل (بدأ في مكة عام ١٩١٦ كمنقذ وانتهى منفيا في قبرص) الا لانه حصر تعامله بدولة واحدة وعلق عليها كل اماله ٠

والسادات ، في المعاهدة المصرية الاسرائيلية هو حسين بن علي اخر ، مع فارق كبير هو ان الحسين لم يتخل عن العرب ، ولم ينفرد عنهم بصلح مع اسرائيل ، ولم يصف عن وعي ثورة وطنية قائمة ٠

لذلك تبدو المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية آتية الينا من ماض سحيق ٠٠٠ فهي بفكرتها واخراجها ونصوصها ليست من عالم فيه امم متحدة تجسد وجود فريق غير الولايات المتحدة في تقرير مصائر الشعوب ، وفيه جامعة عربية تجسد وجود غير مصر ٠

وهي من هذه الناحية عملية تشبه عمليات الاستعمار القديم في اكثر حالاته تحررا من القيود ٠

وبهذا المعنى ، فالمعاهدة سقطة من الولايات المتحدة ايضا لا من حكم السادات فحسب ، وقد تراجعت بها عن اسلوبها في مواجهة الشعوب من ضمن منطق الشرعيات الدولية ، او من ضمن منطق الوفاق الدولي على الاقل ·

بل انها كانت فيها اكثر صراحة في انكار منطق الشرائع من الاستعمار القديم نفسه ·

ففي الاستعمار القديم ، كانت المعاهدة غير المتكافئة تعرض عادة مع الجهة التي تشكل طرف الصراع القوي وتدور على الموضوع الحقيقي موضوع الصراع ·

اما في هذه المعاهدة فليس فيها اشارة الى منظمة التحرير ولا الى قضية فلسطين الا الاشارة الغامضة الى الحكم الذاتي الضائع الحدود بين البشر والحجر ·

وقد كان كارتر في اول مراحل الحوار اكثر فلسطينية مما اصبح بعد المعاهدة ·

وبينما كان الموضوع في البداية احتمال الاعتراف الاميركي بمنظمة التحرير، اذا هو في النهاية انكار اميركي واسرائيلي وعربي لهذه المنظمة ·

والتفسير البديهي للتراجع الاميركي بين بدايات المعاهدة ونهايتها هو ان الولايات المتحدة كانت تتوقع درجة من التصلب المصري تفوق بكثير ما اظهره السادات ، وربما كانت تتوقع معارضة اوضح وافعل واكثر جدية ·

فلما تبين لها ما تبين تجرأت على اعطاء المعاهدة الصورة التي اعطتها اياها ·

اما السادات فقد دخل مبادرته وهو يتحدث عن حقوق الفلسطينيين وانتهى منها وهو ينتظر المفاوض الاسرائيلي ليحدد معه اغرب مفهوم للحكم الذاتي عرفه تاريخ القانون الدستوري ·

واغلب الظن ان هذا المفهوم سيتقلص ايضا ما دام الوضع المصري والعربي الذي اغرى كارتر بتقليص كمية « فلسطينيته » مستمرا ·

لقد نادى السادات وهو يحضر لمبادرته باكثر من منطق سياسي جزئي وخاطيء ولكنه لو استطاع ان ينسجم حتى مع هذا القدر اليسير والناقص من المنطقية لاتى بمعاهدة اقل سوءا من المعاهدة الحالية ·

اشاع عن نفسه انه عارض مبادرة روجز مرة اثناء وجود عبد الناصر في موسكو ، وعلل موقفه بان هذه المبادرة تعرض انهاء حالة العداء مع اسرائيل بدون اي مقابل ·

فاذا المعاهدة تأتي بعد نصر ١٩٧٣ اسوأ من اتفاق معروض بعد هزيمة ١٩٦٧ ٠

وقال في فترة من فترات سابقة لحرب ١٩٧٣ وفي جلسة افتتاح للمجلس الوطني الفلسطيني : ان يدي ويد الفلسطينيين وحدهما في النار ، وان الفلسطينيين والمصريين هم العنصران المعنيان الاساسيان في القضية ، وانه بالتالي اذا تم تحصيل الحد الادنى المقبول من مطالب هذين العنصرين ، فالطريق الى السلام تصبح ممكنة السلوك ٠ وكان المفهوم من ذلك ان نصيب الفلسطينيين سيكون ، وفقا لمخططه ، دولة فلسطينية بقيادة منظمة التحرير ٠ وعلى الرغم مما في هذا المنطق من الافتئات على عروبة القضية ، وجد السادات بين العرب من يستصوب المنطق الشكلي الذي يطرحه او يرى افساح المجال امامه للتدليل على براعته في المناورة الدولية ، فجاءت المعاهدة انكارا كاملا لحقوق شعب فلسطين ٠

وبعد عام ١٩٧٣ ، قال ان يد مصر ستبقى في يد سوريا على طريق النضال العربي المشترك ، وان احدا من الفريقين لن يترك الاخر بعد ان قاتلا معا في الحرب ٠ وقال انه لن ينسى اخاه حافظ الاسد ٠ وظن البعض ان العلاقة المصرية السورية اصبحت حجر زاوية في استراتيجية السادات ، ورأوا في ذلك معلما لسياسة مصرية وفية على الاقل ٠ فجاءت المعاهدة تطعن اول ما تطعن سوريا وشريك الحرب ٠

وقال السادات : ان التضامن العربي كان سر الانتصار في حرب اكتوبر ولن يدع هذا السلاح يفلت من يده ، واعتبر نفسه رائدا في سياسة التفاهم مع الانظمة العربية ، وانه في ذلك نجح حيث فشل عبد الناصر ٠ فاذا هو يأتي بمعاهدة ينفرد بها عن كل العرب ، ويجابه بها جميع الانظمة ٠

وقال في نشرة اخرى ان دول المواجهة (اي مصر والاردن وسوريا ولبنان) ذات اوضاع متشابهة ومشاكل متشابهة وانها تعاني العوز والفقر والموت بينما الدول الاخرى تملك المال والغنى وراحة البال ٠ وفهم الناس من ذلك مع شيء من العطف احيانا انه سيعمل على اقامة جبهة من هذه الدول لاخذ الحق من القريب والبعيد ٠ فاذا حظ دول المجابهة منه كحظ غيرها ٠

واخيرا ، فشل السادات في ان يبقى الى جانبه اي عربي ، لانه ، فشل في ان ينسجم مع اي منطق سياسي نادى به ، واعجب في حينه هذا او ذاك من العرب٠

لكن يبقى ان السادات استطاع ان يعقد معاهدة خطيرة بعد ان وظف عند الشعب المصري لمصلحة اي سلم صورة مضخمة عن المساوىء ونقاط الضعف واللامسؤولية والثرورات المهدورة في الوطن العربي ، تماما كما فعل ويفعل الانعزاليون في لبنان ٠

والسادات يراهن منذ مدة ، كأي حاكم وضع نفسه في وجه حركة التاريخ ، على القصور والنقص وانعدام المبادرة في قطاعات واسعة من العرب ، حكاما وقادة ساسة وفكر واحزابا ، ويراهن خصوصا على كل ذي مصلحة في هذه العاهات · فهؤلاء هم في النهاية اعوان له وحلفاء ·

والهرم الذي تحاول المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية اقامته في ارضنا واضح، فاميركا اقوى من الجميع ، واسرائيل اقوى من مصر وفلسطين ، والانظمة العربية اقوى من شعوبها ·

ومن اليوم ، لم يقم هذا الهرم بعد · لكنه اذا استطاع ان يكسب وقتا ، فالنظام العربي الواحد قادم ، وهو الى حد ما كان موجودا باستمرار ، لا يغيب فترة الا ليعود ·

والمخطط لهذه المعاهدة ان تكون القاعدة السياسية الخارجية لهذا النظام الواحد ·

محمود سويد

عَنِ التغيير والتسْوية : عَودٌ عَلى بدْء

هل كانت طريق التحرير والتقدم مفتوحة امام العالم العربي ، فجاء السادات واغلقهـا ؟

هل يشكل السادات نتوءا في وضع عربي سوي ؟

لم تكن الطريق العربية مشرعة امام حركة التحرير والتقدم ، بل كانت مقفلة مع السادات ، ولا تزال بدونه ، وان كان قد فتحها ـ من جانبه ـ على التفريط باهداف وطنية وقومية (حقوق الشعب الفلسطيني ـ الاستسلام للامبريالية والصهيونية) ٠

وليس السادات نتـوءا ، بـل هو محصلـة عجـز حركـة التغيير التـي تصدت لقيادة العالم العربي ، بعد هزيمة ١٩٤٨ ، عن ايجاد حلول فعلية لمشاكل هذا العالم ، على مختلف الصعد ٠

ان حجم الطاقة التي يوظفها العالم العربي في صراعه مـع الامبريالية والصهيونية ، متمثلتين بالولايات المتحدة واسرائيل ، محدود جدا ، ومستنفـد بكامله في معركة التسوية وتحسين شروطها ٠ وحجم هذه الطاقة ، بحديه الادنى والاقصى ، لا يكفي لاحداث اي تغيير نوعي في طبيعة المواجهة وابعادها ٠ ومـن هنا كان حد المعركة ضد خط السادات ، وشعارها : الصمـود والتصدي ٠ الصمود لتحسين شروط التسوية ، والتصدي للثغرة التي فتحها السادات والعمل لاغلاقهـا ٠

واذا كانت التسوية ، بهذا الشكل او ذاك ، وسواء تمت ام لم تتم ، هي افق هذه المرحلة العربية ، ذلك ان قوى وانظمة تحمل المهمات والشعارات وتتقدم لانجازها ، بامكاناتها ووسائلها ، بما يشبه الاحتكار ، ودونما حاجة او قدرة على توظيف مزيد من الطاقات العربية ٠

وهكذا تصبح لحركة التسوية دينامية خاصة بها ، او ـ اذا شئنا ـ ديناموخاص ، تحركه طاقة محدودة ، هي تلك التي تسمح الانظمة بتشغيلها ٠ أما « الاخرون » ـ وهم كثر ـ فيتابعون حركة التسوية من خارجها ، على الرغم من ان موضوعها هو مصيرهم هم بالذات ٠

هذه المعادلة هي التي تحكم العالم العربي ، مجتمعا وسياسة ، وتضعه على هامش معركة التطور والحضارة ، الى اجل غير معروف ٠

حركة التغيير : ما الذي تغير ؟

١ ـ منذ هزيمة الانظمة التقليدية (او المحافظة او الرجعية) عام ١٩٤٨ ، تصدت التيارات القومية لقيادة حركة التغيير في العالم العربي : وازدحمت الساحة العربية ، طوال ثلاثين عاما ، بمعارك وشعارات : الوحدة والحرية والاشتراكية ، بحسب اولويات مختلفة ، فلسطين ثم الوحدة ، او العكس ، الحزب العربي الواحد ام الاحزاب القطرية ، التحالف مع الغرب او مع الشرق ، او سلوك طريق الحياد الايجابي الخ ٠ وفي كل الاحوال ، كان النظام (العربي) والحليف (السوفياتي) البديل عن خط تعبئة الجماهير وتنظيمها وتسليحها لتشارك بفعالية في المعركة ٠

٢ ـ في حزيران ١٩٦٧ ، سددت الامبريالية ، بواسطة ذراعها الاسرائيلية القوية ، ضربة قاصمة لهيبة القيادات التغييرية ، باحتلال كل فلسطين واجزاء من ثلاثة اقطار عربية ، وتحطيم القوة العسكرية لهذه الاقطار ٠ ونال السوفيات نصيبهم من هذه الضربة ، فبهتت صورتهم كحليف استراتيجي للنضال العربي، في موازاة الحليف الستراتيجي الامبريالي لاسرائيل ٠ وكانت القيادات التغييرية معنية بتحميل الحليف السوفياتي جزءا من مسؤولية الهزيمة ، للتخفيف من مسؤوليتها هي ، وللاستمرار في استبعاد الخيار الشعبي او الجماهيري ٠

أ ـ لملم « التغييريون » اشلاءهم المبعثرة ونهضوا من وراء حركة المقاومة الفلسطينية لاستئناف المسيرة ٠ وتألقت المقاومة تحت شعار الكفاح الشعبي المسلح ، واستقطبت دعما عربيا وعالميا غذى نضالها طوال عشر سنوات ٠

ب ـ وتقدم « التقليديون » بزعامة السعودية ، لاحتلال موقع رئيسي في القيادة ، مستقوين بسلاح النفط ، وبالعلاقة « المميزة » مع الولايات المتحدة ،

طارحين إمكان استعادة الارض المحتلة وحقوق الشعب الفلسطيني عن طريق هذه العلاقة ، وهم اولى من « التغييريين » بالحرص على استبعاد خط تعبئة الجماهير وتنظيمها ٠

انصرف عبد الناصر للاعداد لمواجهة جديدة مع اسرائيل ، يحقق فيها نصرا يمكنه من الجلوس الى طاولة المفاوضات وانتزاع اهداف المرحلة ٠ فلقد قبل بمشروع روجرز ، لكنه خاض حرب الاستنزاف ، وقطع شوطا في اعادة بناء الجيش من خلال تركيز العلاقة بالسوفيات من جهة ، والاصلاحات الداخلية من جهة ثانية ٠ وعلى الرغم من هزيمته عام ١٩٦٧ ، ظل عبد الناصر قائد معركة العرب القومية ، وكان على القوى المشاركةفيها، بمن فيها المقاومة الفلسطينية والتقليديون ، العمل في ظل قيادته ٠ وعندما غاب عبد الناصر ، كانت المقاومة تضمد جروحها بعد ضربة الاردن ، فتقدم انور السادات والتقليديون لوراثة زعامة شاغرة ٠

٣ ـ كانت حرب تشرين ١٩٧٣ ، في ملامحها الرئيسية ، هي الحرب التي اعد لها عبد الناصر ، لكن القيادة الجديدة عدلتاهدافها بما ينسجم ومخططاتها فقد خاض السادات الحرب بجيش عبد الناصر ، قبل ان تفرغه « الحركة ـ التصحيحية » التي كانت قد بدأت بطرد السوفيات من مصر ، واعادة النظر في الاصلاحات الناصرية الداخلية ٠

وبدلا من ان تكون حرب تشرين، بمؤشراتها الايجابية، حرب تصعيد لتصحيح ميزان القوى ، مسختها قيادة السادات والتقليديين الى حرب تحريك لدبلوماسية التسوية ، استخدم فيها دم المقاتلين العرب ، ونفط السعودية ، والبترو دولار العربي ، من اجل تحقيق المكاسب الهزيلة التي يظن السادات انه حققها في المعاهدة مع اسرائيل ٠

٤ ـ حتى اوائل ١٩٧٥ ، ظلت المقاومة الفلسطينية نتوءا بارزا في وضع عربي تجري تسويته ، فكانت حرب لبنان ٠

لم يكن بامكان المقاومة ان تلعب الدور القيادي الذي لعبه عبد الناصر بعد ١٩٦٧ : استخدام قوى مختلفة ، ابرزها الجيش النظامي ، في معركة تفرض على اسرائيل الاستجابة لشروط حل مقبول عربيا ٠ ذلك ان المقاومة ـ ببنيتها وظروفها ـ مثلت مشروعا قياديا مختلفا : فهي اما ان تتحول ، من خلال الممارسة الفعلية لحرب الشعب والكفاح المسلح ، الى ثورة شعبية ، تستوعب الامكانات الهائلة للشعب الفلسطيني بخاصة ، والشعب العربي بعامة ، وتفيد من الدعم الذي توفره لها حركة التحرر العالمية ، واما ان تلائم اساليب نضالها ، وتوظف الامكانات المحدودة التي تستخدمها ، في سبيل تحقيق هدف اقل طموحا : دخول نادي الانظمة والحصول على مقعد الى طاولة التسوية ٠

كانت الساحة اللبنانية، على امتداد السنوات ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ ، مختبـــرا لتجربة لم يجر بعد سبر اغوارها ، وتحليل عناصرها ، واستخلاص نتائجها · فلقد اتفق المثقفون العرب ، تقريبا ، على ان ابرز الاسباب التي ادت الى فشل حركة التغيير العربية ، هي غياب الحزب احيانا ، وافتقاد الديمقراطية عموما ، واستبعاد الجماهير ولجمها دائما وابدا · لكن الساحة اللبنانية شهدت ، بشكل او بآخر ، كل هذه العناصر : كل القوى العربية من « تقليدية » و « تغييرية » كانت متواجدة ، ولا يستطيع اي طرف ادعاء ان لديه ما يقدمه او يعرضـــه او يقوله ولم يفعل · وكانت هناك احزاب وتنظيمات سلحت جماهيرها ، وكانـــت هناك سلطة منهارة تبحث عمن يلتقطها ، وكان هناك « شارع » فارغ يبحث عمن يملأه · ومع ذلك ، فقد ذهب الناس ، وعلى رأسهم الحركات « التغييرية » ، الى السلطة القديمة يتوسلونها العودة ، وظل « الشارع » فارغا تصفر في ارجائـــه رياح خريفية ، بينما تتساقط اوراق « التغييريين » وتذبل تجربتهم ·

اين يكمن الخلل في هذه التجربة الطويلة ، من استلام التيارات القوميـــــة للسلطة في بعض الاقطار ثم صعود المقاومة الفلسطينية ، وانتهاء بحـــــرب لبنان ، حيث تحولت « غابة السلاح الوطني » الى « غابة من الفوضى المسلحة» بل العجز السياسي المسلح ؟ ·

أيكمن في غياب الممارسة الديمقراطية ، على كل صعيد ، وكأرقى تعبيـــــر حضاري بلغه عصرنا ، عن حق الشعوب في ان تتولى بنفسها شؤون تطورهـــا السياسي والثقافي والاجتماعي ؟

ام يكمن في واقع التجزئة واختلاف مستويات تطور المجتمعـــات العربية ، اللذين يعيقان تقدم الامة ويبعثران طاقاتها ، ويوفران للامبريالية فرص عمل لا حصر لها في داخل هذه المجتمعات ؟

ام يكمن في الثروة النفطية التي تفتك بعنصري الانتاج والطاقة البشريـــة ، فبدلا من الانسان المنتج ، والمجتمع الذي يتقدم بتطور انتاجه ، على كل الصعد، يمتد سرطان النفط متجاوزا مجتمعات اقطاره الى كل المجتمعات العربية ، ليحول الانسان الى هامشي وطفيلي ، والمجتمع الى وحش استهلاكي ، لا يسهـــم ، بأي مقياس ، فيما ينفع الناس ويدفع قدما الحضارة البشرية ·

ام تكون هذه كلها ، وغيرهـــا كثيـــر ، عوامـــل مجتمعـــة ومتضافـــرة ، تشد مجتمعاتنا العربية الى الوراء ، فكأنها فقدت ، دون امل ، القدرة على الامساك بزمام امرها والسيطرة على امكاناتها الهائلة وزجها بكاملها في معركة تقدمهـــا وتحررهـــــا ؟

من يملك القدرة على اختراق هذا الليل الذي يلف العالم العربي ، ويخنق انفاسه ، ويبدد طاقاته ؟

اية حركة تغييرية تخرج الانسان العربي من النفق المظلم الذي يمتد كصحراء مجدبة لا نهاية لها ؟

أعلينا ان ننتظر انتهاء هذه اللعنة النفطية التي شوهت حياتنا ، فيعود الانسان العربي الى العمل ، انسانا سويا ومعافى ؟

لقد زججنا في لعبة حلزونية ، ندور في متاهاتها كفأر بافلوف ، حتى الاعياء، ولا مخرج من دهاليزها الا باب « التسوية » ·

ليست هذه دعوة الى الانصراف عن الاهتمام بموضوع التسوية ، لمجرد اننا عاجزون عن التأثير في مسيرتها ، او لان للتسوية معارضين من داخل اللعبة او من خارجها ، يتولون شأنها ، بل هي دعوة الى رفض هذا الاستقطاب الذي يأسرنا ضمن اسواره : لا صوت يعلو فوق صوت المعركة · التضامن العربي امضى سلاح في المعركة · النفط سلاح في المعركة · كسب الناخب الاميركي سلاح في المعركة · دعم اوروبا الغربية سلاح في المعركة · التحالف مع السوفيات سلاح في المعركة ·

والمعركة الاخرى ؟ معركة الانسان العربي : حرياته وسجونه ، ديمقراطيته وقمعه ، انتاجه وتخلفه ، بؤسه وتقدمه · هذه المعركة ، من يخوضها ؟ اهي مؤجلة حتى انتهاء الصراع بوجهه الخارجي ؟ او ليس الانتصار فيها شرطا للانتصار في ذلك الصراع ؟ ام ترانا نضيف معركة لفظية اخرى ، الى تلك المعارك التي دوختنا باولوياتها المتداخلة : الوحدة والتحرير والاشتراكية وفلسطين ؟

التسوية ممكنة ـ التسوية مستحيلة

١ ـ لقد بدا لنا في وقت سابق ان التسوية مستحيلة بسبب الفرق الشاسع بين الحدين الادنيين لكل من مشروعي التسوية العربي والاسرائيلي · لكن السادات كسر الحد الادنى ليلتقي بالمشروع الاسرائيلي على ارضه وبشروطه ·

والمأزق الذي تواجهه التسوية الان ، وهي عالقة في الفخ الفلسطيني ، يغري بالمراهنة ، من جديد ، على استحالتها · لكن السادات ماثل ، عظة لمن يريد الاتعاظ !

٢ ـ تملك عملية التسوية دينامية خاصة بها تسمح لها بالاستمرار في طرح الخيارات والبدائل ، التي يتم تغليب هذه او تلك منها ، في ضوء حرب المواقع ، والمعارك الجزئية التي تقوي هذا الطرف او ذاك ، او تضعفه · وتحافظ

الاطراف على قواعد اللعب وشروطه ولا تتجاوزها ما دامت غير مهددة باخراجها من اللعبة ٠ ويكفي ان نعرض ، فيما يلي ، سيناريو واحدا من البدائل الاميركية على سبيل المثـال لا الحصر :

أ ـ يقتحم بيغن ـ كما هو جار حاليا ـ ساحة الاطراف الاخرى ، وهو مسلح بالمعاهدة مع مصر ، وبدعم اميركي محسوب جيدا ، في ضوء سقوط نظـام الشاه في ايران ، واضطرار الولايات المتحدة لان تتولى بنفسها ومباشرة ترتيب شؤون الخليـج ٠

ب ـ يجري العمل لاعادة العلاقات السعودية ـ الاميركية ، والاردنيـة ـ الاميركية ، الى سابق صفائها ، على اساس الوعد باستغلال فترة مفاوضـات الحكم الذاتي في المناطق المحتلة (اواخر ايار ١٩٧٩ ـ اواخر ايار ١٩٨٠) لتذليل العقبات الاسرائيلية (والعربية) وانتزاع الحل المنشود ٠ ثم يعاد النظر في الموقف العربي من السادات ، بعد ان يبدي تصلبا في مفاوضات الحكـم الذاتي ، واضعا (في الشكل) المعاهدة على حافة الانهيار ، والولايات المتحـدة امام مسؤوليتها كشريك فعلي !

جـ ـ تنهمك الاطراف العربية في تريب اوضاع البيت اللبناني بعد استفحـال خطر صهينته ، ثم تنقض العصا الاسرائيلية الغليظة على المقاومة الفلسطينيـة في جنوب لبنان ، بينما تفتح لها الولايات المتحدة نافذة كي تعبر منها ، منزوعة السلاح ، الى الاردن ، لتشارك الملك حسين في صيغة ما للتسوية على الجبهـة الفلسطينية ٠

٣ ـ وثمة بدائل اخرى عديدة ، من داخل اللعبة ومن خارجها ، تعطـي عملية التسوية مدى زمنيا تتحرك فيه بتوازنات مختلفة ، كانتظار نتائج المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية على الحكم الذاتي ، حتى اذا ما فشلت (وهو امر مؤكد تقريبا) بعد سنة ، يكون موعد الانتخابات الاميركية قد اقترب ، ويليه موعـد الانتخابات الاسرائيلية ، اي ان هذا المدى الزمني قد يستمر الى ما بعد ١٩٨١٠ وتمني الولايات المتحدة ، في هذا الوقت ، الجانب العربي ، بتغيير في الحكـم الاسرائيلي ، يستجيب لتحقيق تسوية مقبولة ٠

٤ ـ وهكذا بامكان الولايات المتحدة الاستمرار في قيادة عملية التسويـة من خلال الاوراق المهمة التي تسيطر عليها في مجالات عديـدة ، وبامكـان اسرائيل الاستمرار في الابتزاز بعد صفقة عادت عليها بربح وفير ، وبامكـان الانظمة العربية الاستمرار في المراهنة على الموقف الاميركي والتوازن الدولـي ، وبامكان المقاومة الفلسطينية الاستمرارفي القبض على عدد من الخيارات ، مـن خلال الموقع القوي الذي تشغله في الساحتين اللبنانية والعربية ، وبامكـان

التقدميين العرب المراهنة على نهوض الحركة الوطنية المصرية للاطاحة بنظـــام السادات ، شرط ان يتمكن النظام الايراني الجديد من التماسك ولعب دور فعال في المنطقة ، وشرط ان تتمكن الانظمة العربية المعارضة لخط السادات ، مـــن الصمود فعلا في مواقعها ، ثم التصدي بنجاح لهذا الخط · ولعل هذا الخيـــار الاخير وحده قادر على اخراج المنطقة من دهاليز بافلوف الحلزونية الى احتمالات ابعد من صورة التسوية البائسة التي تمليها ظروف عربية اشد بؤسا ·

لكن التسوية ، جاءت ام لم تجيء ، تملأ اشرعة هذه المرحلة ، والى ان يبزغ فجر تغييري آخر ·

صدر حديثا

عن مركز الابحاث

قطاع غزة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧

تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكريـة

تأليف : حسين أبو النمل

يطلب من قسم التوزيع ، ص·ب ١٦٩١

حـازم صاغيـة

المشْروع الإسـرائيـلي وآفـاق المرحَـلة القوميَّـة
ملاحظات حول انهيَـار الطوائف

نظر التيار الوطني والتقدمي في لبنان الى المسألة الطائفية ، بوصفها واحدا من اثنين :

ـ اما انها ظاهرة لا تاريخية ، وسابقة على وجود الامبرياليات واشتمال جبل لبنان بالعلاقات الرأسمالية ٠٠ وهذه النظرة تتضمن تمجيدا لعالم الطوائـف وحرصا على لبنان ـ الطوائف مع تخفيف الغلبة فيه ٠

ـ واما ان الطائفية لا تكمن في جوهر الاساس الاقتصادي ، بل هي تظهر على الصعيد الفوقي لاقتصاد سابق على الرأسمالية ٠ وما محاولة احيائها مع تقـدم الرأسمالية الا من قبيل اطالة عمر الاستغلال والعمل على تقنيعه ٠٠ ولان النظرة الى التاريخ نظرة تفاؤلية، فالمحاولة الطائفية هذه هي كاحياء العظام وهيرميم٠

والنظرتان بمعزل عن رغبتهما ، تفصلان لبنان وطوائفه عن سياق تاريخـي محدد ، فيغيب الافق القومي في حل المسألة الطائفية عن الاولى ، ويحضر لبنان في النظرة الثانية ، لا بوصفه نتاجا لمشروع تجزئة امبريالي ، بل بوصفه تشكيلة اجتماعية مكتملة تنتظر تصفية رواسب الاقطاع والانتقال الكامل الى العلاقـات الرأسمالية ٠

ومع احتدام المعركة القومية وتقدم المشروع الاسرائيلي المدعم بمعاهدة الصلح المنفرد ، يطرح على النظرة الاولى سؤال محدد : هل بالامكان اعـادة تركيب لبنان الطوائف ، لبنان الميثاق ؟ ويطرح على الثاني سؤال محدد آخر : هـل النمو الرأسمالي هو الذي يقصي الطائفية والوعي الطائفي ، ام المعركة القومية

هي التي تقوم بهذه المهمة ؟ وبالتالي : كيف نرى الى العلاقة بين المسألة الطائفية والمسألة القومية ؟

وبين هاتين النظرتين وعن طريق المزج بينهما تكونت نظرة ثالثة تعتمد « الطائفية » و « الطبقة » معا في تحليل الوضع اللبناني ، فتراوح بين لبنانية سنية ترث الزعامات الاسلامية التقليدية ، وبحث عن « الاستثناءات » « الديمقراطية » في الطوائف ، وفي الحالتين تؤكد لبنانيتها ، بعيدا عن مؤثرات المعركة القومية · لكن اكتشاف الطوائف الذي عبر عن حاجة ما للانفتاح على المسلمين ، جاء على العموم متأخرا جدا · اذ المطلوب اليوم هو اكتشاف آلية انقراض الطوائف في اتصال ذلك بالمسألة القومية ·

الطائفية والرأسمالية والتجزئة

ليس التخلف عن الرأسمالية هو الذي يفسر الطوائف ، بل الرأسمالية التابعة هي التي تفسرها ، في آلية سيرها وتعقيداته ، بعد ضرب الانتاج المحلي والشكل السياسي الممثل بالسلطنة العثمانية ·

والعلة الاولى التي ننطلق منها هي الطبيعة التبعية لرأس المال في الاطراف· ولبنانيا بالتحديد يمكننا الاشارة الى نمو التبعية بما هي خط مواز لولادة الطوائف بوصف تلك الطوائف جزءا من الواقع المادي وليس كجزء من البنى الفوقية ·

ـ منذ البدايات الرأسمالية الاولى ، لم تكن مراكمات « الطبقة الوسطى » المارونية التي صعدت في القرن الماضي ، هي التي تمول اقتصاد الحرير وعملية تصنيعه ، بل قام رأس المال الفرنسي بهذه المهمة ·· أي نشأت المارونية السياسية الجبلية ونشأ معها الارتباط العضوي برأس المال المالي العالمي (وكان الارتباط الثقافي والديني قد سبق ذلك وتلاه) · وترتب على هذا ، في امتداده اللبناني ، استحالة ان ينشأ في لبنان « انتاج » مسيطر عليه من رأس المال المالي بعد ان تحطم الانتاج المحلي · ذلك ان رأس المال العالمي هذا لا ينمي ، بالتعريف، مصادر داخلية لرأس المال ·· ناهيك بحدودية السوق اللبنانية اصلا ·

ـ وفي عملية التداول والرواج ، لا يتم انتاج لفائض القيمة ، اي لا يتم تكديح كامل وانقطاع بين المنتج ووسائل انتاجه · بل يتم تحصيل نسبة من الربح كامنة في السلع المتداولة ·· وهكذا ففائض القيمة لا ينجم عن العمل ، بل عن مرور السلع والتبادل والرواج (الامر الذي يعني ان التحول الى اقتصاد نقدي لا يعمل هنا على فرز واضح على ارضية طبقية) · ان رأس المال لا يتحكم بالانتاج، بل يقتطع فائض القيمة في ظل تقاسم الريوع بين المركز ووسطائه في الطرف

التابع · ويترتب على هذا حالة مشابهة لما يصفه سمير امين بقوله : « حيازة فائض ··· مشروط اذن بظروف خارجة عن سيطرة المجتمع (···) وهكذا يظل المجتمع عبارة عن تجمع مناطق ليست مندمجة ببعضها البعض الى درجة كافية لكي تصبح قومية » ·

الطوائف والرأسمالية

ـ ان اقتطاع الفائض من العملية التجارية نفسها هو الوجه الداخلي ، لارتباط اللبنانيين بشكل استثنائي بمصادر التراكم الخارجي وسوق العمل العالمية (ظاهرة الهجرة) · ولما كان العالم العربي هو المتلقي الاول للخدمات اللبنانية، فان التبعية العربية للامبريالية هي شرط لا مفر منه لنمو اقتصاد التبعيةاللبناني·

ـ بنهاية الشهابية وتجربتها ثبت وهم اقامة اقتصاد متماسك على قاعدة سيطرة رأس المال التجاري ، وجعل العلاقات النقدية تطرد الانعزال السياسي المؤسس على الطوائف والمناطق ·· وفي الانفجارات ترحل الدولة والرلمان، بما هي الاولى حالة ضبط للطوائف وبما هو الثاني اطار لتنظيم عملها ، فالنظام الرأسمالي الرواجي القائم يقدم للطائفة اساسها المادي بوصفها « «علاقة قرابة تضطلع بعلاقة توزيع » ، ويعيد انتاجها مع اعادة انتاج نفسه ·

وتشير دراسة خالد جابر [السلطة والتوازن في لبنان · شؤون فلسطينية ٥٠ ـ ٥١] الى الانتقال نحو « الطائفة » بما يلي : « لقد كانت مؤشرات انهيار السلطنة العثمانية امام الهجمة الاستعمارية الغربية تتلخص في الجبل بعاملين رئيسيين :

١ ـ دخول الزراعة الاحادية (التوت ـ الحرير) المرتبطة مباشرة بالسوق الرأسمالية العالمية · وما يستتبع ذلك من ضرب اسس الملكية القديمة وربطها بالتجارة والكوميسيون ·

٢ ـ توسع بيروت بوصفها مرفأ عملية التصدير والاستيراد · استتبع هذا التطور بداية انهيار علاقات الملكية القديمة قانونيا ـ خط شريف كلخانة ـ وسياسيا بدخول عوامل مساعدة على رسملة الجبل (محمد علي ، ضرب الامير بشير للتوازن المقاطعجي) وبداية انهيار شكل المراتبية القديمة ، الذي تحل مكانه الوحدة الطائفية · فأتت النعرة الدينية في لحظة انهيار الانتاج وبروز الشكل الجديد للملكية لتلعب دور قاعدة العلاقات الاجتماعية · وعلى اساس هذه الوجهة العامة ، نقرأ ثورة الفلاحين ١٨٥٨ بوصفها التعبير السياسي لمرحلة الانتقال · ونقرأ حرب ١٨٦٠ الاهلية الطائفية ، التي انتهت بتكريس نمط علاقات جديدة من جهة ، وبتكريس الطائفة المارونية كنعرة غالبة

على الجبل بالتحالف مع الجيش الفرنسي الذي اتى غازيا (١٨٦٠) تصبح الطائفة هي التي تحكم هذه المستويات بوصفها قاعدة القرابة القائمة على التوزيع والتجارة · وتصبح العائلة قاعدة الطائفة بوصفها شكلا اجتماعيا يلائم الملكية الفردية الجديدة · اما العشيرة شكل التحالف العصبي القديم فتبدأ عملية انهيارها · ان هذا الانقلاب في اولوية المستوى الذي يحكم المستويات الاخرى (اي الطائفة بدل العشيرة) هو في الواقع التعبير العيني عن انتقال شكل الملكية في الجبل » ·

ولما كانت العلاقات الرأسمالية ، قابلة الطائفية ، قد ظهرت مع مشروع التجزئة الذي طال المنطقة ، فان النظرة التي تلغي الطائفية على ارضية الكيان ونموه الطائفي ، والنظرة التي تميل الى تأييد الطائفية وكيانها ، تلتقيان في جذرهما القطري ·

ان « الطائفية » في لبنان هي وليدة تحطم الانتاج المحلي وقيام التبعية الاقتصادية والاتجاه نحو سوق عالمية موحدة ، محكومة بتقسيم العمل بين المركز والاطراف ·· واستطرادا فانشاء الطوائف لـ « دولتها » ومن ثم نيلها لـ « استقلالها » هما ، تعريفا ، خطوتان في سياق تعزيز التبعية ·

التحدي السياسي

بهذا المعنى جاء « لبنان الكبير » مع الانتصار الذي تحقق لامبرياليات اوروبا في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وجاء « الاستقلال » من ضمن موجة الاستعمار الجديد الذي تصاحب مع صعود الولايات المتحدة الاميركية في نهاية الحرب الثانية ·

كل نمو اذن شهده الاقتصاد اللبناني لم يكن نموا لـ « قوى انتاج » مزعومة ما ، بل نموا لتبعية لبنان التي وجهها الآخر زيادة التفاوت بين لبنان والعرب ، وتأصل الانعزالية الذي يحمل في الآن نفسه ميلها الانتحاري الى الذوبان في اسرائيل ·

ولو اخذنا « الهجرة » كظاهرة لبنانية ، مثلا ، وجدنا ان افراغ الريف واستبعاد قوى الانتاج تصاحب على الدوام مع نمو الرأسمالية اللبنانية ، بل ساهما مساهمة اساسية في هذا النمو ·

والهجرة هي بهذا المعنى امتداد لانتصار الرأسمالية على الانتاج المحلي على مستوى قومي ، اذ ولدت مع اواخر القرن الماضي وهيمنة الرأسمالية ، واتسعت لتشمل الجنوب بعد قيام دولة اسرائيل (كتعبير اشد تكثيفا عن ذلك الانتصار)

ثم لتمتد الى كل ارجاء لبنان مع عهد كميل شمعون المعادي لحركة التحـــرر العربية والذي فتح الابواب على مصراعيها للرساميل الاجنبية ٠

لقد حاول النظام الطائفي المؤسس على الاقتصاد البوجوازي التابع ان يعالج مشاكل الوضع اللبناني لاجئا الى توازنين :

ـ التوازن الداخلي الذي يضبطه البرلمان ٠

ـ التوازن بين العرب والغرب ٠

واستطاع التوازن الداخلي الاول ، المستجيب لتوسيع عملية الرواج وتوسيع التمثيل البرلماني للطوائف والعشائر ، ان يهيء عمرا سعيدا للنظـام ٠ لكـن التحدي السياسي النابع من التوازن الاخر كان يخل على الدوام بالانضبـاط الاقتصادي ـ الطوائفي ٠

ويجيء انفجار لبنان بنتيجة تماسه مع حركة التحرر العربية ، ليكشف قانونا قابلا للتعميم في العالم الثالث ، هو ان العنصر التقدمي في تطور هذا العالم هو العنصر السياسي (لا العنصر الاقتصادي الذي ينحو الى التطابق مع الاستعمار نظرا لاستحالة الخروج عن التبعية) ٠

فالطوائف التي ولدت وانتعشت في ظل النظام الرأسمالي المغلق سياسيا على العرب ، نحرت نفسها في ظل المعركة القومية ، مبشرة بنهايتها ككيانات متخلفة وقاصرة عن الصراع ٠

والطوائف التي تتعادل مع لبنان لا يمكن ان تنتهي ويبقى لبنان ، او ان ينتهي لبنان وتبقى هي ٠

في هذا الاطار يلحظ على الدوام صراع تيارين متعارضين في « التاريـخ اللبناني » :

ـ تيار اقتصادي ـ لبناني ، يراهن على وحدة الدولة ويفـرز يمينا ويسارا ٠

ـ تيار سياسي ـ عربي ، يراهن على ضرب التجزئة ، وهو موضوعيا فـي اقصى درجات العداء مع الامبريالية ٠

وفي جذر التيار الاول رهان ضمني على « توحيد » ينجـم عن العمليـة الامبريالية ويقود الى الاستواء الرأسمالي المتجاوز لما قبله ٠ وفي جذر التيـار الثاني رهان ضمني على التفاوت في عملية التبعية المصاحبة للتجزئة ، تترتب عليه استحالة العمل اليساري على ارضية « مجتمع » مجتزا ٠

النجزئـــة والوحدة

وحقيقة الامر ان ميل الطوائف للاندثار في خلال المعركة القومية ، يكشـف بشكل سلبي هذا البعد غير اللبناني في نموها ٠

فاذا كانت المارونية قد تحولت الى طائفة هي الركن الركين للبنان ، فعملية التحول قد حصلت في خلال الارتباط العضوي بالغرب وتجزئة المنطقة العربية٠

واذا كانت السنية قد تحولت الى طائفة مع قيام الانتداب ، لتعطي لبنان وجهه الآخر ، فعملية التحول حصلت في خلال بتر الجسم الوطني اللبناني عن حلقات اتصاله العربي ٠ لقد عمل « الاقتصاد » من خلال الدور التجاري لبعض تجار المدن السنية على غرس الوعي الطائفي ـ اللبناني ، وكانت « السياسة » تلعب بالمقابل دور المحافظة على الوعي القومي ـ العربي ٠

وبفعل هذين التيارين المتعارضين في منشأ الطوائف وارتباط ذلك بفقـدان وحدة اقتصادية حقيقية لـ « لبنان » ، كانت السلطة سلطة شكلية معرضـة للانسحاب من التداول عند اي تقاطع سياسي بين لبنان والمنطقة ٠

وبلغة اخرى : لئن ولدت الطوائف كتعبير عن تحطم الانتاج المحلي وقيـام التبعية ، وانهيار السلطنة العثمانية والدولة العربية لصالح الاستعمار الاوروبي، فان التفاوت في عمل هذا الاستعمار نفسه ، والاصطناعية التي وسمت الكيـان الطائفي الذي خلقه ، جعلا الكيان اياه يحفر قبره بيده ، والطوائف اياها تحفـر قبرهـا بيدهـا ٠

ثمة منطق يقول ان لبنان ، في ظل مشاريع التقسيم السائدة قابل للمزيد مـن التجزئة وهش امـام مثل هذا المشروع ، لكنـه في الآن نفسه متماسك وصلب في وجه مشروع وحدوي عربي ٠

ومثل هذا القول يبلغ في تأثره بتوازن القوى في لحظة معينة ، درجة الاخذ بالتفسير الاستعماري للتاريخ ، والذي يفترض ان الفعل الامبريالي هو الفعـل الاوحد ، وان منتجات العملية الامبريالية المعقدة (كالطوائف) غير عرضـة للزوال ٠٠ وبالتالي فهي توجب الانطلاق منها والبناء عليها في العمل السياسي٠

واستطرادا : النظام الرأسمالي ـ الطائفي ضربته الثورة القومية ممثلـة بالمقاومة الفلسطينية من على يساره ، وضربته الرياح الاسرائيلية الساداتية من على يمينه ٠ فأية قوة سياسية هي القادرة على اعادة اللحمة اليه خصوصـا في ظل تدهور وضع « المعتدلين » العرب ، واستبعاد التوصل الى اي لون مـن الوان التوازن بعد معاهدة الصلح المنفـرد ؟ ربمـا كـان الجـواب الوحيـد ان استنهاض « الخصوصية اللبنانية والاستثنا ءاللبناني » قادر على ذلك ، فهـذا

الطرح لا يخفي حرصه على الاستثناءات اللبنانية وتأجيل العمل بالقاعدة القومية ، بل هو يفترض ان ضعف الحالة الثورية العربية وتدني النهوض القومي عند العرب ، يجعلان « الاستثناء » الطائفي اللبناني (بما هو قائم مقام الامبريالية) اقدر على التأثير في العالم العربي من قدرة العالم العربي على التأثير فيه ٠

والمؤدى العملي بمعزل عن النوايا هو ان نقنع بالمواجهات المنفردة ، وننتظر الهزائم المجتمعة التي تخلق المزيد من الدول والدويلات الطائفية في الاقطار العربية المجاورة ، وهي نتيجة يفسرها ، دون ان يبررها ، انفصال مصر عن المشرق ، والبحث المضني عن الافق القومي المركز في منطقة تعج بالاقليات الطائفية واللاتينية ٠

ودون ان نقع في الوردية والتفاؤلية ، لا يمكن ان نلغي وجود المقاومة الفلسطينية بما هي نواة لمشروع النضال الوحدوي العربي ٠٠ فالقطرية الفلسطينية لا تتقاطع مع الامبريالية الا في نقطة واحدة هي نقطة العداء الجذري نظرا لصعوبة التوفيق بينهما ، الامر الذي يجعل هذه القطرية ، موضوعيا ، في موقع قومي ٠

والقطرية الفلسطينية القادرة على القيام بمهام النيابة عن الثورة العربية ، والتعبير عن الوعي المعادي للامبريالية ، هي القطرية المحرومة من قطر ومن اقتصاد ٠٠ وبالتالي فقد نجاها عدم تماسها مع العلاقات الرأسمالية من مرحلة الكيان ـ الطائفة ، وجعلها في موقع اقرب الى التحول القومي ٠ وهذا ما يفسر ربما ، (وخصوصا بعد انفصال مصر) الحذر من الطابع القومي للقطرية الفلسطينية والذي تبديه قطريات مشرقية لا تستطيع ان تخترق سقف الكيان ـ الطائفة ٠

ان الانتقال الى مرحلة الوعي القومي المعادي للامبريالية وتجاوز مرحلة الوعي اللبناني ـ الطائفي ، يستوجبان مع هذا عنصرا ذاتيا يسهل التحول ٠

وفي هذا الاطار يندرج استعداد الثوريين العرب والمقاومة الفلسطينية بالتحديد لتفهم بعض الخصوصيات الطائفية الموروثة ، وكذلك تفهم هذه الخصوصيات لحقيقة الاندماج في جسد الاكثرية ٠

مثل هذا التحول نحو الوعي القومي الذي يتجاوز حدود الوعي الطائفي اللبناني ، يفرز نفسه سلفا عن اشكال الوعي القومي الاخرى ، من خلال اندماجه العضوي في المعركة القومية ضد اسرائيل والامبريالية ٠ بل ويكون عنصرا دافعا لتغييرات تفرض هذا المقياس بوصفه المقياس الاوحد للوعي القومي والممارسة القومية ٠

خروج الطوائف والمناطق من ذاتها

اذا صح ان النظام الطائفي قد انكسر تحت ضغط المعركة القومية · وان لبنان ـ الطوائف يشهد نزعه الاخير · وان المارونية السياسية قد كفت عن الوجود السياسي كطائفة لتضع نفسها في يد اسرائيل · فماذا عن الطوائف والمناطق الاسلامية فيمستوى تماسكها اللبناني ·

ان احد شروط المقاومة في وجه دويلة الحداد واسرائيل ، فهم طبيعة العلاقة بين شيعة الجنوب وميدان العمل القومي · فاذا كانت المرحلة تسجل نهاية الطوائف ، فأي حال هو حال الشيعة ؟ هذا السؤال يكتسب مزيدا من الاهمية في ظل الانتقال الى افق قومي مباشر يفرضه قيام الدويلة الجديدة في الجنوب، وتصاعد الاعتداءات الاسرائيلية على سكان الجنوب وارضه ·

شيعة الجنوب : عندما انشيء لبنان ـ الميثاق والصيغة ، كان القادة السياسيون للطائفتين المارونية والسنية على رأس هذا المشروع · اما « الطائفة » الشيعية فكانتخارج التبلور الرأسمالي الطائفي وبالتالي خارج المشروع اياه ·

وعلى امتداد عقدين ونصف العقد استكملت الطائفة المارونية ، وخطت الطائفة السنية بعض الخطى على طريق البلورة المادية والسياسية ، بالحدود التي يتيحها نظام الطوائف لكل منهما · فوطدت المارونية نفسها بوصفها الطرف الغالب ووطدت السنية نفسها بوصفها اهم المغلوبين ·· ذلك ان التوجه القومي للسنة كان يعرقل تبلورها الطائفي محليا ·

وكان الشيعة ، وخصوصا في اواخر الستينيات واوائل السبعينيات يستكملون تحولهم الى طائفة بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي للكلمة ·

فللحصول على موقع طائفي في الحياة المادية والسياسية ، وللدفاع عن مصالح الطائفة في ظل نظام تتحرك فيه وتتبارى مصالح الطوائف ، انشيء « المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى » ، وتلون مشروع التحول هذا بلون وطني نتج عن علاقة الشيعة بالمقاومة اللسطينية ، واعتداءات اسرائيل على الجنوب ، ووقوف الامام موسى الصدر على رأس المشروع الشيعي ·

وجاء غياب الامام قبل ان توضع اللمسة الاخيرة على هذا المشروع الطائفي اللبناني ، ولكنه جاء ايضا في وقت كانت تنهار معه كل المشاريع المكتملة ·

فالمشروع الماروني القديم قدم المتصرفية ، ينهار لصالح اسرائيل ، والمشروع السني يعجز موضوعيا عن تقديم نفسه بهذه الصفة ، وتتعرض قياداته الموروثة لتراجع يقترب احيانا من العزلة ، وذلك لصالح المشروع الوطني العربي ممثلا بالمقاومة والقوى المحلية الملتفة حولها ·

والجنوبيون الذين لم يستكمل مشروعهم الطائفي ، نظرا لنشوب الحرب ومن ثم لغياب رمزه الوطني الامام الصدر ، يجدون انفسهم اليوم وبعد قيام دويلة سعد الحداد على بقعة من الجنوب ، مواجهين بمهمة كبيرة تعادل احراق المرحلة اللبنانية في تاريخهم ، اي احراق مرحلة التبلور الطائفي ، والانتقال الى المشروع الوطني العربي ٠

وقيام ثورة ايران ، والعلاقات التاريخية والدينية الخاصة التي تربط شيعة الجنوب بايران ، عوامل تساعد على الاسراع باحراق المرحلة اللبنانية ـ الطائفية ، وجعل الافق الشيعي الاكثر ترشيحا وتزكية هو الافق العربي مرة واحدة والى الابد ، اذا ما سار العامل الذاتي في نفس وجهة هذه العوامل الموضوعية ٠

ويمكن لنا ان نقارن في هذا المجال بين نهاية المشروع الطائفي السني لصالح المشروع التحرري العربي ، واحراق المشروع الطائفي الشيعي لصالح المشروع العربي اياه ٠ فالطائفة السنية تكونت كطائفة في مطالع هذا القرن ، وبتحديد اكثر ، مع قيام الانتداب الفرنسي الذي فصل لبنان عن سوريا ٠

لهذا اصطبغ الوعي السياسي السني مبكرا بالقضية القومية وارتبط بها ارتباطا عضويا ، الامر الذي جعله منذ بداياته الاولى وعيا سياسيا معرضا للزوال في حدوده اللبنانية ، وجعل تماسكه في تلك الحدود تماسكا هشا ، بعكس وعيه وتماسكه لدى التعاطي مع القضايا القومية ، بدءا بالوحدة السورية ، مرورا بالناصرية وانتهاء بالمقاومة الفلسطينية ٠

اما الوعي السياسي الشيعي الذي بدأ يتكون في الفترة الاخيرة ، فقد حاول ان يتماسك في التعاطي مع القضايا المحلية ، فيحول دون ذلك اصطدامه المباشر بالقضية القومية ٠

وقيام دولية الحداد على ارض الجنوب من ضمن الهجمة العامة لاسرائيل ، يرشح شيعة الجنوب للاندراج في حركة مزدوجة : ضرب مشروع التكون في طائفة ، وفتح الابواب امام المعركة القومية ٠

سنة بيروت : في العام ١٩١٠ شهدت مدينة بيروت نقاشا بين صحيفتين ، اولاهما « المفيد » التي كان يصدرها عبد الغني العريسي ، والثانية « الرأي العام » التي كان يصدرها طه مدور ٠ وكان المبدأ السياسي لـ « المفيد » : « انا عربي اولا ومسلم ثانيا » فيما تقول « الرأي العام » بالمقابل : « انا مسلم قبل اي شيء ، وعربي ثانيا » ٠

و « المفيد » لم تكن بعيدة عن الاسلام ، كما لم تكن « الرأي العام » بعيدة عن العروبة ، لكن العروبة والاسلام كانا تعبيرين عن موقف سياسي من السلطنة

العثمانية ومسيحيي سوريا ٠

فجماعة « المفيد » عبرت عن ايلاء الاولوية لصيغة استقلالية او لا مركزية في العلاقة بين العرب والاتراك ، وجماعة « الرأي العام » عبرت عن ايلاء الاولوية لوحدة المسلمين في وجه الغرب ٠

ومع تفكك السلطنة وقيام الانتداب الفرنسي ضرب التيار الثاني ، وبدأ التيار الاول الذي يصطبغ بصبغة مدينية تجارية ، يبحث عن موقع له في « لبنـــان الكبيـر » الجديد ٠

وكانت عروبة هذا التيار قد بدأت تكتسب في لبنان ، ومنذ انشاء الجمعيات الثقافية والسياسية ، معنى الانفتاح على المسيحيين والانغلاق على العثمانيين٠

وفي « لبنان الكبير » ومعه ولدت « الطائفة السنية » بوصفها موقعا ماديـا وسياسيا ، الى جانب الطائفة المارونية التي كانت سبقتهـا الى الولادة ، بهـذا المعنى ، حوالي ثلث قرن ٠

لكن تناقض الولادة حكم الطائفة السنية وخصوصا في بيروت التي نمت على حساب باقي المدن ، فالميلاد تزامل مع غلبة الموارنة على اشلاء السلطنة العثمانية والدولة العربية على السواء ٠

ورغم مباركة البورجوازية التجارية السنية للكيان ، بعـد تنكرهـا للسلطنـة والدولة العربية فموقف الجماهير السنية بدا متعارضا مع هذه المباركة ٠ الامر الذي حال دون التماسك السني الطائفي المعهود عند الموارنة ، وجعـل هـــذا التماسك مشروطا فقط بالصعود القومي والتعاطي مع القضايـا القومية ٠

فأحفاد « المفيد » هم الطرف الثانوي في سلطة الغلبة المارونية ، واحفـــاد « الرأي العام » هم الجماهير الاسلامية المغلوبة على أمرها في « لبنان الكبير »، والتي صارت بعد ذلك جماهير عبد الناصر وجماهير المقاومـــة الفلسطينية ، وشدت ممثليها السياسيين الى مواقع لا يمكن لها ، مهما تخلفت الا ان تتقـدم على مواقع المارونية السياسية ٠

وبلغة اخرى استطاع السنة الحاكمون ان يفرضوا على الجماهير السنيـــة طائفية الحد الادنى ، وعملت الجماهير السنية طويلا كي تجر السنة الحاكمين الى قومية الحد الاقصى ٠ وهكذا ولدت السنية السياسية في ظل المعركـــــة القومية ، وهي تموت في ظل المعركة القومية أياها ٠

دروز الجبل : أما الدرزية التي ارتبطت بالجبل ، فقد وضعها الشهيد كمـال جنبلاط ، موضوعيا ، في قلب المعركة القومية فلم يذوبها فقط في بحر الاكثريـة العربية الاسلامية ، بل كسر ايضا تماسك الجبل الذي هو أبرز رموز التماسـك اللبناني ٠

فاذا صح ان لبنان طوائف ومناطق اكثر منه وطنا ، فالاصح ان جبل لبنان كان حتى الحرب الاخيرة ، اكثر المناطق تماسكا ووحدة ، بل هو المنطقة الاقرب لان تكون طائفة ٠

فمنذ المتصرفية التي نشأت كشواذ في المشرق العربي ، اصبح الجبل هو القاعدة ٠ وعمل الغرب والاوروبيون على تحويله الى نموذج للحضارة والثقافة والتقدم ، بما هي مفاهيم تتعارض مع العرب والشرقيين ٠

وما ارساه الغرب اكملته المارونية السياسية ، فضمت الملحقات اليه لكي تكون مداه الطبيعي ٠ وبدل ان يكون الجبل للبنان بات لبنان للجبل ٠

واصبح الاقتصاد للجبل ، ورؤساء الجمهورية يأتون من الجبل ، و «التحضير» سمة من سمات الريف الجبلي (!) وصارت بلدة كبرمانا اكثر تقدما من مدينة كطرابلس ٠

وصيغ الماضي على هدي الحاضر ٠ فكتب الجبليون تاريخ الجبل بوصفه كان ديمقراطيا قبل ان توجد الديمقراطية في اليونان ، وكان لبنانيا قبل ان يكون لبنان نفسه ، وكان موعودا بالمسيحية قبل مئات السنين على ولادة المسيح ٠

ونشأ للمنطقة منطق تتشابه فيه الوجوه والرموز ومقاييس الامور ٠ ففخر الدين مؤسس لبنان ، وبشير الشهابي صانع وحدته ، وطانيوس شاهين قائد فلاحيه ٠ وحين يقع اختلاف ضمن هذا المنطق ، فهو يقع في التفاصيل . كأن يميل احدهم الى بشير الشهابي اكثر مما يميل الى بشير جنبلاط ، او يميل الى يوسف كرم اكثر مما يميل الى طانيوس شاهين ٠

لكن هذا التماسك انكسر مع وصول المعركة الى الجبل نفسه ، فالمشروع الوطني لكمال جنبلاط والذي بدأ في حدود تكوين درزية سياسية تعادل تحولات اقتصادية اجتماعية في الطائفة ، تقاطع مباشرة مع المعركة القومية دفاعا عن المقاومة ، الامر الذي يفتح باب الانتساب العضوي لهذه المعركة قفزا فوق الاستثناء الطائفي ٠

ذلك انه منذ انهيار « امارة الجبل » ، لا يوجد افق متاح لتعديل التوازن في تلك البقعة بعيدا عن الارتباط بالوضع العربي ٠

واذا كان الجبل وحدة متماسكة تعرضت للانكسار في ظل المعركة القومية ، فباقي لبنان لم يتماسك اصلا على ارضية لبنانية ٠٠ ولئن كان الكلام عن الطائفة الشيعية يوجز الكلام عن الجنوب ، فالشمال والبقاع لا يختلفان كثيرا ٠

الشمال والبقاع : بعض سكان الشمال لا زالوا يطلقون على الليرة اللبنانية تسمية الليرة السورية ، وبعض مسنيهم لا زال يقيسها على « العثملية » ٠

ورفض الاقرار بوحدة التبادل اللبناني امر له دلالة · فبين الشماليين وسوريا روابط اقتصادية تمر عبر حمص ، والشماليون في معدلهم العام اقل اللبنانيين شعورا بلبنانيتهم (رغم وجود الارز في الشمال) ·

والشماليون ، رغم خلافاتهم واختلافاتهم ، يلتقون على هذا القاسم المشترك· فمسلموهم هم آخر من اعترف بـ « لبنان الكبير » ، وعديدة هي التظاهرات التي خرجت في مدينة طرابلس صارخة ان الدم هو بديل الوحدة مع سوريا ·

ومعروفة هي تحفظات زعماء السنة في بيروت على عبد الحميد كرامي ، زعيم طرابلس التاريخي ، بوصفه رجلا مشاكسا ومزايدا في عروبته واسلامه ·

وفي طور لاحق تحولت طرابلس الى رمز من رموز الناصرية في الوطن العربي ، (حتى ان الملك حسين حين زارها بعد حرب ١٩٦٧ ، استقبل بأصوات تهتف بحياة القائد الراحل كأنه هو الضيف الزائر ، وكان الحسين انذاك على علاقة ودية مع جمال عبد الناصر · والامر نفسه حصل في بعلبك بالبقاع) ·

واذا جاز للبعض ان يضرب بسنة بيروت مثلا على الاستعداد للمساومة السياسية ، فهذا لا يجوز بالنسبة لسنة طرابلس · لان سنة بيروت استفادوا بمعنى ما من توسع مدينتهم في ظل الدولة اللبنانية واقتصاد الخدمات ، لكن سنة طرابلس ، وهذا ما ينطبق ايضا على سنة صيدا ، دفعوا الاكلاف الاولى لنمو العاصمة من جيب المدينتين السنيتين الاخريين ·

فالتجارة في طرابلس ملحقة بالتجارة في بيروت ، والجامعة اللبنانية التي انشئت قبل نيف وعقدين من الزمن في العاصمة ، لم تمتد الا مؤخرا ، وبصورة مشوهة ، الى العاصمة الثانية · ومقابل التمركز الثقافي الغربي في بيروت ، عرفت طرابلس كلية اسلامية وحيدة مصدرها مصر ·

وموارنة الشمال ، هم بالمعنى السائد للبنانية غير لبنانيين ايضا · وما كان بمستطاع سليمان فرنجية ، رئيس الجمهورية الوحيد الذي قدم من الشمال ، ان يصير رئيسا للجمهورية لولا الاستقطاب الاستثنائي الذي عرفته سياسة الجبل في نهاية عهد شارل حلو ·

وسليمان فرنجية الذي خرق القانون العام للسياسة اللبنانية ، لم يستطع ان يخرق « الحضارة الطائفية » المميزة لمارونية الجبل ، وان يكسب المصداقية الحضارية التي يفترض ان تتوفر في رئيس جمهورية لبنان ·

فسلوكية العشيرة ، لا سلوكية الطائفة الرأسمالية هي سلوكية فرنجية ، فهو كان عاجزا عن التوفيق بين كونه رئيس جمهورية في بلد الطوائف والمؤسسات الطائفية وبين كونه حامي الحمى ·

وفي العلاقة الاقتصادية لم يرتبط موارنة الشمال بأي من حواضر المارونـــية الجبلية ، بل توزعوا بين طرابلس التي اعتبرها الزغرتاويون والبشراويـــون عاصمتهم الكبرى ، ومدينة جبيل غير الموغلة في «حضارة » الجبل والتي يقيـم فيها ابناء جرود البترون ٠

وبرغم ان الشمال كان الموئل الاول للمارونية ، فمنذ اواخر القرن الماضي وتحول المارونية الى مارونية سياسية ، بدأ مقود الزعامة ينزح شيئا فشيئا نحو الجبل ٠٠ وحين جاء الميثاق الشهير ، لم يجد شاهدا عليه من موارنة الشمال، فكانت حصتهم فيه كحصة شيعة البقاع ، اذ تمثل هؤلاء بصبري حمادة الـذي كان ملتحقا ببشارة الخوري ، وتمثل اولئك بحميد فرنجية الذي كان في مقتبـل حياته السياسية ٠

وقد يكون ملفتا ان موارنة الشمال لم يصبحوا « لبنانيين » الا بعد ان خرج موارنة الجبل من لبنان ونادوا بالتقسيم ٠ فتعادل موقف الموارنة الشماليين مع مواقف بعض أطراف الوسط الاسلامي والوطني ممن دعوا الى مواجهة التقسيم باستعادة « وحدة » البلد وبعث الميثاق الوطني ٠

ويكاد ان ينطبق الامر نفسه على البقاع الذي يمثل حلقة ادنى تطورا فـــي سلسلة الرواج الاقتصادي ٠٠ وبالتالي فهو لا يتعادل مع « الطائفة » ونظـام الكيان الطائفي ٠

فالاتصال الاقتصادي لا يجذب البقاع الى لبنان ليس فقط لانه اتصال لا يملك جوهرا انتاجيا ، بل لانه من ضمن قوانين الرواج لخطة الخرق لهذه القوانيـن والخروج عليهـا ٠

لهذا السبب رأينا الوهم الشهابي حول بناء الدولة الحديثة يستمد دعمـــه البقاعي من العشائر (!) وللسبب نفسه وجدت سياسة البقاع اشكالها المغايرة لسياسة بيروت ذات القدر النسبي من التماسك ، ناهيك بسياسة الجبـــل التي استطاعت في فترة من الفترات ان تقيم فرزا بين الدستوريين والكتلويين ، او جماعـة بشارة الخوري وجماعة اميل اده ٠

فعدد اللوائح في مواسم الانتخابات يضرب ارقاما قياسية في بعلبك الهرمل، والسياسي البقاعي عموما هو الاصعب على التحديد السياسي الصارم ٠

ومن اعلان شبلي العريان في العام ١٩٦٠ انه «مرشح الجمهورية العربيةالمتحدة» الى اعلان جوزيف السكاف ، الزعيم المسيحي الاول في البقاع ، عن تعاطفه مع السياسة السورية ، مجموعة متصلة من الاحاجي التي يفسرها الغياب الكامـل لتلك المنطقة عن قطب مركزي جاذب في الداخل ، وانها حين تتصل بهذا القطب، فهي تتصل فقط على قاعدة الرواج التجاري وقيمه النفعية ٠

فهل من موقف واحد واضح قاطع لقطب بقاعي من المقاومـــة الفلسطينية ؟ وعلى اي اساس عقائدي تفسر التحالفات الانتخابية للعقائديين البير منصور ودندش دندش ؟ ومن هو « السركيسي » الحقيقي جوزيف السكاف ام جوزيف ابو خاطر ؟ ولماذا ترك شيعة البقاع لشيعة الجنوب وحدهم متابعة مسألة الامام الصدر ؟ بل لماذا تنقطع اللحمة الطائفية بين شيعة البقاع وشيعة الجنوب ؟

ان البقاعيين الذين لم يحصل اي تماس حقيقي بينهم وبين « الطائفة » بمعناها الاقتصادي السياسي ، وظلت عشيرتهم تغلب طائفيتهم ، هم سلفا خارج لبنان الطوائـــف ٠

انهيار الطوائف

لم تتشكل الطوائف ، الا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، بوصفها الشكـــل الاجتماعي لهذه الهيمنة التي عبرت عن نفسها سياسيا بتقسيم الوطن الى دول ودويلات ٠ وما المثال اللبناني عن انهيار الطوائف كطوائف ، الا مؤشرا علـى ان المعركة القومية هي التي تدمر الطوائف ٠ وقد اشار المثال اللبناني الى ان هذه المؤسسة الاجتماعية تتحول لحظة انهيارها الحتمي الى قوة فاشية مرتهنـة للعدو الوطني ، وهي بذلك تحاول تعميم التجزئة ، وما دويلة سعد الحداد الا النموذج التافه على ان افق مقاومة الانهيار قد بدأ يضيق الى درجة مزرية ٠ ولكن ، ومع انتقال الصراع الى مستوى جديد بعد المعاهدة المصرية الاسرائيلية تبرز اخطار لا تحصى اذا لم تبادر القوى الشعبية الى خوض المعركة القومية ٠ فالمعركة القومية هي التي تضرب الطوائف ، والتراجع فيها هو الذي يفتت الامة٠

هـاني حوراني

الظّروف الاقتصاديّة والمعيشيّة للعمّال والشغيلة في الأردن (١٩٥٠ ـ ١٩٥٧)

كانت ابرز المشاكل التي يعاني منها الشغيلة والعمال في الاردن في مطلع الخمسينات تتمثل في :

اولا : البطالة الواسعة باشكالها المختلفة ، وضالة فرص التشغيل التي يتيحها تطور قطاعات الاقتصاد الوطني المختلفة ·

ثانيا : ارتفاع تكاليف المعيشة ولا سيما اسعار المواد الغذائية منها بوتيرة عالية جدا ، حيث كانت تجارة المواد الغذائية وسلع الاستهلاك الاساسية المصدر الرئيسي لاثراء « تجار الحرب » بالنظر الى اتساع القاعدة الاستهلاكية وتنامي الطلب عليها بقوة ابان الحرب الفلسطينية وبعدها ·

ثالثا : تردي مستوى الاجور سواء اكان ذلك بالنسبة لقطاعات العمل في المدينة او الريف ·

رابعا : غياب التشريعات العمالية والحماية لحقوق العمال ولحريات التنظيم النقابي ·

ان العرض المختصر التالي للمشكلات الاربع المذكورة يلقي الضوء على الظروف الاقتصادية والمعيشية العامة للعمال والشغيلة في الاردن في مطلع الخمسينات ·

اولا : البطالة وضالة فرص التشغيل

اشرنا اثناء تعرضنا للنتائج المباشرة للحرب والنزوح الى ان ١٣٨ الف

فلسطيني على الاقل قد فقدوا مصدر معيشتهم بسبب الحرب ، وان هؤلاء يعيلون ما يوازي ٤٨٪ من سكان الضفتين • كما اشرنا الى ان جزءا هاما من قوة العمل الشرق اردنية قد فقدت في فلسطين سوق عملها ، وعدد هؤلاء يوازي ٤٠ الف عامل وشغيل اردني في نهاية الاربعينات • ان الوضع لم يتغير كثيرا في سنوات الخمسينات ، اذ اضطر قسم كبير من القوة العاملة الى البقاء خارج نطاق الانتاج ، بسبب ضآلة فرص العمل الجديدة التي كان يتيحها النمو الاقتصادي الاردني ، في ظل استمرار توجهاته الكولونيالية خلال سنوات ٥٠ ـ ١٩٥٧ ، والتي لم تبشر بتجاوز الطابع المتخلف والمشوه للاقتصاد الوطني ولا بالتالي لتوفير القاعدة الاقتصادية الانتاجية الكفيلة بتوفير نمو مضطرد في فرص العمل • مما ابقى القسم الاكبر من الشغيلة في حالة بطالة اضطرارية ، وعندما كانت فرص التشغيل تتسع في سنوات لاحقة ، كانت ميادين التشغيل الاساسية هي الادارة العامة والجيش والخدمات والتجارة ، التي كان تتفشى فيها البطالة المقنعة والبطالة البنيوية • مما يعني ان التشغيل لم يعكس تنامي الانتاجية بقدر ما كان يعكس زيادة اقتسام الدخل الوطني والدخل المتأتي من الخارج (المساعدات الخارجية لجهاز الدولة والجيش) •

ان التقديرات التالية لحالة القوة العاملة في الاردن في اواسط الخمسينات تفيد في القاء نظرة على ابرز مشاكل الشغيلة والعمال في البلاد ، وهي حالة البطالة (انظر الجدول رقم «٣») • فمن الجدول يتبين ان ٥ر٤٨٪ فقط من القوة العاملة في البلاد كانت حائزة على عمل ثابت ، فيما كان ٥ر٥١٪ منها ، اما في حالة بطالة كاملة (بدون عمل) وتوازي ٣ر٣٠٪ ، او تعمل بصورة مؤقتة (موسمية) وتعاني في بقية الاوقات من البطالة الكاملة (٢١،٢٪) •

واذا ما اخذنا بالاعتبار تقسيم القوة العاملة الى لاجئين (٤ر٣٦٪) وغير لاجئين (٦ر٦٣٪) ، فاننا نلاحظ ان غالبية حالة البطالة الكاملة (فقدان العمل الدائم) وحالة البطالة الجزئية (الموسمية) متركزة في القوة العاملة من اللاجئين • وعددهم ١٣٨ الفا • فمنهم ٢ر٧٪ فقط يعملون في عمل ثابت ، و ٨ر٤٧٪ يعملون موسميا ، فيما ٤٥٪ بدون اي عمل •

اما القوة العاملة من غير اللاجئين ، وعددها ٢٤١ الفا ، فكان ١ر٧٢٪ منها يشغل اعمالا ثابتة و ٨ر٥٪ يشغل اعمالا مؤقتة ، فيما ٢٢٪ منها يفتقد الى العمل ويعاني من البطالة الكاملة •

هكذا نجد ان ١٠ الاف شخص فقط من اللاجئين قد حصلوا على عمل ثابت في عام ١٩٥٥ ، اي بعد انتهاء الحرب بسبع سنوات • وهؤلاء يشكلون ما نسبته ٥ر٥٪ من مجموع الحاصلين على عمل ثابت من القوة البشرية العاملة ، اي من ١٨٤ الفا • اما باقي القوة العاملة من اللاجئين فان نصفهم قد حصل على عمل

موسمي (٦٦ ألف مواطن) وعاني النصف الاخر من البطالة الكاملة (٦٢ الف مواطن) ٠

كما نجد ان ٥٣ ألف مواطن من القوة العاملة غير النازحة كانت تعاني ايضا من البطالة الكاملة ، اي ما نسبته ٢٢٪ من مجموع قوة العمل غير اللاجئة (عددها ٢٤١ ألفا) ٠ بالاضافة الى وجود ١٤ ألف شخص غير لاجيء يعملون بصورة مؤقته (ونسبتهم ٨ر٥٪ من قوة العمل غير اللاجئة) ٠ وهذا يشير الى اتساع البطالة وتفشيها ايضا بين السكان من غير اللاجئين الذين هم في سن العمل ٠

جدول رقم « ٣ »
القوة العاملة في الاردن (الضفتين) لعام ١٩٥٥

١ ـ القوة العاملة في الزراعة	لاجئون	غير لاجئين	المجموع
عمل دائم	ـ	١٣١ر٠٠٠	١٣١ر٠٠٠
عمل موسمي (مؤقت)	٥٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠	٦٠ر٠٠٠
بدون عمل	٤٢ر٠٠٠	٤٠ر٠٠٠	٨٢ر٠٠٠
المجموع	**٩٥ر٠٠٠**	**١٨١ر٠٠٠**	**٢٧٣ر٠٠٠**

٢ ـ القوة العاملةفي المدن	لاجئون	غير لاجئين	المجموع
عمل دائم	١٠ر٠٠٠	٤٣ر٠٠٠	٥٣ر٠٠٠
عمل موسمي (مؤقت)	١٦ر٠٠٠	٤ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠
بدون عمل	٢٠ر٠٠٠	١٣ر٠٠٠	٣٣ر٠٠٠
المجموع	**٤٦ر٠٠٠**	**٦٠ر٠٠٠**	**١٠٦ر٠٠٠**
المجموع الكلي	**١٣٨ر٠٠٠**	**٢٤١ر٠٠٠**	**٣٧٩ر٠٠٠**

Harris, G.L. : - «*Jordan it's People, it's Society, Culture,*», New Haven, 1958, Table 2. P. 226.

أما من حيث توزيع قوة العمل ما بين الريف والمدن ، فانه يظهر من الجدول رقم « ٣ » ان ٧٢٪ منها هي في الريف ٠ وفي الريف ايضا تتركز البطالة حيث ٥٢٪ من قوة العمل تعاني من البطالة الكاملة او المؤقته (٣٠٪ من قوة العمل تعاني البطالة الكاملة ، و ٢٢٪ منها تعمل عملا موسميا) ٠ اما اللاجئون في الريف فهم اما عاطلون كليا عن العمل او يعملون بصورة مؤقته وموسمية ولا يوجد الى ما يشير الى انهم حصلوا على عمل دائم ٠ ويظهر الجدول اعلاه ان البطالة الكاملة في الريف تشمل اعدادا متساوية من السكان الاصليين (غير اللاجئين) واللاجئين ٠

وفي المدن ايضا يعاني ٥٠٪ من قوة العمل من البطالة الكاملة او الجزئية ٠ حيث نجد ان ٣١٪ من قوة العمل المدينية هي بدون عمل ٠ و ٨ر١٨٪ منها يعمل بصورة مؤقته ٠ ان اكثر من ثلاثة ارباع (٣ر٧٨٪) اللاجئين يعاني من البطالة الكاملة او المؤقته في المدن والباقي منهم يعمل ، بينما لا تشمل البطالة بشكليها سوى ٣ر٢٨٪ من القوة العاملة غير اللاجئة ٠

وبشكل عام تشير الارقام المارة (والتي يمكن اجمالها بوجود اكثر من نصف القوة العاملة من اللاجئين وغير اللاجئين في حالة بطالة كاملة او مؤقته) الى مدى الحاح هذه المشكلة على جماهير الشغيلة والسكان في الاردن ٠ اذ انها تعاني استمرار افتقاد اكثر من نصف السكان الى مصادر الرزق الضرورية حتى بعد مرور ٧ سنوات على الحرب الفلسطينية ، الامر الذي يفسر استمرار موجات الهجرة الاقتصادية (ولا سيما من العمال والشغيلة الفلسطينيين) الى الخارج ٠ والذي كان لا بد ان يعكس نفسه سلبيا على تركيب الطبقة العاملة وحجمها وعلى طابعها الانتاجي ومهارتها ٠

ثانيا : ارتفاع تكاليف المعيشة

كما خلقت ظروف مابعد الحرب والنزوح فائضا واسعا من القوى البشرية المستعدة لبيع قوة عملها ، فان ظاهرة زيادة عرض الايدي العاملة ترافقت ايضا مع ازدياد الطلب على السلع والخدمات ، التي لم تلبث اسعارها ان ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، كما تدل على ذلك الارقام المبينة ادناه ٠ وقد سبب ارتفاع تكاليف المعيشة بشكل متسارع في سنوات قليلة مشكلة مستعصية ، ليس فقط بالنسبة لاولئك الذين افتقدوا للعمل الثابت او المؤقت ، وانما ايضا لاولئك الذين نجحوا في الحصول على اعمال ثابته لهم ، اذا ما اخذت بالاعتبار اجور العمل المنخفضة والتي سنتناولها لاحقا ٠

فمن مراجعة الارقام القياسية لاسعار المواد الغذائية في مطلع الخمسينات نلاحظ ان ارتفاع الاسعار اخذ الشكل التالي (كما قدرتها مصادر وكالة الغوث الدولية) :

١٩٥١	سنة الاساس ١٩٥٠ (اكتوبر) = ١٠٠٪
الربع الاول	٢ر١٢٢٪
الربع الثاني	٢ر١٢٦٪
الربع الثالث	٢ر١٣٥٪
الربع الرابع	٦ر١٧٠٪ (٢)

اي ان اسعار المواد الغذائية ارتفعت في غضون عام (من اواخر ١٩٥٠ الى أواخر ١٩٥١) بمقدار ٧٠٪ · ولم يلبث ان شهد الشهر الاول (كانون الثاني) من ١٩٥٢ ارتفاعا اخر لاسعار المواد الغذائية فباتت توازي ١ر١٨٠٪ الى سنة الاساس (١٩٥٠) · ولقد استند استخراج النسب السابقة الى معدل استهلاك اسرة اردنية للطعام ، ذات دخل يوازي عشرة دنانير اردنية شهريا (٣) ·

ان ارتفاع اسعار بعض السلع الغذائية الاساسية للاسرة المتوسطة والعادية يمكن ان يعطي صورة عن وتيرة ارتفاع الاسعار · فمثلا ارتفع سعر كيلو الخبز من ٥٥ فلسا خلال الربع الاول من العام ١٩٥١ الى ٧٠ فلسا في الربع الاخير من ١٩٥١ · كما ارتفع سعر كيلو الرز من ٨٢ فلسا خلال الربع الاول من عام ١٩٥١ الى ١٣٠ فلسا في تشرين الاول (اوكتوبر) من ١٩٥٢ · ثم الى ١٤٦ فلسا في الشهر الاول من عام ١٩٥٣ · كذلك :

ـ ارتفع سعر كيلو السكر من ١٠٠ فلس في الربع الاول من ١٩٥١ الى ١٢٢ فلسا في الربع الاخير من نفس العام ·

ـ ارتفع كيلو القهوة من ٤٦٧ فلسا في الربع الاول من ١٩٥١ الى ٥٣٠ فلسا في الربع الثالث من ١٩٥٢ والى ٥٧٣ فلسا في تشرين اول من عام ١٩٥٢ ·

ـ وارتفع سعر البيض من ١٣٠ فلسا للعشر وحدات في الربع الاول من ١٩٥١ الى ١٦٧ فلسا في الربع الاخير من نفس العام ، والى ١٧٢ فلسا في الربع الاول من ١٩٥٢ ·

ـ وارتفع سعر كيلو البصل من ٢٠ فلسا في الربع الاول من ١٩٥١ الى ٣٤ فلسا في الربع الاول من ١٩٥٢ ثم الى ٣٧ فلسا في الربع الثاني من ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠٠ الخ (٤) ·

لقد عزيت هذه الزيادة العالية في ارتفاع الاسعار في السنوات الاولى للخمسينات ، الى ارتفاع تكاليف الشحن ، بعد تغير خطوط المواصلات · لكن من الواضح ان الارتفاع شمل المواد المنتجة محليا (الخبز والخضار ٠٠) والمواد المستوردة من الاقطار الشقيقة (الارز) وكذلك من الاقطار الاجنبية على حد سواء · الامر الذي لا يمكن تفسيره بارتفاع تكاليف الشحن ، مع اهميتها الجزئية في رفع اسعار بعض السلع ، فمن الواضح ان الطلب المتزايد بقوة على السلع الاستهلاكية والضرورية هو الذي شجع التجار وكبار المستوردين على رفع اسعارها في ظل غياب الرقابة على الاسعار وغياب اجراءات الدولة الرادعة لتجار الحرب والكوارث ، الذين كدسوا الثروات من جراء الارباح الخيالية من تجارة المواد التموينية والاستهلاكية الاساسية · ومن جهة اخرى كانت اسعار المواد المختلفة تتفاوت من منطقة الى اخرى ، اذ كان هناك تفاوتا ما بين اسعار المحافظات ، وتفاوتا ما بين اسعار الضفتين وكان هناك تفاوتا ما بين اسعار المدن

(ولا سيما عمان والقدس) وما بين اسعار الريف أو المحافظات ذات الكتل الريفية الواسعة · ان مظاهر التفاوت المذكورة لا يستهان بها ، سواء في اسعار السلع والخدمات أو في اسعار العمل فهي تشير الى الفروق البنيوية بين المحافظات والى تفاوت تأثير فعل قوانين السوق في المحافظات المختلفة · وهذه الظاهرة ملموسة ايضا في اواسط الخمسينات وحتى في اواخرها (٥) ·

لقد انخفضت تكاليف المعيشة في السنوات التالية بشكل عام عن اسعار ٥١/ ١٩٥٢ ولا سيما اسعار الخبز والخضار والبيض ، اي المنتجات الاستهلاكية المحلية · واخذ ارتفاعها وانخفاضها يأخذ طابعا موسميا · كما شهدت بعض السلع المستوردة انخفاضا ملموسا كاسعار الارز والسكر · فيما حافظت اسعار مواد اخرى على ارتفاعها أو ارتفعت اكثر كالقهوة والشاي · لكن تكاليف المعيشة بقيت مع ذلك في معدلها العام مرتفعة قياسا لاسعار ما قبل ١٩٥١ (٦) · وبالمقارنة مع مستوى الاجور المتوسطة ، مما ضاعف من الضغوط المعيشية على غالبية القوة العاملة ، ولا سيما مع استمرار وجود اعداد كبيرة من القوة العاملة في حالة بطالة ·

ثالثا : تدني مستوى اجور العمل

ادى وجود فائض واسع من قوة العمل خارج اطار التشغيل وضآلة فرص العمل الجديدة (الطلب على شراء قوة العمل) الى زيادة المزاحمة في سوق العمل والى تخفيض المستوى العام لاسعار العمل بقوة منذ نهاية الحرب الفلسطينية · ان مقارنة مستوى الاجور في الاردن (الضفتين) في مطلع الخمسينات مع مستويات الاجور في فلسطين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٤ ، تعطي فكرة عن الانخفاض الحاد في مستوى الاجور · (انظر الجدول رقم « ٤ ») (٧) ·

ويتبين من مقارنة اسعار العمل في السنوات المذكورة ان المعدل العام الاجور في مختلف المهن المذكورة في الاردن كان عام ١٩٥٢ يوازي ٢٧٨ فلسا في اليوم مقابل ٢٣٠ فلسا (مليما) في فلسطين عام ١٩٣٩ ، اي بزيادة مقدارها ٨ر٢٠٪ فقط خلال ١٣ عاما ، حين كانت نفقات المعيشة ، وبخاصة اسعار المواد الغذائية قد ارتفعت بمعدل ٣٠٠٪ او ٤٠٠٪ خلال هذه المدة · اي ان الاجور الحقيقية قد انخفضت عام ١٩٥٢ عن اجور عام ١٩٣٩ في فلسطين بصورة خيالية ·

أما اذا قارنا اجور العمل في مختلف المهن المبينة في الجدول عامي ١٩٤٤ و ١٩٥٢ ، فاننا نجد ان معدل الاجور في الاردن ١٩٥٢ كان يوازي ٤ر٣٧٪ فقط من معدل اجور ١٩٤٤ في فلسطين ، اي انها انخفضت بنسبة الثلثين تقريبا

(٦ر٦٢٪) ٠ اذ كان معدلها العام في ١٩٤٤ يوازي ٧٤٤ مليما (فلسا) مقابل معدل عام للاجور يوازي ٢٧٨ فلسا عام ١٩٥٢ ٠

ومع الاخذ بالاعتبار ارتفاع تكاليف المعيشة ابان الحرب العالمية الثانية في فلسطين فان الفارق بين معدلي الاجور يبقى كبيرا جدا ٠ ويشير الى مدى تدني الاجور ، ومدى الافقار الذي يلحق بجماهير الشغيلة والعمال ٠ ان مقارنة اجور مختلف المهن في سنتي ١٩٤٤ و ١٩٥٢ يظهر ان انخفاض اجور العمل قد شمل عمال مختلف المهن والعمال ، المهرة منهم وغير المهرة ٠ ولم تستثنى اجور فئة من فئات العمال من الانخفاض وعدا مهنة واحدة انخفضت اجورها بنسبة ٢٨٪ (عمال صناديق الكرتون) فان باقي فئات العمل انخفضت اجورها بحد ادنى يوازي ٥٤٪ وحد اعلى يوازي ٧٢٪ ٠

جدول رقم « ٤ »
الاجور في اعوام ٣٩ ، ٤٤ ، ١٩٥٢ في فلسطين والاردن
(بالمليمات الفلسطينية والفلسات الاردنية)

مجموعات المهن	فلسطين ١٩٣٩	فلسطين ١٩٤٤	الاردن ١٩٥٢
عمال الطباعة	—	٥٤٩	٢٥٣
عمال صناديق الكرتون	١٠٢	٢٣١	١٦٦
عمال المخابز	٢١٩	٥٠٠	٢٠٦
عمال الخراطة	٢٩٤	٨١٨	٢٥٣
عمال نقش الحجارة	٣٩٢	١ر١١٥	٤٢٥
عمال خشب النوافذ (اباجورات)	٢٤٤	١ر١١٥	٣١٤
عمال القصارة	٣٢٢	١ر٠٧٠	٣١٣
عمال الطلاء	٢٤٢	٩٧٠	٣٣٣
عمال السمكرة	—	—	٢٥٠
عمال نجارة الابنية	—	٩٠٠	٣١٧
رؤساء العمار	—	١ر١٢٥	٤٥٠
عمال غير مهرة (في البناء)	١٠٩	٥٥٠	١٧٧
عمال غير مهرة (في الطرق)	—	٤٥٠	١٦٦
المعدل العام	٢٣٠	٧٤٤	٢٧٨

Quarterly Bulletin of Economic Development, U.N.R.W. AL No. 5. Novem. 1952 .

ان هذا التردي العام لمستوى الاجور ، مع الارتفاع الكبير في تكاليف المعيشة، وارتفاع مستوى الاعالة (ازدياد عدد من يعيلهم العامل الواحد) ليشمل الاقارب،

يشير الى مدى تأزم الوضع المعيشي والاقتصادي للعمال والشغيلة ، فهو يشير الى تدني مستوى الدخل الحقيقي للعمال ، بالنظر لانخفاض القيمة الشرائية للعملة ، كما يشير الى تدني مستوى الدخل المتوسط للفرد ، بسبب ارتفاع مستوى الاعالة ، وازدياد نسبة العاطلين عن العمل ٠

من ناحية اخرى تظهر مقارنة معدلات الاجور على مستوى الالوية وعلى مستوى الضفتين فوارق ملموسة فيما بينها ، وتبرز الجداول الخاصة بمعدلات اجور العاملين والعاملين اليافعين (صغار السن) في الاعمال غير الزراعية ، وكذلك الجداول الخاصة بمعدلات الاجور للعمال الزراعين ، ان افضل الاجور كانت تدفع في عمان ، كما كانت اجور اللوائين الرئيسيين في الضفة الشرقية (عمان واربد) اعلى غالبا من الاجور المدفوعة في الوية الضفة الغربية ٠

فمن الجدول رقم « ٥ » الخاص باجور العاملين الكبار في المهن غير الزراعية لعام ١٩٥٢ يمكن ملاحظة ان معدلات الاجور في محافظة عمان تفوق دائما معدلات الاجور العامة للضفتين (الاردن) ، ففي عمان تدفع اكبر الاجور لقاء العمل في مختلف المهن المبينة في الجدول ٠ وتبلغ نسبة الزيادة في معدل اجور لواء عمان (٢٥٢ فلسا) عن معدل سائر الالوية (٢٢٤ فلسا) بمقدار ٥ر١٢٪٠

وبالمقارنة بكل لواء على حده فان معدل الاجور العام للواء عمان يفوق معدل الاجور العام في كل من اربد بنسبة ١ر٢١٪ ، والقدس بنسبة ٠ر١٤٪ ونابلس ٦ر٢٠٪ ، والخليل ٦ر٤١٪ ٠

ويلي عمان من زاوية ارتفاع المعدل العام لاجور العمل القدس ، حيث يدفع فيها ٢٢١ فلسا كمعدل عام للاجور ٠ وهذا يقل عن معدل اجور الضفتين بنسبة ٣ر١٪ فقط ٠ ويلي القدس نابلس التي يبلغ المعدل العام للاجور فيها ٢٠٩ فلوس اي ما يقل بنسبة ٧ر٦٪ عن المعدل العام لاجور الضفتين ثم اربد التي يبلغ المعدل

جدول رقم « ٥ »
معدل الاجور اليومية للعمال عام ١٩٥٢ (بالفلسات الاردنية)

مجموع القطاعات	معدل الاجور في الضفتين	الضفة الشرقية			الضفة الغربية	
		عمان	اربد	القدس	نابلس	الخليل
البناء	٢٢٩	٢٤٧	٢٢٧	٢٢١	١٨٦	٢٠٢
الصناعات الغذائية	٢٣٥	٢٦٨	١٧٤	٢٤١	٢٣٣	١٦٧
المواصلات	٢٥٩	٢٩٩	٢٥٩	٢٤٠	٢٥٢	٢١٤
صناعات اخرى	٢٢٧	٢٦٨	١٦٥	١٨٥	٢١٨	١٨٨
حرف	٢٣٥	٢٧٣	٢٠١	٢٥١	١٩٨	١٧٦
خدمات	٢٠٤	٢٢٩	١٧٥	١٩٥	٢٠٣	١٣٥
معدل اجور القطاعات	٢٢٤	٢٥٢	٢٠٨	٢٢١	٢٠٩	١٧٨

Harris, *O.P. cit,* Table 3. P. 226.

العام للاجور فيها ٢٠٨ فلوس · اي بانخفاض قدره ١ر٧٪ عـن معـدل الاجـور العام للضفتين · أما اقل الاجور التي تدفع في الالوية الخمسة المذكورة فهي في الخليل التي يبلغ معدل الاجور فيها ١٧٨ فلسا ، ويقـل هـذا عن المعـدل العام للاجور في الضفتين بنسبة عالية مقدارها ٥ر٢٠٪ (٨) ·

أما بالنسبة لمعدلات الاجور الخاصة بالعمال اليافعين (صغار السن ـ اي من هم دون ١٨ سنة) فانها تعكس تريبا مشابها تقريبا للترتيب الخاص بمعـدلات اجور العمال الكبار في السن · وهذا ما بينه الجدول رقم « ٦ » · ومنه نلاحـظ ان المعدل العام للاجور في عمان يوازي ٨٥ فلسا في اليوم مقابل المعدل العـام للضفتين الذي يوازي ٦١ فلسا · اي ان اجور العمـال الصغـار فـي السن في عمان يفوق معدل الاجور العام للصغار في البلاد بنسبة ٣ر٣٩٪ · ويقترب معدل الاجور المدفوعة للصغار في القدس عن معـدل الاجور في عمـان فهي توازي ٨٣ فلسا يوميا ، اي بزيادة ٣٦٪ عن المعدل العام لاجور الصغـار في الضفتيـن · ويلي القدس في الترتيب معدل اجور الصغار في اربد (٦٢ فلسا) الذي يعادل تقريبا معدل الاجور العام للصغار في البلاد · أما في نابلس والخليل فيبلغ معدل اجور الصغار فيهما ٥٥ فلسا و ٤٣ فلسا بالترتيب ، اي انهما يقلان عن المعدل العام لاجور الصغار بنسبة ٨ر٩٪ و ٥ر٢٩٪ بالترتيب نفسه (٩) ·

جدول رقم « ٦ »

معدل الاجور اليومية لصغار العمال (١٨ سنة فما دون)

عام ١٩٥٢ (بالفلسات الاردنية)

مجموع القطاعات	معدل الاجور في الضفتين	الضفة الشرقية		الضفة الغربية	
		عمان	اربد	القدس	نابلس	الخليل
البناء	—	—	—	—	—	—
الصناعات الغذائية	٨١	٧٤	٩٠	١٤٨	٤٢	٣٩
المواصلات	٣٧	٥٧	٣٤	٤٣	٢٩	٣٨
صناعات	٧٤	٨٧	٤٢	٥٠	٥٥	٧٨
حرف	٦١	٩٦	٥٢	٥٩	٤٨	٣٢
خدمات	٦٨	—	٦٣	٧٩	٦٦	٦٤
معدل اجور القطاعات	٦١	٨٥	٦٢	٨٣	٥٥	٤٣

Ibid, P. 226.

يتبين لنا ان افضل الاجور لقاء العمل في المهن غير الزراعية تدفع في عمان ثم في القدس ثم في نابلس واربد واخيرا تدفع اقل الاجور في الخليل · وذلك سواء بالنسبة لعمل الكبار او الصغار من العمال ، وذلك في عام ١٩٥٢ · وفي الواقع يختلف هذا الترتيب لعام ١٩٥٢ عن ترتيب معدلات الاجور في الالوية لعام ١٩٥١ الذي يبرز احتلال اربد المكانة الثانية بعد عمان في معدلات الاجور المدفوعة ، حيث تلي ذلك الاجور المدفوعة في نابلس ثم القدس واخيرا الخليل ·

جدول رقم « ٧ »

معدل الاجور بالفلسات الاردنية في الضفتين عام ١٩٥١

القطاع الاقتصادي	المعدل العام للضفتين	الضفة الشرقية			الضفة الغربية	
		عمان	اربد	نابلس	القدس	الخليل
البناء	٣٣٠	٣٧٠	٢٥٠	٢٥٠	٢٣٠	٢٧٠
صناعة الاغذية	٢٠٠	٢٥٠	١٤٠	٢٠٠	١٥٠	١٣٠
المواصلات	٢٢٠	١٥٠	٢٨٠	٢٠٠	١٥٠	٢١٠
صناعات اخرى	٢٠٠	١٨٠	٢٣٠	٢٠٠	٢٠٠	١٩٠
الحرف	١٤٠	١٦٠	١٣٠	٩٣٠	١١٠	١٠٠
خدمات	١٦٠	١٨٠	١٣٠	١٦٠	١٦٠	١١٠

Quarterly Bulletin of Economic Development, U.N. Relief and Works (Special report, Wageleveisin Gordan) No. 5. Novem. 1952 .

في كل الاحوال يبدو جليا ان عمان باتت مركز النشاط الاقتصادي ، كما ان الحاجة الى الايدي العاملة الماهرة وحتى الى صغار السن من العمال ، ادت الى رفع معدلات الاجور في العاصمة عن بقية الالوية · ولعل اكتظاظ الضفة الغربية بفائض سكاني كبير في مطلع الخمسينات يفسر ايضا الانخفاض في اجور الوية الضفة الغربية بالنسبة لاسعار العمل في عمان · اذ ان زيادة الطلب على الايدي العاملة في لوائي عمان واربد تفسره الوتيرة العالية في نشوء المؤسسات الاقتصادية المختلفة ونشاط حركة السوق والبناء · وهكذا نجد ان اعلى الاجور كانت تدفع عام ١٩٥١ في قطاع البناء نتيجة تنامي الاستثمارات العقارية واتساع الحاجة الاجتماعية للمباني والمساكن ، ولا سيما في عمان ، ونجد ايضا ان اعلى الاجور باتت تدفع في قطاع المواصلات ، بسبب اتساع الطلب على الايدي العاملة في هذا القطاع واتجاه الاستثمارات الى قطاع النقل · بينما نجد ان الاجور المدفوعة في القطاعات المختلفة تتفاوت من لواء الى اخر ، وذلك تبعا لتركيبها الاقتصادي ، ولحدود اتساع الحاجات الاجتماعية الناتجة عن الحرب والنزوح ، وحجم التوظيفات الرأسمالية في القطاعات المختلفة ، وخاصة المحافظات من استثمارات

المشاريع العامة كالطرق والمدارس والخدمات العامة وغيرها · وفيما يتعلق بلواء عمان ، فقد كان يشهد اعلى وتيرة استثمار حكومي وخاص ، كما فيه تركزت عملية تجديد البناء الاساسي للاقتصاد ، وفيه أنفق القسم الاكبر من النفقات العامة للدولة ، مما افسح المجال اكثر لعملية تجديد رؤوس الاموال بسرعة اكبر من الالوية الاخرى ، وهو الامر الذي يفسر تسارع وتيرة انتقال السكان من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، ولا سيما الى العاصمة نفسها (١٠) ·

أما فيما يتعلق بأجور العمل الزراعي ، فيظهر بوضوح (من الجدول رقم «٨») ان الاجور اليومية المدفوعة للعمال الزراعيين غير الفنيين في الوية الضفة الشرقية هي اعلى من الاجور المدفوعة في الضفة الغربية لقاء العمل نفسه · فبناء على عينة من القرى عددها ٣٢ قرية جمعت فيها المعلومات عن الاجور الزراعية في الموسم وفي الاوقات الاخرى من السنة ، وضعت دائرة الاحصاءات تقديرها بمعدلات الاجور الزراعية في الوية الضفتين والاقضية التابعة لها · والجدول ادناه يلخص نتائج هذه التقديرات · واذا ما اخذت الاجور في الموسم كمعيار للمقارنة تبين ان معدل الاجور الزراعية للضفتين يوازي ٢٢٩ فلسا ، بينما هو في الضفة الشرقية ٢٥٦ فلسا ، والضفة الغربية ١٨٩ فلسا · اي بفارق زيادة توازي ١ر٢١٪ في الضفة الشرقية عن الضفة الغربية ·

ويتبين ايضا ان اعلى الاجور المدفوعة في الزراعة هي في لواء عجلون ، حيث يدفع ما معدله ٢٦٩ فلسا كاجرة يومية في الموسم ، ثم في لواء الكرك حيث يدفع ما معدله ٢٦٧ فلسا ، ثم لواء البلقاء التي بلغ معدل اجور العمال الزراعيين فيها ٢٣٤ فلسا في اليوم (١١) ·

جدول رقم « ٨ »
معدلات اجور العمال الزراعيين (غير الفنيين) حسب الالوية ، كما كان في ايلول ١٩٥٢ (بالفلسات الاردنية لليوم الواحد *)

اللواء (والاقضية التابعة له)	معدل الاجرة اليومية في الموسم	معدل الاجرة اليومية في الاوقات العادية
معدل لواء البلقاء (عمان ، السلط ،مادبا)	٢٣٤	٢١٥
معدل لواء عجلون (اربد ، عجلون، جرش)	٢٦٩	١٩٥
معدل لواء الكرك (الكرك ، الطفيلة)	٢٦٧	٢٣٣
معدل لواء القدس (القدس ، اريحا ،بيت لحم ، رام الله)	١٨٠	١٣٩
معدل لواء نابلس (نابلس ، جنين ، طولكرم)	١٩٤	١٤٧
معدل لواء الخليل (الخليل)	٢٠٠	١٥٠
معدلات الاجور في الضفة الشرقية	٢٥٦	٢١٨
معدلات الاجور في الضفة الغربية	١٨٩	١٥٢
معدل الاجور في الضفتين	٢٢٩	١٨٢

* ملحوظة : الاجور المدفوعة عينا او مرابعة قد حولت جميعها الى اجور نقدية ·

المصدر : **النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٢** (دائرة الاحصاءات العامة ، عمان) بيان ١٠٠ ، ص ٤١٣ ·

وبالنسبة للضفة الغربية ، فـان اعلى الاجور دفعـت في الخليـل ٢٠٠ فلس كمعدل عام للاجرة فيها ثم في لواء نابلس ١٩٤ فلسا ، ثم في لواء القدس حيث بلغ معدل الاجرة ١٨٠ فلسا · وهو ادنى معدل اجرة في الضفتين ·

ويبدو ان ارتفاع معدل اجرة العمـل في الوية الضفـة الشرقيـة ، يعـود الى اتساع الاستثمار في الزراعة فيها، والى ازدياد الطلب على الارض ومن ثم على الايدي العاملة ،سواء لاستثمار الاراضي الصالحة للزراعة او لاستصلاح وتطوير الاراضي الزراعية غير المستغلة · ويلاحظ في هذا الصدد ان ارتفاع اجور العمل الزراعي كانت اعلى في المناطق التي وجدت فيهـا اراضي غير مستغلـة بشكـل كامل ، او يمكن تطوير واستصلاح اراضي اضافية فيهـا · وهـذا مـا يفسر ان ارتفاع اجرة العمل الزراعي شمل لواء الكـرك ، وعجلون (ولا سيمـا مناطـق الاغوار الشمالية) والخليل ، وهذا ما يفسر ارتفاع اجرة العمل الزراعي فـي قضاء اريحا ايضا ، حيث كان معدل الاجرة فيه يوازي ٢٠٠ فلس يوميـا مقابـل ١٥٧ فلسا في قضاء القدس و ١٧٠ فلسا في قضاء بيت لحـم و ١٨٦ فلسا فـي قضاء رام الله (١٢) ·

ان التفاوت في مستوى الاجور ما بين المحافظات وما بين المدن ، يشير الـى تفاوت مستوى النمو والنشاط الاقتصادي ويشير الى اسباب الهجرة الاقتصادية الداخلية ، من الضفة الغربية والى الضفة الشرقية عموما ، ونمو عمان والزرقاء واربد بشكل خاص في ظل تمتعها بوتائر عالية في نموهـا الاقتصادي · على ان الانخفاض العام لمعدل الاجـور في الضفتيـن الى ما بين ٢٤٠ فلسا و ٢٢٠ فلسا يوميا عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ على التوالي للمهن غير الزراعية (اي بمعدل دخل يتراوح ما بين ٢ر٧ دينار و ٦ر٦ دينار شهريا و ٤ر٨٦ دينـارا و ٢ر٧٩ دينـارا سنويا للعامل الحائز على عمل ثابت) وانخفاض معدل اجرة العامل الصغير الى ربع هذا المعدل ، وكذلك تراوح اجور العمال الزراعيين اليومية ما بيـن ١٨٢ فلسا في الايام العادية و ٢٢٩ فلسا في المواسم ، ان انخفاض هذه المعدلات فـي الاجور يشير الى المستوى المتدني لدخول العمال والشغيلـة في البـلاد ، ويلقي الضوء ايضا على الاسباب التي كانت وراء الهجرة الواسعة للايدي العاملة من البلاد منذ بداية الخمسينات ·

رابعا : غياب التشريعـات العمالية والحماية لحقوق العمال وحريات التنظيم النقابي

ضاعف من وطأة المشكلات المذكورة غياب التشريعات والقوانين الضامنـة لحقوق العمال الثابته وحتى اكثرها حيوية كحق التنظيم النقابي وحق الاضراب، وادى ذلك الى غياب الحماية القانونة لابسط الحقوق العمالية على صعيد عـدد

ساعات العمل والاجور والاجازات وتعويضات انهاء الخدمة واصابات العمل او الوفاة بسببها ، كما افتقدت الرقابة على شروط السلامة العمالية وظروف العمل، فضلا عن غياب مختلف التأمينات الصحية الاجتماعية ٠٠ الخ ٠

كان عمال الضفة الشرقية ، في مطلع الخمسينات مجردون من اي سلاح يمكنهم من الدفاع عن حقوقهم ومصالحهم ، ولا سيما من سلاح التنظيم النقابي بل وحرموا من التمتع بالحقوق المحدودة التي تتيحها التشريعات العمالية ، مثل حق اقامة الجمعيات العمالية وحق الاحزاب ٠ ومع اعلان وحدة الضفتين نشأ ازدواج قانوني على صعيد التشريعات العمالية ، ففي الضفة الغربية كانت تسري التشريعات الفلسطينية الموضوعة اثناء الانتداب البريطاني ، بينما سرت التشريعات العثمانية في الضفة الشرقية ، وهكذا كان يفقد العمال حقوقهم المعترف بها بمجرد مغادرتهم الضفة الغربية الى الشرقية (١٣) ٠

وبدلا من انتهاء الازدواج القانوني بين الضفتين من خلال تطبيق تشريعات العمل الفلسطينية الاكثر مواتاة للعمال او من خلال اي تشريع عمالي حديث يلبي حقوق عمال الضفتين ، فان السلطة الحاكمة اقدمت على عكس ذلك اذ من خلال سلطتها المطلقة القائمة على قوانين الدفاع الاستثنائية استخدمت الانظمة المدنية والقوانين المؤقتة في تقييد حق الاضراب ومنعه في حالات معينة تحت طائلة العقوبة بالسجن لمدة ستة اشهر ، كما استخدمت ذات الانظمة لا فقط في منع تشكيل جمعيات العمال في الضفة الشرقية وانما ايضا في حرمان عمال الضفة الغربية من تنظيماتهم النقابية وفي حلها (١٤) ٠

وفي ظل غياب ابسط الحقوق العمالية كان من الطبيعي ان يتصاعد النضال منذ مطلع الخمسينات وان يتركز على انتزاع حق التنظيم النقابي باعتباره المدخل الطبيعي لتنظيم صفوف العمال والشغيلة ولتوحيدهم من اجل الدفاع عن مصالحهم وحقوقهم الحيوية ٠ ولقد توج النضال العمالي هذا بانتزاع حق التنظيم النقابي بصدور « قانون نقابات العمال رقم ٣٥ » في عام ١٩٥٣ ، ثم بانتزاع مكسب آخر ثبت الاعتراف ببعض الحقوق العمالية الاخرى وذلك مع صدور « قانون تعويض العمال رقم ١٧ لعام ١٩٥٥ (١٥) ٠

الحواشي

(1) Harris, G.L. «*Jordan, it's People, it's Society, it's Culture*», *New Haven*, 1958, P. 226 .

(2) *Quarterly Bulletin of Economic Development, U. N.* Relief and Works, No. 5. Novem. 1952.) Special Report, Wage Levels in Jardan.

(3) *Ibid.*

(4) *Ibid*, No. 7 May 1953, No.8 August 1953 .

انظر ايضا **النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥١** ، عدد ٢ ، ص ٤١٤ ٠

(١١) **النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٢** ، بيان رقم ١٠٠ ، ص ٤١٣ ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤١٣ ٠

(١٣) راجع ، هاشم ، هشام رفعت : « **شرح قانون العمل الاردني** » ، (عمان، ١٩٧٣) ص ٩ ٠

(١٤) حوراني ، هاني ، **تسوية نزاعات العمل في قانون العمل الاردني** » ، بحث برنامج البكارلويوس ـ كلية الاقتصاد والتجارة ،الجامعة الاردنية ، مقدم الى الدكتور هشام رفعت هاشم (١٩٧٠) ، (الفصل الاول ، ص ٢) ٠

(١٥) جاء القانونان مطابقين الى حد كبير قانون نقابات العمال الفلسطيني لسنة ١٩٤٧ ، وقانون تعويض العمال لعام ١٩٢٧ ، وسوف نتناول في الفصل الخاص بنشوء الحركة النقابية الاردنية ظروف انتزاع القانونين ، كما نبين نواقصهما ٠

(5) *Ibid.* No. 10, Sept. 1954, No. 14, July. (Special Report on Jordan) .

(6) *Ibid.* No. 10, Sept. 1954 , No. 14, July 1956 .

(7) *Ibid*, No. 5. (Novem. 1952)

(8) Harris, *OP. cit*, P. 226.

انظر ايضا النشرة الاحصائية السنوية ، دائرة الاحصاءات العامة الاردنية ، العدد ٣ ، (عمان ١٩٥٢) ، انظر ايضا :

I.B.R.D.,« *The Economic Development of Jordan,* » Johns Hopkins Press, Baltimore, 1957 Annex IV Tablas, P. 451.

(9) Harris *OP. cit.*, P. 226.

(10) *Guarterly Bulletin of Ecomonic Development* , U. N. R.W. No. 5. 1952 .

نـزيـه قـوره

التّـاريـخ والتّـاريـخ الآخـر :
حـادِثـة دِمَشـق ، ١٨٤٠

تحتل المنطقة التي نعيش فيها اهمية تتجاوز ما يمكن ان تمنحه لها كثافتهـا السكانية او مواردها الطبيعية · ونعني بالمنطقة الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الابيض المتوسط · وفي موضوعنا هذا نخص الساحل الشرقي للمتوسط · وقـد بلغ من اهمية الاحداث التي تقع على هذا الساحل انه لم توجد دولة ، اعتبرت نفسها ذات اهمية ما ، استطاعت ان تتجنب الاهتمام بما يجري في هذه المنطقة، او ان تتجنب صياغة سياسة محددة تجاه ما يجري ، او حتـى التورط ، فـي احداث هذه المنطقة ·

ان اهمية ما يجري من احداث تنعكس في اصداء وردود فعل ، بحيث يصبح كل حدث صغير بذاته حدثا عالميا ضخما · وحتى نستطيع ان نقيس وزن الحدث الذي يجري في هذه المنطقة لا يكفي ان تتوفر لدينا معلومات عن وزن القـوى ذات العلاقة المباشرة بالحدث : عدد افرادها وامكاناتهم المادية او عدد قطـع السلاح التي يحملها افرادها ان كانت حركة مسلحة · ذلك ان الحدث لا يستمد وزنه واهميته من القوى ذات العلاقة المباشرة به بل من اهمية المنطقة التي يجري فيها هذا الحدث ·

من هنا كانت دراسة تاريخ هذه المنطقة والكتابة عنه اصعب بمرات عديـدة من دراسة تاريخ اية منطقة اخرى من العالم ، ففي منطقتنا لا توجد احـداث معزولة · ومن الصعوبة بمكان ان نقوم بحصر ابطال حادثة تاريخية ما · سوف نجد صعوبة اكبر في تقديم تفسير حقيقي لهذه الحادثة ·

سنأخذ نموذجا واحدا نحاول بواسطته تبيان ما اشرنا اليه من صعوبات في ١ ـ حصر ابطال الحادثة التاريخية ٢ ـ تفسير دوافع هؤلاء الابطال · هـذا النموذج يتعلق بحادثة وقعت في دمشق عام ١٨٤٠ ، وقد اثارت هذه الحادثة اهتمام جميع حكومات وبرلمانات اوروبا بالاضافة الى حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، هذا عدا عن الصحافة والهيئات العامة ·

وقائع الحادثة كالتالي : في الخامس من شباط عام ١٨٤٠ اختفى في دمشق راهب من اصل ايطالي يقيم في دير للرهبان الكبوشيين · واختفى معه خادمه · وبما ان طائفة اللاتين كانت متمتعة ، بموجب نظام الامتيـــازات العثماني ، بحماية فرنسا ، فقد كلف القنصل الفرنسي في دمشق باجراء تحقيق بشأن اختفاء الراهب توماسو الكبوشي وخادمه · ولدى اجراء التحقيق تبين ان اخر مكان شوهد فيه الراهب مع خادمه هو الحي اليهودي في دمشق ، قرب دكان لحلاق يهودي · بأمر من القنصل الفرنسي واسمه الكونت دي راتي مانتون ، جـرى اعتقال الحلاق اليهودي واخضع لتعذيب طويـــل اعترف بعده بأن عددا مـــن الوجهاء اليهود في المدينة قاموا بخطف الراهب وخادمه وقتلهما وجمع وحفظ دمهما من اجل استعماله لاغراض الطقوس الدينية اليهوديـــة التي تقضـــي باستعمال دم شخص مسيحي في عجن الفطير لعيد الفصح · والي دمشق من قبل محمد علي الذي كان يحكم سوريا في ذلك الوقت ، امر باعتقال اربعة عشر شخصا من ابرز وجهاء اليهود واكثرهم ثراء للتحقيق معهم · وحسب ما جاء في الاتهام فان هؤلاء الاربعة عشر يهوديا كانـــوا يشكلون مجموعتين ، كـل مجموعة مؤلفة من سبعة اشخاص ، اربعة منهم مدنيون وثلاثة من رجال الدين، وقد قامت مجموعة بقتل الراهب ومجموعة اخرى بقتل خادمه ، وقد تم اعتقال هؤلاء جميعا واخضعوا للتعذيب ومات احدهم تحت التعذيب ، ولكن لم يتـــم الحصول على اعتراف منهم بارتكاب الجريمة ·

بقي هؤلاء جميعا في السجن من ٥ شباط ١٨٤٠ الى ٥ ايلول ١٨٤٠ حيـن تم اطلاق سراحهم ·

وفي نفس هذه الفترة وقعت حادثة مشابهة في جزيرة رودس التي كانـــت تحت الحكم العثماني · ورغم اختلاف التفاصيل الا انهـــا انتهت الى نهايـــة مشابهة وترافقت مع احداث مشابهة ·

مع نهاية هاتين الحادثتين صدر فرمان عن السلطان عبد المجيد هذه ترجمته: « يوجد اعتقاد خاطيء سائد ضد اليهود · اذ يعتقد الجهال ان اليهود قـــد اعتادوا تقديم ضحية بشرية يستعملون دمها لعيد الفصح ·

وبنتيجة هذا الاعتقاد فان يهود دمشق ورودس (الذين هم من رعايا سلطنتنا) تعرضوا للاضطهاد على يد الملل الاخرى · ان هذه التشنيعـات التي قيلت بحق

اليهود والمضايقات التي اخضعوا لها قد وصلت اخيرا الى عرشنا السلطاني ٠

ولم يمض سوى وقت قصير منذ اتي ببعض اليهود القاطنين في جزيرة رودس الى القسطنطينية ، حيث جرى تقديمهم للمحاكمة واصدار الحكم بشأن قضيتهم حسب الانظمة الجديدة ، وقد ثبتت براءتهم تماما من التهم الموجهة بحقهم ٠ وقد تم تنفيذ ما اقتضاه العدل والانصاف بحقهم ٠

وبالاضافة الى ذلك فقد جرى فحص الكتب الدينية لليهود من قبل العلماء ذوي المعرفة بالكتابات الدينية ، وبنتيجة هذا الفحص تبين ان اليهود محرم عليهم ليس فقط استخدام الدم البشري ولكن من المحرم عليهم ايضا استعمال دم الحيوان ٠ وعلى هذا فان التهم الموجهة ضدهم وضد ديانتهم ليست سوى مزاعم باطلة ٠

ولهذا السبب ، وبسبب المحبة التي نحملها لرعايانا، فاننا لا نستطيع السماح بمضايقة واضطهاد الملة اليهودية (التي ثبتت براءتها من التهمة التي وجهت اليها) بناء على اتهامات ليس لها اي اساس من الصحة ، وبناء على الخط الشريف الصادر في كلماته فان الملة اليهودية سيكون لها نفس المزايا وتتمتع بنفس الامتيازات الممنوحة للملل العديدة الخاضعة لسلطتنا ٠

يتوجب حماية الملة اليهودية والدفاع عنها ٠

ولاجل هذا الغرض فقد اعطينا الاوامر الواضحة بأن الملة اليهودية القاطنة في جميع ارجاء سلطنتنا سوف تتمتع بنفس الحماية التي يتمتع بها جميع رعايا الباب العالي ، وسوف لا يمسهم احد بأية طريقة كانت (الا بالعدل) ، لا فيما يتعلق بممارساتهم لديانتهم ، ولا فيما يتعلق بسلامتهم وامنهم ٠ وبناء على ما تقدم صدر هذا الفرمان ، المهور بخاتمنا الهمايوني ، عن قصرنا السلطاني ، الى الملة الاسرائيلية ٠٠٠

صدر في القسطنطينية في ١٢ رمضان ١٢٥٦ الموافق ٦ نوفمبر ١٨٤٠ » (١) ٠

عام ١٨٤٠ ـ عام فاصل

ان عام ١٨٤٠ هو من بين الاعوام القليلة التي تستحق وصف عام فاصل ، خلال القرنين الماضيين ٠ ففي ربيع ذلك العام وصلت جيوش محمد علي التي كان يقودها ابنه ابراهيم باشا الى الإناضول ، وواجهت الامبراطورية العثمانية خطرا حقيقيا بالسقوط ٠ وهذا الامر دفع بريطانيا ، التي كانت سياستها تقضي بالحفاظ على الامبراطورية العثمانية اقصى مدة ممكنة ، الى الدعوة الى مؤتمر دولي ، وتم عقد هذا المؤتمر في ١٥ تموز ١٨٤٠ وحضرته كل من بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا ، وتغيبت عنه فرنسا التي كانت تساند محمد علي ٠ وصدر عن المؤتمر انذار الى محمد علي يطلب منه الاعتراف بخضوعه للسلطان

واعادة الاسطول التركي الى العثمانيين ، بعد ان كان قد انضم الى محمد علي والجلاء فورا عن سوريا والجزيرة العربية والعودة الى مصر · وتلا ذلك اعلان موانيء سوريا ومصر تحت الحصار ، وجرى قصف مدن الساحل السوري مما اضطر الجيش المصري الى الانسحاب الى مصر · وهكذا انتهت تلك التجربة · غير انها خلفت لدى الدول الاستعمارية ، وخاصة بريطانيا ، فزعا دائما من امكانية ظهور من يعيد تلك التجربة· ولذلك تكثف في ذلك العام بالذات ، البحث عن سبل تضمن كبح مثل هذه الظاهرة محليا دون ان تضطر الدول الاربع الكبرى الى ارسال اساطيلها في كل مرة يقرر فيها زعيم مصري طموح العبور الى الشرق ·

أثناء وجود وجهاء يهود دمشق في السجن ، كتب اللورد بالمرستون ، وزير الخارجية البريطانية الى سفيره في القسطنطينية ، بونسونبي ، رسالة يقول فيها : « سوف يكون امرا ذا اهمية واضحة للسلطان ، ان يشجع اليهود لكي يعودوا ويستوطنوا في فلسطين ، لان الثروات التي سيأتون بها معهم سوف تزيد من واردات ممتلكات السلطان ، وان الشعب اليهودي ، اذا عاد بضمانة وحماية السلطان وبدعوة منه ، سوف يشكل كابحا ضد اية مخططات مستقبلية شريرة لمحمد علي ولمن يخلفه ··· ان علي ان امر سعادتكم بقوة ، بأن توصوا الحكومة التركية بتقديم كل تشجيع عادل ليهود اوروبا لكي يعودوا الى فلسطين » (٢) ·

وفي السابع عشر من اب عام ١٨٤٠ نشرت جريدة التايمز تعليقا على خطة كان قد قدمها اللورد اشلي (قريب بالمرستون) تتضمن « زرع الشعب اليهودي في أرض ابائه ، وهي خطة قالت عنها جريدة التايمز بأنها تحظى باهتمام سياسي جدي · وقد اثنت الجريدة على جهود اللورد اشلي واوردت بنود استمارة اعدها لمعرفة شعور اليهود تجاه العودة الى الارض المقدسة ، وبأية سرعة يمكنهم ان يعودوا، وفيما اذا كان اليهود ذوي المراكز والثروات مستعدين للاشتراك في هذه العودة واستثمار اموالهم في الارض ، فيما اذا جرى اقناع الباب العالي بضمان الامن والعدالة والقانون وسلامة اشخاصهم وممتلكاتهم(٣) ·

وجدير بالذكر انه عندما تم تعيين اول قنصل لبريطانيا في القدس عام ١٩٣٨ ورد في رسالة موجهة من بالمرستون ، وزير الخارجية ، الى القنصل : « سوف يكون جزءا من واجبك بصفتك نائب قنصل لبريطانيا في القدس ان توفر الحماية لليهود بصورة عامة » ·

لقد تم اثناء سجن وجهاء يهود دمشق عقد عدد كبير من الاجتماعات في العواصم الاوروبية وخاصة في لندن بالاضافة الى عقد اجتماعات في المدن الاميركية · وقد ارسل المجتمعون في كل من هذه الاجتماعات عرائض الى حكوماتهم يحثونها فيها على التدخل لرفع الظلم الواقع على يهود دمشق · ومن

بين الاجتماعات الهامة التي عقدت الاجتماع الذي عقد في قاعة بلدية مانشستر في بريطانيا والذي صدرت عنه قرارات تدين المظالم التي وقعت بحق اليهود ، وارسل نص القرارات الى مندوبي الدول · وقد رد وزير خارجية روسيا، الكونت نسلروده على رسالة المجتمعين في مانشستر برسالة قال فيها : « استنادا على مبادىء الانسانية والعدالة فان ما صدر عن الاجتماع الموقر لا يمكن الا ان يحظى بتقدير الحكومة القيصرية · انها تشارك باخلاص بالاهتمام الاجتماعي والنشط الذي اثاره في انجلترا مصير اولئك الاسرائيليين التعساء الخاضعين للسلطة المصرية ، وان الحكومة القيصرية تتبنى ما صدر عن اجتماعكم من قرارات تدعو الى وقف تلك الفظائع التي كانت مدينة دمشق مسرحا لها مؤخرا » ((٤) ·

وفي مدينة نيويورك تم عقد اجتماع احتجاجي في ١٩ اب ، قرئت فيه رسالة من وزير الخارجية ، جون فورسايت جاء فيها « ان المشاهد التي تمزق القلب التي وقعت في دمشق ، قد جرى ابلاغها الى الرئيس بواسطة قنصلنا هناك ، وتم على اثرها ارسال تعليمات فورية الى قنصلنا في الاسكندرية ، نضع نسخة منها تحت تصرفكم » ·

اذا تفحصنا مضمون القرارات التي صدرت في العواصم المختلفة ، ومذكرات الاحتجاج والحملات الصحفية فسنجد شبه اجماع على تحميل مسؤولية ما جرى في دمشق للشرق المسلم المتعصب المعادي للحضارة ، والغارق في الخرافات ، وذلك مقابل اوروبا المسيحية المتحضرة التي لا يشغلها سوى المصاعب ، والاضطهادات التي تتعرض لها الاقليات · ومن المفروض ان يخرج المواطن العادي الذي كان يعيش في ذلك الزمن بانطباع يقول ان محمد علي ووالية على دمشق شريف باشا هما المسؤولان عن حادثة دمشق ·

غير اننا نستطيع رؤية موقف محمد علي من الرسالة التالية التي ارسلها الى شريف باشا ، ونقل نصها الى حكومته ا ل النمساوي في الاسكندرية بتاريخ ٢ ايار ١٩٤٠ · « لقد وصل الى علمنا ان بعض الرجال الاقوياء من المسيحيين يهاجمون رعايانا اليهود في دمشق ، وان شكاوى قد رفعت اليك بدون نتيجة · ان مثل هذه الاعتداءات تزعجنا ، وهي تتناقض مع رغباتنا · لذلك امرك بأن تمنع تكرارها » · (٦)

ان رسائل القنصل البريطاني في القدس الى وزارة الخارجية البريطانية توضح تماما الى اي جانب كان يقف القنصل البريطاني ، وبالتالي الى اي جانب كانت تقف الحكومة البريطانية · وفيما يلي نموذج من رسائل هذا القنصل واسمه ن· ويري Wherry :

من القنصل البريطاني في دمشق الى بالمرستون وزير الخارجية : «في رسالتي الاخيرة التي كان لي فيها شرف مخاطبة سيادتكم ، ذكرت بعض التفصيلات حول موضوع الضحايا من المسيحيين الذين سقطوا على يد يهود هذه المدينة · واتابع الان نقل ما حصلت عليه من معلومات الى سيادتكم · يوجد لدى السكان المسيحيين ، في كل ارجاء تركيا ، رأي تكون منذ زمن بعيد ، واعتقاد ، اثبتت عدة وقائع جرى كشفها وتعريضها للضوء بواسطة الحكومات المحلية في اجزاء عديدة من تركيا ، بأن اليهود المنتشرين عبر البلاد كانوا يقتلون المسيحيين بصورة سرية للحصول على دمهم ، من اجل الاحتفال بأعيادهم بهذا الدم اثناء ممارسة طقوسهم الدينية · هذه الحقيقة جرى اثباتها هنا · ان الاب توماسو ، رئيس دير الاباء الكبوشيين ، المتمتع بالحماية الفرنسية ، مع خادمه ، قد جرى قتلهما في بيتين يملكهما اثنان من اكثر اليهود نفوذا في هذه المدينة ، وفي كل منهما قام سبعة من هؤلاء الاشخاص ذوي النفوذ ، اربعة منهم مدنيون وثلاثة من رجال الدين ، بتنفيذ طقوس الضحية ، وجرى حفظ دم الضحيتين للغرض المذكور اعلاه ، وقد تم تمزيق بقايا الجسدين والتخلص منهما في البالوعة العامة للمدينة · ان اربعة من منفذي جريمة القتل المرعبة هذه قد قدموا اعترافا كاملا ومفصلا بجميع ظروف الجريمة ، وجرى التثبت من صحة الوقائع بدقة متناهية في مكان حصول الجريمة ، ومن البقايا التي جرى التخلص منها ، واكتشف جزء منها ، بحيث **لم يبق مجال للشك** · كما تمت ترجمة تلك المقاطع من التلمود التي انتزعت من الحاخامين المعتقلين ، والتي تسمح بارتكاب تلك الفظائع ، وبذلك تم كشف السر الذي كان ، حتى الان ، تقليدا لا يجري اطلاع غير الخاصة عليه · ان المنفذين الرئيسيين لجريمة قتل الراهب ، هم الان في إيدي الحكومة المحلية ، وقد اعتقل اثنان ممن قتلوا الخادم ، وفر الخمسة الباقون · ومن المدهش ان منفذي هذه الجرائم هم اربعة عشر شخصا من اكثر اليهود نفوذا وثراء في هذه المدينة · ولا يمكننا ان نفي القنصل الفرنسي ، الكونت راثي دي مانتون ، حقه من الثناء والمديح ، للجهد والمثابرة اللتين اظهرهما بالاشتراك مع سعادة شريف باشا ، لاكتشاف هذه الجريمة المريعة ، ومن المأمول ، مع تقدم التحقيق ، ان يتم الحصول على كل دليل ضروري اخر ، بصورة مستقلة وحيادية ، قبل أن يقع تحت سلطة الحكومة او القنصل الفرنسي ، وذلك بشكل منفصل عن الادلة التي تم ابرازها حتى الان ، والتي تم انتزاعها، احيانا ، بانزال العقاب العنيف والتعذيب ، وفي حالات اخرى ، بواسطة شهود يقدمون الادلة للادعاء ، وذلك حتى لا يبقى اي خيط من عدم الثقة في اكثر العقول ميلا للشك ، او اي خلاف في الرأي ، بشأن الفروق بين الاجراءات المتبعة في المحاكم الاوروبية ، وبين السبل العنيفة والمختصرة التي تمارس في تركيا ، سواء بشأن وقائع جريمة القتل او بشأن

الغرض الذي من اجله ارتكبت · وبناء على هذه الاسس القوية سيتم انـــزال العقاب بمرتكبي الجريمة ، واتخاذ اجراءات بحق الشعب اليهودي لمنعه مـــن تكرار مثل هذه الجرائم المرعبة » (٧) ·

هناك ثلاثة امور ملفتة للنظر في هذه الرسالة ·

١ ــ رغم التعارض ، الذي كاد يصل الى حد الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، حول مسألة محمد علي ، فان القنصل البريطاني في دمشق لا يستطيع ان يفي القنصل الفرنسي حقه من الثناء لنشاطه في اثبات التهمة بحق اليهود في دمشق·

٢ ــ انه سيقوم ، من جانبه ، بالاتيان بأدلة اضافية ، وبصورة مستقلة عن تحريات القنصل الفرنسي وشريف باشا ·

٣ ــ التفريق بين مسألتين : ارتكاب الجريمة ، والغرض من ارتكاب الجريمة· فلا يكفي اثبات وقوع الجريمة وكشف مرتكبها ، لان الاكتفاء بذلك يجعلهـــا جريمة قتل عادية ·ولكن اثبات الغرض من ارتكاب الجريمة يجعل من مرتكبها اداة تنفيذ كلفه الشعب اليهودي ، لاسباب تتعلق بالعقيدة الدينية ، بارتكابها · وبهذا فقط يمكن « اتخاذ اجراءات بحق الشعب اليهودي » ·

ان رسالة محمد علي الى شريف باشا التي يأمره فيها بايقاف اجراءاته ضد اليهود ، والتي يعبر فيها عن عدم تصديقه للحكاية كلها ، والتي ارسلها قبل ٢ ايار ، لم يكن لها مفعول ، اذ لم يجر اطلاق سراح اليهود قبل ٥ ايلول كمـــا اسلفنا · والسبب الظاهر هو تمسك القنصل الفرنسي بادعاءاتـــــه · ولكـــن رسائل القنصل البريطاني تبين انه كان هناك ما هو اكثر من الموقف المتصلـــب للقنصل الفرنسي ·

ان جوانب من نشاط القنصل البريطاني في دمشق ، فيما يتعلق بهذه القضية، تتضح بواسطة دخول عنصر غير متوقع ، على ما يبدو ، الى المسرح · ففـــي تلك الفترة كانت تعمل في القدس جمعية انجليزية تبشيرية تحت اسم « الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود » ، وعندما وردت اخبار دمشق اليها ارسلت احد عناصرها وهو القس بيرتز ، وهو ذو اصـــــل يهودي ، للحصـــــول على معلومات بشأن ما يجري في دمشق · وفي رسائل القنصل ديري الى بيدويـــل السكرتير الخاص لوزير الخارجية بالمرستون ، نجد ما يلي : « لقد جاء الينا شخص يدعى بيرتز ، وهـــو مبشر من القدس ··· وقد كـــون رأياً مختلفـــا عن رأي القنصل الفرنسي والحكومة المحلية بشأن الاغتيالات التي ارتكبها اليهود ، ومن الغريب انه ينظر الى مرتكبي الجريمة باعتبارهـــم ضحايـــا ابريـــاء · ان الاجراءات العنيفة التي لجأ اليها الباشا لانتزاع الاعتراف واستخراج الادلة ، تمنح السيد بيرتز مجالا لصنع قضية لليهود ··· ان موقفه عنيف من القنصل

الفرنسي وشريف باشا ، وهو يخصني بنصيب من غضبه مدعيا بانني كنت مستشارا للقنصل الفرنسي ٠٠٠ والحقيقة انني لم التق القنصل الفرنسي الا بوجود اشخاص اخرين ، ولم أقم بزيارة شريف باشا او اذهب الى القصر طوال فترة التحقيق ، ولم اذهب مرة واحدة الى الحي اليهودي من المدينة ٠٠٠٠ انني اعتقد ان الحقيقة هي كما ذكرتها في رسالتي الى اللورد بالمرستون » (٨) ٠

وفي رسالة اخرى بعثها القنصل البريطاني في دمشق ، بصفة شخصية ، الى بيدويل ، ومؤرخه بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٢٢ ، يقول مدافعا عن نفسه : « انني اجد ان صديقي السيد بيرتز ، المبشر المكلف بمهمة تنصير اليهود في القدس ، غير قانع بالتشهير بي في بيروت ، مدعيا بأنني قمت بدور نشط في توجيه التهمة لليهود بقتل الراهب توماسو وخادمه ، وأنني احمل عواطف متعصبة ضد اليهود ، بل ذهب الى الاسكندرية وشكا من سلوكي امام الكولونيل هورجز [القنصل البريطاني في الاسكندرية] ٠٠٠ انني اقسم لك بشرفي بأنه لم يكن لي اي دور في ما تم من اجراءات ، بأية طريقة كانت ، وانني بريء كليا من جميع التهم التي يلصقها بي السيد بيرتز » (٩) ٠

اننا لا نستطيع الزعم بأن بامكاننا اعادة تركيب صورة ما حدث في دمشق عام ١٨٤٠ بين ٥ شباط و ٥ ايلول من ذلك العام ٠ غير ان ما بين ايدينا من وقائع ومعطيات يمكننا من القول ان حادثة دمشق عام ١٨٤٠ لم تكن حادثة محلية ، وان اعطاء الانطباع في العواصم الاوروبية وفي اميركا بأن الحادثة تعبر عن تعصب الشرق وتمسكه بالخرافات وتميزه بالقسوة ، لم تكن عملية بريئة ابدا ٠ فقد اتضح ان القنصل الفرنسي هو صاحب الدعوة ، وان القنصل البريطاني كان معجبا به وبنشاطه ، وان محمد علي امر بايقاف الاجراءات ، وان عدم انهاء القضية بسرعة يعود الى الضغط الخارجي ٠ كذلك نستطيع القول ان تفسير هذه الحادثة ، وقد وقعت حوادث مشابهة لها في اماكن كثيرة في الفترة الواقعة بين ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ، لا يمكن ان يعتمد على دراسة الملابسات المحلية ٠ فقد يكون من بين الاسباب الدافعة لوقوع الحادثة وللضجة العالمية التي اثيرت حولها ، تشويه صورة محمد علي واعداد الرأي العام الاوروبي للحملة العسكرية التي شنتها الدول الاربع الكبرى في ذلك الوقت لاخراج محمد علي من سوريا ٠ ولكن عيب هذا التفسير ان هذا الغرض يخدم بريطانيا وليس فرنسا ٠ ان المؤرخ والزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف يقدم وجهة النظر التالية في هذه الحادثة: « ان هذه الحوادث قد ايقظت بني اسرائيل من سباتهم العميق ٠ وقد حركت الرأي العام اليهودي في العالم اجمع وخاصة في انجلترا وفرنسا ٠ ومثل جميع الاضطهادات فقد عملت على تعزيز التضامن اليهودي ٠٠٠ ان حادثة دمشق مثل جميع الاحداث التي جرت قبلها وبعدها

قد حركت الطموحات الصهيونية ٠٠٠ ذلك ان الاضطهـــاد يكشف لليهـــودي حقيقة وضعه ، وهو الوضع الذي لا يستطيـــع اليهودي فهمـــه خـــلال فترات السلام ٠٠٠ ان عددا من اليهود في بلدان مختلفة وخاصة في انجلترا ، بدأوا يسألون انفسهم : كيف ستكون نهاية كل هذه المعاناة ؟ وكان الجواب : هنـــاك شيئان ضروريان :

١ ــ حماية بريطانيا العظمى لليهود في الشرق ٠

٢ ــ استعمار فلسطين » (١٠) ٠

حادثة دمشق ١٨٤٠ تطرح امامنا سؤالا كبيرا : هل يهود الشرق هم الذين كانوا « يحتاجون » لحماية بريطانيا ام ان بريطانيا هي التي « تحتاج » ان تحمي يهود الشرق ؟ هذا سؤال ما زال مطروحا ، وما زال ينتظر الاجابة ٠

الحواشي

(١) تمت ترجمة هـذا النص عـن نص أورده البرت حايمسون باللغة الانجليزيـة في دراسة له بعنوان « حادثـة دمشق ــ ١٨٤٠ » منشورة في

The Jewish HistoricaL socity of EngLand ; Transaction : Sessions 1945 — 1951 VoL XVI London , 1952.

والوثائق اللاحقة مأخـوذة عن المصـدر نفسه ٠

(2) Tuchman , Barbara , « *BibLe And Sword* » London , 1957 , p 113 .

(٣) **المصدر نفسه** ٠

(٤) حايمسون ، **مصدر سبق ذكـره** ، ص ٦٠ ٠

(٥) **المصدر نفسه** ، ص ٦٠ ٠

(٦) **المصدر نفسه** ، ص ٥٠ ٠

(٧) حايمسون ، **مصدر سبـق ذكـره** ، ص ٥١ ٠ نص الرسالة منقول عن وثائـق وزارة الخارجية البريطانية :

F . O . 195/170 , NO , 49 of 30th March , 1840 , and , F . O . 18/410 of . 23 Rd March , 1840 , wherry To Palmerston .

(٨) حايمسون ، **مصدر سبق ذكـره** ٠ رقم الوثيقة في وثائق وزارة الخارجية ٠ F . O . 18/410 g . 24th April 1840 .

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ٠

(١٠) سوكولـوف ، ناحـوم ، **تاريـخ الصهيونية ١٦٠٠ ــ ١٩١٨** ، لونغمانـز غرين ، لندن ١٩١٩ ، ص ١١٠ ــ ١١٢ ٠

اديب ديمتري

أعمدة العرقية الأوروبية وجذر الصهيونية

القومية الرجعية والعرقية في النظرية والتطبيق

المدرسة الالمانية : النظرية القومية الالمانية ، وهي النظرية التي اعتنقتها البورجوازية الالمانية ومارستها ، تختلف اختلافا بينا عما يسمى « بالمدرسة الفرنسية » سواء في الفلسفة او السياسة ، وذلك بسبب الاختلاف الكبير في ظروف النشأة والتطور ، والمراحل التي مر بها تكوين الامة والدولة الالمانية ، وبالاخص محاولات تحقيق الوحدة القومية الالمانية · وقد كان لهاتين النظريتين البورجوازيتين في القومية ـ الالمانية والفرنسية ـ ابعد الاثار في التاريخ الاوروبي ، وعلى مستقبل الصراعات الاوروبية ، وعلى انواع النظم التي قامت، والنظريات التي سادت ·

فقد خضعت المانيا في اثناء تكوينها التاريخي لاثار تجربتين سياسيتين على درجة كبيرة من الاهمية :

اولاهما : ان المانيا بقيت ترسف ازمانا طويلة في قيود الفيودالية ، في حين تحررت فرنسا بتحطيم هذه القيود ، فاستمرت المانيا تخضع لتاثير الاراء والمبادىء السائدة في العصور الوسطى : فلم تكن تعرف معنى للسيادة العليا غير الامبراطورية ـ الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ اي ان الفكرة التي اصبح لها التغلغل والرسوخ هي فكرة الامبراطورية ، وبمعنى آخر ، الفكرة «العالمية» ، فلم يكن لمدلول (الدولة) القومية ، القائمة على مساحة معينة من

الارض ، اي وجود في فكر الامبراطورية ، بل تتخذ الامبراطورية مكانها متربعة فوق كل (الدول) ، ويتخذ الامبراطور مكانه متربعـــــا فوق كل الملـوك ٠ والامبراطور هو الذي يمثل الفكرة المسيحية في عالم السياسة ، كما يمثل البابا هذه الفكرة ذاتها في عالم الدين والروح (١) وهو الامر الذي سهل الانفصام بين القومية الالمانية ، والتنظيم السياسي في المانيا ، كما سهل بقاء المانيا والامـة الالمانية مفتتة ومجزأة بين عدة دويلات ودول ، خاصة في ظل ضعف البورجوازية الالمانية التاريخي ٠

أما التجربة الثانية ، فقد كانت في بعض نواحيها مناقضة لهذه التجربـــة الاولى بظهور نوع من الدول في المانيا ، خرجت تاريخيا الى حيز الوجود بفضل عوامل مصطنعة مثل بروسيا ، التي عمل آل هوهونزلسون على تكوينها من اقاليم مختلفة دخلت في حوزة هذه الاسرة ، أما بطريق الارث او التزاوج، او كفتوحات بحد السيف ٠٠ الخ وتألفت منها مملكة بروسيـا ٠ ويرجـع الفضـل فيما بلغته بروسيا وقتئذ من يأس وقوة الى تنظيمها البيروقراطي في الحكم ، وجيشهـــا النظامي القوى ٠ وظل الجيش والبيروقراطية العنصرين الاساسيين في تشييـد صروحها ، وقد بلغ بها فردريك الثاني الاكبر (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦) القمة بحكومته المستبدة المطلقة ٠ وبذلك خرجت الى الوجود امة بروسية اختلفت في تكوينهـــا تماما عن الامة الفرنسية والانجليزية ، وهما الامتان اللتان كان قد تم اكتمال تكوينهما ووجودهما بصورة من الصور قبل تأسيس الدولة ٠

وهكذا صارت بروسيا ــ فيما يتعلق بالقومية ــ مثالا لما يمكن ان تحدثه وتوجده الدولة بما تملك من قوة وقدرة انشائية ، حتى ان المرء في وسعه ان يقدر صنـع كل شيء للدولة بعد ان خلقت امة وشعبا من عناصر مبعثرة ٠ اصبحت الدولـة تتميز بذاتية خاصة بها ، وكيان يفيض بالحيوية والنشاط ، الامر الذي انتهـى بالفكر البورجوازي البروسي الى تقديس الدولة كما تتمثل بوجه الخصـوص في فلسفة هيجل ، الذي لم يفعل اكثر من ان ينقل هذه الحقيقة البروسية مـن ميدان الحوادث الواقعة الى عالم الفكر المجرد (٢) وقد كان لهذا المفهوم انصاره وانتشاره بين كافة طبقات الشعب ٠

الوجود الذهني للامـــة

وفي حين تعذر خروج المانيا الى حيز الوجود ، ولها كيانها السياسي والقومي المتجسد في دولة موحدة ، في اواخر القرن الثامن عشر ، كما حدث في فرنسـا وانجلترا من قبل ، فقد شهد هذا العصر بروز امة من ميدان الادب والفكر فـي المانيا ، بعدما اصابها من الشلل بسبب حروب الثلاثين (١٦١٨ ــ ١٦٤٨) في القرن السابع عشر ، فبعد انقضاء هذا العهد المضطرب، ومع ارتقاء البورجوازية

ونموها مع عودة الانتعاش الاقتصادي الى المانيا ، خلال هذه الفترة ، وبسبب انتشار التربية والتعليم انتشارا قويا بين ابناء هذه الطبقة ، ومن دلالاته انشاء جامعة جونجن Gottengen سنة ١٧٣٣ · من ذلك كله برزت الامة الالمانيـــة ، والتي ظهرت في عالم الوجود في اواخر القرن الثامن عشر ، كأمة (عقل وفكر) تستند في تكوينها الى العامل الذهني والفكري ، او الادبي والروحي ، اكثر من استنادها الى الوجود المادي في دولة موحدة ·

ولقد ترتب على هذا القصور في الوجـود القومي الالمانـي ، بالاضافـة الى الضعف النسبي للبورجوازية الالمانية ، نوع من الميوعة والاضطراب في المفاهيم، بالقياس الى الفكـر الليبرالـي المتماسك الذي اسهم في بنـاء الامم المجـاورة وبالاخص فرنسا وانجلترا ، كما فتح الباب واسعا لانتعـــاش الفلسفـات الرومانسية اللاعقلانية ·

البورجوازية الالمانية والسلطة

وحتى نتبين الابعاد والمعالم الفكرية للمدرسة الالمانية القومية لا بد ان نضيف الى العوامل التي سبق ذكرها سؤالا طرحه انجلز في مقدمة « حرب الفلاحين » : لماذا تأخرت البورجوازية الالمانية في الاستيلاء على السلطة ؟

يجيب انجلز انه من سوء حظ البورجوازية الالمانية انها وصلت متأخـــرة جدا فقد جاءت فترة ازدهارها في وقت كانت فيه بورجوازيات البلدان الغربيـة تسير في طريق الهبوط والافول السياسي · فالبورجوازية الفرنسية لم تتمكن من الاستمرار في الوجود الا بالتخلي عن سلطتها السياسية للويس بونابرت والجيش، وبحكم تبادل التأثير الشديد بين الدول الاوروبية الثلاث المتقدمـــة : فرنسا وانجلترا والمانيا ، لم يعد من الممكن للبورجوازية الالمانية خلال تلك الفترة ، ان تتربع على عرش السلطة ، وتستقر براحة وأمان ، بينما الارض تميد من تحـت اقدام البورجوازيتين الانجليزية والفرنسية ·· بعد أن لم يعد حكم البورجوازية يثبت فائدته ·

ذلك ان من سمات البورجوازية بالذات ، بخلاف كل الطبقات الحاكمة مـــن قبلها ، وجود نقطة تحول حاسمة في نموها عندها يتحول كل نمو فيها ، وخاصة في رأسمالها وفي سلطتهـــا ، الى عنصر سلب وعجـز يضعف كفـة سلطتهـــا السياسية ، فوراء البورجوازية تقف البروليتاريا · وبقدر ما تنمي البورجوازية من صناعاتها وتجارتها ، ووسائل مواصلاتها فانها تولد البروليتاريا ايضـــا · وعند نقطة معينة تختلف من بلد الى آخـر ، تبدأ البرجوازيـة في رصد ظاهـرة تسبب لها الهلع وهي : ان البروليتاريا تسبقها وتتفوق عليها سياسيا ·· ومنذ تلك اللحظة تفقد الدفعة المطلوبة للانفراد بالسلطة ، وتتلفت حولها ، تبحث عن

حلفاء يشاركونها ، او تسلمها لهم تماما اذا لزم الامر ٠

في المانيا ، جاءت نقطة التحول هذه بالنسبة للبورجوازية ، في رأي انجلز سنة ١٨٤٨ (٣) ، اما حلفاؤها هؤلاء الذين تتطلع اليهم ، في لحظات محنتها ، فهم بالضرورة من طبيعة رجعية فهناك الملكية المطلقة بجيوشها وبيروقراطيتها ، وهناك النبالة الاقطاعية الكبيرة وطبقة اليونكرز حتى رجال الدين الرجعيين ٠ وقد عقدت البورجوازية الالمانية مع هؤلاء جميعا الصفقات ، لعلها « تنقذ » جلدها ، حتى لم يعد لها شيء تقايض عليه على حد تعبير انجلز ٠

افول الليبرالية الالمانية

وبرغم كل هذه العوامل ، والتراث الالماني المعوق لانطلاق الليبرالية والقومية التقدمية بمفاهيمها الفرنسية والانجليزية ، الا ان اثر الثورة الفرنسية ونابليون كان كاسحا بلا شك وقد شمل المانيا ، كما شمل غيرها على الصعيد الاوروبي كله ٠ لقد اكتسح نابليون في طريقه بروسيا ، كما اكتسح معظم الامارات الصغيرة ٠ ودك مع جيوشها علاقات الانتاج الاقطاعية ونظمها وفتح الطريق لافكار الثورة الفرنسية ومعها فرص الانتعاش للبورجوازيات القومية ٠ ومن ثم تصاعدت تطلعات الامم للتحرر والوحدة ٠ فقد اعقب الثورة الفرنسية وزحف جيوش نابليون موجة عاتية من المشاعر القومية اغرقت اوروبا الثورية في ذلك الزمان ٠

واذا كان الحلف المقدس بقيادة مترنخ استطاع ان يركب هذه الموجة بعد سقوط نابليون ، الا انه سرعان ما دخل في صدام مباشر مع نفس المشاعر الوطنية التي اراد توظيفها لاغراضه ، وسرعان ما افتضحت قيادة الحلف (النمسا وروسيا وبروسيا) بنظمها الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، وركائزها في النبالة الاقطاعية ، ثم اصابها الشلل والعجز في مواجهة البورجوازيات الاوروبية النامية ، بورجوازية الاعمال والمال ، وهي بالضرورة في هذه المرحلة بورجوازية ليبرالية ، تطلب الحرية بأوسع معانيها من اجل استثماراتها وانتاجها (٤) ٠

ظلت موجة الليبرالية التي اثارتها عواصف الثورة الفرنسية حية برغم الظلام والرجعية التي عمت اوروبا مع الحلف المقدس ٠ وقد حاولت الطبقة الوسطى الالمانية ، والتي كانت تضم صفوة المثقفين واساتذة الجامعات والمهنيين ، ان تتولى زعامة موجة المشاعر الوطنية الصاعدة ، وان تضفي على الحركة كلها طابعها الليبرالي ، وكانت ذروة هذه المحاولات ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ولكن الفشل ادى الى نكسة خطيرة لليبرالية الالمانية ، ووقعت فلول الليبراليين في قبضة فئات

الحكام الذين نجحوا في توحيد المانيا على اسس اخرى (٥) مغايـــرة تماما ، ومناهضة لليبرالية · فقد طغت قضية الوحدة القومية على المطالب الدستوريـــة الليبرالية عند اقسام كبيرة من الشعب ، الذي فقد ايمانه بالمؤسسات الديمقراطية ولجأ الى العرش في طلب تحقيق هذه الوحدة ·

فلسفة الحقوق ودولة الحقوق

تمخض التحول عن الفكر الليبرالي عن فلسفة جديدة تجعل من « الدولة » لا الفرد محور النشاط الاجتماعي والسياسي ·

وتعتبر فلسفة الحقوق التي احتلت مركز الصدارة في الفكر السياسي الالماني بعد فشل الليبرالية في تحقيق الوحدة القومية ، فلسفة المانية خالصة · فقد قامت على اسس مستمدة من فلسفات هيجل وكانت وعدد من الفقهاء الالمان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٦) ·

ومفهوم دولة الحقوق يقوم على فكرة الاعتراف للفرد والمواطن بحقوق معينة يحددها ويضمنها القانون ، ولا تستطيع الدولة بحكم طبيعتهـــا القانونية ، وبوصفها تنظيما قانونيا سوى احترام هذه الحقوق · وحقوق الفرد بهذا الوصف حقوق داخل الدولة وليست في مواجهتها ، تنبع من مفهوم الدولة ذاته ، وليست شيئا خارجا عنه او مضادا له ·

ومن الواضـــح ان هذا التصـــور للدولة يختلـف اختلافـا بينـا عـن مذهب « الحقوق الطبيعية » الليبرالي كما عرفته فرنسا وانجلترا · فالحقوق الطبيعيـة في الفكر الليبرالي الغربي ، خلال القرن الثامن عشر ، نشأت في مواجهة الدولة، وقيدا على نشاطها، لانها نبتت وترعرعت في ظل الصدام العنيف بين البورجوازية الصاعدة والدولة الاقطاعية · وهي لهذا السبب تتمسك بمجموعة من الحقوق الشخصية التي تراها متأصلة في الطبيعة البشرية ، ومطلقة ، بعكس مفهـــوم الحقوق في « دولة الحقوق » التي تستمد من سلطة الدولة وقانونيتها ·

ولا شك ان هذا المفهوم للحقوق وللدولة مما يتفق مع مصالح بورجوازيـــة ضعيفة عجزت عن تحقيق امانيها في الوحدة القومية من خلال الشعـــارات الليبرالية الغربية التي بدت لهـا مستوردة ، ولا تنبع من تربتها : كمـا انه ممـا يحقق الامن والاستقرار لبورجوازية جزعة من حركة الطبقية العاملة في بلادها، وفي اوروبا عموما ، وقد اخذت نداءاتها وشعاراتها الاشتراكية منذ ثورة باريس سنة ١٨٤٨ تغطي الساحة الاوروبية · ومن هنا فقد وجدت البورجوازية الالمانية في هذه الفلسفة ضالتها ، تحقق لها رغبتها المزدوجة : في تبني فلسفة كاملـــة بديلة عن الليبرالية الفاشلة ، يكون لها دورها الخاص والمميز في تحقيق الوحدة

القومية وفي التنظيم الاجتماعي ، كما تحقق لها الامن والاستقرار ٠

موجة الرجعية السوداء في اوروبا

عرف ماركس الدولة البروسية الالمانية البسماركية سنة ١٨٧١ بانها استبدادية عسكرية ، تزينها اشكال برلمانية ، وهي مزيج من علاقات الملكية الاقطاعية والنفوذ البورجوازي ، تقوم على هيكل عظمي بيروقراطي وسندبوليسي (٧) ٠

وكان بسمارك يواجه التهديد الذي خيم على اوروبا الجرمانية الكاثوليكية ، ويدعو النبالة الريفية والبورجوازية الكاثوليكية والبروتستانتية الى الاتحاد في مواجهة العدو الجديد : وهو البروليتاريا ، وكل دعوات الاشتراكية الديموقراطية والنقابات والتنظيمات التابعة لها ٠

والواقع ان وصول بسمارك الى الحكم في المانيا ، يعطينا نموذجا ، للطريقة التي واجهت بها الرجعية الاوروبية تعاظم الثورة في اوروبا على يد الطبقة العاملة وقيادتها الراديكالية الجديدة ، كما يؤذن بالتحول الكبير الذي سيطرأ على الحركة السياسية في القارة ، بانتكاس القومية الليبرالية الديموقراطية وتحولها الى القومية الرجعية الشوفينية ٠

فقد كتب ماركس وانجلز بيانهما الشيوعي سنة ١٨٤٨ ٠ وكان بيان قادة الاشتراكية العلمية ثمرة لنضالات الطبقة العاملة الاوروبية ، وتكثيفا لخبرتها وانعكاسا لواقعها الجديد منذ ثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ بوجه الخصوص في فرنسا والمانيا ، كان يؤذن بمرحلة ثورية جديدة عبرت عنها تنظيمات الطبقة العاملة واحزابها الاشتراكية العلمية في هذه الفترة ٠ وقد خيمت حركتها على الاجواء الاوروبية ، وبدت شعاراتها ونداءاتها التي ارتفعت ، في اعين الرجعية، سحابات سود تنذر ببروق ورعود مشحونة بالخطر ٠

وكان للنجاح الذي احرزته حركة الوحدة الايطالية ، بعد انتصارها الكبير سنة ١٨٥٩ ـ ٦١ تحت قيادة كافور الليبرالية ، اثر في تنشيط وتحريك الفكر الليبرالي وشد ازره في جميع الاقطار الالمانية ٠ وامام هذه الموجة الجديدة المتعاظمة من الثورة الليبرالية والراديكالية البروليتارية استدعي بسمارك ليتولى الوزارة سنة ١٨٦١ ٠ وفي مستهل وزارته حاول اجتذاب الاغلبية الليبرالية في البرلمان ، ولكنه سرعان ما عبر عن حقيقة اتجاهه عندما تحدث عن الوحدة القومية بقوله : « المانيا لا تتطلع الى ليبرالية بروسيا ، بل الى قوتها « لأن » « المسائل الكبرى في العصر لا يتقرر مصيرها بالخطب وقرارات الاغلبية فهذه هي اخطاء سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٤٩ بل بالدم والحديد » (٨) ٠

وعندما حدث النزاع بين بسمارك والاغلبية الليبرالية في البرلمان ، اعلن تأجيل جلسات البرلمان ، ولم يكن في وسع القيادات الليبرالية ان تفعل شيئا · فقد كان الطريق الوحيد امامها هو اعلان الثورة ، ولكن البورجوازية الالمانية كانت قد بدأت تخشى الانتماء للجماهير ، وظهر بوضوح انها على استعداد للتعامل مع اي نوع من الحكم ، حتى لا تنتقل قيادة الصراع الى الشعب نفسه (٩) · وكان لانتصار بسمارك الساحق على النمسا سنة ١٨٦٦ اثر بعيد على الليبرالية الالمانية ، حتى ليعد بعض المؤرخين هذا الانتصار ، انتصارا على القوى الليبرالية البروسية ذاتها قبل كل شيء ، فقد تحول قسم كبير منها الى مساندة النزعة القومية الرجعية بقيادة بسمارك واصبحوا ابواقا له ·

والواقع ان الطريقة التي وصل بها بسمارك الى الحكم ، وعالج بها ازمة البورجوازية ، تحمل دلالات ابعد من المانيا بكثير ، لتشمل القارة في حقيقة الامر · واذا كان سنده في سياسته ، المفاهيم الرومنسية الرجعية التي تقدس الدولة وتجعل منها الهدف النهائي والتي كانت تلاقي رواجا بين صفوف البورجوازية الالمانية في تلك الفترة ، الا ان سياسته في الحقيقة تحمل دلالات ابعد من المانيا وتؤذن بالتحول الكبير الذي طرأ على مواقع البورجوازية الاوروبية وموقفها من الثورة ، كما يؤذن بالتحول الذي طرأ على مفهوم ومضمون القومية في تلك المرحلة · فقد انتكست وتحولت الى القومية الرجعية والشوفينية التوسعية والتي تقودها ارستقراطية المال الامبريالية بالتحالف مع طبقات النبالة القديمة ، حدث التحول في المحتوى والمضمون الذي تحمله هذه القومية ، فبعد مرحلة الصعود في القرن الثامن عشر والذي كانت تتصدى لقياداتها بورجوازية ليبرالية ديمقراطية وثورية ، إستولى على القيادة امام صعود الحركة الجماهيرية والبروليتارية ، ارستقراطية مالية معادية للديمقراطية ، ولتقودها في طريق تحقيق مصالحها الجديدة ، مصالح التوسع والعدوان والصراعات القومية ، وسياسات الالحاق والضم ، واخيرا الامبريالية والتوسع الامبريالي · وكان بسمارك نموذجا لهذا التحول والحركة الرجعية النشطة التي تصدت بنجاح لموجة الثورة المتعاظمة ، لتكبح جماحها بالتدريج وتركب موجة القومية بالتحديد ، لتلبسها مثلها واهدافها الشوفينية الرجعية ، وتجردها من كل محتوى ومضمون ديموقراطي · دفنت قومية العقل والانسانية والتقدم والتآخي البشري ، لتنبت على قبورها الشوك والحسك : التعصب الاعمى ، والتمييز العرقي والعنصري والعدوان ·

قومية الطبقات السلفية الرجعية والمنتكسة ، وقد رفعت علم الرجعية الاسود الهمجي «الحديد والدم» ·

العرقية الاوروبية

لم يعد يخفى الجذر الطبقي للعرقية حتى على المؤرخين والمفكرين البورجوازيين خاصة بعد مأساة النازية والفاشية والحرب العالمية الثانية · فهرتز يؤكد (١٠) (١١) ان العنصرية ذات جذر طبقي ولا علاقة لها في الاساس بالدم ، ويدلل على هذه الحقيقة باسبانيا ، فيقول ان الصراع الطويل بين المسيحيين والمسلمين ، أدى الى تمجيد الفضائل الحربية بين الاسبان ، والى مذهب « الدم النقي » ، اي النقي من الاختلاط بدماء المغاربة اليهود ، واصبحت الخدمة العسكرية في الجيش رمز الشرف بعد انتصار الاسبان ، في حين ظلت التجارة والصناعة والزراعة محتقرة ، لانها كانت في يد الكفرة واليهود · وقد بلغ الحماس من اجل نقاء الدم في القرن السادس عشر الى ما يشبه النازية ، وصارت الشهادات التي تصدرها محاكم التفتيش من المسوغات الاساسية لاي عمل طموح ، وبعد طرد المغاربة واليهود ادت روح العنصرية الشائعة ، وازدراء الوان النشاط الاقتصادي ، والعقلية العسكرية المسيطرة ، الى انهيار قوة اسبانيا ورخائها ·

ولا ريب ان جذر العنصرية والعرقية ، ومفاهيم الدم النقي ، والشعب المختار، يكمن في التراث التاريخي للطبقات الحاكمة التي تحاول الاحتفاظ بشكل او اخر من اشكال الرق والاستغلال والعبودية الانسانية · وكما يلاحظ هرتز بحق ان قيام الامم الحديثة اقترن بهزيمة التفتت والانقسام داخل الامة ، القائم على اساس « الدم الافضل » · وكان النزوع القومي نحو المساواة في المركز الاجتماعي يقابل على الدوام بمقاومة سافرة او متسترة وراء اغطية عرقية · ففي القرن الثامن عشر زعم النبلاء الفرنسيون والمدافعون عنهم من اعداء الامة الفرنسية الناشئة ، ان النبالة تنحدر من نسل الغزاة الفرانك ، وان العامة من نسل الرومان والغاليين المهزومين ، واتخذوا من هذه المزاعم حجة لاثبات حقهم في السلطة والحكم فيمواجهة افكار الثورة وارهاصاتها ، رغم ان هذه المزاعم لم تكن لتقف على قدميها امام حقائق التاريخ ، فقد زالت الحدود بين الاجناس تماما ابان العصور الوسطى ، نتيجة الاختلاط ، ولكن الفوارق الطبقية هي التي استمرت وتزايدت بينالنبلاء والطبقة الوسطى وعامة الشعب ، وانعكست في مفاهيم التفرقة العنصرية وادعاءات السمو ونقاء الدم ·

ووجه الخطورة ان دعاوى العرقية في عصرنا ، وخصوصا بعد هزيمة النازية قلما يكون الافصاح عنها بالشكل الصريح والفج الذي نشهده في سياسات العزل والتمييز العنصري في جنوب افريقيا وروديسيا ، بل هي اليوم اقرب الى ان تأخذ شكل الدين العلماني الذي يتخفى وراء دعاوى واقنعة علمية وتاريخية ودينية ، والعقائد الراسخة المؤسسة على العلم والاخلاق · وقد مرت تيارات العنصرية

بمراحل تاريخية محددة في اوروبا ، ووضع الاساس النظري لها خلال القرنين الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، ثم زادت قوة وانتشارا ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واكتسبت شعبية واسعة في المرحلة ما بين الحربين العالميتين ، ثم تحولت الى سياسات في التطبيق في الدولة الفاشية والنازية ٠

لقد كان الاحياء الرومنسي للتاريخ خلال القرن الثامن عشر امرا اساسيا وجوهريا لنمو المثال العرقي ، بمثل اهميته لنمو القومية الحديثة والتقدمية ، ثم اضافت قوانين التطور العضوي والبيولوجي ، والتي انتقلت من مجالات البيولوجيا ، الى مباحث اللغويات ، لتلعب دورا حاسما في نمو وتطور الفكر العرقي ٠ وكانت المعالجة العضوية للتاريخ او معالجة تاريخ الشعوب ككائن عضوي في بيئة بعينها ، وينمو ويتطور وفق قوانين التطور الحيوي والبيولوجي ،دورا خاصا في خلق الفواصل والفوارق السحيقة بين الناس والامم حتى قيل ان هذه الفوارق ليست من فعل الانسان او البيئة الاجتماعية ، بل هي ثمرة خطة الهية ٠ كان لجون جوتفريد هردر (١٧٤٤ ــ ١٨٠٥) الذي سبق الحديث عنه مثل هذه النظرة التي كان لهاتأثيرها الواسع في غرب وشرق اوروبا ٠ فقد اعتبرت الطبيعة والتاريخ بمثابة القوى الخلاقة فيالكون واصبحت الاصالة والتلقائية الغريزية للشعوب في جذر السمات التي يتميز بها كل شعب من خلال تطوره في التاريخ ، وهي تعبر عن نفسها من خلال اللغة القومية والشعر الشعبي والاسطورة ، والادب عموما الذي يخلقه الشعب بغريزته وتلقائيته هذه ٠ واعطى هردر للقومية ابعادا جمالية وتاريخية ولغوية جعلت منها كائنا عضويا حيا ينفصل ويتميز على اي شكل من اشكال التنظيم السياسي ، وهذا الشعب او الكائن الحي اسمى من الدولة ذاتها ٠ وبالرغم من ان هردر نفسه ينتمي بلا شك الى رجال عصر التنوير ولم يكن يؤمن بالعرق او بتفوق امة ، كما لم يكن حبه لشعبه يستبعد احترامه للشعوب الاخرى ، الا ان هذا الفكر كان له ابعد الاثر في ظروف اخرى مغايرة في خلق واثمار المفهوم العرقي (١٢) ٠

وكان تأكيد هردر على اللغة باعتبارها التعبير عن الماضي المشترك للشعوب، من الامور الشائعة بين جيل كامل من اللغويين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ٠ وقد انتهى علماء اللغة الى ان السنسكريتية كانت هي اصل اللغات الاوروبية الغربية وانها انتقلت الى اوروبا من آسيا خلال هجرة الشعوب الاوروبية ٠ ولكن سرعان ما انقلب هذا البحث اللغوي الفيلولوجي الى احكام اخلاقية وقيمية ، فأصبح الآريون الذين اعطوا الأوروبيين لغاتهم ، يعكسون في ماضيهم تفوقا اورثوه لابنائهم من الاوروبيين ٠ وقد وجد الرومنسيون الرجعيون ، من خلال علم اللغة رباطا بين ما قبل التاريخ الآري والشعوب

الجرمانية والاوروبية عموما · وصور الفيلوجيون الجنس الاري على انهم فلاحون اقوياء وعذريون يحيون حياة عائلية صحية ، لم يدخلها فساد · هنا تحول العلم اللغوي الى اسطورة تاريخية هي اسطورة تفوق هذا الجنس او ذاك·

وبعد ثورات سنة ١٨٤٨ حدث التحول الحاسم ، كما رأينا من قبل ، فقد مال الميزان بالتدريج ولكن بشكل نهائي في اتجاه المحافظة والقومية الرجعية الشوفينية ، وخفتت كفة الليبرالية الى حد كبير ، بعدما اصاب الذعر البورجوازية واصبحت القومية الرجعية الشوفينية هي الحاجز ، وهي الدرع الواقي في يد القوى المحافظة في مواجهة موجة الراديكالية المتعاظمة · حدث هذا على امتداد الساحة الاوروبية ، وفي وسط اوروبا ، وحتى في فرنسا وانجلترا وادار المحافظون وجهة القومية تجاه الضم والالحاق والتوسع من خلال الدبلوماسية والعدوان العسكري ، واصبحت الدولة هي اداة السلطة من اجل المجد القومي في الخارج والمحافظة على النظام من الداخل · اضمحل المفهوم الليبرالي التقدمي للقومية ليأخذ مكانة المفهوم المحافظ والرومنسي الرجعي · ولا جدال في ان الحرب النابليونية قد اسهمت في احداث هذا التحول ، وقد كان الليبراليون وحتى الرومنسيون الاول يؤمنون بالتعايش بين الامم وان العلاقة بين الدول تحكمها نفس العلاقة بين الافراد ولم يكن من قبيل الصدفة بعد ثورة سنة ١٨٤٨ ان يتناول الكونت دي جوبينو الفرنسي وهو رائد العنصرية الاوروبية الصريحة والفجة ، حجج الارستقراطيين القديمة ليصوغها صياغة جديدة في كتابه « بحث في تفاوت الاعراق البشرية » وقد صدر سنة ١٨٥٢ · في هذا الكتاب اعتبر النبلاء والعناصر ذات الانتاج الثقافي والفكري من الامة تنتمي للجنس الآري والتيوتون ، وهو يتحدث عن اللغة « النقية » للاريين ، ويقيم بحثه على اساس الانثربولوجيا وعلى اللغات كما تطورا في منتصف القرن · وكانت نظرياته العرقية تهدف الى تفسير العالم الغريب والمزعج الذي يعيش فيه· فاصبحت العرقية عنده هي تفسير الانحطاط في العصر · وقد صنف جوبينو السود والصفر والبيض وفق تركيبهم الاجتماعي واللغوي والفكري · فالاجناس الصفراء اثبتت انها مؤهلة للتجارة والصناعة ولكنها لا تصلح لما هو ابعد من هذه الاهداف المادية اما الاجناس السوداء فهي عاجزة عن خلق مجتمعات ثابته مستقرة وتحتاج الى سيطرة من الخارج · ومع ذلك فقد سيطرت عليه نظرة تشاؤمية ، فقد كان يرى ان مصير الجنس الاري المحتوم هو التدهور والانحطاط بسبب الاختلاط الذي لا سبيل الى تجنبه مع الاجناس الادنى (١٣) ، ولكن جوبينو لا يخفي هدفه فهو يعلن صراحة عداءه للاتجاهات التحررية واعجابه بالفيودالية ويوجه كراهيته لفكرة « الوطن » التي اطلق عليها « مخلوق فظيع من ابتكار الساميين ، والديمقراطية الليبرالية»· ومن الواضح ان جوبينو اسقط على هذه الاعراق والاجناس الصفات الحديثة التي كان يحتقرها ·

فالاجناس الصفراء هي البورجوازية بينما السود هم الدهماء امـــا الجنس الابيض فهو وحده الذي يجسد كل ما هو نبيل وروحاني · اصبح هـذا الجنس تجسيدا ليوتوبيا تقف في مواجهة حقائق العصر المفجعة (١٤) ·

وليس من قبيل الصدفـة ايضـــا ان حـزب المحافظيـن في انجلـترا اعيـد احياؤه في نفس هذه الفترة على الاسس الرومنسية المحافظة تحت قيادة دزرائيلي (١٨٠٤ ــ ١٨٨١) والذي أصبح رئيسا للوزارة سنة ١٨٧٤ ·

كان حجر الزاوية في فكر دزرائيلي هو انجلترا في العصور الوسطى فـــي صورتها الصوفية حيث كانت تتحقق العدالة الاجتماعية من خلال نظام النبالـة الابوي ، والعودة الى تلك العصور هو ما يمكن ان يعين على حل مشاكل انجلترا المعاصرة حينذاك فهو ما يوجد « الامتين » على حد تعبيره ، امة الاغنياء وامة الفقراء · ومثل هذه النظرة الصوفية الرومنسية تؤدي مباشرة ، اذا ما طبقـت على المفهوم القومي ، الى النظرة العرقية · وقد كان دزرائيلي يرى في الجنس او العرق مفتاح التاريخ ويرفض مفهوم القومية التقليدي ، لانه يخشى مما ينطوي عليه من مبادىء المساواة ، ويقدم العرق بديلا عن هـــذه القومية الليبراليـة الخطرة (١٥) ·

والواقع ان دزرائيلي ، وهو اليهودي المعروف ، كان قد سبق وقدم افكـــاره العرقية هذه على لسان شخصيات روائية في قصصه ، حتى ان البعض يذهـب الى جوبينو ان استمد من دزرائيلي ·

ففي نفس الوقت الذي كان فيه تيار الاندماج اليهودي هو الغالب والكاسح في انجلترا والنظرة المتعصبة لليهود والمتوارثـة من العصور الوسطـى تتهـاوى وتضمحل ، وتغلب الفطرة الجديدة المتحررة من التعصب ضد اليهود ، يقـــدم دزرائيلي رواياته التي تنضح بالعرقية والتعصب العرقي · فقد سبق دزرائيلي كتابان هامان في الادب الانجليزي هما رواية « هارنجتون » لماريـــا ادجورت ونشرت سنة ١٨١٧ ورواية « ايفنهو » للسير والتر سكوت ونشرت سنة ١٨١٩ وقد قدم كلا هذين العملين الادبيين في وقت مبكر بالنسبة للرواية الانجليزيـــة « الشخصية اليهودية الطيبة » بعكس الصورة التقليدية التي عرفت فـي الادب الانجليزي لليهودي باعتباره الرجل الشرير · بينما كتب دزرائيلي رواية « دافيد الروى » سنة ١٨٣٣ قبل ان يصبـح رئيسا للوزارة البريطانيـة · وفـي هـــذه الرواية يقدم دزرائيلي البطل اليهودي الصهيوني قبل نصف قـــرن من ولادة الصهيونية رسميا في بال (١٦) وهو يرفض الاندماج ، ويتبنى الموقف العرقـــي المتطرف · فتفوق البطل اليهودي وغيره في رواية « دافيد الروى » هو تفـــوق عرقي « كل شيء عرق ليس ثمة حقيقة اخرى » وحتى « ما يعتقده الناس سلوكا فرديا ، ما هو في الحقيقة الا شخصية العرق » · وفي نفس الوقت الذي كانت

فيه كل الفرص للاندماج مفتوحة امام اليهودي ، في جو التحررية والعقلانيـــة السائد ، يرتد دزرائيلي الى العقيدة القديمة : فهو يرى انه من المستحيـــل ان تهدم عرقا صافيا لانها حقيقة سيكولوجية ، وهي قانون الطبيعـة البسيط ، وهو لا يكف يردد طوال فصول الرواية « ان العبريين عرق غير مختلط » ٠

ومع ذلك فالفكرة العرقية لم تتحقق لها السيادة فيمفهوم القومية الانجليزي، كما حدث في المانيا ، لان الدفعة الليبرالية كان لها الغلبة وليس مفهوم دزرائيلي، وظلت المفاهيم الليبرالية الاخلاقية ، او ما يسمى بالمفاهيم الفكتورية هي الاقوى، برغم غزو الفكر العرقي للقارة والذي ارتبط بالداروينية الاجتماعية وافكـــار البقـــاء للاصلح ٠

اما مفهوم القومية الفرنسي ، فقد كان اكثر تعقيدا وتركيبا ، لانه يغتذي مـن اكثر من تراث تاريخي ٠ فهناك تراث اليعاقبة في المساواة وكان هناك تيار اخـر يمزج بين مفاهيم العقل والثورة مع تأكيد معاني المجد والعظمـة النابليونيـة ٠ وكان هناك ايضا من يستمدون مفاهيم القومية من النظام القديم مع رفـــض مبادىء المساواة الاجتماعية والسياسية ٠ ولكن من الملاحظ ان المناهج القومية الفرنسية التي تأسست على التراث الثوري ، كانت اقل توجها الى الماضـــي البعيد من النزعات القومية الانجليزية او الالمانية ٠

العرقيـــة الالمانية

تيار العرقية الاوروبية وجد ارضه المهدة والصالحة تماما في المانيا بالذات، ويبدو ان مذهب جوبينو عرف طريقه الى المانيـــا من خلال صداقتـــه لريتشارد «فاجرزا» اما جوبينو فانه لم يلق اي نجاح في فرنسا في تلك الفترة ، وظل نسيا منسيا مدة طويلة ، الى ان لفتت اليه الانظار شعبيته في المانيا ٠

وفي المانيا انحسر نفوذ جوبينو ليأخذ مكانه هوستون ستيوارت تشامبرلين ، الذي كان احد تلاميذه ريتشارد فاجنر المتحمسين ، تزوج ابنتـــه ٠ وكـان مـــن اصل انجليزي ، ولكنه صار فيما بعد من دعـاة الجرمانيـة المتعصبين ، وكـان الامبراطور وليم الثاني من اصدقائه الاقربين ، وساعد كثيرا في نشر ارائه فـي المانيا ٠ وقد نشر كتابه الذائع الصيت « أسس القرن التاسع عشر » سنة ١٨٩٩ وهو يعتبر الالمان حماة التاريخ العالمي وحملة الثقافة الغربية ، وروحهم هـي التي تحرك وتصنع كل مكتسبات العصور الحديثة ، وهي روح تصلبت من خلال الصراع الذي لا يتوقف ٠ والعرق الاري يوجد في وسط « فوضى من الاجناس» ولكن هناك عرق واحـد غير العـرق الاري ظـل نقيـا ، واليهـود هـم الذيـن يجسدون هذا النقيض العرقي النقي ، ومن ثم فهم الخصم الدائم في هذا الصراع

من اجل البقاء · وهكذا نستطيع ان نرى كيف تدعم العرقية بعضها البعض ، رغم الخصومة القائمة في الظاهر · فليس هناك عرق نقي يقابل العرق الاري سوى اليهود ، لكنهم في رأيه غير المؤهلين للفكر الرفيع والثقافة ، وهو ما ينقلنا مباشرة الى المقابلة الطريفة · فالصهاينة العنصريون يعتقدون بالمثل وفي المقابل ان الجنس العربي والشعوب العربية غير مؤهلة للثقافة الحديثة والعلوم وليس في مقدورها امتلاك التكنولوجيا المتطورة : واليهود في رأيه يمتلكون ارادة حديدية من اجل السيطرة والقوة ، ولكنهم يفتقدون كل عمق ميتافيزيقي · اما الحرب العنصرية عند تشامبرلين فهي حرب شاملة لا يمكن ان تنتهي الا بالفناء او النصر ، والاريون يحتاجون الى قائد من اجل تحقيق الانتصار على اليهود · وحول نهاية حياته اعتقد انه وجد هذا القائد الفذ في شخصية ادولف هتلر (١٧) · والواقع ان عبقرية هتلر لا تخرج من كونها تشامبرلين صيغ في قالب يلائم الجماهير كما يقول هرتز (١٨) ·

وتأكيد تشامبرلين على العوامل الثقافية والروحية يهتدي بتراث الرومانسية، وينقلها من ميدان العلم الى ميدان الاسطورة على دأب الرومنسيين الرجعيين · فقد كان يرى ان كل ثقافة ، وكل ما هو ثقافي ، يقوم على روحانية حقيقة ، وهي سمة آرية في مقابل ما هو يهودي والمسيح نفسه اصبح نبيا آريا · وبذلك اصبحت الحرب بين الاجناس هي حرب الروحية ضد المادية · ولا فرق بين هذا الفكر وما يعتنقه العنصريون الصهيونيون من ان حربهم ضد العرب هي حرب التقدم ضد التخلف ، والسمو الخلقي ضد الهمجية العربية ، او ما يعتقده العرقيون العرب ايضا ويردده كميل شمعون والجميل وغيره من الانعزاليين العرقيين من ان كفاحهم ضد الفلسطينية والتقدمية هو دفاع عن قيم الغرب الروحية ضد المادية · وكان العنصريون الاوروبيون يتهمون اليهود بانهم يستخدمون الماركسية المادية وحرب الطبقات لتدمير بناء الامة · وتحولت العنصرية اكثر فأكثر في وسط وشرق اوروبا الى دين غيبي جديد ·

وانه ليبدو ان الثورة الصناعية التي هجمت فجأة على المانيا ، نتيجة تطورها السريع في اخريات القرن ، افسحت المجال لمثل هذا الفكر العرقي الذي يحقق استقرارا وانسجاما قوميا موهوما ، في مقابل الصراع الاجتماعي المتعاظم والذي بدأ وكأنه يهدد الامة بالدمار ·

ولكن لا يصعب الكشف عن الجذور البعيدة للعرقية الالمانية ، والدور البارز الذي لعبته تيارات الفكر العنصري والسلفي المتأصلة في التقاليد العريقة لطبقات المحاربين واليونكرز · فقد ظلت هذه الطبقات في اجزاء كبيرة من المانيا لها السيطرة والغلبة ، نتيجة ضعف البورجوازية الالمانية ، وتخلف نموها ، كما ظلت تقاليدها وتراثاتها العرقية تمثل الفكر السائد · وقد جعل فردريك الثاني

من طبقة « اليونكرز » في بروسيا طائفة متميزة تماما ، تحولت الى طبقة عسكرية محترفة ، وجيش حاكم يحتقر غيره من الطبقات · وقد عزز بسمارك من دور العسكرية البروسية وسيطرتها على المانيا بانتصاراته المدوية ، والامبراطورية التي اقامها على اكتاف هذه الفئات ، كما كسب لها تأييد الاقسام العليا من البورجوازية الالمانية ، وحتى جزء كبير من الطبقة الوسطى البروتستانتية · ولا شك ان افكار تفوق الجنس النورديكي والعنصر الجرماني ، والتي اشاعتها هذه الفئات المسيطرة والقابضة كانت موجهة في حقيقتها ضد الطبقات الشعبية الالمانية اكثر مما كانت ضد الامم الاخرى او اليهود (١٩) فدعاة العنصرية الالمانية القدامى من امثال ج· كليم واوتوامون كان شغلهم الشاغل اثبات دونية الطبقات الشعبية ، وانها احط في اصولها من الطبقات الحاكمة واصبحت الطبقات العليا في مذهبهم آرية من حيث المنبت ، أما الدنيا فهي منغولية ، وذلك لتبرير السيطرة الفاشية للنبالة والطبقات العليا ·

وكان للوثر بوجه خاص اثره العميق في الروح الالمانية والاخلاق ، فقد استمد تعاليمه الاخلاقية والاجتماعية الى حد كبير من « العهد القديم » وان كان ذلك لم يمنعه من اثارة الالمان ضد اليهود ·

ومن اليسير ان نقارن بين اقوال لوثر واقوال المسيح ، لنرى البون الشاسع بينها ، الى الحد الذي يستحيل معه التوفيق ، ومع ذلك فقد كان لوثر يعتقد باخلاص انه ينطق بأمر الله ، كما فعل عندما وضع مسؤولية مذبحة الفلاحين في حرب الفلاحين على الله ! والكثير من السمات المسيطرة والشائعة في الروح الالمانية مثل تفضيل التصوف على العقل ، وتمجيد البطولة والاعتقاد بانهم يعملون بوحي من الله ، وهم يتصرفون كالشيطان ، يمكن تتبعها في شخصية لوثر ، وان كانت العوامل التاريخية والطبقية هي التي حددت نموها وتأصلها وحتى « سوبرمان » نيتشه يمكن ان يعد من سلالته الشرعية · وقد كان العنصر الصوفي في ايمان لوثر بعيد الاثر في نمو الفلسفة والشعر والموسيقى الالمانية· وقد مهد السبيل بصفة خاصة للرومانسية وعبادة الكون اللذين الهما الكثير من الشعراء والفنانين العظام · ولكنه لعب دورا كبيرا في تحطيم المعايير المسيحية في المانيا الحديثة · والواقع ان هيجل وبسمارك ونيتشه وفاجنر حملوا تقاليد اللوثرية (٢٠) ، ويفسر انجلز اتجاهات لوثر ومواقفه المعادية للعوام بقوله انه بين سنة ١٥١٧ وسنة ١٥٢٥ اثناء حرب الفلاحين حدث للوثرمن التحولات ، ما حدث لدعاة الدستور الالمان او الليبرالية الالمانية بين سنة ١٨٤٦) ١٨٤٨ وما يحدث لكل بورجوازي يجد نفسه لفترة من الزمن على رأس الحركة الثورية ، ولا يلبث حتى تفزعه حركة العوام او البروليتاريا وتدفعه الى النكوص على عقبيه · واذا كان لوثر قد وضع سلاحا قويا في يد العوام بترجمته للانجيل ، وبمعارضته للمسيحية الاقطاعية ، الا انه لم يلبث حتى سدد نفس السلاح الى صدور الفلاحين

عندما دعاهم للخضوع حتى العبوية (٢١) ٠

ولكن فشل ثورات سنة ١٨٤٨الديموقراطية الليبرالية هو الذي انضج الظروف كما سبق ورأينا لصعود تيارات النزعة القومية الرجعية اللاعقلانية والعرقية ، لا بين الالمان وحدهم ، بل وكذلك بين الاقليات القومية في المانيا والدول المجاورة ٠ فقد كانت عواقب الفشل بمثابة الكارثة ، فقد انهارت الامال التي عقدت على الثورة الفرنسية ، وتعاظمت الفوضى ونزعات العدوان والاستبداد ، وقد هاجر من الالمان الى امريكا في السنوات العشر التالية ما يربو على المليون ٠ وبدأ اخرون في الجنوح الى اليمين ، وعقدوا الامال في الوحدة القومية على العسكرية البروسية ، وصار بسمارك وريث هذه الثورة الفاشلة ، كما سبقه نابليون في وراثة الثورة الفرنسية ٠

والواقع ان ريح الثورة المضادة كانت قد بدأت من قبل في سنوات سيطرة الحلف المقدس اثر هزيمة نابليون ٠ فالمانيا سنة ١٨١٥ كانت تحركها روح التعصب ضد اللاتين ، واصبحت شعارات الشعب الالماني هو الشعب الاصيل ولغته هي اللغة النقية ، ومسيحيته هي المسيحية الاصيلة تجري على لسان الفلاسفة الالمان ، لكن بمفهوم قومي ثوري ٠ وكان الفكر الفخي هو واضع هذه اللبنات الفكرية ٠ ولكن الاحداث تخطت الفختية والبونابرتية ٠ وجاء هيجل ليطبع الفكر الالماني بمزيد من العنف ٠ اصبحت الحرب هي التعبير عن الحق والاخلاق وبدأت تنتشر بين المفكرين الالمان صورة لالمانيا تحيط بها هالة من العظمة والتفوق الاسطوري ، يقودها ابطال تحرسهم العناية الالهية ، ويسودون على شعوب لم تستيقظ بعد ، وتحولت الاهداف القومية الالمانية ، الى اهداف اوروبية، فاصبح لالمانيا رسالة اوروبية ثقافية ٠ ورأى هيجل ان القسوة والفظاظة ذاتها قد تصبح علامة القدر ! وان التاريخ يتشكل على يد الحمقى والمجانين الذين يحركهم حماس عظيم (٢٢) فالقوة وحدها هي التي يمكن ان تقدم الحجة لتبرير العقل ٠ ويسجل انجلز انه من السمات الخاصة لبروسيا ان الثورة البورجوازية بدأت سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٣ ثم اخذت من سنة ١٨٤٨ حتى نهاية القرن الصورة البونابرتية (٢٣) ٠

وقد شارك التيار الكاثوليكي والمفكرون الكاثوليك في دعم هذا التيار الرجعي فاصبحت الفضيلة الالمانية هي التي ستنتصر اخر الامر على الفساد اللاتيني ، وعلى الشعب الالماني ، ان يحرر نفسه اولا من المواثيق والدساتير « هذه الاوراق» التي تتحدث عن الحرية ٠ اما رسالة المانيا ، والشعب الالماني ، فهي قيام الدولة المسيحية الكبرى بفضل القوة وعقيدة الجامعة الجرمانية (٢٤) ٠ هذه الافكار والدعاوى التي ستترجم بنصها وحرفها الى دعاوى رسالة اسرائيل ٠٠ وقيام اسرائيل الكبرى بفضل التفوق والقوة والجامعة اليهودية ٠

رسالة المانيـــا

اذا تتبعنا تطور الفلسفة والفكر السياسي الالماني ، نشهد مع هزيمة الليبرالية وصعود تيار الرجعية تحول مفهوم « رسالة المانيا » عن مضمونه الانساني كما قدمه فلاسفة التنوير والتقدم البورجوازيين الالمان من امثال جوهان هردر وكانت بمعنى اسهام المانيا في تقدم الانسانية واقامة نظام من العدل والسلام الدائم · تحول هذا المفهوم ليصبح اداة دعم لتطلعات التوسع وسياسات العدوان لطبقات اليونكرز والعسكريين الالمان والامبرياليين ·

وفي جذر هذا التراث والتيار الرجعي تقف (المدرسة الالمانية في التاريـخ ، ومن اقطابها المبرزين ليوبولدرانكه Leopold Ranke (٢٥) الذي كان يرى في الدولة البروسية الالمانية تجسيدا « للفكر الالهي » وهو مفهوم تأليه الدولـة القديمة الذي لم يستطع ان يتخلص منه حتى الفيلسوف العظيم هيجل (٢٦) ·

وفي نهاية القرن التاسع عشر انتهت مدرسة رانكه هذه الى المذهب الوطني لهنريك فون نريتشكه (٢٧) وهو الذي يصفه لينين بانه مؤرخ ذو عقلية بوليسية رسمية · اما نريتشكه هذا ، فقد تحول وانقلب مع تحول اقسام كبيرة مـن البورجوازية الالمانية والمتعصبين الالمان مع انتصارات بسمارك ، واكتساحـه لمواقع الليبرالية الالمانية · وهو في محاضراته ومقالاته وفي اعظم كتبـه الـذي لم يكتمل « التاريخ الالماني » وضع الاساس لافكـار صارت فيمـا بعد دعامـة النزعات القومية الرجعية العنصرية والعدوانية ، وكان لها اكبر الاثر في تشكيل عقلية الطبقات الوسطى والعليا الالمانية · وقد حمل افكاره بمحتوى عدوانـي اصبح اساسا لمفهوم « الرسالة الالمانية » و « اتحاد الجامعة الالمانية » ودعاتها الرجعيين من رجال الصناعة والاستثمار والتوسع · وقد اصبحت مفاهيمه هذه هي انجيل الاشتراكية الوطنية فيما بعد وشعارها المعلن « نريد مكانا تحـت الشمس » وقد اعلن معاداته الصريحة للقانون الدولي ، والاخلاق في السياسة، وللحرية والانسانية في القانون ، وللمساواة وحقوق المرأة ، والحركة العمالية، وحتى لنشر الثقافة بين الجماهير ، ووصف الشعوب الاخرى بغطرسة وازدراء اما عداءه للاشتراكية فقد كان بالغ العنف · فالتفاوت هو الامر الطبيعي ، وعلى الملايين ان تكدح لتوفر للصفوة اسباب الحكم وانتاج الثقافة وفي سنة ١٨٧٩ بدأ نريتشكه في مهاجمة اليهود ، بحيث ان عدواته للسامية ، وهدفه من مهاجمة اليهود ، لم يكن في حقيقة الامر سوى معاداة للتحررية والحركات الثورية ·

العدوان وسياسة الالحاق والضم

وسنشهد في تطور مفهوم « الرسالة الالمانية » نفس الشعارات والنداءات ـ

حتى لتكاد تكون بالحرف الواحد ـ التي سيترجمها العنصريون الصهيونيين الى قاموسهم ، وتنقل من الامة الالمانية الى الامة العبرية · فقد تطور هذا المفهوم على يد الامبرياليين والعنصريين ليجسد كل نزوعات السيطرة والعدوان تحت دعاوى : الدور الرائد والقائد للدولة البروسية الالمانية في التاريخ ، ومن اجل التقدم والتحديث · واعتبار القوة هي سبيل ضمان قيام الامبراطورية الجرمانية والتعبير عن تفوق الجنس الالماني ·

وتحولت دعاوى « الحرب الدفاعية » الى تمجيد « الحرب الالمانية » التي تخوض غمارها « البطولة الالمانية » لتؤكد تفوق اخلاقياتها على اخلاقيات « التقاليد الانجليزية » وغيرهم من الاجناس المنحطة تاريخيا ، والتي ليس لها الحق في اي وجود تاريخي او مستقبل ·

هذه الافكار التي غطت الساحة ١٩١٤ لم تكن سوى التعبير السافر عن نزعات العدوان التي تختفي وراء دعاوى الحرب الدفاعية والحرب الوقائية والتي تحولت الى « ضرورة تاريخية عليا » و « نداء الروح الالمانية وقدرها » ورسالة « الثقافة الالمانية » والدولة الالمانية (٢٨) ·

اعمدة المعرفية السبعة

١ ـ عبادة البطل ·· ونظريات الصفوة

صورة الرواد الاول الذين هبطوا على ارض فلسطين ، او ارض اسرائيل ـ بلغتهم ـ مع الهجرات المتوالية في اواخر القرن الماضي ، واقتحموا البيد والصحارى والارض الخراب ، ارض بلا شعب ، ليعمروها ليصنعوا ليصبحوا شعبا من مشتتين مشردين · هذه الصورة التي تملأ الادب الصهيوني ، ونموذج الرائد البطل الاخلاقي ، والتي تتمثل فيه اخلاق القوة والصلابة والاقتحام الى جانب الزهد والتقشف والتضحية التي لا تزال مصدر الالهام والوحي بالنسبة للمجتمع والكيان الصهيوني · هي صورة لا تخرج عن كونها النسخة الصهيونية للمفهوم الرومانسي عن البطل الرائد المقتحم والصفوة الممتازة التي انتشرت في اوروبا خلال ازمتها في نهاية القرن ، انتشارا لا حدود له· فقد اصبحت مسؤولية البطل والصفوة انقاذ ما لم تستطع البشرية انقاذه وتحقيق الحلم التي قصرت جهود البشر عن تحقيقه ·

كانت الصورة الرومانسية الاولى كما نعرف هي صورة المعاناة والموت الصامت ، والالم المهلك الذي يعيشه ابطال شباب يموتون من الحب او من السل ويثيرون فينا الشفقة والرحمة كان نموذجهم الام فيرتر لجوتيه ·

ولكن الرومانسية قدمت شيئا اخر ، وانتقلت الى عبادة صورة البطل الذي

تتمثل فيه الاصالة والعبقرية وهو ما ينسجم مع منطق الرومانسية ، اذا صح ان لها منطق ، فهو النتيجة الطبيعية لنزعتهم الفردية والتي تكمن كما نعرف وراء المزاج الرومانسي كله · فقد حل مفهوم البطل العبقري محل روح التفاؤل والثقة بالمستقبل التي كانت تحرك كتاب ومفكري عصر التنوير ، والمعتقدة تماما لدى الرومانسيين الذين يجسدون عصر المعاناة والقلق والتوتر · فقدموا صورة البطل العبقري الذي يعلو على الظروف ، وينجح برغم الظروف انطلاقا من قواه الباطنية والكامنة ·

فالاصالة والعبقرية لا يقيدها التقليد البارد او العادات والعرف السائد لانها تنطوي على تحقيق كامل للذات ، ولا يمكن ان يعوقها عائق ، وهو ما ينسجم مع المثالية الرومانسية في نمو الفرد وتحقيقه لكامل قدراته وامكانياته من خلال التوتر الرومانسي · وهكذا كانت تدفع فاوست جوتيه (١٨٠٨) عواطفه المشبوبة وعشق الحياة ·

ولكن في انجلترا ، وليس في المانيا او فرنسا ، تم الامتزاج بين الرومانسية والنزعة الواقعية لتقدم صورة للبطل العبقري الذي لا يقضي بالفشل والمعاناة والموت الرومانسي بل يضع برنامجا للمستقبل · وهكذا قدم توماس كارليل (١٧٩٥ ــ ١٨٨١) صورة شعبية لبطل يسعى الى تنمية ذاته وشخصه بدفع من داخله ، ولكنه لا يدمر ذاته بصنوف المعاناةوالمعارضات التي لا جدوى منها لحياة الجماعة بل يقوم بالفعل بتغيير المجتمع (٢٩) ·

وفي كتابة « الماضي والحاضر » (١٨٤٣) يعلن رفضه لمجتمعه المعاصر · فالارستقراطية عاطلة وحقيرة والطبقة الوسطى تعبد اله المال اما الطبقة العاملة فهي مجرد جماعة من النحل في خلية · وكارليل يوجه بصره شطر الماضي خروجا من المأزق ، ولكن لا يتعلق بهذا الماضي ، بل يصوغ منه برنامجا للمستقبل وهو اذ يرفض مجتمعه بكل طبقاته ، لا ينتهي الى اليأس او الهزيمة ، لانكارليل على خلاف الرومانسيين الاخرين ، يقبل المجتمع الصناعي ، والثورة الصناعية، وليس ذلك من قبيل الصدفة ، فهذه الثورة كانت قد سبقت غيرها في انجلترا ·

وكان لقبوله العصر الصناعي اثر في تحويل صورة العبقري الرومانسي الى نموذج القوة واصبحت المدن الصناعية في نظره مثلها مثل الطبيعة العذرية : اصوات الاتها وضجيجها وهي تصحو فئ الفجر في مانشستر مثل دوى شلالات نياجرا · لها نفس السحر والسمو ، وسموق القوة والعظمة ، اما هدير الالات في المصانع ، فهو كمثل امواج الاطلنطي العاتية · وما يؤكد عليه هنا هو عنصر القوة ، ليس في الصيغة المتوحشة وحدها ، بل وايضا القوة المستأنسة في مانشستر · اما المشاكل والمعضلات الاجتماعية التي جاءت معها ، فكارليل يعيها

جيدا ، ولكن حلها عنده ليس حلا اجتماعيا او اقتصاديا بل في بناء الخلق · بناء اخلاق الانسان ـ العبقري البطل ـ وهو الحل الذي تصادفه دائما في كتابات الصهاينة في التعلق باخلاق الرواد ومثال البطل الرائد الذي اقتحم وبنى وشيد · ويتمسك بمبادئه واخلاقياته ·

وكارليل يرى ان المثال الرومانسي لفروسية العصور الوسطى يصلح حلا لعصرنا ، وقد كتب عن الفروسية النبيلة للعمل التي تجمع وتوحد بين اصحاب الاعمال والعمال حتى يشنوا هجومهم على الطبيعة لاخضاعها · والعبقري كقائد عليه ان يحل معضلات زمانه ويتصدى لاخطارها · هذا العبقري يزدري المنطق والحلول العقلانية ويهجم على المشكلات ، ولا يخضع سوى لقوانين الطبيعة · وكارليل يستعير من اخلاقيات الليبرالية وهي اخلاقيات فاعلة ونشطة لان هذا البطل يحقق كمال ذاته من خلال القوة الفاعلة والشجاعة · والدافع دائما هو النجاح ، وكارليل يقدم الجسارة الجسورة الشرسة بديلا لشعرية فيرترجوتيه ، وقوة العاطفة عند بقية الرومانسيين ·

لقد انقلب كارليل من تأكيد القوة الى عبادة العنف · فاذا رفض الصينيون التجارة مع بلاده سنة ١٨٤٢ فعلى انجلترا ان تحاول «بطلقات المدافع» وتفرضها عليهم فرضا ·· أما التجارة التي كان يرفضها الصينيون حينذاك ، فهي تجارة الافيون « في حرب الافيون » ·

لقد كان عصر كارليل في انجلترا ، ليس عصر الصناعة فحسب ، بل عصر الاستعمار الكولونيالي وعلى عتبة العصر الامبريالي ، وكان كارليل يريد ان يحمل بطله مسؤولية الصناعة والفرد معا (٣٠) ·

والواقع ان الفكر العرقي ضم الى ترسانته نموذج البطل الرومانسي هذا ،وهي الفكرة التي تطورت خلال القرن التاسع عشر واوليات القرن العشرين لتلتحم بمفهوم الصفوة امتدادا من كارليل الى فاجنر ونيتشه وشينجلر ·· وفي الطريق استعار هذه المفاهيم جميعا المفكرون الصهيونيون وثبتوها بالكامل سواء في صورة الرائد البطل او الصفوة التي خلقت الوطن القومي حتى شكلت السلطة في دولتها منذ ان وجدت حتى الان ·

اما فاجنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) فقد كان يري مثل كارليل ان هؤلاء الابطال يجسدون في اشخاصهم فحولة شعوبهم او عذريتها · وهم يشكلون جزءا من اسطورة الشعب الذي ما زال يحتفظ بقواه الحيوية التي استمدها من الماضي الجرماني البعيد ، هذه الاسطورة تقف خارج التاريخ ، لا تنال منها احداثه او تطوراته ، وهي خالدة لانها تعطى الانسان جذوره · وقد البس فاجنر ابطاله هؤلاء وهم اباء الجنس شحنة من العاطفة جعلت لهم شعبية بين الطبقات الوسطى الالمانية (٣١) ·

ومن فاجنر ننتقل بشكل طبيعي الى سوبرمان نيتشه :

رفض نيتشه وجود حقيقة ثابتة ، فالناس يغيرون دائما من قيمهم ، والانسانية التي تترك نفسها لتلقائية الحياة ، لا بد ان تتلقى صدمه كي تفيق « فالله قد مات» ولا جدوى من خلق الهة اخرى بحثا عن الامن · اما السعادة والفضيلة وما شاكلها ، فكلها اوهام والمجتمع المعاصر وهم وكل ما يخلقه من امان فهو وهم · لان المجتمع عدو للناس والضلال ان يدعي الافراد الى ان يحيوا حياة فاضلة مقيدة !! اما المسيحية فاخلاقيات العبيد لان افكارها عن خدمة المجتمع والناس ومن بعدها المساواة هي التي خلقت الديمقراطية ، وهي شر لانها خدعت الانسان وعاقته عن معالجة فوضى الحياة ، اما العلاج فهو تغيير القيم وقلبها ، وحتى هذه قد تكون فكرة مضللة · فقد اختار نيتشه نموذجه للتغيير من الانسان البربري الهمجي القديم ، وهذا قد يبتعد اصلا عن القيم ، وخلق لنفسه قيمه الخاصة ، وهو النموذج الذي ينبغي ان نبحث عنه ونجتذبه : نموذج هذا البربري الهمجي في تعامله مع الجماعة التي يرفضها اصلا · فالانسان في نهاية الامر « معلق في فراغ » فكيف يعالج الانسان هذا العالم الفوضوي ؟ ومن الواضح انه كان يصف مجتمعه ـ اما اجابة نيتشه فهي : ان يعيش الانسان في فراغ وانسجام معا مع العالم وكيف يكون ذلك ؟ الانسان لا يتحكم في فوضى العالم الا بمقاومته وصراعه ضد هذه الفوضى ، ان يقبل الحياة في فراغ ثم يصارع ضد طبيعته ذاتها · ومثل هذا البربري الهمجي سيكون خارج اطار الخير والشر كما خلقتهما المسيحية لان المقاومة هي ان تترك ذاتك للعالم وتخاطر وتضحي · عش في خطر · وكان نيتشه يعتقد مع دارون ان الحياة قوة شاملة وغير مرئية ، والانسان لابد ان يفسح المجال لهذه القوة الحياتية ، لانها شيء ايجابي · واذا اسلم نفسه لهذه القوة ، فهو ما يعني اطلاق كل العواطف الايجابية : « الكبرياء والفرح والبغضاء والحرب » ومن اجل تحقيق ذلك فان الانسان يحتاج الى ما يسميه ارادة القوة ·· مثل هذا الانسان يسميه نيتشه باسمه الاغريقي : انسان ديونيز ، وهو البربري الهمجي الذي يخلق قيمه لنفسه ، حيث انه من خلال ارادة القوة ، يدخل بالكامل في قوة الحياة ، ليسيطر على فوضى العالم ، بتأكيده لهذه الفوضى ذاتها ·

الانسان في حرب ، وحرب لا تتوقف ، ولكنه كسبها من خلال ارادة القوة ، من حيث هو تحول الى انسان ديونيز ، لا انسانا بورجوازيا حقيرا · وهذه النزعة الفردية عند نيتشه تعنى اغترابا كاملا عن الكتل والجماهير وفي « هكذا تكلم زرادشت » يصور انسانا يصمم على تحويل العالم ويحاول ان يقنع العالم بهذه الافكار ، ولكنه يفشل في ان يؤثر في عوام الناس ، كما يفشل في ان يشكل جماعة عندئذ يواجه العالم وحيدا وعندها يصبح هو نفسه السوبرمان الحقيقي·

ووصل نيتشه الى الاعتقاد بالصفوة من خلال مفهومه هذا عن « السوبرمان » وقد تجسد سوبرمانه وصفوته في الحكماء الجرمان ٠

كانت ثورة نيتشه ضد عصره ، عصر البورجوازية ، وضد الوضعية وكانما كان الناس ينظرون فيما وراء الظواهر بحثا عن اعماق طبائعهم غير المادية ولا العقلانية ٠ فانتهوا الى الفوضى التي لا تحكمها سوى القوة و « الصفوة » (٣٢) فمهدوا الطريق ــ على غير ارادتهم ــ نظم تعبد العنف والقوة وحدها ٠ وقد بلغ النظام البورجوازي قمة عنفوانه وهمجيته في الفاشية ٠ وبين المفكرين الالمان بالذات تجد هذه الفلسفات والجماعات التي مجدت القوة فحولتها الى عبادة ومنهم من ربط بين مفهوم الصفوة والتكنولوجيا ، وفي رأيهم ان البورجوازية استخدمت التكنولوجيا من اجل التقدم ، بينما ينبغي استغلالها من اجل القوة٠

وقدم شبنجلر كتابه عميق التأثير « أفول الغرب » سنة ١٩١٢ ضمنه تفسيرا كاملا للعالم من خلال التاريخ والبيولوجيا ونظريات الصفوة ، وينتهي فيه الى نفس النظريات النيتشويه عن « الصفوة » او « السوبرمان » او « الهمجية الجديدة » ٠ وهو يرفض المادة ويستبدلها بدوافع الانسان الداخلية ، وهي القوة الحياتية التي تحولت عنده الى فلسفة ودين ٠ ولا شك اننا نصادف بصمات الرومانسية الرجعية واضحة لا لبس فيها : نزعة المعارضة للعقلانية والعودة الى الدينامية الداخلية للانسان ٠ وهو كان يعني عند الكثيرين الرفض ٠ رفض سطحيات وحقائق الساعة السياسية والاجتماعية ٠

ويعالج شبنجلر التاريخ ، وقيام الحضارات وسقوطها معالجة بيولوجية كمثل الكائن الحي ٠ والتاريخ يبدو له عملية بيولوجية تحركها دوافع ميتافيزيقية ٠ وانتصار المال وعداء الطبقة المتوسطة السائدة للفضائل الارستقراطية ، وافتقاد الحيوية والدينامية في الغرب ، ونمو فلسفة الخضوع ، فلسفة الاشتراكية المادية ، هو في رأيه عين السقوط ، وهو مما وصل بالحضارة الفاوستية الى الارض ٠ ولكن القرن العشرين يشهد نهوضا ونموا جديدا يمكن ان يعيد الحياة لعملية التطور البيولوجية في الغرب ٠ فالكبرياء والغريزة على وشك ان تنتصر على المال ٠ وقد يبدأ عصر الحرب الشاملة المتصلة ، وهو ما سيعيد الى الحياة مبادىء الصفوة الارستقراطية ، هذه الحروب القادمة سيخوضها اتباع يلتفون حول قائد ، وهو ما يعني انبعاث جيل من « القياصرة الجدد » او « البرابرة الجدد » باعثي الحياة الجديدة ، والحضارة والثقافة ٠

لقد امتزج مفهوم الصفوة والقوة لدى هذا الطابور من المفكرين كما امتزج تماما في مفهوم الرواد الصهيونيين ، ولا شك ان هذه الفلسفات الهمجية هي الثدي الحقيقي والكائن الاسطوري الخرافي الذي رضعت منه جميع الفلسفات

العنصرية والمتبربرة في عصرنا ٠٠ ولا شك ان مفهوم الصفوة يجد تأصيلا عميقا له في التراث اليهودي المسيحي في اسطورة « الشعب المختار » صفوة الشعوب والذي عليه الهداية والقيادة والذي يخرج الاطفال الذين يصرعون العمالقة كما تحكي القصة التوراتية ، وهو غير مقطوع الاسباب ايضا عن المفهوم الرومانسي الصوفي عن وحدة الله والطبيعة والانسان ، هذه الوحدة الصوفية التي تجسدت في « شعب الله المختار » واخرجت عمالقة بأذن الله ، او بأذن الشيطان « لا فرق » !!

٢ ـ القومية الثقافية ٠٠ وشعب الروح والاخلاق

من ابرز السمات التي تميز القومية الرومانسية الرجعية كما رأينا التركيز على عنصر الثقافة والروح باعتباره المكون الاساسي للامة ٠ فالامة الالمانية هي امة العقل ٠ وامة الثقافة وامة الروح ٠ وبنفس اللغة والعبارات توصف الامة العبرية ٠٠ فهي امة التوراة وشعب الله ٠ وامة الروح خلال التاريخ البشري كله ٠ ورسالتها هي رسالة الروح والاخلاق ٠٠ ذلك الشعب الكاهن !!

واذا تتبعنا جذر هذه الافكار وجدناها ـ ويا للسخرية ـ في الاوضاع المادية والظروف الاقتصادية التي عاشتها المانيا والامة الالمانية بوجه الخصوص وكثير من شعوب شرق اوروبا ايضا ٠ فقد كان للانجليز ما يفخرون به في الثورة الصناعية التي حققوها وكل التقدم والثروة التي تراكمت في ركب الصناعة والتجارة ٠ وكان هذا مصدرا للعزة والكرامة القومية ٠ وبينما كانت المانيا كما شهدنا فقيرة ممزقة محبطة ، كانت مدينة لندن وحدها في منتصف القرن تستهلك من الفحم ، ما يعادل ما تستهلكه المانيا باسرها (٣٣) ٠ في مثل هذه الظروف كان من الطبيعي ان يكتسب مفهوم الامة زخما وتضخما مفرطا، ويصبح الفرد بازائها لا شيء ، ولا وجود له الا من خلالها ٠ اصبحت هناك حقيقتان في نظر بعض الكتاب الالمان ـ ولا شيء غيرهما : الله والامة ٠ واذيب الفرد تماما داخل الكل المنسجم والمتكامل واصبحت الامة جسما واحدا ولكن هذا الجسم اكتسب شفافية ونقاء وقيمة روحية من خلال التاريخ ٠ تحول بالتاريخ والتراث واللغة الى روح ـ مجرد روح ، وتجسدت عظمة الامة المفتقدة في عظمة الثقافة والروح ، واصبحت الامة تكتسب سموها وتفوقها من سمو الثقافة والعقل واللغة : وكلها مفاهيم اكتسبت زخمها من ظروف المانيا بالذات، والشعوب المهيضة في شرق اوروبا والجامعة السلافية ، بعكس فرنسا وانجلترا٠

ولكن الفكرة اكتسبت ابعادا اكبر « فالروح الالمانية » اصبحت تضم الامة الالمانية بكاملها وتتجسد في الشعب Volk بتراثه وعاداته وتقاليده واساطيره

واغانيه وشعره · اما غير الالمان مثل اليهود فقد استبعدوا واخرجوا من هـذا الجسم ، ولم يعد ثمة مكـان لغرباء او عنصر اخر او لطبقـات تعكر صفو هذا الانسجام المتمثل في الشعب ·

وكان على فاجنر ان يضع روح الشعب ويحركها على خشبة المسرح باساطيره وموسيقاه ، هذه الروح والثقافة التي تعلو بوحدتها وانسجامها على اي شكل من اشكال الطبقات والسياسات وكان هذا كله طبيعيا تماما في المانيا ، فلم تكـن فرنسا او انجلترا بحاجة الى مثل هذا النكوص الى التاريخ البعيد ، مع كل ما حققتاه من امجاد قريبة · بينما كانت المانيا تحتاجه ، وهي المزقة المهيضة · وقد وصل بها هذا النكوص الى شخوص الماضي واوهامه واساطيره الى الحـد الذي شهدناه فيما بعد في الاشتراكية الوطنية ، والمانيا الهذلرية التي كانـت تفقد وعيها حتى الثمالة فوق قبور الامراء الجرمان القدامى ، وفي مظاهـر العظمة والتقديس للطقوس الغابرة · ومن هنا ايضا كان من الطبيعي ان يلتحم هذا المفهوم للامة بالمدرسة التاريخية الالمانية عند سافيني (١٧٧٩ ـ ١٨٦١) التي كانت ترى ان جوهر القانون يخلقه تاريخ الامة بكامله وينبع من عمق وجودها، وبذلك لم يبعث التاريخ فحسب بل وقوانينه وممارساته البالية وتحت ثقل هـذا التراث الرومانسي الوطني امكن للطبقات الحاكمة ان تبعث التاريخ الوسيط متجردا من كل ما يشينه او يسمه بالظلام !!

هذه الامة الروحية التي تسمو بثقافتها وروحها فوق كل الطبقات والسياسات، والتي تتميز بوحدتها وانسجامها من خلال التاريخ والعرق النقـي وممارسـات الناموس العتيق والزمن الغابر ، هي التي ورثهـا بالكامـل الصهاينة الالمـان الاول ، وصاغوا على غرارها قوميتهم العبرية والرجعية : القومية الثقافيـة العرقيـة ·

٣ ـ الانسجام القومي والاجتماعي

بلغت الرومانسية الرجعية ذروتها في عصر بالغ التوتر والاضطراب ، كمـا ساده العنف الاجتماعي ، فقد اصبحت معالم الازمة الاجتماعية لا تخفى ، بـل اخذت تتفاقم بعد ان تبددت كل الامال المتفائلة ، واحلام المساواة والاخاء والسلام العالمي ، تلك التي حركت القرن الثامن عشر وحققت الثورة الفرنسية · ولكـن ما اعقبها فاق كل تصور : فقد اشتد الصراع بين الامم وداخل الامم ، واستفحلت مظاهر القهر الاجتماعي والاستبداد · وتقدمت الرومانسية الرجعية تنشد السلام والامن ـ تـارة في الماضي ، واخـرى في احضـان الريف والطبيعة ، ودخـل العنصـر المسيحي فاصبحت الطبيعة ترتبـط بالشعب في حب اللـه ،

وتحققت الوحدة عند شاتوبريان الكاثوليكي بين الله والطبيعة والشعب ، وسرعان ما عبرت الرومانسية النطاق الادبي لتقتحم ميدان السياسة والمجتمع ، شغلتها قضية الصراع الاجتماعي المتفاقم ـ فبحثت عن الانسجام ـ وتصورته عموما في الردة الى الماضي ، الماضي الاقطاعي المسيحي ، وحياة الريف الوادعة ، والفلاح السعيد بعلاقته الابوية مع النبيل الاقطاعي ، وفي العلاقة التعاونية بين اصحاب العمل والعمال · وقد تجده في روح الشعب ولغته التي لا يفسد انسجامها شيء ، وفي ثقافة الامة وقوانينها التي هي من نبع غريزتها المتأصلة ووجدتها اخيرا في العرق والدم النقي الذي يشكل الجنس ، و يعلو على كل الخلافات والصراعات الاجتماعية · وكانت الطبقة الوسطى المذعورة ، والبورجوازية الصغيرة المطحونة هي صانعة هذه الاحلام ووقودها ايضا ، بعد ان احاط بها اتون الصراع الذي لا تتبين له حل ، ولا تجد منه مخرجا · كانت المدن الجديدة تقوم وتتسع بسرعة مذهلة ، ومداخن المصانع ترتفع وترتفع ، يغطي دخانها السماء وعلى الارض يمتد البؤس والشقاء والتوتر والقلق · وكان اليهود ، والاقليات مع مجموعة البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة تطحن طحنا ، وحيثما افتقدت الوعي باسباب شقائها ، سقطت لقمة سائغه في ايدي العرقيين ودعاة الدم النقي والعرق الاصيل · وتراءى السلام المسيحي والانسجام الذي ينفي الصراع ،هو المخرج والامل · وجاءت الصهيونية منذ البداية في اواسط القرن ثمرة لهذا كله ـ فطرحت الصراعات الاجتماعية جانبا ، ووجدت في حلم العودة الى اورشليم والمهد القديم ، والى ماضي العبرانيين ، والعرق واللغة النقية التي تستخرجها من جوف التاريخ ، الملجأ والملاذ · فلم تخرج الصهيونية في ذلك عن كونها احدى تنويعات هذه الحلول الانسحابية الهروبية الرجعية ، التي تعددت وتوزعت بين الفرق المسيحية واليهودية ، وانخرطت في ممارسة الطقوس او الهجرة الى بلاد بعيدة ، وكل ما يحقق لها شيئا من الامن والاستقرار النفي المفتقد ، واستطاعت هذه الافكار ان تستقطب فئات من هذه الطبقات الصغيرة والدنيا ·

٤ ـ الدولة العضوية السندكالية

كان المفهوم العضوي الحيوي للقومية ، للدولة والمجتمع ، من اهم دعائم المثالية الرومانسية الالمانية بوجه الخصوص ، وكان له جوانبه الثورية في بداية الامر ولكنه انقلب ليصبح جوهر النظريات الفاشية والنازية · وتحول الى خدمة مفاهيم الانسجام الحيوي والعرقية بالدرجة الاولى · فالدولة مثل الكائن الحي يحكم اعضاء جسمه التعاون والتكامل ويبدو صراعه مع الخارج

وضد الخارج اكثر منه في الداخل ، فجميع الطبقـــات تشكل جسما واحـــدا متكاملا، يسود علاقاتها التعاون الحيوي · وعندما تطعم هذا المفهوم الحيـوي بالافكار المسيحية ، برزت صورة الدولة التعاونية الهرمية التي تقف على رأسها الصفوة الاستقراطية والنبالة الاخلاقية الرقيقة التي ينشر القيم المسيحية ·

وقد ارتبط هذا المفهوم الحيوي في الدول الفاشية بمفاهيم روح الشعـــب وقواه الغريزية المحركة ، والارستقراطية الطبيعية التي لا بد ان تحكـم مـــن خلال « القوة » والزعيم القائد الذي يعبر عن الروح المشتركة في الامة والنموذج الاعلى · وقد دعى Sorel الى خلق «الاسطورة» التي تمنح جماعة ما التلاحم والانسجام ، وتمكنها من استثمار طاقتها الحيوية على الوجه الاكمل · ذلـك ان الكائنات البشرية في رأيه تتصرف انطلاقا من مقدمات غير منطقية ومن ثم فـأن خلق الاسطورة يحفز ارادتها على العمل ·

وهكذا اصبح نموذج الدولة العضوية التعاونية التي يمكن ان يسهم فيها كل فرد بجهده من خلال العرق النقي والروح المشتركة والاساطيـر القوميـة ، هـو النموذج الذي تقدمه كافة الدول والمـذاهب الفاشية والنازية في المانيـا وايطاليا واسبانيا واسرائيل بديلا عن الصراع والحرب الطبقية في عصر عرف باسم « عصر الجماهير » وعصر السياسات الجماهيرية · ويجمع بين هذه المذاهب والنظريات جميعا عنصر مشترك هو تقديم الاسطورة كعنصر محرك ، وقائـــد للجماهير ، بديلا عن الوعي والفهم العقلاني والزعيم او « الصفوة » او «الرواد» قيادة لا تنازع ، كل ذلك من اجل طمس معالم الصراع الاجتماعي ·

وكانت من ابرز سمات البرنامج الفاشي الايطالي (مارس ١٩١٩) تقديم الدولة الوطن ومعها النظريات السندكالية محورا للاسطورة ، الكفيلـة بطمس معالم الصراع ، فالقادة الذين تحتاج اليهم الادارة يمكن ان يجنـدوا من صفوف الجماهير ، وهناك في صفوف الطبقة العاملة من يستطيع ان يكتسب مهـارات الادارة والحكم · ومن خلال هذا الشكل الجديد للدولة يتوحد العامل وصاحب العمل · ولا جدال ان هذه المفاهيم السندكالية التي شاعت في بدايات القـــرن الحالي بعد خلطها بالافكار الاشتراكية قد اسهمت في خلق مفهوم الهستدروت ، ودوره في بناء المجتمع الصهيونـي ، وهو الاداة الرئيسيـة في تجنيـد الطبقـة العاملة الاسرائيلية في خدمة اهداف الدولة الصهيونية داخل اطار تعاونـــي اشتراكي مزيف ·

٥ ـ الدارونية الاجتماعية

وقد استغلت الرجعيـة العرقية الدارونية بالـذات ، والتي كانت قـد احدثـت

ثورة عقلية في ميدان العلم والبيولوجيا · فقد وجد هـؤلاء العرقيون في بعض مفاهيمها وافكارها ضالتهم ، من اجل اضفاء الصفة العلمية علـى نظرياتهـم المجافية للعلم والعقل ·· وكانت تنسجم مع نظرياتهم الاصلية في النور الحيوي ومن ابرز المفاهيم التي استعاروهـا من الداروينيـة بالطبع مفهوم الصـراع في المملكة الحيوانية والبقاء للاقوى والاصلح ، وثم تحويلها بالكامل الى الميدان الاجتماعي لتكريس عمليات القهر الطبقي والوطني والسيطرة الاستعمارية ·

فاذا كانت السيطرة للاقوى هي قانون الطبيعة ، فالحق اذن للقوة ، وتصبح حتى عمليات الابادة مبررة ، وبذلك اصبح قانون المجتمع الانساني هو بعينـه قانون الغريزة والبيولوجيا وعلم الحيوان ، وبذلك ايضا اضيفت في الحقيقـة « اسطورة » جديدة الى جعبة الاساطير التي ظل العرقيون يروجون لها للتضليل وصرف وعي الجماهير · وهي بالضبط النظرية التي يطبقها الصهاينة علـى العرب والفلسطينيين · فقد نشطت ابحاثهم العلمية واجهزة الاعلام قبل غـدوان سنة ١٩٦٧ وبعده لاثبات ان للعرب عقلية خاصة لا تتمشى مع العقلية العالمية وكذلك اثبات التفوق الاسرائيلي الحضاري ، وعجـز العرب عن استيعـاب التكنولوجيا الحديثة ، ومن ثم تصبح السيطرة بل والابادة والتصفيات الجسدية مبررة لانجاز مهمة التمدن والتحضر لهذا الجزء الهمجي من العالم ·

٦ ـ الابادة الجماعية

وبذلك اصبحت سياسات الابادة الجماعية والتصفية الجسدية للشعوب جزءا لا يتجزأ من السياسات النازية والفاشية ثم الصهيونيـة ·· وما حدث فـي فلسطين منذ سنـة ١٩٤٨ وخـلال مجـازر ايلـول سنة ١٩٧٠ بـالاردن ثـم الحرب الاهلية اللبنانية من محاولات الابادة والتصفية الشاملة للشعب الفلسطيني مما لا يحتاج الى مزيد ·

٧ ـ الاسطورة ·· والطقوس الاسطورية

وتحولت الاساطير التاريخية والطقوس القديمة ·· الى طقوس سياسية على يد الدولة الفاشية ، والهدف الثابت لكل هذه الممارسات هو التعمية الطبقيـة ، وخلق مشاعر الانتماء في الوطن بمفهوم الدولة التعاونية العضوية ، فمن خلال ممارسة الطقوس شبه الدينية ولبس الملابس التاريخية ، وفي المواقع التاريخية ، يشعر المواطن والعامل بالفخار والزهـو الذي يخفـى عنـه حقيقة وضاعتـه واستغلاله · وقد بلغت هذه الممارسات الطقسية في المانيا وايطاليا حدا مضحكا وسنرى ان الطقوس والممارسات الطقسية هي احـدى الدعائم الاساسية فـي

النزعة الصهيونية للصغار والشبيبة في اسرائيل ٠

خيم الظلام على القارة الاوروبية منذ هزيمة الثورة الديمقراطية الليبرالية في العديد من البلدان الاوروبية في اواسط القرن ، وامسكت الرجعية بالزمـــام ، وركبت موجة القومية ، وقادتها في طريق السوقية والعدوانية والتوسع ٠ ولكن حدثا اخر في نهاية القرن ، سيدفع بالامور الى اظلام اشد ، فقد وقعت الحـرب سنة ١٨٧٠ بين فرنسا وبروسيا ، وسرعان ما هزمت جيوش نابليون الثالـــث الذي وصل الى السلطة عن طريق انقلابي اثر هزيمة ثورة سنة ١٨٤٨ وسلمت جيوش الامبراطور في خزي لبروسيا بسمارك ٠ وما لبثت حتى قامت في مارس سنة ١٨٧١ اول ثورة عمالية بروليتارية في التاريخ ، هي كومونة باريس ، والتي اثارت اعمق الفزع في صفوف البورجوازية الاوروبية ، وتعاونت على سحقهـا في المهد الجيوش الفرنسية الالمانية معا ٠ بعدها دخلت اوروبا مرحلة جديدة ، بالسيطرة الغاشمة للرجعيات ، وبداية عصر الامبريالية ، والصراع الدموي بين الامم والشعوب ، والسيطرة الامبريالية العالمية واقترنت هذه المرحلة بدفع مشاعر الوطنية الشوفينية الضيقة ونزعات التوسع والعدوان والسيطرة الى الحد الذي بلغته في الدول الفاشية ، والذي كلف البشرية ملايين الضحايـا في حربيـــن عالميتين ، كما استخدمت كل ادوات القهر الفكري والتزييف والايديولوجيـــات اللاعقلانية ، مما تعززه القومية الرجعيـة الشوفينية وطبقاتهـــا العنصريـة ٠ فالامبريالية في تعريف لينين هي الرخيصة من جميع الوجوه ٠

استخدم الدين كغطاء ، ونفى العقل ، وقدم الحدس والغرائز كبديل ،واعتبر الصراع بين البشر قانون الطبيعة ، وبدا الصراع بين قوى مجهولـة عميـاء في اعين نيتشه ، وكان عداؤه للاشتراكية والديمقراطية شرسا محمومـا ، كمـا بدت سيطرة الصفوة ضرورة ــ كما اصبح لها الحق في اقتراف اي جريمة ، لان القوة والحرب الهدف الاسمى كما شاع التفاخر بالاعراق والاجناس : الجنس الجرماني والانجلوسكسوني او اللاتيني !! حسب الحاجة في مواجهة الشعوب الملونة الوضيعة من الزنج والعرب والهنود والصين ٠ اما رسالة الاعـــراق فهي « رسالة الهية » « رسالة تمدن » تغنـى الادب بالقـوة وبرسالـة الرجـل الابيض وانعكست الازمة في العديد من تيارات الادب والفن ، فازدهرت التيارات المعادية للعلم وللوضعية والعقلانية ، الى جانب سيادة نزعات التشاؤم والتصوف وعبادة القوة والبغضاء بين البشر ، وهي اقانيم القومية الرجعية العنصرية ٠

الحواشي

(١) محمد فؤاد شكري : **الصراع بيـن البورجوازية والاقطـاع** ، مجلـد ١ ، ص ٤٦ ــ ٤٧ ٠

(٢) **المصدر نفسه** ، مجلد ١ ، ص ٤٩ ٠

(3) Engels : *Peasant war in germany* , P. 21 - 22 .

(4) E . Tersen , J . Dantry .. : *L'Europe Mythes et Realites* , Ed.

soc . p . 27 .

(٥) د ٠ عبد الكريم احمد ، **القوميـــة والمذاهب السياسية** ، ص ٢٣٦ ٠

(٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٤٦ ٠

(7) Tersen , *OP* . cit . p . 29 .

(٨) د ٠ أحمد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ٠

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥٤ ٠

(١٠) (١١) فردريك هرتز ، **القومية فـي التاريخ والسياسة** ، ص ٦٩ ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٧١ ٠

(١٣) **المصدر نفسه** ، ص ٤٠٩ ٠

(14) George I . Masse : *The Culture of Western Europe,p.*74.

(15) *Ibid* , P 56 .

(١٦) غســان كنفانـــي ، مـــن الادب الصهيوني ، ص ٤٦ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ٠

(17) George I , Masse , op cit . p 76 .

(١٨) هرتز ، **مصدر سبق ذكره** ، صـ ٧٢ ـ ٧٤ ٠

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ٧٥ ٠

(٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ ٠

(21) Engels , Peasant War , P. 62 - 69 .

(22) Felix pontail , *L,Eveil des* Nationalités , P . 27 - 28 .

(23) Engels , *OP , cit* , P . 29 .

(24) Pontail , *OP , cit* , P 29 .

(٢٥) ليوبولدرانكـه ، مـؤرخ المانـــي (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦) ٠

(26) Arkady Yernsalimsky : **German *Imperialism*** , Moscow P 456 .

(٢٧) مؤرخ الماني (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) ٠

(28) Arkady , *OP cit* . P . 460.

(29) I . Masse , *OP* ,cit . P. 26.

(30) *Ibid* , P . 27 - 28 .

(31) *Ibid* , P . 82 .

(31) *Ibid* , P . 217 - 218 .

(33) *Ibid* , P . 44 .

حنـه شاهين

المفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي
حكم ذاتي أم بانتوستان ؟

بعد توقيع معاهدة السلام المنفرد بين مصر واسرائيل ، تبدأ مرحلة جديدة من المفاوضات السياسية بهدف تطبيق ما يسمى بمشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما نص عليه اتفاق كامب ديفيد ، بين كل من اسرائيل ومصر والولايات المتحدة · وكان هذا المشروع قد ذكر مجددا في معاهدة السلام ، على شكل رسالة مشتركة مرفقة ، وموقعة من قبل كل من بيغن والسادات الى الرئيس كارتر ، اهم ما نصت عليه هو موافقة حكومتي مصر واسرائيل على « بدء المفاوضات [حول الحكم الذاتي] خلال شهر من تبادل وثائق التصديق على معاهدة السلام · ووفقا لاطار السلام في الشرق الاوسط فان المملكة الاردنية الهاشمية مدعوة للاشتراك في المفاوضات ، ولكل من وفدي مصر والاردن ان يضم فلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غـــزة ، او فلسطينيين اخرين باتفـــاق مشترك ··· » (١) ·

وقد جاء في تلك الرسالة ايضا ان « هـــدف المفاوضات هو الاتفاق ، قبل اجـــراء الانتخابات ، على الترتيبات اللازمة لاقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة (المجلس الاداري)، وتحديد صلاحياتها ومسؤولياتها ، والاتفاق على ما يرتبط بذلك من مسائل اخرى ··· واذا ما قرر الاردن عدم المشاركة في المفاوضات ، فستجري هذه بين مصر واسرائيـــل والولايات المتحدة ، باعتبارها شريكا كاملا » · والهدف من المفاوضات ـ كما جاء فـــي الرسالة ـ هو « اقامة سلطة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، من اجـــل تحقيق الحكم الذاتي الكامل للسكان · [كذلك] فان مصر واسرائيل حددتا لنفسيهما هدفا للانتهاء من المفاوضات خلال عام واحد ، بحيث يتم اجراء الانتخابات باسرع ما يمكن ، بعد ان تكون الاطراف قد توصلت الى اتفاق ، وتنشأ سلطة الحكم الذاتي المشار اليهـــا في « اطار السلام في الشرق الاوسط » وتبدأ عملها خلال شهر من انتخابها · واعتبارا مـــن هذا التاريخ تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية ، ويتم سحـــب الحكومة العسكريـــة الاسرائيلية وادارتها المدنية لتحل سلطة الحكم الذاتي محلها ··· حيث يتم انسحـــاب القوات المسلحة الاسرائيلية ويعاد توزيع القوات المتبقية في مواقع محددة » ·

وتعتمد هذه الرسالة ، بشكل رئيسي ، على « اتفاق الاطار » الذي تم التوصل اليه في مؤتمر كامب ديفيد ، في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ · واهم ما نص عليه هذا الاتفاق هو « وجوب اشتراك مصر واسرائيل والاردن وممثلو الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ، بحيث تمر هذه المفاوضات في ثلاثة مراحل : تطبيق حكم ذاتي كامل لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، تنسحب بموجبه الحكومة العسكرية الاسرائيلية وادارتها المدنية حال انتخاب سلطة الحكم الذاتي من قبل السكان · ثانيا ، ان تتفق مصر واسرائيل والاردن على وسائل اقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وقطاع غزة · وفد تضم هذه المفاوضات وفدا من مصر والاردن ووفدا من الفلسطينيين في الضفة والقطاع · او فلسطينيين اخرين حسب ما يتفق عليه · وتجري المفاوضات حول اتفاق يحدد مسؤوليات الحكم الذاتي في المناطق ، ويتم ضمان الامن الداخلي والخارجي والنظام العام بواسطة تشكيل قوة بوليس محلية قوية قد تضم مواطنين اردنيين ، اضافة الى ذلك تشترك القوات الاسرائيلية والاردنية في دوريات مشتركة ، وتشكيل مراكز مراقبة لضمان امن الحدود ، كذلك يتم توزيع القوات الاسرائيلية في مراكز ثابتة ومحددة · ثالثا ، ان تبدأ الفترة الانتقالية ذات السنوات الخمس عندما تقوم سلطة الحكم الذاتي (المجلس الاداري) في الضفة والقطاع · وان تبدأ المفاوضات لتحديد الوضع النهائي بهذه المناطق وابرام معاهدة سلام بين اسرائيل والاردن في اسرع وقت ممكن ، من دون ان تتأخر عن السنة الثالثة بعد بداية الفترة الانتقالية · وستجري هذه المفاوضات بين مصر واسرائيل والاردنيين والممثلين المنتخبين لسكان الضفة والقطاع ، حيث سيعرض الاتفاق نتيجة هذه المفاوضات على التصويت من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة » (٢) ·

أما بالنسبة للقدس ، فقد تم تبادل رسائل بشأنها بين كل من بيغن والسادات وكارتر حول موقف كل منهم من المدينة ، حيث عاد بيغن واكد في رسالته موقف اسرائيل المعروف من اعتبار المدينة موحدة وعاصمة لاسرائيل ·

وتجدر الاشارة الى ان ما تم التوصل اليه ، سواء في كامب ديفيد او في معاهدة السلام المنفردة بين اسرائيل ومصر، نتيجة لمفاوضات ثلاثية بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة ، دون مشاركة احد من الفلسطينيين ، سواء من المناطق المحتلة او خارجها · وسنحاول هنا كشف الموقف الاسرائيلي على حقيقته من مشروع الحكم الذاتي ، من خلال تتبع ما تم خلال تلك المرحلة من المفاوضات ورصد مواقف الشخصيات والدوائر ذات النفوذ في اسرائيل ، وكمؤشر لموقفها في المفاوضات الحالية ·

الحكم الذاتي كما تطرحه اسرائيل

تستعد الحكومة الاسرائيلية الآن لخوض المرحلة الثانية من المفاوضات مع مصر والولايات المتحدة ، بشأن تطبيق مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة · وهي تعمل على بلورة مواقف محددة ، ومقترحات اولية ، لعرضها في بداية المفاوضات · وقد شكلت حكومة اسرائيل لهذا الغرض لجنتين وزاريتين : الاولى موسعة ، وتتألف من ١١ وزيرا برئاسة بيغن نفسه ، للبحث في « مواقف اسرائيل الثابته » من مسألة الحكم الذاتي ، والثانية تتألف من ٦ وزراء ، ويترأسها وزير الاديان يوسف بورغ (من الحزب الديني القومي المعروف بتعصبه الشديد لمسألة الاحتفاظ بالضفة الغربية وغزة) · ومن المفروض ان تتولى هذه اللجنة مسؤولية المفاوضات مع الطاقمين المصري والاسرائيلي ، بعد ان تحصل على توجيهات محددة من اللجنة الموسعة ·

ويبدو من خلال الاجتماعات التي عقدتها هاتان اللجنتـــان مؤخرا ، والمقترحـــات والتصريحات التي جاءت على لسان اعضائها خاصة رئيس الحكومة بيغن ، ان نغمـــة التشدد الاسرائيلي في كل ما يتعلق بتفسير بنود الاتفاق حول الحكم الذاتي ، كما تم التوصل اليه في كامب ديفيد وفي معاهدة السلام الاسرائيليـــة ـ المصرية ، قد عـــادت بالموقف الاسرائيلي الى نقطة انطلاقه الاصلية تقريبا ، اي الى الوقت الذي عرض فيه بيغن مشروعه للحكم الذاتي على الكنيست في اواخر سنة ١٩٧٧ · ويذكر ان اهم ما تضمنـــه مشروع بيغن آنذاك ، هو اقتراح انشاء « حكم ذاتي اداري » في الضفة الغربية وقطاع غزة (وقد سماه بيغن « اقليم غزة ») ، « من قبل سكان تلك المناطق ولصالحهم » (اي استبعاد الفلسطينيين في المهاجر) ، على اساس الغاء الحكم العسكري الاسرائيلي فـــي هذه المناطق ·· وسيقوم المجلس الاداري ، الذي سينتخبه السكان المحليون ، بالاهتمـــام بمعالجة جميع القضايا الادارية ، في مجالات التعليم والشـــؤون الدينية والمواصـــلات والبناء والاسكان والصناعة والتجارة والسياحة والزراعة والعمل والصحة والانعاش · كذلك سيكون ضمن مجال صلاحياتـــه العمـــل على اعادة تأهيـــل اللاجئيـــن والاشراف على الادارة القضائية ، وعلى قوة شرطة محلية · ويحق له اصدار الانظمة المتعلقة بسيـــر العمل في جميع تلك الدوائر والاجهزة · اما شؤون الامن والنظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فسيعهد بها الى الجيش الاسرائيلي ·

وفيما يتعلق بالجنسية ، فان مشروع بيغن يخير السكان الفلسطينيين في هذه المناطق بين الحصول على الجنسية الاردنية ـ بعد الاتفاق مع الاردن في هذا الشأن ـ او الجنسية الاسرائيلية ·

كذلك يتطرق المشروع الى الاعتراف بما يسميه الحق المتبادل في امتلاك الاراضي ، اي انه يحق لسكان اسرائيل امتلاك الاراضي والاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما يحق للعرب من سكان هذه المناطق شراء الاراضي والسكن في اسرائيل ·

وفيما يتعلق بالقدس ، فانها ستبقى ـ حسب المشروع ـ عاصمة لاسرائيل ، مع ضمـــان حرية وصول ابناء جميع الديانات الى الاماكن المقدسة الخاصة بهم ·

وكان بيغن قد اقترح ابقاء مسألة السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة مفتوحة ، مع « تمسك اسرائيل بحقها ومطلبها في السيـــادة على تلك المناطق » · كذلك اقتـــرح ان تكون مباديء مشروعه هذه قابلة لاعادة النظر بها بعد مدة خمس سنوات (٣) ·

الا ان مشروع بيغن هذا لـــم يحظ في حينه بموافقـــة تامة من جانب مصـــر والولايـــات المتحدة ، وقد دارت حوله مفاوضـــات مطولـــة ، خاصـــة في مؤتمـــر كامب ديفيد ، حين تم التوصل الى صيغة غامضة ـ سميت بأتفاق الاطار كما ذكرنا سابقا ـ وصفها دايان وزير الخارجية الاسرائيلي ، بأنها « تتحدث بصورة عامـــة جدا حـــول مبـــاديء خاصـــة بالحكم الذاتي » (٤) ، وكل طرف يحاول ان يعطيها تفسيرا مختلفا يتلاءم مع مفهومه ومنطلقاته · وعلى هذا الاساس يتوقـــع ان تكون هذه التفسيـــرات موقـــع خلاف كبير خـــلال المفاوضات المقبلة ·

وقبل التطرق الى هذه المسائل لا بدلنا من الاشارة الى التعديلات الاساسية التي ادخلت على مشروع الحكم الذاتي حسب صيغة كامب ديفيد ، بالمقارنة مع المشروع الاسرائيلي كما ذكرناه سابقا ، لندرك فيما بعد حقيقة الموقف الاسرائيلي الحالي ، والاسس التي يستنـــد

اليها في تفسيراته المختلفة لبنود اتفاق كامب ديفيد ٠

فالتعديل الاول يتعلق بجوهر الحكم الذاتي ، أذ بينما يتحدث المشروع الاسرائيلي عن حكم ذاتي اداري للسكان لا يسري على المناطق ، فأن اتفاق كامب ديفيد يتطرق الى « حكم ذاتي كامل » يسري ، حسب التفسير الاميركي ـ المصري ، على السكان والمناطق التي يعيشون عليها ٠ والتعديل الثاني يتعلق بمصدر صلاحيات الحكم الذاتي ٠ فالمشروع الاسرائيلي يتحدث حول الغاء الجهاز المدني في الحكم العسكري ، بينما يبقى هذا الحكم مصدر الصلاحية الشرعي في المناطق ٠ وحسب هذا المفهوم ، يستطيع الحكم العسكري اصدار انظمة مختلفة في المناطق الخاضعة لسيطرته ويكون بمثابة سلطة عليا فوق سلطة الحكم الذاتي ٠ وما تقرر في كامب ديفيد ليس الغاء الجهاز المدني فقط ، وانما انسحاب الحكم العسكري بكامله من المناطق ، بحيث لا يبقى فيها هيئة عليا تشكل مصدر السلطة الشرعي فوق الحكم الذاتي ٠ فاتفاق كامب ديفيد يتحدث صراحة حول وجوب انتقال صلاحيات الحكم ، التي يحتفظ بها اليوم الحكم العسكري الاسرائيلي ، الى سلطة الحكم الذاتي ٠ اما التعديل الثالث فيتعلق بترتيبات الامن ٠ فحسب المشروع الاسرائيلي يحق للجيش الاسرائيلي التحرك في المناطق دون تحديد والبقاء فيها حتي بعد الفترة الانتقالية التي مدتها ٥ سنوات « من اجل المحافظة على امن اسرائيل » ٠ وقد اتفق في كامب ديفيد على تغييرين جوهريين يتعلقان بقضايا الامن : الاول وجوب تركيز القوات الاسرائيلية في معسكرات ثابتة في الضفة الغربية وغزة ، والثاني ان تتولى « شرطة محلية قوية » الاهتمام بقضايا الامن الداخلي والخارجي ، بحيث تكون خاضعة لسلطة الحكم الذاتي ٠ اما التعديل الرابع فيتعلق بمستقبل المناطق ٠ فحسب المشروع الاسرائيلي ، يبدأ البحث في الوضع النهائي في المناطق بعد مضي خمس سنوات ، ابتداءا من يوم انشاء مؤسسات الحكم الذاتي ٠ وتؤكد اسرائيل في مشروعها أنها ستحافظ على وجودها في المناطق حتى بعد هذه الفترة ٠ اما في كامب ديفيد فقد تقرر البدء بالبحث في مستقبل المناطق ، ابتداء من السنة الثالثة بعد انشاء مؤسسات الحكم الذاتي ٠

اضافة الى هذه التعديلات يعكس القبول الاسرائيلي بمشروع الحكم الذاتي ، حسب صيغة كامب ديفيد ، تطورين اساسيين في الموقف الاسرائيلي الرسمي من القضية الفلسطينية بشكل عام ، رغم التطرف الذي تبديه الحكومة الاسرائيلية في كل ما يتعلق بتفسير هذا المشروع ٠ والتطور الاول ، هو اعتراف اسرائيلي « رسمي » بوحدة الضفة الغربية وقطاع غزة ، بواسطة ربط المنطقتين بمشروع واحد يلزم حلا مماثلا ٠ ومع ان هذا التطور جاء من خلال مبادرة اسرائيلية رسمية ، بهدف « منع تقسيم ارض ـ اسرائيل الغربية » ٠ فانه الغى عمليا سياسة طرح مشروع الحل الاقليمي الذي كان محور تفكير الحكومات السابقة ، والهادف الى تقسيم الضفة الغربية بين الاردن واسرائيل ، وفصل مصير الضفة عن مصير القطاع ٠ « ان تبني هذا المشروع ، الغي بصورة اوتوماتيكية ، قرار حكومة غولده مئير بأن قطاع غزة لن يعاد الى السيادة المصرية ، وسيضم عمليا الى مجال السيطرة الاسرائيلية » (٥) ٠

والتغيير الثاني هو اعتراف اسرائيلي رسمي ، وان كان نتيجة الضغوط في كامب ديفيد ، « بالحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، كما جاء في الاتفاق ٠ وبالرغم من عدم الاهمية التي تنسبها الاوساط الرسمية ـ خاصة المقربة من بيغن ـ لهذه المسألة ، فأن هذا الامر ، رغم عدم جدواه حاليا في الوضع السياسي القائم ، يعتبر تغييرا ملحوظا بالمقارنة مع المواقف الاسرائيلية الرسمية السابقة ٠ فاقصى ما وصلت اليه حكومات المعراخ السابقة ،

فيما يتعلق بموقفها من حقوق الشعب الفلسطيني ، هو ذلك التغيير البسيط الذي حدث سنة ١٩٧٣ ، بعد حرب تشرين ، في عهد حكومة مئير ، عندما دعت ، لاول مرة ، الى حل القضية الفلسطينية من خلال الاخذ بالاعتبار مسألة « الهوية القومية » للفلسطينيين ، وعدم التعامل معهم كلاجئين فقط (٦) ، بالرغم من انها لم تتخل عن موقفها « الاقليمي » لحل مسألة « الهوية القومية » ضمن دولة اردنية ـ فلسطينية · وعلى اي حال ، فأن الاعتراف « بالحقوق المشروعة للفلسطينيين » يبقى امرا عديم الجدوى في ظل الموقفين الاسرائيلي والاميركي الراهنين ·

التطرف سيد الموقف

يبدو انه ليس هناك خلافات اساسية داخل الحكومة الاسرائيلية حول تفسير بنود الاتفاق بشأن الحكم الذاتي ، والهدف منه ، وكيفية تطبيقه · فالوزراء الاسرائيليون الذين ينتمون في غالبيتهم الى كتلة ليكود والحزب الديني القومي ، شبه متفقين في منطلقاتهم الفكرية تجاه مفهوم الحكم الذاتي ، بحيث نجد ان الخلافات بينهم احيانا تعود الى مدى التطرف الذي يعربون عنه ، وليس الى نقيض ذلك · وهذا الامر لا يعتبر غريبا ، اذا ما اخذنا في الاعتبار ، انمشروع الحكم الذاتي ، كما خطط له بيغن ، يرتكز على اسس مبدئية لا يمكن زحزحته عنها ، واهمها الاساس العقائدي ، الذي يتحكم في عقلية بيغن وسياسة حكومته · فعقائديا يرى بيغن ان الضفة الغربية جزء من « ارض اسرائيل » لا يجوز التنازل عنه ، والحكم الذاتي ، في نظره ، افضل السبل لضمان السيطرة الاسرائيلية الكاملة على هذه المنطقة مستقبلا · وهذا التفكير نابع من صلب ايديولوجية اليمين الصهيوني ، التي تثبت مبدأ بناء الدولة اليهودية على « ارض اسرائيل الكاملة » · وهناك الاساس الآخر ، الامني ، حيث يرى بيغن ان السيطرة عسكريا واستيطانيا على الضفة الغربية وقطاع غزة ستوفر الامن لاسرائيل ، « وهو على اقتناع تام بأن اسرائيل لا تستطيع الصمود في وجه جبهة عسكرية شرقية ، الا اذا كان الجيش الاسرائيلي مسيطرا بشكل تام على محاور الطرق الرئيسية في الضفة ، ويكون هناك استيطان واسع في هذه المناطق » (٧) · كذلك هناك الاساس العنصري الذي يتمثل في رفض الحقوق القومية للفلسطينيين ، على اساس ان هذه الحقوق تتعارض ومبدأ وجود اسرائيل · فمشروع الحكم الذاتي ، كغيره من المشاريع السابقة ، يرفض الاعتراف بالحقوق القومية ، اذ لا سيادة ولا قرارات مستقلة تتعلق بالامن والسياسات الخارجية ، وكل ما هو معروض ليس سوى « اعطاء الفلسطينيين فرصة لادارة شؤونهم الخاصة بأنفسهم » · وربما كان هناك تناقض بين هذا الاساس وبين ما وقعت عليه اسرائيل في اتفاق كامب ديفيد من ان الحل الناتج عن المفاوضات يجب ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · لكن ، يبدو ان هذا الامر لا يقلق بال اسرائيل كثيرا ، وكعادتها تجد له تفسيرا مختلفا · وكما جاء على لسان احد وزراء ليكود المقربين من بيغن ، حاييم لانداو « فأن عرب ارض ـ اسرائيل لهم حقوق في اسرائيل [والقصد حقوق محدودة] ، اما الشعب اليهودي فله حقوق على ارض ـ اسرائيل » (٨) · اما بيغن فيردد دائما ان حق اسرائيل في السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة « امر غير قابل للطعن » ·

انطلاقا من هذه الاسس نشطت الحكومة الاسرائيلية ، بوزرائها ولجانها ، في بلورة مواقفها النهائية ازاء اهم المسائل التي ستطرح في المفاوضات حول الحكم الذاتي · والحقيقة

هي ان مواقف الحكومة الاسرائيلية من هذه المسائل لم تكن ابدا موضع اخفاء او غموض ، منذ ان بادر بيغن الى طرح مشروعه بعد زيارة السادات الى القدس ، وطوال فترة المفاوضات السابقة · ولقد حافظت اسرائيل على وجهات نظرها وارائها رغم تعديلات كامب ديفيد ، دون اي غموض · وخلال هذه الفترة ، شكلت تلك الحكومة لجنة من المدراء العامين برئاسة الياهو بن ـ اليسار ، مدير مكتب رئيس الحكومة ، للبحث تفصيليا في مشروع الحكم الذاتي ، وتقديم توصيات الى الحكومة في هذا الشأن · ويلاحظ من خلال ما سرب من معلومات حول توصيات هذه اللجنة ، ومن تصريحات واراء مختلف الوزراء ، وعلى رأسهم رئيس الحكومة بيغن ، ان اهم المسائل التي يتوقع ان تطرح على جدول الاعمال خلال المفاوضات وأن تكون موضع خلاف بين الاطراف المفاوضة ، تنحصر في المواضيع التالية : قضية القدس ومسألة تطبيق الحكم الذاتي في القدس الشرقية ، الاستيطان الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهل ستخضع المستوطنات لسلطة الحكم الذاتي، قضية الامن والجهة التي ستتولى الاهتمام به ، مصدر الصلاحيات لسلطة الحكم الذاتي ، قضية السيطرة على مصادر المياه والاراضي العامة في الضفة الغربية ، واخيرا ما هو القصد من المفاوضات النهائية حول مستقبل المناطق ، والتي ستبدأ ، كما ذكرنا سابقا . في السنة الثالثة ، ابتداءا من يوم انشاء مؤسسات الحكم الذاتي ، ثم معارضة اسرائيل لاي استقلال فلسطيني قد تسفر عنه هذه المفاوضات ·

القدس ـ « موحدة وعاصمة لاسرائيل »

يمكن تلخيص موقف اسرائيل الرسمي من قضية القدس ، ان لا تراجع ابدا عن القرار الذي اتخذته في تموز (يوليو) ١٩٦٧ ، والذي ينص على ان القدس هي مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم ، وعاصمة أسرائيل · ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية ترفض حتى مجرد مناقشة اي شيء يتعارض وقرارها هذا ، وقد حافظت على موقفها طوال فترة المفاوضات وحتى في مؤتمر كامب ديفيد لم يجر تحديد رسمي فيما اذا كانت القدس جزءا من الضفة الغربية ، وهل ستكون خاضعة لسلطة الحكم الذاتي ام لا ، وكل ما ورد في هذا الشأن هو رسائل متبادلة بين بيغن والسادات وكارتر ـ كما ذكرنا سابقا ـ يعلن فيها كل منهم موقفه تجاه المدينة · ولاثبات موقف أسرائيل المتشدد تجاه القدس ، فقد روى بيغن انه في اليوم الاخير لمحادثات كامب ديفيد ، قبل ساعات قليلة من التوقيع على اتفاقات الاطار ، قدم له سفير الولايات المتحدة في اسرائيل صموئيل لويس ، مسودة رسالة كان الرئيس كارتر ينوي ارسالها له ، وبموجبها تعتبر الولايات المتحدة ان القدس القديمة هي منطقة محتلة تسري عليها المعاهدات المتعلقة بالمناطق المحتلة · وقد رفض بيغن قبول هذه الرسالة ، موضحا ـ على حد تعبيره ـ بأنه اعلن « فورا وبصورة قاطعة ومفصلة ، انه اذا ارسلت لي مثل هذه الرسالة ، فأن اسرائيل لن توقع على اتفاقات الاطار ··· ولقد تم سحبها ، واعلن الرئيس انه بالامكان ايجاد صيغة اخرى · وفعلا ، تم ايجاد صيغة كهذه تتضمن ذكر اقوال اعلنها ممثلون رسميون اميركيون حول قضية القدس قبل عشر سنوات او اكثر · وثمة فرق بين قول محدد مرتبط باتفاقات كامب ديفيد ، وتبني اقوال ذكرت فيما مضى ··· ولقد اجبت على هذه الرسالة بأخرى تقول ان القدس ، عاصمة اسرائيل الابدية ، مدينة تم توحيدها ولن تقسم الى الابد » (١٠) ·

ولعل البيان الاخير الذي اصدرته الحكومة الاسرائيلية ، بعد دعوة مصر الى عقد مؤتمر

قمة اسلامية للبحث في قضية القدس ، خير دليل على موقف اسرائيل المتصلب من هذه المسألة ، حيث اعلنت ان « الحكومة تكرر قولها ان القدس هي العاصمة الابدية لاسرائيل وهي مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم ، منذ السابع من حزيران ١٩٦٧ » (١١) ٠

« الحكم الذاتي ينطبق على السكان لا على الارض »

للحكومة الاسرائيلية تفسيرها الخاص لما تعهدت به من « تطبيق حكم ذاتي كامل » لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ فقد اعلن بيغن في خطابه في الكنيست ، قبيل توقيع معاهدة السلام مع مصر ، ان اسرائيل « وافقت على منح الحكم الذاتي للسكان العرب في [الضفة الغربية] وغزة وهذا ما نتعهد به ٠ الا اننا لم نوافق ابدا على منح حكم ذاتي كامل [لتلك] المناطق ٠٠٠ » (١٢) ٠

الى ماذا تهدف اسرائيل من وراء ذلك ؟

الهدف الاول هو منع اي تطور نحو استقلال فلسطيني في هذه المناطق ٠ فبيغن يعود ويعلن في كل مناسبة انه « لن تكون هناك دولة فلسطينيةفي [الضفة الغربية] وغزة ٠ لن نوافق على ذلك ولن نسمح به ٠ ان الحكم الذاتي لن يؤدي الى دولة فلسطينية » (١٣) ٠ واسرائيل تدرك جيدا ، ان الحكم الذاتي الذي سيطبق كمشروع تتبناه دولة كبرى حليفة ، وفي ظل استمرارية النضال الفلسطيني والتأييد الذي يتمتع به على المستويين الدولي والعربي ــ اذا لم يطبق ضمن كوابح شديدة ، فانه ، بلا شك ، سيؤدي الى قيام كيان فلسطيني مستقل تعارضه اشد معارضة ٠

اما الهدف الآخر فهو خلق واقع اسرائيلي موازٍ للواقع العربي في الضفة الغربية وغزة ، لكي يتسنى لاسرائيل المطالبة بالسيادة على هذه المناطق في المستقبل ، في مقابل المطالبة العربية باستعادتها ٠

انطلاقا من هذه الاهداف تنشط الحكومة الاسرائيلية في وضع الخطط الاستيطانية الواسعة التي ستنفذها في عهد الحكم الذاتي ، وفي وضع نظام خاص يسري على المستوطنات الاسرائيلية في المناطق ، وفق السياسة التي حددها بيغن ، والقائلة « ان الشعب اليهودي يملك الحق الكامل في الاستيطان في ارض ــ اسرائيل ٠ ولقد مارسنا هذا الحق وسنمارسه » (١٤) ٠ ويلاحظ ان هناك شبه اجماع داخل الحكومة الاسرائيلية حول قضية الاستيطان خلال الفترة المقبلة ٠ والاستيطان يتطلب توفير ثلاثة عناصر اساسية : الارض والطاقة البشرية والمياه ٠ وبالنسبة للارض ، بما أن الاستيطان هو « هدف قومي » ــ حسب تعبير الوزير لانداو ــ « يجب ان يقوم الحكم العسكري بالاستيلاء على اراضي الدولة قبل قيام الحكم الذاتي » (١٥) ٠ اما وزير الزراعة ارئيل شارون ، المسؤول عن اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان في المناطق المحتلة ، فيعلن انه « يجب ان تتخذ الحكومة قرارا بشأن الاستيلاء على الاراضي المطلوبة لتنفيذ الخطط الاستيطانية ٠٠٠ دون اي تأخير » (١٦) ٠ وفي اعتقاده ان « الاستيلاء على الاراضي لايزيد من الاحتكاك مع السكان العرب ، وانما يمنعه في المستقبل ، والاسهل بالنسبة لاسرائيل ان تفعل ذلك الآن على ان تفعله فيما بعد ٠ فنحن اليوم في وضع تفاوض ، وبعدما نعطي كل شيء نجد انفسنا في وضع المطالب وليس لدينا ما نمنحه في المقابل ٠ ان وضع اسرائيل ، اذا ما وصلت الى حالة كهذه ، سيكون اصعب من ان يحتمل » (١٧) ٠ وقد بدأت اسرائيل ، صاحبة التجربة

الغنية في مجال سلب الاراضي ، تتحدث بالارقام حول الاملاك الخاصة والعامة والتي لم تجر تسوية حقوق ملكيتها بعد · فحسب بن ـ اليسار ، فانه من بين ٦ر٥ مليون دونم في الضفة الغربية ، هناك ٧٠٠ر٠٠٠ دونم فقط مسجلة على اسم الدولة ، ونصف مليون دونم لم تجر تسوية حقوق ملكيتها بعد · وحسب توصيات هذه اللجنة « يجب ان تبقى اسرائيل وصية على اراضي الدولة ، بصفتها وريثة المجلس الملكي الاردني ، الذي كان يملك هذه الاراضي حتى سنة ١٩٦٧ · ويجب ان يبقى هذا الوضع قائما حتى نهاية الفترة الانتقالية اي فترة الخمس سنوات ، او حتى دخول الاردن الى المفاوضات » (١٨) ·

ويبدو ، بالنسبة للعنصر البشري ، ان الوضع غير مشجع اذا ما قيس بالخطط الاستيطانية الواسعة التي تحلم الحكومة بتنفيذها في المناطق المحتلة · فقد تبين حتى الآن ان معظم الذين يستوطنون في الضفة الغربية ، منذ تولي ليكود الحكم ، هم من اعضاء حركة غوش ايمونيم · وقد اعلن احد زعمائهم ، جرشون شيفط ، انه « منذ مجيىء ليكود الى الحكم استوطن في الضفة الغربية نحو ٤٠٠٠ يهودي في ١٥ مستوطنة · من بينهم ٢٧٢٠ شخصا تابعين لغوش ايمونيم » (١٩) · ولكن شيفط كشف ايضا ان الاحتياط البشري لدى حركته آخذ بالانخفاض بسرعة ، وان ما لديها الان من عائلات مرشحة للاستيطان لا يتجاوز الالفي عائلة (٢٠) · ورغم ذلك ، فأن الوزير شارون يتحدث حول خطط استيطانية واسعة في المناطق المحتلة ، ينوي طرحها على الحكومة ، ليصار الى تنفيذها خلال المرحلة المقبلة · وتتمثل هذه الخطط في اقامة ثلاثة قطاعات استيطانية في الضفة الغربية : الاول قطاع الشاطىء « حيث لا يوجد لاسرائيل اي عمق استراتيجي » · فعلى بعد ٢٠ كم شرقي « الخط الاخضر » [حدود الهدنة لسنة ١٩٤٩] يجب اقامة مدن ومستوطنات [مثلا] مدينة خارض التي سيسكنها ١٥٠ الف نسمة ، وقدوم ـ ٥٠ الفا ، وكرني شومرون ـ ٣٠ الفا ٠٠٠ كما يجب شق الطرق في هذا القطاع لتربط بين المدن والمستوطنات ٠٠٠ اضافة الى معسكرات الجيش ومناطق التدريب · ثانيا ٠٠٠ يجب انشاء مستوطنات كثيرة اخرى في غور الاردن ، اضافة الى تلك القائمة ، ومدها بمستوطنين جدد· ويجب ان تكون هذه المستوطنات مرتبطة فيما بينها ، وكذلك بينها وبين قطاع الشاطىء · والقطاع الثالث [يتمثل] في انشاء مدن صغيرة حول مدينة القدس مثل غوش عتسيون ، تكواع ، معاليه ادوميم ، ريمونيم ، كوخاف هشا حار ، بيت ايل وجفعون ، لان القدس لن تكون عاصمة لاسرائيل اذا لم تسكنها اغلبية يهودية · يجب ان يسكن ، خلال ٢٠ او ٣٠ سنة ، مليون يهودي في القدس الموحدة وضواحيها »(٢١) ·

وتحاول اسرائيل خلق مركز خاص لمستوطناتها في الضفة الغربية وقطاع غزة ، حتى قبل بدء المفاوضات حول الحكم الذاتي ، بهدف جذب مستوطنين جدد الى المنطقة ، والمحافظة على وجود سكان المستوطنات القائمة · ويتمثل هذا المركز الخاص في رفض اسرائيل خضوع مستوطناتها لسلطة الحكم الذاتي ، لان « الادارة الذاتية يجب ان تطبق على السكان العرب وليس على المستوطنين اليهود » (٢٢) ، كما جاء في توصيات لجنة بن ـ اليسار · ويبدو ان الحكومة تبنت هذا الموقف ، اذ اعلن وزير الخارجية دايان امام المستوطنين في الغور ، ان « ارتباط مستوطناتهم بأسرائيل هوكأرتباط نهلال [مستوطنة تقع بين الناصرة وحيفا] بها ، ومركزها كمركزه في تساهلاه [ضاحية في تل ابيب] » (٢٣) · واكد دايان انه لن تكون هناك حكومة في اسرائيل ترضى بغير هذا الوضع ، حتى بعد انتهاء السنوات الخمس ، داعيا الى قدوم المزيد من المستوطنين اليهود الى الغور ، واقامة استمرارية اقليمية من المستوطنات حتى سهل بيسان (٤٤) ·

وتجسيدا لهذه السياسة ، وقع الحاكم العسكري للضفة الغربية على امر يقضي بانشاء مجلس محلي واحد في معاليه هأدوميم (قرب القدس) ، واربعة مجالس اقليمية للمستوطنات اليهودية في غور الاردن وقضاء بيت ـ ايل والسامرة وغوش عتسيون (٢٥) ، وذلك على غرار المجالس القائمة في المستوطنات القديمة · كما قررت وزارة الداخلية انشاء مجلس اقليمي لقطاع غزة « بحيث تكون جميع مستوطنات القطاع في هذا المجلس ذات مركز مستقل وغير خاضعة للحكم الذاتي » (٢٦) · لكن ، يبدو ان هذه السياسة لن تنفع في استقدام الاعداد الكبيرة من المستوطنين ، خاصة وانه ليس هنالك من مرشحين للاستيطان، كما يبدو سوى اعضاء غوش ايمونيم وبعض انصارهم· ويبقى كلام شارون حول اسكان مليون يهودي في الضفة بمثابة حلم بعيد المنال في الواقع السياسي الحالي · فاذا كان الاستيطان الاسرائيلي منذ احتلال المناطق ، لم يؤد الى تغيير الميزان الديمغرافي في المنطقة لصالح اسرائيل ، يبدو انه من الصعب ان يتحقق ذلك في فترة انتقالية لم يتحدد بها مستقبل المنطقة ، خاصة وان تجربة اخلاء مستوطنات سيناء لا زالت في ذهن الاسرائيليين · ولا يعني هذا ان الخطط الاستيطانية برمتها ستمنى في النهاية بفشل ذريع، اذ ربما استطاع دعاة « ارض ـ اسرائيل الكاملة » ، ودعاة « المحافظة على امن اسرائيل»، تحقيق نجاح ما ، بمساعدة الحكومة ، واضافة عدة مستوطنات في تلك المناطق ، الا ان هذا « الواقع الاسرائيلي » الجديد يبقى محدودا امام الكثافة السكانية العربية الكبيرة ·

السيطرة على مصادر المياه

تعتمد اسرائيل على المصادر المائية في الضفة الغربية لمد موستوطناتها في المناطق المحتلة بالمياه وفي الري الزراعي لمساحات من الاراضي التي تحتلها منذ سنة ١٩٤٨ · لذلك ، فهي تطالب بالسيطرة على هذه المصادر ، حتى بعد قيام سلطة الحكم الذاتي ·

وحسب مذكرة قدمتها مصلحة المياه في اسرائيل ، مرفقة بتقرير لجنة بن ـ اليسار ، « فأن مصدر الينابيع المائية داخل « الخط الاخضر » هو في الضفة الغربية ، لذلك يجب على اسرائيل ان تطالب بالاشراف عليها وحدها او بالاشتراك مع هيئة عربية » (٢٧) · ويصف احد الكتاب الاسرائيليين هذه الظاهرة بقوله ان « السكان في اسرائيل وفي الضفة الغربية يعيشون فوق حمام مشترك واحد من مصادر المياه الجوفية ، تمتد من نهر الاردن وحتى البحر » · وتدعي اسرائيل ان استغلال هذه المياه الجوفية يجري اليوم على نطاق واسع ، لذلك « فأن كل عمل غير مراقب لاستعمال مصادر المياه هذه في الضفة ، وكل ضخ زائد ··· سيؤدي الى دمار كامل لمصادر المياه والى [زيادة] ملوحتها » (٢٩) ·

وتبدي اسرائيل ، في هذا الصدد ، قلقها من قيام جمعيات اميركية متطوعة بمساعدة العرب في الضفة الغربية ، على تطوير مصادر المياه في المنطقة (٣٠) · وفي اعتقاد الخبراء الاسرائيليين ان هدف هذه الجمعيات هو خلق مصاعب ، قدر الامكان ، امام عمليات التطوير والاستيطان الاسرائيلي في المنطقة بواسطة « وضع اليد العربية على مصادر المياه · فمن يسيطر على المياه يستطيع أن يحدد عدد وطابع المستوطنات والمستوطنين الاسرائيليين في المنطقة · وبعبارة اخرى : من يسيطر على المياه ، يستطيع منع اقامة مستوطنات جديدة يشكل خطرا على تلك القائمة » (٣١) ·

ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية تدرك خطورة هذا الوضع بالنسبة لمستوطناتها ، وتخشى من فقدان السيطرة الكاملة على مصادر المياه في المستقبل ، لذلك فقد اتخذت ، بتاريخ

١٩٧٩/٢/١٨، بمبادرة من وزير الخارجية دايان، وموافقة وزير الزراعة شارون قرارابشأن « مد خط انابيب مائي من بحيرة طبريا الى مستوطنات الغور ، وفرض رقابة من قبل مدير مصلحة المياه على كل عملية حفر للينابيع في الضفة » (٣٢) · وقد اعلن دايان اثر اتخاذ هذا القرار انه يجب خلق توازن في قطاع المياه بين السهل الساحلي وسفوح الجبال في الضفة الغربية · اما شارون ، فقد عقب بقوله « ان هذا القرار ضروري ومطلوب لكي نوضح للولايات المتحدة والعرب في الضفة الغربية ، وجهة النظر الاسرائيلية حول وضع المناطق · واضاف ان القرار مطلوب لتوضيح مسألة حقوق المياه ، والتأكيد على ان مصادر مشتركة ستزود المياه لاسرائيل وللضفة الغربية » (٣٣) ·

على اي حال ، تبقى مصادر المياه في الضفة عنصرا مهما في تنفيذ المخططات الاستيطانية الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، خاصة اذا كان المخطط هو انشاء مستوطنات زراعية بعد الاستيلاء على الاراضي العامة ، ومصادرة جزء من الاراضي الخاصة « التي لم يجر اثبات ملكيتها بعد » ، على حد قول الاسرائيليين · ولذلك يتوقع ان تكون هذه المسألة موضع خلاف كبير خلال المفاوضات حول الحكم الذاتي ·

مصدر صلاحيات الحكم الذاتي

يلاحظ ان هنالك تناقضا كاملا بين موقف اسرائيل من سلطة الحكم الذاتي ، فيما يتعلق بمصدر صلاحياتها ، وبين ما جاء في اتفاق كامب ديفيد ، الذي يتحدث صراحة ـ كما ذكرنا سابقا ـ حول انتقال السلطة من الحكم العسكري والادارة المدنية الاسرائيلية الى الادارة الذاتية التي سينتخبها السكان ، اي ان هذه الادارة ستحل مكان الحكم العسكري الاسرائيلي · الا ان الموقف الاسرائيلي ـ كما قدمه بيغن مؤخرا الى الحكومة (٣٤) ـ يرفض ان يكون للحكم الذاتي صلاحيات تشريعية ، ويصر على أنها هيئة ادارية فقط ، وان اسرائيل هي صاحبة السلطة العليا في المناطق · وتحاول اسرائيل في موقفها هذا تجاوز نقطتين اساسيتين تنبثقان ، ضمنا ، عن مشروع الحكم الذاتي : أولاهما ان هذا المشروع اذا ما نفذ ، سيطبق حسب اتفاق بين ثلاثة اطراف، هي اسرائيل ومصر والولايات المتحدة· وثانيها ، ان هذا الاتفاق ـ ليس الحكم العسكري الاسرائيلي ـ هو مصدر الصلاحية لسلطة الحكم الذاتي · اي ان ما تم في كامب ديفيد ، خلافا لمشروع الحكم الذاتي الاصلي الذي قدمه بيغن الى الكنيست (٣٥) ، استبعد الحكم العسكري الاسرائيلي كمصدر لصلاحيات سلطة الحكم الذاتي · ويلاحظ هنا ان موقف اسرائيل المتشدد من هذا الموضوع ناتج اساسا عن خوفها من ان يؤدي منح صلاحيات كاملة لسلطة الحكم الذاتي في المجالين الاداري والتشريعي ، الى تطور خطير في نظرها ، وهو ان يقوى مركز سلطة الحكم الذاتي ـ اذا ما أقيمت ـ خلال الفترة الانتقالية ، محليا ودوليا ، بحيث تصبح مطالبتها بالاستقلال التام خلال المفاوضات النهائية حول مصير المناطق ، امرا بديهيا · وبالاضافة الى ذلك ، قد يؤدي هذا الامر الى ضعف مركز اسرائيل في هذه المفاوضات وفقدانها الاساس القوي للمطالبة بالسيادة على المناطق ، وهو ما يشكل اساسا لكل سياستها حول الحكم الذاتي ، كما ذكرنا ·

وعلى اي حال ، فان الحكومة الاسرائيلية تمانع حتى في خروج الحكم العسكري بصورة نهائية من المناطق المحتلة ، بحجة المحافظة على « الامن الداخلي والخارجي والنظام العام »

الذي ستبقى اسرائيل مسؤولة عنه ، حسب مشروع بيغن (٣٦) · ويستند هذا الموقف على توصيات لجنة بن ـ اليسار التي تقضي « بأن يستمر الجيش الاسرائيلي [الذي يعتبر الحكم العسكري احد اجهزته الرئيسية في المناطق] بالمحافظة على الامن الداخلي والخارجي في مناطق الحكم الذاتي ، وفي القيام بمناوراته وفق اعتباراته الخاصة ، وبحيث تكون تجمعاته ضمن معسكرات يتم تحديدها اثناء المفاوضات » (٣٧) ·

وبناء عليه نستطيع ان نتخيل الدور الذي ترسمه اسرائيل « للشرطة المحلية القوية التي سيوكل اليها المحافظة على الامن والنظام » حسب اتفاق كامب ديفيد · فبناء على الموقف الاسرائيلي ، لن تكون تلك الشرطة على ما يبدو ، سوى جهاز في الحكم العسكري او احد فروعه ·

فترة انتقالية لفرض السيادة الاسرائيلية

تهدف اسرائيل من وراء مواقفها المتصلبة من مشروع الحكم الذاتي الى خلق اساس قوي لها ـ في حال تطبيقه ـ في المفاوضات حول مستقبل المناطق التي من المفروض ان تبدأ في السنة الثالثة بعد التطبيق ، حين ستطالب بفرض سيادتها على « ارض ـ اسرائيل » الغربية باكملها · وقد عرف وزير الخارجية دايان نظام الحكم الذاتي بقوله « انه مشروع لنمط حياة مؤقت ، ليس دائما ولا نهائيا ، وانما لخمس سنين فقط » (٣٨) ، بهدف خلق واقع اسرائيلي ثابت في هذه المناطق ، بواسطة الاستيطان والاستيلاء على الاراضي والمياه بالطبع ، وحتى يتحسن الواقع السياسي الذي تعيشه اسرائيل الآن ، فتسنح الفرصة امامها لضم هذه المناطق نهائيا اليها · ومن جملة ما تراهن عليه اسرائيل في هذا المجال ، بعض التطورات المتوقعة في المستقبل ·

واولى هذه التطورات المتوقعة بتصور اسرائيل لعلاقاتها مع مصر ، فالحكم الذاتي اذا ما طبق سيؤدي الى تطبيع هذه العلاقات بصورة كاملة ، حين تخرج مصر ، نتيجة ذلك ، نهائيا ، من دائرة الصراع في الشرق الاوسط · وبالتالي فأن موقفها ـ اي مصر ـ في المفاوضات حول المستقبل النهائي للمناطق المحتلة سيكون ضعيفا ، لا يستند الا على اساس « الصداقة » ، والتي يبدو ان بيغن في غنى عنها ، اذا كان الامر يتعلق بمستقبل «اليهودية والسامرة » · وقد قيم بيغن صراحة موقف مصر ، في خطابه امام الكنيست قبيل توقيع معاهدة السلام ، بقوله « ان مصر لا تستطيع ان تمنحنا السلام في الشرق »(٣٩) ، في اشارة واضحة الى ان اسرائيل لاتستطيع القبول بالموقف المصري فيما يتعلق بمستقبل المناطق المحتلة ·

أما التطور الثاني المتوقع فهو ان الاردن لن يوافق على دخول المفاوضات حتى بعد ثلاث سنوات ، لان المقصود هو تنازله كليا عن المناطق هذه المرة ـ وليس عن جزء منها كما كان يطالبه المعراخ ـ ضمن معاهدة سلام بينه وبين اسرائيل ·

والتطور الثالث يتعلق بالوضع الذي ينشأ عن موقف سكان المناطق المحتلة · فالحل النهائي الناتج عن المفاوضات في المستقبل يجب ان « يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة » ، حسب صيغة كامب ديفيد · وهذا الحل يجب ان يخضع ايضا للتصويت عليه من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة · وبديهي ان هؤلاء سيرفضون مشروع السيادة الاسرائيلية ، ورفضهم هذا سيكون له الوزن الاكبر ،

بصفتهم منتخبين من قبل السكان ، وليسوا معينين ، كما هو المفروض في المفاوضات حول الحكم الذاتي · وهنا يكمن قلق اسرائيل من ان يطالب هؤلاء بدولة فلسطينية مستقلة ، وان يحظى طلبهم هذا بموافقة دولية وعربية · لذلك فانها تصر في كل مشروع تتقدم به على رفضها لقيام مثل هذه الدولة ، وتحاول ان يكون هذا الامر بمثابة مقدمة ملزمة لاية مفاوضات حول الضفة الغربية وقطاع غزة · وهناك بعض المطلعين ، في اسرائيل ، يقول ان بيغن والليكود ، كانا ولا يزالان ، يراهنان على رفض العرب لمشروع الحكم الذاتي ـ على حد قول ابا ايبن وزير الخارجية الاسرائيلي سابقا (٤٠) ـ وبذلك يتجنبان حدوث مثل هذا التطور ، بواسطة الاعلان عن انه ليس هناك من يمكن التحدث او التفاوض معه من العرب حول القضية الفلسطينية وفق شروط اسرائيل بالطبع ، فيبقى مشروع الحكم الذاتي حبرا على ورق ، وتحتفظ اسرائيل بسيطرتها على المناطق المحتلة ببقاء الوضع الراهن على ما هو عليه · وتسعى اسرائيل الى تحقيق هذا الهدف منذ الآن ، بواسطة التمسك بالمواقف المتطرفة التي لا يقبلها احد من الفلسطينيين ، في الوقت الذي تدور فيه مفاوضات اخرى حول تطبيق بنود المعاهدة مع مصر ·

المعارضة الاسرائيلية لمشروع الحكم الذاتي

يثير مشروع الحكم الذاتي ومواقف الحكومة الاسرائيلية منه نقاشا وجدلا واسعين بين مختلف الاوساط الاسرائيلية ، منذ ان اعلنه بيغن في اواخر سنة ١٩٧٧ · ويكاد لا يكون هناك احد من زعماء وكتاب ومفكرين وغيرهم الا وادلى برأيه في هذا المشروع · ويلاحظ ان مؤيدي المشروع من بين هؤلاء قليلون جدا ، وان موافقتهم مشروطة بعدة امور وتطورات تعتبر ضرورية ـ في نظرهم ـ « لتحقيق اهداف مشروع الحكم الذاتي » صهيونيا ·

لتسهيل الوقوف على اشكال هذه المعارضة وفحواها ، يمكن تقسيم المعارضين الى ثلاث فئات · الفئة الاولى هي معارضة يمينية صرفة ، تتزعمها جماعات من غلاة التوسعيين الصهيونيين المحسوبين على ليكود والحركات اليمينية المتطرفة المقربة منه ، مثل حركتي « ارض ـ اسرائيل الكاملة » وغوش ايمونيم · ويتزعم هذه الفئة النائبة غيئولاه كوهين ، والنائب موشي شامير ، وشموئيل كاتس المستشار الاعلامي لبيغن سابقا ، والبروفيسور يوفيل نئمان وتسفي شيلواح وغيرهم من اعضاء غوش ايمونيم · ويعتبر هؤلاء ان الحكم الذاتي يشكل خطرا على مستقبل الضفة الغربية وغزة ، وان الحل الوحيد هو ضم هذه المناطق نهائيا الى اسرائيل ، وعدم السماح « بأي شكل من الاشكال بأبقاء مسألة السيادة مفتوحة في هذه المنطقة » على حد قول شموئيل كاتس (٤١) · اما غيئولاه كوهين فتعتبر ان بيغن « خان ارض ـ اسرائيل » لان الحكم الذاتي لن يؤدي « الا الى دولة فلسطينية رغم معارضة بيغن لها ، فهذا غير متعلق برغبته ، « ثم اين سيكون هو غدا ؟ ·· لنفرض انه لا يريد دولة فلسطينية ، ولكنه يعمل على اقامتها · وهل الامر يتعلق به ؟ » (٤٢) · وتضيف كوهين قائلة انه « يجب علينا ان نوقف الحكم الذاتي » بواسطة تشكيل « حركة فكرية ثورية ··· تؤمن بأن ارض ـ اسرائيل ليست اقليما اوغنديا وانما جزءا عضويا من حضارتنا ، وبدونها لن يحقق هذا الشعب ذاته · اننا نقول انه ينبغي فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية · وسياسيا ، سنعمل على تبديل القيادة واجراء انتخابات جديدة ، لان الحكومة الحالية لم تحصل على تفويض لسياستها الراهنة » (٤٣) · ويبدو

ان هذه المجموعة تعمل الان على تشكيل هذه الحركة الجديدة التي تحدثت عنها كوهين ، وقد عدد يوفيل نئمان الاطراف التي تنضم اليها بقوله : « هناك قسم من اعضاء المستوطنات في [المناطق المحتلة] واعضاء سابقين في حركات واحزاب خانت برامجها ... كذلك يؤيدنا اعضاء في حركة حيروت وبعض كبار الاعضاء ممن كانوا في اتسل [الارغون] وليحي [جماعة شتيرن] الذين خيب بيغن املهم ، كذلك بعض الاعضاء من حزب الاحرار ... وتؤيدنا اوساط دينية ذات شأن في الحزب الديني القومي » (٤٤) .

وتعتبر هذه الفئة ان نقطة الانطلاق الاساسية لافشال مشروع الحكم الذاتي هي تنفيذ خطط استيطانية واسعة في المناطق المحتلة . ولا يبدو ان هناك تناقضا بين موقفها هذا وبين موقف الحكومة ، على اي حال . الا ان الخلاف الاساسي يبقى متمثلا ، بالنسبة لهذه الفئات ، في رفض مشروع الحكم الذاتي بشكل مبدئي . والطريف لدى هذه المجموعة المعارضة ان السادات ، رغم كل ما قدمه لاسرائيل ، شخص غير محبوب لديها ـ على حد قول النائب هوروفيتس ـ فهو « يريد النفط وسيناء ويأمل بان يبرهن للدول العربية انه سيحقق دولة للفلسطينيين . اما باقي التصريحات الاحتفالية والقبلات والعناق فليست سوى اكذوبة مفضوحة ... انني ببساطة لا اصدق السادات » (٤٥) .

ويلاحظ ان هذه المجموعة ، رغم الضجة التي تثيرها في اوساط الاعلام الاسرائيلية، تبقى محدودة التأثير ، وذلك لسبب رئيسي وهو ان الليكود ، وبيغن على رأسه ، الذي يتزعم السلطة اليوم ، كان وما زال محور الجاذبية وعنوان التطرف الذي يلجأ اليه دعاة اليمين الصهيوني ، فمواقفه وسياسته لم تتبدل ، ومشروع الحكم الذاتي الذي هو محور الخلاف الان يفسر كاملا من منطلق يميني صرف ودون تراجع . حتى ان بيغن اعلن صراحة انه « يعرف تماما كيف يجب ان يكون شكل الحكم الذاتي ، واذا لم يكن كذلك ـ فلن يكون ابدا » (٤٦) . ولذلك فالضجة التي يثيرها هؤلاء في وجهه ، تبقى عديمة الاهمية ما دام هدفه النهائي « الاحتفاظ بأرض ـ اسرائيل » .

المعراخ امام واقع جديد

تبرز المعارضة الثانية لمشروع الحكم الذاتي من جانب اوساط حزب العمل والمقربين منه والمحسوبين عليه ، حيث لا يزال هؤلاء يرددون موقفهم التقليدي التاريخي المعروف ، وهو الدعوة الى حل القضية الفلسطينية مع الاردن . الا ان هؤلاء باتوا يواجهون الان حقائق جديدة في الموقف الاسرائيلي الرسمي من القضية الفلسطينية ، لا يمكنهم تجاوزها، خاصة على المدى القصير . فحاليا ، هم في المعارضة لا يسعهم سوى اتخاذ موقف محدد : فأما القبول بالحكم الذاتي ، كما وقعت عليه اسرائيل في كامب ديفيد ، او معارضته نهائيا ، والعمل على افشاله اذا كان ذلك ممكنا . ويبدو انهم اختاروا الطريق الوسط : القبول به كحل مؤقت ، وبشروط ، مع التحذير من مخاطره .

لماذا لم ترفض المعارضة مشروع الحكم الذاتي ؟ يبدو ان هناك عدة عوامل تتحكم في موقف حزب العمل من هذا المشروع ، وتمنعه من العمل على افشاله نهائيا رغم معارضته له . والعامل الاول هو ان هذا المشروع لم يعد اسرائيلياً بحتا ، وانما اتفاقا وقعت عليه اسرائيل مع الولايات المتحدة ومصر ، وهو بالتالي يرتبط ارتباطا وثيقا بمعاهدة السلام الاسرائيلية ـ المصرية ، واي سلوك اسرائيلي ، حتى وان كان من جانب

المعارضة ، لافشاله قد يؤدي الى انهيار المعاهدة ، وهذا ما لا يريده حزب العمل الذي ايد اتفاق السلم مع بعض التحفظات ٠

واما العامل الثاني فهو ان مشروع حزب العمل الاقليمي لم يعد ملائما ـ حاليا على الاقل ـ للوضع الجديد الذي نشأ بعد كامب ديفيد فيما يتعلق بحل القضية الفلسطينية٠ فهناك الاعتراف والتوقيع على وثيقة تدعو الى احترام الحقوق المشروعة للفلسطينيين ، وهناك اعتراف آخر ضمني ، وهو ان كل المناطق الفلسطينية التي احتلت في حرب ١٩٦٧ هي بمثابة وحدة واحدة يسري عليها مشروع الحكم الذاتي ، وهذا اشارة واضحة الى حدود ١٩٦٧ التي يطمح حزب العمل في تعديلها ٠ « ففي واقع كهذا هل يرضى الملك حسين ما لم يرض به ورفضه عدة مرات في الماضي، اي التسوية الاقليمية ؟ ٠٠٠ صحيح ان موقف حزب العمل لم يكن ثابتا تجاه المسألة الفلسطينية خاصة منذ حرب ١٩٦٧ ، ابتداء من اعلان يسرائيل غليلي في الاشهر الاولى بعد الاحتلال من ان هناك فلسطينيين ، ولكن لا يوجد شعب فلسطيني ، وحتى اعلان شمعون بيريس في الكنيست، في حضور الرئيس كارتر ، حول الحقوق الفلسطينية ٠٠٠ وبين هذين الطرفين عرف الفلسطينيون على انهم مجموعة عرقية دون ان يهتم احد في توضيح الفرق بين مجموعة كهذه تسعى الى تحقيق الاستقلال وبين كونها شعبا » (٤٧) ٠ الا ان حزب العمل لم يتراجع عن نقطة واحدة تتعلق باقتراح الحل الذي يقدمه للقضية الفلسطينية ، وخلاصتها تقسيم الضفة ما بين الاردن واسرائيل ، بحيث تضم اسرائيل اليها الغور على امتداد نهر الاردن وبعض المناطق في الجبال « للمتطلبات الامنية » ، وتسلم باقي المناطق للاردن وليس للشعب الفلسطيني ، لانه « في مناطق ارض ـ اسرائيل على ضفتي الاردن ، ليس هناك مكان لدولة ثالثة وانما لاثنتين فقط » ، وبناء عليه ، ينضم الفلسطينيون الى المملكة الاردنية ، التي تصبح دولة اردنية ـ فلسطينية ٠

ويبدو ان زعماء المعراخ ، خاصة بيريس والون ورابين لا يزالون يراهنون على هذا المشروع ٠ فقد اعلن بيريس امام الكنيست ان « التسوية الاقليمية والحل الاردني ـ الفلسطيني سيبرزان من جديد ٠ ان هذه التسوية ممكنة حتى وفق قرارات كامب ديفيد التي ترتكز على قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، الا انه في هذه الاثناء قررت الحكومة القبول بمشروع الحكم الذاتي وقد صادق الكنيست على ذلك ٠ ولكي لا يؤدي هذا المشروع الى انهيار كامل يقترح المعراخ بضعة شروط موجهة لادارة المفاوضات حوله » (٤٨) ٠ والانهيار الكامل في نظر المعراخ ، يتمثل في تحول الحكم الذاتي الى نواة لدولة فلسطينية مستقلة، وهذا ما تجمع المعارضة وجزء كبير من مؤيدي الحكومة على رفضه ٠ اما شروط المعراخ لمنع الانهيار ـ على لسان بيريس ـ فهي : « ان يكون الحكم الذاتي بمثابة حل مؤقت فقط ، بحيث لا يمنع حلا دائما يرتكز على التسوية الاقليمية في حدود يمكن الدفاع عنها، وان يفضل الخيار الاردني ـ الفلسطيني على خطر قيام دولة فلسطينية تابعة لـ م٠ت٠ف، وان تبقى اسرائيل مسؤولة عن حماية البلد امام الاعتداءات من الخارج والارهاب من الداخل ، والا تكون مناطق الامن بمثابة تجمعات لمعسكرات الجيش الاسرائيلي فقط ، وانما يجب ابقاءها تحت السيطرة الاسرائيلية بحيث تشمل مناطق الاستيطان في الغور وغوش عتسيون وجنوبي غزة ، وان يتم ضمان التعاون في تطوير مصادر المياه في المناطق ٠ اما بالنسبة للقدس عاصمة اسرائيل الموحدة ، فيجب ان يسري عليها القانون والقضاء والادارة الاسرائيلية » (٤٩) ٠

ويلاحظ ان شروط المعراخ هذه لا تختلف عن مواقف الحكومة فيما يتعلق بتطبيق الحكم الذاتي ، سوى في البند الاول ، الذي يذكر بوجوب العودة الى التسوية الاقليمية · ويعكس هذا الامر الاعتبار الاخر لدى زعماء المعراخ ، وهو ما يسمونه الخوف من السيطرة الدائمة على السكان العرب ، الامر الذي يمكن ان يؤدي الى تقويض اسرائيل من الداخل · ويدعي بيريس انه « في مقابل حقوقنا التاريخية هناك رغبتنا في الا نكون شعبا من الاسياد »(٥٠)، اشارة واضحة الى الخوف من نتائج السيطرة بالقوة على شعب آخر ، يمارس النضال السياسي والعسكري ، ويملك تجربة غنية في هذا المجال ·

كذلك فأن السيطرة الدائمة على السكان ستخل « بالميزان الديمغرافي الحساس » ـ على حد قول يغئال الون وزير الخارجية السابق ـ « في دولة اقيمت لكي تكون يهودية وليس ثنائية القومية ، وديمقراطية وليس امبراطورية صغيرة » (٥١) · ويبدو ان الخوف من « الخطر » الديمغرافي لا يتملك اعضاء المعراخ فقط ، بل انه ظاهرة شبه عامة لدى الرأي العام الاسرائيلي ، اذ يكاد يتطرق اليه كل من يتحدث حول الحكم الذاتي · وقد اصبح هذا الخوف ملموسا بعد ان اطلع الاسرائيليون على توقعات مكتب الاحصاء المركزي في اسرائيل حول نمو السكان اليهود بالمقارنة مع السكان العرب في اسرائيل خلال السنين المقبلة · ويفيد هذا التوقع ان عدد السكان اليهود سيصل سنة ١٩٨٣ الى نحو ٣٫٤٧٣٫٠٠٠ نسمة (على اعتبار ان معدل الهجرة هو ٢٥٫٠٠٠ شخص سنويا) ، بينما سيصل عدد العرب الى نحو ٢٫٣١٦٫٠٠٠ نسمة ، اي ٤٠٪ تقريبا من سائر السكان · وفي سنة ١٩٨٨ ، وحسب المقاييس نفسها ، سيصل عدد اليهود الى ٣٫٧٩٠٫٠٠٠ شخص والعرب الى ٢٫٨٥٥٫٠٠٠ ، اي ٤٣٪ من سائر السكان · وفي سنة ١٩٩٣ ، اليهود ـ ٤٫١١٠٫٠٠٠ والعرب ـ ٣٫٥١١٫٠٠٠ ، اي ٤٦٪ من سائر السكان · اما اذا تزايدت الهجرة ووصل معدلها الى ٥٠٫٠٠٠ شخص سنويا (وهذا غير مضمون) فستصل نسبة السكان اليهود بعد ١٥ سنة الى ٥٧٪ من السكان والعرب الى ٤٣٪ (٥٢) · لذلك فان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين في اسرائيل هو ان الحكم الذاتي اذا لم يؤد الى دولة فلسطينية مستقلة . فانه اذا طبق ، حسب صيغة بيغن ، سيؤدي حتما الى دولة ثنائية القومية ·

دولة فلسطينية بشروط ···

اذا كان المعراخ ، وبعض مؤيدي الحكومة ، يعتبرون ان الخط الاساسي من وراء الحكم الذاتي هو احتمال تطوره الى دولة فلسطينية مستقلة ، فأن هناك فئات داخل اسرائيل ، من « حمائم » المعراخ والحركات السياسية « التقدمية » التي تعتبر ان هذا التطور لا يعتبر خطرا على الاطلاق ، اذا كان قيام الدولة التي سيؤدي اليها ، مشروطا « بالعيش بسلام مع اسرائيل » · ويلاحظ ان معارضة هذه الفئة لمشروع الحل الاقليمي لا تقل قدرا عن معارضتها لمشروع الحكم الذاتي ، خاصة وان المعراخ بمشروعه هذا قد ادى الى تفويت فرص كثيرة لحل المشكلة الفلسطينية في الماضي ، على حد تعبير هؤلاء المعارضين · فأبا ايبن ، احد « حمائم » حزب العمل ، يرى انه « يجب اعادة دراسة كل موضوع الحل مع الاردن : فنحن آخر « الاردنيين » في الحلبة · واذا كان الملك حسين ذا عقل سليم ، فعليه ان يتنازل سلفا عن الضفة الغربية · فما حاجته الى التمرد ضد مملكته ، كما حدث لشاه ايران ؟؟ لقد تنكر سكان الضفة الغربية منذ سنين للسلطة الملكية ويصعب عليهم العودة الى قبول الملك حسين ، بينما وضعه [الحالي] يعتبر جيدا : ففي شرقي الاردن يعم الانتعاش الاقتصادي والتطوير والبناء [ويتواجد] السكان المخلصون ـ فما حاجته

للدخول الى سرير مريض اسمه الضفة الغربية ؟ ومن هنا مصدر تهربه من الدخول في المفاوضات · ان شركائنا الوحيدين-هم العرب الفلسطينيون ، وهم سيكونون ، في كل حال الشركاء او الخصوم » (٥٣) · أما الحل في نظر ايبن فيتمثل في « خلق مثلث من دولة اسرائيل ودولة فلسطينية ودولة اردنية · ان عرفات لا يمكن التعايش معه ، ولكن دولة فلسطينية يجب ان تقوم ضمن المجموعة الشرق اوسطية · ولقد كان من المفروض ان تقوم منذ زمن » (٥٤) ·

ويبدو ان فكرة ايبن هذه تلقى تأييدا لدى بعض « حمائم » حزب العمل ، فالنائب يوسي سريد يعتبر ان الحكم الذاتي ومشروع الون لا يمكن ان يؤديا الى سلام شامل والى حل حقيقي للمسألة الفلسطينية ، والمطلوب الان في نظره هو « الخروج من الحلقة المفرغة فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ··· ينبغي اليوم توفير حافز للاوساط المعتدلة بين الفلسطينيين بواسطة الاعلان لهم ان كل منظمة فلسطينية تعترف بحق اسرائيل في الوجود والسيادة تعتبر ···· شريكا في المفاوضات والاتفاق · وهذه صيغة معارضة تماما ل ـ م·ت·ف ، تشجع المعتدلين ولا تلحق اي ضرر · اننا ندير معركة خاسرة لان المبدأ الاساسي حول عدم التفاوض مع م·ت·ف قد اهملناه منذ زمن · ففي الانتخابات البلدية في المناطق لم ينتخب فقط ممثلون بارزون ومعروفون ل ـ م·ت·ف ، وانما من اجل انتخابهم كان عليهم الاعلان عن تماثلهم معها · ونحن نجري اليوم اتصالات يومية معهم · وعندما دار الحديث حول تمثيل المنظمة في مؤتمر جنيف تم التوصل الى صيغة وفد عربي موحد ، واعلن رئيس الحكومة اننا لن ندقق في هويات الممثلين العرب ··· وخلال المفاوضات حول تبادل الاسرى الم تتحدث اسرائيل مع منظمة جبريل ؟ » (٥٥) · « والشيء نفسه ينطبق على مسألة تقرير المصير للفلسطينيين · يقال ان الحكم الذاتي هو الرحم الذي ستخرج منه الدولة الفلسطينية ، ويقال ايضا ، ماذا سيمنح سكان المناطق من الاعلان صبيحة احد الايام ، اننا نحن هنا مليون فلسطيني نعيش في استمرارية [اقليمية] ، ولنا نشيدنا الوطني وعلمنا وطوابعنا ، لذلك نعلن عن انفسنا دولة · ربما ليس هناك شيء يمنع حدوث ذلك في اطار الحكم الذاتي · ولكن اي اطار آخر لن يمنع حدوثه · ان اي واحد بيننا لا يملك اليوم صيغة ضد اقامة دولة فلسطينية ، فكل الطرق تؤدي الى تقرير المصير للفلسطينيين » (٥٦) ·

ويلاحظ من خلال حديث هذه الفئة المعارضة ان الدافع الاساسي لديها ـ وينبغي التأكيد على انها عناصر صهيونية بارزة ـ هو ، قبل كل شيء ، مصلحة اسرائيل ، والخوف من تطور القضية الفلسطينية في المستقبل بشكل قد يسيء اليها ، خاصة وان الحكم الذاتي سيؤدي ، حسب وجهة نظرها ، اما الى دولة ثنائية القومية ، او دولة فلسطينية معادية لاسرائيل ، بسبب رفض اسرائيل لها سلفا · لذلك فان نقطة انطلاقهم الفكرية هو وجوب التفاهم مع الفلسطينيين وعدم انكار حقوقهم · وهذا ما يتحدث عنه ، مثلا ، دافيد هكوهين احد السياسيين البارزين في عهد المعراخ ، ورئيس لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست سابقا ، بقوله انه « ينبغي عدم الاعتقاد بأننا سنفرض عليهم [سكان المناطق] الملك حسين وحكومته الى الابد ونتجاهل رغبتهم واختيارهم الديمقراطي للتغييرات في انظمة الحكم في دولتهم · ان هذه الدولة ستقوم بالطبع بعد ضمان كل شروط السلام بيننا وبينها · وكمن يعارض دولة ثنائية القومية ويتطلع الى ارض اسرائيل يهودية في طابعها [وهنا تكمن مصلحة اسرائيل في نظره] ، حتى وان كان ذلك لاسباب ديمغرافية

ملموسة وخطيرة ، فأنني افضل دولة عربيـة مجاورة ونابلس بداخلهـا علـى اسرائيـل الواسعة والعرب داخلها » (٥٧) ٠

كذلك تعتبر هذه الاوساط ان هناك مصلحة امنية لاسرائيل وراء قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠٠ فالدولة الاردنية ـ الفلسطينية التي يدعو اليها المعـراخ « منافية للمنطق » ، على حد تعبير احدهم ٠ وحديث الليكود والمعراخ ، معا ، حول الخطر من دولة فلسطينية مستقلة هو بمثابة « خرافة » لم تدحض حتى الان ٠ « فبالنسبة لامـن اسرائيل ليست المشكلة اذا كانت ستقام دولة صغيرة في الضفة الغربية ام لا ، وانما كيف ستتصرف هذه الدولة وهل ستعيش بسلام مع اسرائيل ٠ ولدينا ما نقوله في هذا الشـأن وبأستطاعتنا التأثير ٠ فلماذا تكون دولة فلسطينية صغيرة ٠٠٠ خطرا امنيا بينما حـل المسألة الفلسطينية في اطار دولة اكبر اردنية ـ فلسطينية لا يشكل خطرا كهذا ٠ ربمـا العكس هو الصحيح ٠ ان وجود دولتين الى الشرق من اسرائيل يكون ذا خطر اقل بالنسبة لها ٠ فالمدافع السوفييتية يمكن ان توضع في الدولة [الكبيرة] ايضا ، وتستطيع م٠ت٠ف السيطرة على عمان ٠٠٠ ان من يعتقد ان الحكم الذاتي هو وصفة لتخليد الوضع القائم يعيش في الخيال » (٥٨) ٠

ومخاوف هذه الفئات المعارضة من الحكم الذاتي والحل الاقليمي معا لا تقف عند هـذا الحد ، بل ان منطلقاتهم الصهيونية تدفعهم الى نظرة بعيدة المدى تتعلق بنتائج سياسـة الحكومة اذا امتد تطبيق الحكم الذاتي الى العرب داخل اسرائيل ٠ وقد حذر من هـذه النتيجة موشي شارون ، مستشار بيغن للشؤون العربية سابقا ، بقوله « ان العرب فـي اسرائيل يقطنون مناطق مجاورة للحكم الذاتي ، في المثلث ووادي عارة والجليل ٠ ومع تزايد الاتجاهات المتطرفة فأنني ارى خطرا محتملا يتمثل في قيام حزب عربي في اسرائيل ضمن القانون ٠٠٠ يطالب بالانضمام الى الحكم الذاتي العربي ، ليس كمواطنين فقـط ، وانما مع مناطقهم ايضا ، الواقعة ضمن حدود ١٩٤٨ ٠ وفي حالة كهذه سيطالب العرب في اسرائيل بالعودة الى مشروع التقسيم في سنة ١٩٤٧ والى جليل عربي كجزء من دولـة فلسطينية » (٥٩) ٠ وهذا « الخطر » وارد في ذهن الكثير من الاسرائيليين ، خاصة وان خطط « تهويد الجليل » قد فشلت حتى الان في استقدام اكثرية يهودية الى المنطقة ، وليس هناك احتمال لنجاحها في المستقبل على ضوء سياسة الحكومة الراهنـة في تشجيـع الاستيطان في المناطق المحتلة ، باعتباره الان مسألة في رأس سلم الاولويات ، « فكـل انسان يرسل الى الضفة وكل بيت يبنى هنالك ينبغي اعتبارها قد منعا عن الجليل ، واذا ما تذكرنا ان مصير المستوطنات في الضفة سيكون كمصير مستوطنات سيناء ندرك مغزى الهذيان وثمنه : دولة فلسطينية في المناطق وحكم ذاتي في الجليل » (٦٠) ٠

الا ان هذه المخاوف تبقى في غير محلها ما دامت الحكومة الاسرائيلية مصرة علـى موقفها الراهن من الحكم الذاتي ، واعتباره « سلطة ادارية » فقط لا تتمتع بأي صلاحيات استثنائية من شأنها ان تدفعها نحو شيء من التحرر من قيود الاحتلال ٠ فالمعروض هـو ببساطة تجميل وجه الاحتلال بواسطة منـح بعض الصلاحيات الاداريـة لهيئة منتخبة مـن السكان والاحتفاظ بالسيطرة الفعلية على المناطق ومنع اية تحركات سياسية لا تخـدم مصلحة اسرائيل ٠ وفي وضع كهذا لن يكون هناك شيء في المناطق يجذب اهتمام العرب في اسرائيل ، الا اذا كـان المقصـود تجميـل خطط تهويد الجليـل وعمليـات مصـادرة الاراضي ايضـا ٠

مفاوضات الحكم الذاتي ، والفلسطينيون

تبدأ المفاوضات حول الحكم الذاتي في جو يسوده التشاؤم ، خاصة في اسرائيل ، بشأن احتمال تحقيق اي نجاح « خلال فترة لا تتجاوز السنة » ، كما جاء في المعاهدة الاسرائيلية ـ المصرية · وكما جرت المفاوضات السابقة حول مشروع الحكم الذاتي ، خاصة في كامب ديفيد ، دون الفلسطينيين ، ستجري هذه المرة ايضا من دونهم ، ومن دون مشاركة الاردن، الذي خصص له دور فيها حسب صيغة كامب ديفيد ·

وقبل الخوض في احتمالات ما قد تسفر عنه هذه المفاوضات لا بد من ذكر بعض الملامح التي تميز المواقف الراهنة للاطراف الثلاثة المشاركة بها : مصر واسرائيل والولايات المتحدة · واولى هذه الملامح هي ان هناك فجوة كبيرة بين موقفي كل من مصر والولايات المتحدة من جهة ، واسرائيل من جهة اخرى ، ناجمة في الاساس عن تصلب الحكومة الاسرائيلية في كل ما يتعلق بالحكم الذاتي · فرغم التنازلات بعيدة المدى التي قدمتها كل من مصر والولايات المتحدة ، خلال المرحلة السابقة من المفاوضات ، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، فأن هناك الكثير من المسائل الجوهرية التي لا زالت موضع خلاف مع اسرائيل ستطرح خلال هذه المرحلة من المفاوضات ،والاتفاق حولها يستوجب اما تنازلات مصرية واميركية جديدة ، او تراجعا اسرائيليا ، وهذا مستبعد على اي حال · فخلال المفاوضات السابقة تراجعت مصر تدريجيا ، اولا عن المطالبة بحق تقرير المصير للفلسطينيين الذي استبدل بـ « المشاركة في تقرير المصير » ، كما تم في صيغة اسوان بين السادات وكارتر ووثائق كامب دفيد وغيرها · كذلك تراجعت مصر عن المطالبة بدولة فلسطينية مستقلة تحكمها م·ت·ف الى دولة ترتبط بالاردن · وقد كشف اسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل السابق ان السادات قدم تنازله هذا منذ زيارته الى القدس ، عارضا مشروعا على هذا النحو ! « اذا وافقتم على موقف الولايات المتحدة ، اي الالتزام بالانسحاب الى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ في جميع القطاعات واقامة سلطة فلسطينية مستقلة غير تابعة ل ـ م·ت·ف ، فأنا على استعداد لابرام السلام الكامل معكم ، حتى دون الانتظار لموافقة باقي الدول العربية لهذه الشروط » (٦١)·

وحسب قول رابين « فأن السادات هو الذي الزم الولايات المتحدة ، اثر زيارته الى القدس ، بتغيير سياستها [المتعلقة بتحقيق سلام شامل] ودفعها نحو [العمل] على تحقيق السلام بينه وبين اسرائيل ، كمقدمة لتحقيق السلام الشامل والكامل على الجبهات الاخرى » (٦٢) · والجدير بالانتباه انه كان هناك دائما ، وما زال ، اختلاف شاسع ما بين فحوى التصريحات الصادرة عن الرئيس المصري ومسؤولين آخرين في حكومته ، فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين ، وبين التنازلات الفعلية التي كان هؤلاء يقدمونها مجانا لاسرائيل ولاميركا ، وربما لحساب تسهيل الحل في سيناء · والسؤال المطروح الان هل ستستمر مصر في اتباع هذا النهج في المفاوضات المقبلة ، حيث تقدم التنازلات هذه المرة على حساب « عدم عرقلة مسيرة السلام » بينها وبين اسرائيل ، ام ان وضعها السياسي الحالي وما تعانيه من عزلة على الصعيد العربي سيدفعانها الى اعادة تقييم موقفها من جديد ، واتباع قدر من التصلب ، على الاقل ، فيما يتعلق بالمسائل الجوهرية في المفاوضات ، كمسألة القدس وصلاحيات الحكم الذاتي ومصير المستوطنات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، وهي امور من شأنها ان تؤثر في المستقبل في المفاوضات النهائية حول مستقبل المناطق ·

وتجمع الاوساط الاسرائيلية – من قبيل التنبوء حول تطورات الموقف المصري في المستقبل – ان السادات لا يستطيع ، بسبب وضعه البائس في العالم العربي ، والمقاطعة الشاملة ضد مصر ، الا ان يتخذ مواقف صلبه تثبت « حسن نيته » تجاه الفلسطينيين ، واصراره على حقوقهم ، وبالتالي فأن موقفه هذا سيصطدم حتما بالموقف الاسرائيلي المتشدد ، مما سيؤدي الى فشل المفاوضات حول الحكم الذاتي ، وبالتالي تأخير مجرى تطبيق المعاهدة بين مصر واسرائيل · ويعتقد رابين ، مثلا ان السادات مضطر الى ان يقرر في نهاية السنة الاولى على توقيع المعاهدة : « هل ان عدم الاتفاق حول موضوع الحكم الذاتي سيؤدي الى الغاء تطبيع العلاقات مع اسرائيل – حيث تكون اسرائيل لا زالت في خط رأس محمد – العريش ؟··· ام انها ستواصل مجري تطبيع العلاقات رغم عدم الاتفاق حول جوهر الحكم الذاتي ؟· [واذا اختارت الامكانية الاولى] فأنها ستلغي مركبات السلام المختلفة ، اي اعادة اقفال الحدود بين البلدين امام تنقل السكان والبضائع · وارجاع السفير المصري في اسرائيل الى القاهرة ، والطلب من السفير الاسرائيلي مغادرة مصر · كذلك يحدث جمود في مجري صنع السلام في اسوأ الاحوال ، وواضح الى اين سيؤدي ذلك · اما في افضل الاحوال ، فيبقى الغاء حالة الحرب ساري المفعول دون اية مركبات للسلام او تطبيع للعلاقات » (٦٣) ·

على اي حال ، ان الحديث حول احتمال فشل المفاوضات حول الحكم الذاتي يقلق بال الكثير من الاسرائيليين ، رغم مخاوفهم المتعددة من امكانية تطبيقه · وهذا التناقض في مواقفهم عائد ، كما يبدو ، الى ما قد يولده فشل المفاوضات من « تأثير سلبي » على المعاهدة مع مصر ، خاصة وان السادات «مضطر الى تسديد الحوالة التي اعطاها للعالم العربي فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية » (٦٤) ، رغم العزلة التي يعانيها ، على اعتبار ان تطبيق الحكم الذاتي هو الوسيلة لاثبات اهداف سياسته ، « وهي الوصول الى سلام كامل مع اسرائيل ، مع الحرص الدائم على انسحابها الى خطوط حزيران ١٩٦٧ على جميع الجبهات ، وقيام سلطة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يحدد مصيرها في الاساس من قبل العالم العربي » (٦٥) ·

ويبدو ان هنالك شبه تطابق بين موقف السادات هذا وبين الموقف الاميركي ، خاصة فيما يتعلق بمسألة السلام الشامل مع اسرائيل ومركباته ، فالرئيس كارتر الذي كان اول رئيس اميركي يدعو الى الحاجة الى ايجاد « وطن » للاجئين الفلسطينيين ، ويعترف بأن المسألة الفلسطينية هي قضية « جوهرية » في الشرق الاوسط ، ويستخدم عبارة « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، تراجع كثيرا عن مواقفه هذه بفعل الضغط الصهيوني والاسرائيلي من جهة ، وبفعل سياسة السادات من جهة اخرى · « والالتزام » الوحيد الذي قطعه كارتر على نفسه تجاه الفلسطينيين هو تطبيق الحكم الذاتي ، كما اعلن ذلك بنفسه امام بيغن اثناء زيارته الاخيرة الى اسرائيل (٦٦) · الا انه حتى هذا لا يهدىء من روع الاسرائيليين الذين يعتبرون ان هناك فجوة كبيرة بين التفسيرين الاميركي والاسرائيلي لمشروع الحكم الذاتي · وتطور الموقف الاميركي ، استنادا الى تجربة المفاوضات السابقة، يتأثر كثيرا بالسياسة المصرية ، فالتنازلات تبدأ في مصر اولا وليس العكس ·

ويبقى موقف السكان العرب ، الذين بدون موافقتهم لن تجري الانتخابات للحكم الذاتي ، بحيث قد يبقى الاتفاق حول التنفيذ ، في حال تحقيقه نتيجة المفاوضات ، حبرا على ورق · لذلك فقد طرح اقتراح بدء المفاوضات حول الحكم الذاتي وتطبيقه في قطاع غزة اولا ، حيث تستطيع مصر استخدام مختلف الضغوط على السكان لحملهم على

تأييـــد هذا المشروع · ولهذه الغاية طلبت مصر ، بواسطة الرئيس كارتـــر اثنـــاء زيارته لاسرائيل ، ان تسمح الحكومة الاسرائيلية بتواجد ضباط ارتباط مصريين في القطاع، الامر الذي رفضه بيغن رفضا قاطعا معلنا ان مصر ليس لها الحق في ذلك ، وموضحا : « ما هو قطاع غزة ؟ انه جزء من ارض ـ اسرائيل ··· لقد شنت مصر هجوما معاديا ضد ارض ـ اسرائيل في سنة ١٩٤٨ واحتلت جزءا منه يدعى قطاع غزة ··· اي حق لها في القطاع ؟ اننا لم نوافق ابدا على مركز ارتباط او ضباط ارتباط مصريين في هـــذه المنطقة » (٦٧) · وعلى اي حال ، هناك وجهتا نظر في اسرائيل حول هذه المسألـــة ، الاولى تعتبر ان المفاوضات حول تطبيق الحكم الذاتي في قطاع غزة اولا ، جديرة بالاهتمام لانها تسهل على اسرائيل تقديم تنازلات اكبر بسبب الارتبـــاط « النفسي » الاسرائيلي الضعيف نسبيا مع القطاع ، وسابقة القرار حول اخلاء مستوطنات رفح ، تم الرغبـــة الاسرائيلية في التحرر من مسؤولية حل مشكلة اللاجئين في مخيمات القطاع · كذلك يمكن ان يساهم نجاح المفاوضات حول الحكم الذاتي في القطاع ، في نجاحها في الضفة الغربية ايضا · اما اصحاب وجهة النظر الاخرى فانهم يخشون من ان يستخدم الاتفاق حول قطاع غزة ، في حال تحقيقه ، كسابقة في الضفة ، وهذا ما تخشاه ايضا الحكومة الاسرائيلية على ما يبدو ·

لذلك يبدو ان المفاوضات حول غزة لن تكون اسهل من المفاوضات حول الضفة ، حيث ان التصلب الاسرائيلي قائم في الحالين · ومن يراهن على بعض التنازلات الاسرائيليـــة فيما يتعلق بمواقف الحكومة من الحكم الذاتي ، لن يكسب ابدا ، لان ليس هناك طرف واحد داخل الائتلاف الحكومي على استعداد للتراجع قيد انملة عن مواقفه : فالضفة الغربية ليست سيناء ومستوطنات الغور ليست مستوطنات رفح والقدس ليست العريش ، فهذه هـــي « ارض ـ اسرائيل الغربية » · والفلسطينيون ـ في نظر بيغن ـ ليسوا سوى « عـرب ارض ـ اسرائيل » ، لهم « حقوق ادارية » فقط في وطنهم ، لا قومية · وعلى كل حال، تبقى مخاوف الاسرائيليين من امكانية تطور الحكم الذاتي الى استقلال فلسطيني مجـرد اوهام ، لان ما هو معروض على سكان المناطق المحتلة ليس ، عمليـــا سوى اقامـــة « بانتوستان » جديد بصيغة اسرائيلية · ويبدو ان السادات الذي « سيتقدم خطوتين كلما تقدمت اسرائيل خطوة » ، على حد تعبيره ، لن يجد مكانا يخطو فيه في الضفة الغربيـــة وقطـــاع غزة ·

الحواشي

(١) مـــن اتفاقية السلم بيـــن مصـــر واسرائيل ، كما اوردتها **شؤون فلسطينية** ، العدد ٩٠ ، ايـــار (مايـــو) ١٩٧٩ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ·

(٢) **المصدر نفسه** ، العدد ٨٤ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٩ ·

(٣) نص المشروع الاسرائيلي كمـــا اوردته **هارتس ودافار** ، ١٩٧٧/١٢/٢٩ ·

(٤) في مقابلة مع دايان ، **يديعـــوت احرونوت** ، ١١٩٧٩/٣/٣٠ ·

(٥) شموئيـــل سيجف ، **معاريـــف** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٦) المادة ١٠ مـــن وثيقـــة المبـــادىء الاربعة عشر التي اقرها حزب العمل عشية الانتخابات للكنيست الثامـــن ، ١٩٧٣ ، **دافار** ، ١٩٧٣/١١/٢٩ ·

(٧) يوسف حـــاريف ، **معـــاريف** ،

١٩٧٩/٣/٢٢ ·

(٨) من مقابلة مع الوزير لانداو ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٩) راجع المصدر (٢) ·

(١٠) من مقابلة مع بيغن ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٤/١١ ·

(١١) **النهار** ، ١٩٧٩/٥/٧ ·

(١٢) من خطاب بيغن في الكنيست ، كما نشرته **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢١ ·

(١٣) **المصدر نفسه** ·

(١٤) **المصدر نفسه** ·

(١٥) انظر المصدر رقم (٨) ·

(١٦) من مقابلة مع الوزير شارون ، **معاريف** ، ١٩٧٩/١/٢٦ ·

(١٧) **المصدر نفسه** ·

(١٨) تقرير لجنة بن ـ اليسار كما اوردت مقتطفات منه صحيفة **دافار** ، ١٩٧٩/٢/١١ ·

(١٩) في حديث مع جرشون شيفط ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٢٠) **المصدر نفسه** ·

(٢١) انظر المصدر رقم (١٦) ·

(٢٢) انظر المصدر رقم (١٨) ·

(٢٣) **هآرتس** ، ١٩٧٩/٤/١٦ ·

(٢٤) **المصدر نفسه** ·

(٢٥) افتتاحية **هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٩ ·

(٢٦) **هآرتس** ، ٧٩/٣/٣٩ ·

(٢٧) انظر المصدر رقم (١٨) ·

(٢٨) اوري دان ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٢/١٢ ·

(٢٩) **المصدر نفسه** ·

(٣٠) حسب المصادر الاسرائيلية اهم هذه الجمعيات هي

American Near East Refugee Aid .

A . N . E . R . A .

التي تعمل على تأسيس قاعدة للتطور من اجل العرب في المناطق المحتلة بتعاون وثيق مع القنصلية الاميركية في القدس ووزارة الخارجية الاميركية ·

(٣١) انظر المصدر رقم (٢٨) ·

(٣٢) **هآرتس** ، ١٩٧٩/٢/١٩ ·

(٣٣) **المصدر نفسه** ·

(٣٤) نشر ملخص له في **هآرتس** ، ١٩٧٩/٥/٤ ·

(٣٥) انظر المصدر رقم (٣) ·

(٣٦) انظر المصدر رقم (٣٤) ·

(٣٧) انظر المصدر رقم (١٨) ·

(٣٨) انظر المصدر رقم (٤) ·

(٣٩) انظر المصدر رقم (١٢) ·

(٤٠) من حديث مع ابا ايبن ، **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٤١) شموئيل كاتس ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٨/١/١٣ ·

(٤٢) من حديث مع غيئولاه كوهين ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/١٦ ·

(٤٣) في حديث مع غيئولاه كوهين . **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٤٤) من مقابلة مع يوفيل نئمان . **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٤/١٣ ·

(٤٥) في حديث مع النائب يغئال هوروفيتس ، **يديعوت احرونوت** . ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٤٦) كما اقتبس الكاتب يوسف حاريف من اقوال بيغن ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٤٧) ناثان يلين مور ، **هآرتس** ، ١٩٧٩/٤/٩ ·

(٤٨) من خطاب شمعون بيريس في الكنيست ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢١ ·

(٤٩) **المصدر نفسه** ·

(٥٠) **المصدر نفسه** ·

(٥١) **معاريف** ، ١٩٧٩/١/١٩ ·

(٥٢) كما اوردها يسرائيل كرغمان ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٨/٢/١٥ ·

(٥٣) في حديث مع ابا ايبن ، **عمل همشمار** ، ١٩٧٩/٣/٣٠ ·

(٥٤) **المصدر نفسه** ·

(٥٥) في حديث مع يوسي سرير ، **هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٥٦) **المصدر نفسه** ·

(٥٧) دافيد هكوهين ، **دافار** ، ١٩٧٨/٤/٢١ ·

(٥٨) يسرائيل تومار ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٤/٢ ·

(٥٩) في مقابلة مع موشي شارون ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٢/٢ ·

(٦٠) تيدي برويس ، **دافار** ، ١٩٧٩/٤/١٢ ·

(٦١) من مقابلة مع يتسحاق رابين ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/١٦ ·

(٦٢) **المصدر نفسه** ·

(٦٣) **المصدر نفسه** ·

(٦٤) فولص ، **هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٣٠ ·

(٦٥) رابين ، المصدر رقم (٦١) ·

(٦٦) من اقوال كارتر الى بيغن كما نقلها يوسف حاريف ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٦٧) راجع المصدر رقم (١٢) ·

أبو الحسن بني صدر
غزا نفار بور بول فيل

ايران : العقد الاجتماعي الجديد بين الواقع والخيال

سنتناول اولى مؤلفات الشاه السابق « مهمة من اجل بلدي » الصادرة عام ١٩٦١ ، قبيل قيام الثورة البيضاء وفي بدايات الازدهار الاقتصادي الكبير القائم على تصدير النفط · وسنركز تحليلنا على الفصل الثامن منه بالاخص ، وهو بعنوان « الديمقراطية كما افهمها » · في هذا الفصل يؤكد الشاه اولا على ان الديمقراطية تمثل الضمانة الوحيدة للحرية الفردية :

« لقد تعلم الناس من خلال تجربة قاسية ، انه لا يمكن التوصل الى حرية فردية حقيقية الا من خلال نظام ديمقراطي يتيح للناس العاديين ان يسيطروا فعليا على المجتمع الذي يعيشون فيه » ص (١٦) · وينتقد بالمناسبة انظمة الحزب الواحد :

« ان الدكتاتوريين الشيوعيين يشبهون الفاشيين فيمجال اجراء الانتخابات · فهم يرغبون في ايهام العامل العادي بأن له رأيه في تشكيل الحكومة في بلده · لكن القادة الشيوعيين لا يسمحون الا بوجود حزب سياسي واحد ··· » ·

اخذت هذه المقالة عن تقرير حول « التغيير الاقتصادي والاجتماعي في ايران وتغير وظائف الانتخابات فيها » ، اعد لندوة جرت ما بين ١٧ و ١٨ أيار ١٩٧٦ ، حول عدم التنافس في الانتخابات ، ونظمت من قبل مركز « دراسات العلاقات العالمية » في الجمعية الوطنية للعلوم السياسية · وقد تم تصحيح النص الاصلي واضيفت اليه بعض النقاط · اما الجزء الآخر من هذا التقرير فقد نشر في « المجلة الفرنسية للعلوم السياسية » في عدد شباط ١٩٧٧ (ص ٣٤ ـ ٦٣) ، تحت عنوان الانتخابات ووظائفها في ايران ·

لكن الشاه كتب بعد ذلك ، انه لم يعد بالامكان النظر الى الديمقراطية بمفاهيم

سياسة ، لانه فيما مضى كان الناس احرارا ومتساوين في الحقوق وقادرين على تلبية حاجاتهم الاقتصادية والاجتماعية بفضل مبادراتهم الخاصة ، اما اليوم فقد تبدل الوضع في عصر يمتاز بالعلم والتكنولوجيا وادوات الانتاج الضخمة · فغدا الناس يطالبون بحقوق اقتصادية الى جانب مطالبتهم بالحقوق السياسية ، وهم في البلدان النامية يرغبون باكتساب وسائل الانتاج الحديثة وذلك من اجل رفاهيتهم · وكما نرى في اغلب الاحيان ، قد يؤدي التطور الاقتصادي الى فوضى ان لم يترافق مع تطور سياسي · ان بعض بلدان الشرق الاوسط لم تقدم برنامجا سياسيا يترافق مع مشاريعها الانمائية والاقتصادية ، وعلى ما يبدو فالدرس الذي نستخلصه هو ضرورة تماشي التطور السياسي المبرمج مع النمو الاقتصادي المنظم اذا اردنا تحاشي الاضطرابات ·

ان الاولوية المعطاة للحقوق الاقتصادية والتطور الاقتصادي تقود كما نرى الى التراجع عن الحقوق السياسية ، اذ ان الامر لم يعد منذ الآن اعطاء الاشخاص العاديين امكانية التعبير السياسي ، بل تولي الاهتمام بالتطور السياسي من اجلهم ومن اجل رفاهيتهم · ان صاحب هذا الكتاب لم يوضح هذه النقطة بل يحاول على العكس طمس استنتاجات خطابه بالرجوع الى الثورة الدستورية · لكنه لن يفلت ، كما سنلاحظ ، من المنطق الذي يتبعه ·

وقد اشار الشاه الى ان ثورة ١٩٠٦ هي نوعا ما عودة الى بعض المبادىء التقليدية التي داستها « القاجار » السلالة الملكية الفارسية (التي كانت تتحكم قبل سلالة بهلوي) كالتسامح واحترام الفرد ، وقد اضافت الثورة الى هذه المبادىء مؤسسة سياسية جديدة هي الحكومة التمثيلية · ولم يفهم الشعب من هذه الخطوة سوى نهاية الاعمال الاستبدادية والاكراه · « غير ان لقادة ثورتنا ، ومعظمهم من المثقفين ، اسبابا وجيهة لدعم التمرد ، اذ كانوا يرغبون في جعل نظامنا السياسي اكثر ليبرالية واقرب الى الغرب · كانوا يعلمون ان هذه هي الطريقة الوحيدة لابقاء الاستقلال في بلاد الفرس ، ولجعلها تزدهر اقتصاديا واجتماعيا » (ص ١٦٥) · « نحن الفرس لقد قمنا بخطوة كبيرة الى الامام ، فقد جمعنا لاول مرة في تاريخنا بين المفهوم الغربي للديمقراطية البرلمانية وبين التقاليد الملكية الفارسية » (ص١٦٦) · انها محاولة للجمع السحري بين الثورة والتقاليد الملكية وتحميل الاخطاء لسلالة « قاجار » والتأكيد في نفس الوقت ان اسرة « بهلوي » هي وريثة الثورة الدستورية على صعيد الديمقراطية والانفتاح على الغرب المتممين بعضهما لبعض · لكن الخطاب يحتوي على ثغرة · فقد ورد حرفيا فيه ان الشاه رضا اضطر عندما تدهور الوضع بفعل « القاجار » الى استلام السلطة وتقليص دور البرلمان · وبعدها مباشرة ، قدم الشاه رضا على انه الرائد الحقيقي للديمقراطية من خلال اللجوء

الى اللعب بالعبارة في « ان رضا شاه بوصفه رئيسا للـوزراء ومؤسس الاسرة البهلوية الجديدة حاول ان يحد من دور البرلمان لكنه في مجال اخر ساهم كثيرا في انجاح قضية الديمقراطية في ايران » (ص ١٦٦) · وقد تجسدت مساهمته ، كما تقول المؤلفات ، في خلق عدالة ونظام تربوي تابع للدولة ، ومن خلال اصلاح الادارة واقامة علاقة معقولة بين الدولة والكنيسة الخ ··· وقد تابع ابنه محمد رضا بهلوي عمله هذا ، وتعني المؤسسة البرلمانية بنظره مؤسسة عقلانية تنظم الحياة السياسية في البلاد ، وتنظيمها يرجع الى قرار من الملك · « يمكنني ان اعطي الحكومة التمثيلية اهمية اكبر مما اعطاها ابي ، ومرد ذلك الى سرعة انتشار التربية في بلدي » (ص ١٦٨) · « اني اشجع الآن تشكيل مؤسسة سياسية هامة ، ظاهرة جديدة نوعا ما في ايران، واعني بذلك الحزب السياسي· عندما شكلت الجمعية الوطنية في ايران عام ١٩٠٦ ترافق ذلك مع نشوء بعض الاحزاب كما سمت نفسها · لكن الخلافات الداخلية والاهمية المعطاة للاشخاص اكثر من النتائج ، سرعان ما جعلت هذه الاحزاب غير فعالة · حاول ابي القيام بتجربة حزب الاكثرية الواحد ، لكنه تفكك بعد فترة · يبدو ان البلاد لم تكن وقتها ناضجة ما فيه الكفاية لنظام حزبي مقبول· وبفعل الانتشار السريع لنظامنا التربوي وضع والدي اسس تطور الاحزاب في المستقبل · وقد برز العديد من الاحزاب خلال الحرب العالمية الثانية واحتلال البلد من قبل دول اجنبية · وكان امتنهم تنظيما حزب « توده » الشيوعي ··· وقد عرف اعضاء حزب « توده » بتكتيكهم السلبي خلال جلسات الجمعية الوطنية ، واقر بكل اسى ان هناك بعض السياسيين غير الشيوعيين تعاونوا مع « توده »،من اجل تجميد كل محاولة لايجاد تشريع بناء (···) وفي عام ١٩٥٧ بعد ان اعيد الاستقرار الى البلاد وتم تسيير الاقتصاد الوطني بعد مرحلة الجمود ايام مصدق، حاولت تطوير نظام الحزبين في ايران بشكل واسع · قد يقول بعض المشككين (···) ان حزبي الاكثرية والاقلية هما مجرد دمى تابعة للحكومة والعرش · ان هذا خارج عن الموضوع الاساسي الا وهو معرفة كيف يمكن تقوية أحزاب في بلد نام كايران · فغالبية الشعب هنا غير متعلمة ، رغم الجهود التي بذلها والدي ورغم افتتاح المئات من المدارس الجديدة منذ توليه الحكم وبعدها · وكذلك، فان المفاهيم الغربية حول الديمقراطية البرلمانية والاحزاب السياسية ما زالت مسائل جديدةفي بلدنا· فمن غير الواقعي افتراض نشوء احزاب وتطورها بشكل عفوي من القاعدة في بلد ما زالت التقاليد فيه مترسخة بعمق · لذا فاني اعتبر ان دوري كملك يتطلب مني تشجيع الاحزاب » (ص ١٧٢ ــ ١٧٣) ·

اذا كنا قد اوردنا هذا النص باسهاب فلانه واضح جدا ، فبنظر الشاه وبنظر الفئة الحاكمة ، هناك نموذج للديمقراطية الحكيمة « والفعالة » (يستعمل الشاه هذه العبارة باستمرار) يجب خلقه من فوق ، اي ان اقتضت

الحاجة ، ضد اكثرية المواطنين الذين لا يقدرون ان يسلكـــوه نظرا لثقافتهـم البالية والقديمة · يجب ان يتم تربيتهم وابقاء الوصاية عليهم حتى يبلغوا النضج السياسي · ان الغرب يمثل النموذج السياسي الذي علـــى الشعب الايرانـي الاقتداء به · ان الاشارة الى الثورة الدستورية لا تعني حصول الشعب بارادته على وسائل تعبير ديمقراطية لكنها على العكس تمثل مشروع قادة ايران فـــي التمثل بالغرب ، (ان المعارضة التي يشير اليها خطاب الشاه تمثل بالطبـــع نسخة عن احداث الثورة الدستورية) فطمـوح القـادة اكبـر مـن امكانيـات الشعب الايراني ، وقد اعتبرت سلالة بهلوي نفسها مسؤولة عن اتمام هـــذا المشروع ، وحتى تحقيقه ضد ارادة الشعب الايراني ولكن لمصلحته ، كونه غيـر قادر منذ فترة على فهم ما هو مطلوب منه · في الواقع ليس هناك تناقض ما بين ميل الشاه « للديمقراطية » وبين احتقاره لاشكال التعبير الشفهية ، وهذا غالبا ما يظهر في المقابلات التي يجريها (راجع مثلا : حرية التفكير ، حريـة التفكير ! الديمقراطية ، الديمقراطية ! ماذا تعنون بالديمقراطية والحرية ؟ أهو ان يضرب اولاد بسن الخامسة ويتظاهروا في الشوارع ») (أ· فلاسي ١٩٧٧)·

هذا النص ليس مهما لكننا حللناه هنا لانه اكثر النصوص وضوحا ، وهو يعود الى ما قبل الثورة البيضاء وتأسيس الحزب الواحد · ان التناقض الذي قد نستفيد منه في جدلنا ليس سوى تناقض ظاهري · فان سلوك الامير كمـا يريد ان يظهر نفسه لم يتغير ، سلوك القائد الداعـي الى التمـدن والساعي الى ترسيخ أكثر المؤسسات السياسية فعالية واكثرها تكيفا مع التطور الاقتصادي · وقد اظهر ذلك ، البرنامج الانتخابي الذي قدمه حزب الانبعاث في انتخابـات عام ١٩٧٥ ، فهو يطرح تربية الجماهير سياسيا داخل اطار المؤسسات المقترحة من قبل السلطة · اذن فان نص الحزب الذي صدر عام ١٩٦١ لم يكن ظرفيا بل حدد سياسة طويلة المدى نتيجة تشبث ايديولوجي ·

عندما نقرأ هذا الخطاب نتساءل مباشرة عن اهميته لماذا احست السلطة عام ١٩٦١ بضرورة تقديم تصورها عن التطور في ايران ؟ اهو لوجود تبدل ما ، او تحول اقتصادي واجتماعي يؤدي الى ضـــرورة اتباع خط سياسي جديد وايجاد مؤسسات سياسية جديدة ؟؟ نتساءل ايضا عن معنى « العقد الاجتماعي الجديد » · (ان استعمال هذا التعبير للاشارة الى السياسة الايرانية الجديدة كان بايعاز من امير عباس هويدا رئيس الـــوزراء عام ١٩٧٥)· ما هـــي التناقضات الكامنة داخل نمط التطور الاقتصادي والتـي تتعارض مـع تحقيـق وفاق اجتماعي وتتطلب تخطيطا في التطور السياسي ،اي بمعنى اوضح مؤسسات سياسية لا ديمقراطية تمركز السلطة بأيدي الدولة ؟ ·

نمط التطور الاقتصادي الاجتماعي

منذ بداية هذا القرن المتميز بالثورة الدستورية ، يمكننا ان نميز في تاريخ الاقتصاد الايراني وفي شكل اندماجة بالاقتصاد العالمي حقبتيـن هامتيـن حسب الظروف ، تفصلهما تحولات الخمسينات والستينات ٠

ان بداية القرن العشرين الذي يشكل امتدادا للنصف الثـاني من القـرن التاسع عشرقد عرف تحولات هامة في طبيعة العلاقات التي تربط ايران بالدول الصناعية في اوروبا الغربية ، ونتائج هذا التحول كانـت مهمة على صعيـد علاقة الطبقات الاجتماعية ببعضها البعض، ووضع الدولة والمؤسسات السياسية، لكنه لم يكن بأهمية التحول الذي حصل في الخمسينات اثر التدفق المتزايـد للموارد النفطية ٠ سنقوم الآن بتحديد ميزات هاتين الحقبتين لاظهار اختلافهما٠

خلال القرن التاسع عشر ، وفي بداية القرن العشرين كانت ايران تزيد تدريجيا من حجم تبادلها التجاري مع الاقتصاديـات المهيمنـة ، بينما كانـت علاقتهـا الاقتصادية بجيرانها في المحيط الهندي وافريقيا الشمالية تتقلص ٠ قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى جمد حجم تبادلها مع السوق العالمية بالمقارنة مـع بلدان المنطقة نتيجة المنافسة ما بين روسيا وانكلترا (راجع ش٠ عيساوي ١٩٧١ ، ص ١٦ ــ ١٧) ٠ شكلت ايران منذ ذلك الوقت ، موقعا يجري التنافس عليه من قبل الدولتين العظميين ، تحاول كل منهما ، وضعها ضمن منطقة نفوذ وتعارض مبادرات خصمه في كافة المجالات بما فيها طرق المواصلات والتجارة ٠

في فترة ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية بقي ازديـاد حجـم التبـادل التجاري العالمي محدودا نظرا لصعوبة المواصلات مع الاتحاد السوفيـاتي او عبره ٠ (قبل الحرب العالمية الاولى كانت ٧٠٪ من التجارة الخارجية تمر في المراكز التجارية الواقعة شمال البلاد) ٠ اما قطار « ترانس ايران » الذي شكل منفذا رئيسيا للتبادل مع الغرب فقد اصبح جاهزا عام ١٩٣٨ ٠

ان تعزيز علاقات ايران بالسوق العالمي ستؤدي الى تحـولات طبيعية فـي الاقتصاد الايراني : زوال الحرف التحويلية (كحياكة الصوف والقطن والحرير التي كان يصدر جزء منها في الماضي) نتيجة منافسة المنتجات المصنعة لها ، وتخصص ايران بانتاج بعض المواد الزراعيـة (الافيـون ، الحرير ، القطـن ، الرز ، الفواكه الجافة والمواشي ٠٠ الخ ٠) ٠ لم تصمد سوى حرفة واحدة تقليدية وهي حياكة السجاد المجـدل التي لم تلق تنافسا صناعيـا والتي تطورت بهدف تصديرها الى الاسواق العالمية الغربية ٠ هذه الحقبة الممتدة من اواخر القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين تمتاز بنمو الرأسمال التجاري، وقد بدأت بعض الشركات الايرانية الهامة تظهر وتفتح فروعاً لها في الغـرب

وتتخصص وتتجه نحو توظيف اموالها في الصناعة والزراعة خصوصا ٠ (تصدير المنتجات الزراعية) ٠

لكن هناك مجموعة من الاسباب التي وقفت عائقا في وجه نمو البرجوازية الايرانية ٠

اولا : معاهدات العشرينات التجارية ، التي كانت تعطي الافضلية للتجار الاجانب (بفضل حماية القنصل وامتيازات وجودهم خارج وطنهم ، فقد فرضت ضرائب اقل على بضائعهم) ، وتلغي كل حماية للمنتجات الوطنية ، كذلك هناك سياسة البنوك الاجنبية الوحيدة في ايران والتي تميز الاجانب وتوجه التوظيفات الايرانية نحو الزراعة وحياكة السجاد على حساب الصناعة التي كان بامكانها منافسة المنتجات المستوردة، واخيرا هناك احتكار استثمار المناجم من قبل شركات اجنبية استطاعت الحصول عليه نتيجة وجود دولة تعاني من العجز المالي ٠

ان الحرب التي نشبت بين ايران وروسيا ومعاهدة « تركومانشي » عام ١٨٢٧ شكلت تحولا في وضع الدولة ٠ قبلهذا التاريخ كانت الموازنة تؤخذ من عائدات الانتاج الداخلي ٠ لكن نسبة هذا الانتاج بدأت بالانخفاض لصالح الاحتكارات والتنازلات والجمارك اولا (خاصة الضرائب المفروضة على الواردات) ومن ثم نتيجة قروض من الخارج (اول قرض يرجع الى عام ١٨٩٢) واخذ من البنك الامبراطوري الفارسي وهو شركة بريطانية ، (كما وسبق للحكومة الايرانية ان تلقت من بريطانيا مساعدات على دفعتين ايام التنافس الروسي البريطاني) واخيرا هناك مبالغ من قبل الشركات المستثمرة دفعت بمثابة دخل نفطي ، وكانت هذه المبالغ سترتفع قيمتها بسرعة (فقد تضاعف انتاج النفط من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٤٨ ، وفي سنة ١٩٣٣ اصبح سعر النفط ضعف ما كان عليه) ٠

خلال هذه الفترة وفيما كان الخلل في الموازنة يزداد ، كانت حصة الموارد الحقيقية للدولة الناتجة عن تغلغل الاقتصاديات المهيمنة في ايران تزداد هي ايضا ، اي اننا امام عملية ازدياد تبعية الدولة للدول الامبريالية ٠ هكذا وفي فترة الثورة الدستورية ، فان اكثر من ثلث موارد الدولة كانت تؤخذ من الانتاج الداخلي ٠ اما في عام ١٩٤١ اي في نهاية عهد الشاه رضا فانها لم تعد تشكل سوى ١٢٪ منه ٠ ولم تتغير النسبة مذ ذاك (١٠٪عام ٧٢) ٠ ان استقلال الدولة عن الانتاج الداخلي سيؤدي بها الى عدم السعي لتطويره ، بل على العكس سوف يحاول تطوير القواعد الانتاجية التي تضمن عائداتها : التصدير ، التنازلات ، استثمار الموارد الطبيعية المطلوبة من قبل السوق العالمية، منح التسهيلات للمقرضين الاجانب واثقال التجارة الخارجية بأعباء كبيرة ٠

لكن يجب ان نرى في هذا التوجه لسياسة الدولة الاقتصادية خصائص طبيعة الطبقة الحاكمة ، اي الملكية العقارية الكبيرة ، التي بعد ان ضعف مركزها داخليا بفعل ضعفها تجاه البلدان الصناعية ، اختارت ان ترتكز على هذه البلدان من اجل الاستمرار في الحكم ٠

وكانت الاقطاعية تحد من نمو البرجوازية حائلة دون دخول البضائع الى القرى ، ومانعة هكذا اتساع سوق داخلي محصور حتى الآن ٠ ان الملكية العقارية بالرغم من تبدل نظام الثقافة ومن التوجه نحو اكثر القطاعات الانتاجية مردودية ، ما زالت تحاول التوفيق بين هذه النزعة وبين ابقاء التجمعات الريفية خارج نطاق السوق والمدينة ٠ واخيرا فان الاقطاعية والدولة لم تكل طوال هذه الفترة عن الاهتمام بالتجارة كمصدر للدخل ، كل وفق طريقتها الخاصة ، واضعة التجار الايرانيين في حالة لا استقرار وحارمة اياهم من اية امكانية تراكم ٠

ان السلطة ايام سلالة بهلوي وكما كانت في ظل « القاجار » ، بصفتها ممثلة لجهاز الدولة (وظائف وعلاقة شخصية) ، تستخدم لخلق اوضاع تسمح بالثراء السهل ، او الاستيلاء على ارباح او حتى على رساميل الذين يتمتعون بنفوذ او ممن هم اقل شأنا ٠ في عهد الشاه رضا تم انشاء ٢٧ احتكارا للدولة بهدف حماية الاقتصاد الايراني في فترات الازمات ، لكن هذا الهدف المعلن لم يتحقق يوما ٠ وقد سعت هذه الاحتكارات الى تغذية خزينة الدولة وخزائن بعض الاشخاص على حساب التجار ٠

كانت البرجوازية الايرانية ، طوال هذه الفترة ، تعيش وضعا متناقضا ، فلقد جعلها ارتباطها بالسوق العالمية تتطور في مجالات الاستيراد والتصدير ، ولقد اصبحت هذه المجالات ، نتيجة عجز الميزان التجاري المستمر تتطلب المزيد من الرأسمال والكفاءة في المقاولة ٠ ومن جهة اخرى فان تطورها واعمالها وتراكمها اصطدم بعوائق تمثلت بالرأسمال الاجنبي الذي ينافسها مباشرة وبالطبقة المسيطرة والدولة اللذين حاولا زيادة عائداتهم وثروتهم على حسابها من خلال اللجوء الى وسائل الاستيلاء المعهودة ، وخلق عدم الاستقرار ٠ وقد اضطرت هذه الطبقة المسيطرة الى التحالف والاستناد الى القوى الغربية وانفتاحها على السوق العالمية واخيرا على اعطاء امتيازات لرأسمال الدول المسيطرة نتيجة حرصها الدائم على الاثراء اولا ، ومن ثم على اثر ضعفها حيال القوى العظمى ، اذ هي مدينة لها ٠ واخيرا نتيجة ضعفها في وجه موجة الاحتجاج الموجهة ضدها ٠

لكن البرجوازية الايرانية على امتداد القرن التاسع عشر ، احتجت على وضعها ، وعلى الامتيازات المعطاة للاجانب (مقاطعة الشاي عام ١٨٤١

والمنتوجات المصنعة الاجنبية عام ١٨٤٤ والتبغ عام ١٨٩٢) وعلى عدم المساواة في الضرائب الجمركية بين المصدرين الايرانيين والاجانب · لا بد ان نحدد هنا اية برجوازية كانت المحرك لكل هذه التحركات المطلبية وبالنسبة لمقاطعة التبغ فقد قامت بها البرجوازية الصغيرة في البازار (وهم حرفيون يعملون في تحويل التبغ ، وصغار ومتوسطي التجار الذين يهتمون بتناول التبغ والمرتبطين بالفلاحين المنتجين الصغار والمهددين بافلاس نتيجة الاحتكار) وليس البورجوازية الكبيرة التابعة للخارج نتيجة التبادل العالمي والمتمتعة باحتكار الجمارك الخ ···

ان حركة الاحتجاج عام ١٩٠٥ والتي ادت الى الثورة الدستورية ، كانت في البداية تذمرا من ظلم رئيس الوزراء ومن تفاقم الديون الخارجية ومن سياسة البنوك الاجنبية ، وقد طالبت باقالة وزير الجمارك وحاكم طهران · لقد تركزت مطالب الحركة الاساسية على الحد من القروض الخارجية ، واعادة بناء النظام الجمركي وانهاء التنازلات وتأميم البنوك ، وانشاء محكمة وغرفة مسؤولة عن مراقبة واحترام المساواة بين المواطنين امام القانون · وقد تميزت هذه الفترة بحرمان الحرفيين وسائل عيشهم بسبب تغلغل البضائع الاجنبية · وكانت النتيجة هجرة كثيفة نهائية او موسمية نحو المدن الصناعية في جنوب روسيا ، وتراكم يد عاملة ، عاطلة عن العمل في المدن الايرانية (ز·ز عبد اللائق عام ١٩٦٣ ، ص ٤٨) مما احدث خللا في التنظيم الاجتماعي وشكل عامل عدم استقرار ·

ان مرحلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هي مرحلة افقار للفلاحين ، وتغيير في نظام الزراعة ، وزيادة ضرائب الدولة وانخفاض جزئي لاسعار المواد الزراعية بالمقارنة مع اسعار المنتجات الصناعية والضغط المتزايد من قبل الملاكين العقاريين المشدودين الى السوق · كلها عوامل ساهمت في تدهور اوضاع الفلاحين (ن· و· كدي ١٩٦٠ و ١٩٦٨) · لا شك ان تزايد الضغط الذي مارسه الملاكون العقاريون هو العامل الرئيسي ، لان الجماهير الفلاحية كانت تعيش وقتها بعيدة عن العلاقات التجارية · وهناك عوامل اخرى ساهمت في ذلك منها حصول روسيا على مقاطعات ايرانية كالقوقاز والتركمان واوزبكستان وهذا حد من عائدات الملاكين الزراعية ومن المساحات الصالحة لتربية المواشي من قبل الرعاة · من جهة اخرى ، ان تبدل وضع الملكية العقارية قد ادى الى تقليص جهود الاستثمار والى تهديم جزئي في تجهيزات الري (القنوات) ·

ان الاستغلال الفاحش الذي مورس على الفلاحين ، يفسد تقبل الارياف في بعض الاحيان للحركات الدينية ·

لكن التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية الايرانية تمكنت في بدايات القرن العشرين من فرض موقع متوازن لها رغم الازمات التي عانت منها ، خاصة ازمة الثورة الدستورية وتلك التي حدثت خلال الحرب العالمية الاولى والثانية . سنعالج فيما بعد التدخلات الخارجية التي كانت حاسمة لكنها لم تكن فعالة الا بفضل وجود تنظيم داخلي متين للغاية .

سوف نذكر هنا بأسس هذا التنظيم فقط . اقطاعية من اصل بدوي تسيطر على زراعة هزيلة لا تصمد كثيرا تحت السيطرة ، مما يتطلب تنظيما جماعيا صارما لكل الجماعات الفلاحية وليس اقامة طبقة تكنوقراطية وظائفية او جهاز دولة متطور . ان الاقطاعية البدوية بعدما سيطرت على الزراعة بدأت تتفكك الى مجموعات متنافسة محاولة الاستقلال عن الدولة المركزية ، تاركة لها القوة الكافية للدفاع عن الوطن ضد التهديدات الخارجية ، وهذا هو بالفعل مصدر تجدد السلالة الملكية . يمكن تصوير المؤسسات التي نشأت نتيجة ذلك على الشكل التالي :

ان الطبقة الحاكمة مكونة من عدد من العائلات الارستقراطية المعروفة تماما (هناك ٥٥ عائلة) وهي متحالفة فيما بينها ومع البلاط ، كما تتصارع فيما بينها وفي وجه البلاط . وتجد كل واحدة منها قاعدتها العقارية في احدى اجزاء البلاد . على صعيد المناطق تقيم علاقات تحالف وصراع مع بعض العائلات الارستقراطية بهدف السيطرة على مصادر الدخل وخاصة على الارض . اما على الصعيد الوطني فان العائلات التابعة لمنطقة واحدة تقيم علاقات شبه دائمة مع عائلة ارستقراطية تابعة لمناطق اخرى وتشكل تكتلات تتحالف وتتصارع حول البلاط . اما البلاط فانه يملك جيشه الخاص المستقل عن التشكيلات العسكرية التابعة للقبيلة المسيطرة والقبائل الحليفة لها ، وهو يحاول ان يؤمن استقلاليته حيال القوى التي ضمنت نجاحه (معظم الجنود اجانب ، اما كبار الضباط ومعاونوهم فمن الطبقة الريفية الوسطى والجنرالات هم من الاسرة الملكية) . من جهة ثانية هناك مجموعة من الموظفين الملكيين المنتشرين في انحاء البلاد ، ومهمتهم الرئيسية هي جبي العائدات للمركز ، فيما تسعى العائلات الارستقراطية الى الاحتفاظ بها . ان ادارة الدولة (اذا امكن استعمال هذه العبارة) ليست مسؤولة عن فرض قوانين محددة تحكم العلاقة بين الافراد ، اي تنظيم الحياة الجماعية وفق قواعد معينة . على العكس من ذلك ، فان مهمتها الاساسية هي تهديد الاشخاص والمجموعات الضعيفة . وليس للفرد الذي يخشى على دخله من اطماع الغير اية ضمانة بوصفه مواطنا ، ولا يمكنه الاستمرار في العيش الا اذا طلب الحماية من احدى العائلات الارستقراطية ضمن تسلسل هرمي للمجموعات . وفي النهاية فان السكان منقسمون الى عدة تشكيلات هرمية حسب المناطق ، يمزقهم التنافس القائم بين تشكيلين او بين مكونات التشكيلة

الواحدة وذلك من اجل امتلاك الارض · ان الارتباط بهذه المجموعات او التشكيلات هو اهم من اي علاقة اخرى · ومن الصعب التشكيك الى حد ما بسلطتها (المجموعات العائلية والجماعات القروية والتشكيلة الاقطاعية والتشكيلات الكبيرة في المناطق) من قبل تنظيم طبقي · هكذا فان الملاك العقاري يسيطر بشكل كامل على القرية ويطلب منها الطاعة العمياء كلما احس بأن سيطرته تتزعزع ، كما تسيطر الاقطاعية ، التي تتمتع بكل فائض الانتاج الزراعي في بلد زراعي بالدرجة الاولى ، على المدن ، حيث تجد برجوازية تجارية تعيش من وراء تبادل تجاري خارجي وتجد طبقة دينية · ان قوة هذه الاخيرة مستمدة من جهازها الديني الايديولوجي ومن عائداتها المتمثلة بمساهمات البرجوازية التجارية الصغيرة والوسطى والفلاحين الميسوريين ، وقلما تتلقى مساعدات من الاقطاعية العقارية التي تدفع ضرائبها الدينية (سوف تزداد المساهمات العقارية للجهاز الديني بعد تطبيق الاصلاح الزراعي)· هناك جزء من رجال الدين مرتبطون بالملاكين العقاريين الكبار ، لكن وان كان تأثيرهم السياسي هاما ، لا يتمتعون بشعبية ولا يصلون الى المراتب الدينية العليا ·

تركت التحولات التي لحقت بعلاقات الانتاج والتبادل خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، كما رأينا ، آثارا اجتماعية في المدن : صعود طبقة التجار التي تعارضت مع البلاط والارستقراطية ، تزايد عدد الحرفيين العاطلين عن العمل مما ادى الى تشكيل جماهير شعبية يصعب لجمها ·

بالاضافة الى ذلك بدأ الجهاز الديني يتذمر نتيجة اهمال دوره من قبل سلطة ظالمة مستندة الى الخارج · ان الآثار الاجتماعية لتفكك الاقتصاد الاقطاعي من قبل السوق العالمية تركزت في المدن · وكانت هذه المدن منذ بداية هذا القرن مسرحا لحركات شعبية صاخبة تهدف الى اعادة تنظيم المجتمع الايراني · لكن هذه التحركات لم تنجح بسبب رفض البرجوازية والجهاز الديني اي تصور لتحرير الارياف من النظام الاقطاعي ، نتيجة العلاقات القديمة التي تربطها بهذا النظام (استثمار عقاري يضمن امن البرجوازية ذات الاصول الاقطاعية وحيازة قسم هام من رجال الدين لاملاك عقارية) ·

لقد وجدت الحركات المدينية نفسها خلال تمردها على « القاجار » متحالفة مع القوة العسكرية الرئيسية التابعة للتشكيلة الاقتصادية والاجتماعية ، وهي عبارة عن قبائل من الرعاة شبه البدو وهدفها الرئيسي تغيير الاسرة المالكة لصالحها ·

فالطبقات المدينية التي قامت بالثورة وخاصة البرجوازية والاكليروس ادركت ان الانتصار قد سحب من بين ايديها ، اذ لم يكن المطلوب هو حصر السلطة

بأيدي قبيلة معينة · كما ان التدخل الخارجي المباشر واحساس الطبقة المهيمنة بضرورة « تحديث » المؤسسات السياسية مراعيـة بذلك الحفـاظ على علاقـات الانتاج الاقطاعية في وجه التخريب الداخلي ، ادت الـى ظهـور حكـم تسلطـي تناقضت مصالحه مع مصالح بعض فئات الطبقة المهيمنة أو مصلحةالطبقة نفسها · وقد اعتمد هذا الحكم في صراعه على جيش تابع للبلاط الذي قوي مركزه خلال السنوات الاخيرة نتيجة دعم خارجي وليس نتيجة وجود تشكيلات عسكريـة هامشية (قبلية) قد يدخل في صراع معها ·

لم تضرب السلطة المركزية سيطرة الملاكين العقاريين داخل القرى ، بل علـى العكس ، قوتها نتيجة الضغط الذي تمارسه على الفلاحين · ان مركز الصـراع والتواطوء بين السلطة المركزية والارستقراطية العقارية كان حينها داخل المـدن حيث خضعت البرجوازية ورجال الدين والطبقات الشعبية لضغط متزايد ·

ان التحول الرئيسي الذي افتتح الحقبة الثانية تمثل بالتزايد الهام لعائدات ايران النفطية ابتداء من عام ١٩٣٣ وهو عام عودة السلالـة الى الحكـم · وقد انتقلت قيمة العائدات من سنة ١٩٥٥ حتى سنة ١٩٧٥ من ٥٥ مليون دولار الى ٢٥٠٠٠ مليون دولار اميركي · ويشكل القطاع النفطي اليوم اكثر من نصـف مواد ايران الخام الداخلية (مقابـل ١٠٪ عـام ٤٨ ش · عيسوي ١٩٧١ ص ٣٢٤) و ٨٦ الى ٩٥٪ (وفق مختلف احصاءات الخبراء الرسميين) من موارد الدولة مقابل ١٣٪ عام ١٩٣٧ و ١١٪ عـام ١٩٤٨) هذه الملاحظات تقودنا الـى استخلاص استنتاجات اولهما ان الدولة الايرانية اصبحت خلال العشرين سنـة الاخيرة مرتبطة كليا بالنفط من خلالواردادتها ، اي انها مرتبطة بانتاج تابـع مباشرة لنشاط البلدان الوسطى ، خاصة انها تقوم بتوزيع ما يقارب نصـف المنتوجات الداخلية (كانت النسبة في نهاية الاربعينات ما يقارب الـ ١٠٠٪) واكتسبت نتيجة ذلك موقعا اقتصاديا استثنائيا داخل الامة (هنا يكمن الفـرق بين هذه الفترة والفترة السابقة) ·

عندما نتساءل عن نتائج هذا الوضـع نصل الـى السؤال عن طبيعة العلاقـة القائمة بين الدولة والطبقات الاجتماعية · ان عودة السلالة الملكية الى الحكم هي نتيجة للتدخل الاجنبي المباشر لكنها ساهمـت في ترسيخ الارستقراطيـة كطبقة مهيمنة والتي حاولت سياسة مصدق بديناميتها ان تقضي عليها · لقد فضلت هذه الطبقة من اجل الابقاء على امتيازاتها ، وكما فعلت في السابق ، ان تعتمد على الخارج وان تقيم علاقة وثيقة بالسوق العالميـة · وهي بفعـل ذلـك تخلت عن مشروع تأميم النفط تحت ستار اقامة اتفـاق مع الاتحاد العالمـي للشركات النفطية المستثمرة الواقعة تحت السيطرة الامريكية ·

ان النمو المتسارع للعائدات النفطية قد ترك آثارا هامة على الطبقـة المهيمنـة

وعلى العلاقات بين فئاتها · وسرعان ما اصبح توزيع هذا المدخول بنظر الذين يقتسمونه او يساهمون في توزيعه (كبار الموظفين والشخصيات المؤثرة) وبنظر الذين يستفيدون منه (المقاولون من كل نوع ···) وهم من الطبقة المهيمنة ، اصبح هذا التوزيع مصدر ثروة كبيرة ، معتبرين اهمية الريع العقاري اقل شأنا · اي بمعنى آخر ، بدأت فئات الطبقة المهيمنة مذ ذاك بالتصارع اكثر من السابق حين كان الريع العقاري المصدر الرئيسي للدخل · وغدا هذا المصدر غير مناسب اقتصاديا وسياسيا ·

اقتصاديا لانه يقف حجر عثرة في وجه اتساع السوق الداخلية وخاصة في وجه شبكة التوزيع الكبيرة للمنتجات المستوردة · وسياسيا لان بقاء العلاقات الاقطاعية أعتبر بنظرهم عدم استقرار ، ولانهم فكروا بخلق قاعدة من الملاكين الصغار المستثمرين تشكل قاعدة اجتماعية ثابتة لدعم النظام (وجهة نظر الولايات المتحدة التي طالبت بتطبيق الاصلاح الزراعي) · واخيرا فان العائدات النفطية احدثت خللا في ميزان القوى داخل الطبقة المهيمنة بين الفئة المرتبطة بالسلطة السياسية (اذن بالعائدات النفطية) وبين الفئة العقارية · الاولى تستطيع ان تزيد امكانياتها في السيطرة السياسية (من خلال الجيش والشرطة الخ ···) على كل انحاء البلاد وبالتالي ان تتخلى عن الثانية · وقد حاول ع · اميني ان يتجنب هذه المسألة الرئيسية عندما كان في الحكم في بداية الستينات وعندما قامت الفئة العقارية وهي اهم فئة داخل الطبقة المهيمنة باطلاق الازمة الاقتصادية السياسية · وقد شمل برنامج حكومته وجهين مكملين لبعضهما · من جهة الحد من اهمية الجيش ومن الوسائل المالية المكرسة لتطويره بسبب دور الجيش في اضفاء استقلالية جهاز الدولة الواقع تحت سيطرة الشاه (الدور التقليدي للجيش عزز بفضل العائدات النفطية) · من جهة اخرى قيادة عملية التحول في ايران حتى يشكل هذا البلد محطة صناعية للاقتصاديات الغربية من خلال توظيف الطاقة المالية التي تمتلكها الدولة من جراء العائدات النفطية ·

تحول ايران هذا سيقوم على الاصلاح الزراعي لكنه موجه اساسا لخدمة فئة الطبقة المهيمنة الموجودة خارج جهاز الدولة ويتعارض هذا البرنامج مع برنامج الشاه الممثل لفئة الطبقة المهيمنة المستولية على زمام الحكم السياسي · فالشاه يشدد على تقوية جهاز القوة العسكرية في ايران كونه اداة لاستمرار تشكيلة مرتبطة بالغرب ومحطة نفوذ في الشرق الاوسط · وقد كتب لهذا البرنامج النجاح بفضل دعم الولايات المتحدة له ، بسبب حرصها على تقوية نفوذها العالمي المهدد · هذا يعني بالنسبة للطبقة المهيمنة اندماجا سريعا بجهاز دولة واسع واصبحت مذ ذاك مرتبطة بشكل رئيسي بالايراد النفطي وثانويا فقط بالريع العقاري · ورغم استمرار موظفي الطبقة المهيمنة في العمل (والذي اظهره السيد زوينس سنة ١٩٧١) فقد عرفت هذه الطبقة تحولا حقيقيا · لا شك ان اهتمام

الطبقة المهيمنة عبر التاريخ بالريع العقاري لم يكن مهما الا بمقدار ما كان يشكل مصدر ثرائها الرئيسي ، ربما لم تتصوران مصادر الدخل قابلة للتجديد · لاشك ايضا انها اعتبرت الايراد النفطي في البداية مصدرا اضافيا الى جانب مصادر ثروتها الاخرى · ان التغير الرئيسي يكمن في تأثر طبيعة العلاقات الاجتماعية بنمط الحصول على مداخيل الطبقة المهيمنة · كان جبي الريع العقاري يتم من قبل افراد ويحصل بفضل تأطير المواطنين الايرانيين داخل الشبكة التي سبق ان تحدثنا عنها ، شبكة التجمعات الهرمية القائمة على العلاقات الشخصية ، اما الايراد النفطي فتتم جبايته جماعيا من قبل الدولة · لا يمكن الحصول على جزء منه الا بنتيجة موقع الفرد داخل جهاز الدولة ·

لم يعد اليوم للشبكات التقليدية اي دور في تحصيل مداخيل الارستقراطية والطبقات المتحالفة معها · اذ لم تعد مهتمة حتى بالنسبة لمصير الارض ، فان تحصيل فائض الانتاج الفلاحي يتم منذ اليوم اما بواسطة السوق او بواسطة الارباح التي يجنيها الرأسماليون من خلال انشاء الاستثمارات الزراعية الصناعية الكبرى · فالتحولات الرئيسية في العلاقات الاجتماعية كالتضخم غير المعقول لعائدات الدولة النفطية وتطبيق الاصلاح الزراعي جعل من الضرورة اعادة تنظيم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية بشكل متكافيء واقامة جهاز دولة آخر ، ولا يمكن القيام بذلك دون النظر الى علاقة ايران بالسوق العالمية ·

هذه العلاقة تقضي بأن تقوم ايران باستيراد المواد الاستهلاكية ، والمواد الانتاجية وفي بعض الاحيان ان تقبل ببعض الخدمات المقدمة من الدول المستهلكة للبترول مقابل تصدير النفط والحصول على ايراد نفطي ، اي بمعنى آخر ان تشكل قطاعا استهلاكيا مشابها للمجتمعات الاستهلاكية الغربية · وهذا يقتضي فرض تنظيم تكنوبيروقراطي للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي ، هدفه تكييف ايران مع انتاج الامم المهيمنة ، وانشاء مشاريع لاستيعاب المعدات الموجودة وتطوير شبكات التوزيع المرتبطة بالمنتجين الغربيين الكبار ، واقامة منشآت في السلاسل الانتاجية ترد على حاجة التكيف · كما انه على مهام جهاز الدولة القمعية ان تتطور بشكل مواز وان تتسع حتى تحل محل التأطير الذي كانت تقوم به والذي لم يعد صالحا ، وحتى تقف في وجه كل توتر ناجم عن التناقضات الجديدة ·

لقد كان لنتائج حاجات السوق العالمية وللتحول الذي طرأ على مهام الدولة اثر بارز في تشكيل الطبقات الاجتماعية وفي العلاقة القائمة بينها ·

ان الطبقة المهيمنة هي طبقة وظائفية : تتألف من كبار الموظفين والتكنوقراطيين والعسكريين والسياسيين المرموقين الذين يسيطرون على الانتاج وعلى توزيع عائدات الدولة (البترول بشكل اساسي والغاز والنحاس ايضا الخ ···) · ان

هذه الطبقة مرتبطة بنيويا بالاقتصادات المهيمنة ، ودورها هو ربط التشكيلة الاجتماعية بالسوق العالمي وتزويده بالموادالاولية المطلوبة وتنظيم استهلاك المنتجات المعروضة · وبوصفها طبقة مسيطرة داخليا فهي مرتبطة بهذا الدور الموكل اليها، كونها محركة لجهاز الدولة في السوق العالمي وكجزء من البورجوازية العالمية ، ومن جراء توزيع العائدات البترولية ظهرت في البداية طبقة من كبار التجار والصناعيين والمقاولين وهم مرتبطون بسياسة الطبقة الآنفة الذكر ان على صعيد التجارة الخارجية (مشتريات من الخارج) والتوظيف المنتج (الذي توجهه المنافع المرتبطة بتحقيق الخطة) أو على صعيد اعمال التجهيز الممولة من قبل الدولة · ان هذه البوجوازية مرتبطة ايضا بالخارج بشكل مزدوج : اولا من خلال الطبقة الوظائفية وثانيا من واقع انها لا تسيطر على تقنيات الانتاج ولا على شبكات التوزيع التي لا تحصل منها الا على حصة ضئيلة ·

وهاتان الطبقتان قريبتان من بعضهما ، تنتسبان بشكل عام الى الارستقراطية القديمة ولنفس العائلات ، حتى اننا نرى اشخاصا يمكن نسبتهم الى هاتين الطبقتين في آن معا · مصالحها متقاربة جدا (لدرجة اننا نتساءل في بعض الاحيان أهما طبقتان ام شريحتان من طبقة واحدة) · لكن كما يبدو فانهما طبقتان متميزتان لان القضايا المتوجب على الدولة حلها ليست مرتبطة مباشرة بمصالح الرأسماليين الايرانيين ، أكانوا مرتبطين بشركات متعددة الجنسية او ظاهريا اكثر استقلالية ·

ويجب محاولة التوفيق بين السياسة الاقتصادية لهذه التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الايرانية (خاصة بعد نضوب البترول) وبين استراتيجية الشركات المتعددة الجنسية ، ذلك يعني محاولة ترسيخ حلقات سلاسل انتاجية تستجيب لمتطلبات الشركات ان على صعيد السياسة الداخلية او التجهيز او السياسة الاقتصادية او السياسة الخارجية (انفتاح وضمان الاسواق) ·

ان مهام جهاز الدولة يضاف اليه حرص الطبقة المهيمنة على خلق قاعدة اجتماعية ادت الى تكاثر شرائح الطبقات الوسطى (البيروقراطية ، تكنو ـ بيروقراطية والجيش الخ ···) المضمون الولاء ، عبر المشاركة في عائدات النفط والاستهلاك · من خلال تلك الطبقات المتوسطة تحققت المستلزمات المذكورة اعلاه لخلق سوق داخلي يسمح للاقتصادات المهيمنة ان تدفع ثمن وارداتها النفطية · ان خلق هذه السوق وهذه الطبقات الوسطى ، التي تقوم شرعية السلطة بنظرها على مدى زيادة الاستهلاك ، اصبحت العنصر الاساسي في الصيرورة الاقتصادية الاجتماعية · واذا كان من غير الممكن فعلا الحد سياسيا من زيادة الاستهلاك من قبل الطبقات الوسطى ، فان ازدياد الطلب الناجم عن نمو في العائدات ستتناول المنتجات الاجنبية ، حيث ان استيرادها

سينمو بمعدل اكبر من هذه العائدات · ان هذا النمو الاضافي للواردات لا يمكن دفعه الا بنمو مماثل لمبيعات ايران للخارج (بني صدر ١٩٧٤) ، فايـــران لا تستطيع ان تجد الوسيلة لبناء جهاز انتاجي ، ترى نفسها مضطرة لتصديـــر المزيد من المواد الخام او النصف مصنعة خاصة النفطية منها مجال اختصاصها · هكذا نجد ان كل الطاقات الفردية مشدودة نحو الانتماء الى هذه الطبقـــات الوسطى او نحو الترقي داخلها ، اي داخل جهاز الدولة او مـــا يسمـــى بالخدمات الخارجية التي تمتص بطريقة غير منتجة القسم الاكبر من الكفاءات التي يقدمها البلد ·

فموارد ايران النفطية غير كافية لان تسمح لمجموع الشعب بشراء منتجـات مستوردة · وهناك مسافة قاسية بين الطبقات المتوسطة المستهلكة (حيـث ان عائداتها مرتبطة بالاستهلاك) وبين الطبقات الشعبية (فلاحين وعمال) التـي اقصيت عن الاستهلاك رغم الجهود المبذولة للتعويض والتي انقلبت ضدهـــم (رساميل الاستهلاك الممنوحة اساسا للفلاحين الخ ···) · من جهة اخرى فان الاصلاح الزراعي رافقه في الارياف هجوم كبير من البورجوازية التجاريـــة والمالية (الربا والبنوك) والزراعية (الرأسمال الكبير والمتوسط) مستخدمـة جهاز الدولة · ومن خلال وسائل مختلفة (تراكم الديون ، نفاد المواد الغذائيـة ومياه الري ، طردهم من اراضيهم الخ ···) فان الفلاحين الصغار حرموا من الارض وتوجب عليهم الهجرة نحو المدن حيث تتراكم جماهير من العاطلين عن العمل · (ان تطور المهن الهامشية رغم نقص اليد العاملة المتخصصة جعـــل الهجرة ضرورية) ·

وفيما يختص بالطبقة العاملة ، لنتذكر فقط انها محرومة من الحقوق النقابية وان الاجور بقيت بمعدلاتها المنخفضة جدا قياسا لزيادة كلفة المعيشة · والـى جانب نمط التطور المتناقض هذا ، هناك تناقض اساسي ايضا ، وهو احتجـاج الشبيبة وبالاخص الشبيبة الطلابية الناقمة على موقعها في التشكيلة الاجتماعية: كمستهلكة لا دور لها في انتاج المواد ولا في بناء مستقبلها ·

ان محدودية الموارد النفطية ونضوبها مستقبلا تضع التشكيلة الاقتصاديـــة الاجتماعية امام مأزق حاسم · فلا يمكن الاعداد لبديل عن النفط دون هدم قواعد التشكيلة الحالية (الحد من الاستهلاك) · ان تقويـة التشكيلة سيكفل حتمـا مستقبلها ، وعلى الطبقة المهيمنة اختيار هذه التقوية الفورية · فصلاتهـــا بالطبقات المستغلة والفئات المعارضة (أيمكن ان نعتبر الشبيبة الطلابية شريحة طبقية ؟) ليس لها اي مضمون حاليا سوى العنف ، ولا يمكنها تطوير قاعدتها الاجتماعية الا عن طريق تطوير الطبقات الوسطى المستهلكة ، ويعني ذلك تطورا ضيقا في السوق العالمي · رغم ذلك فانها تحاول في نفس الوقت تجنب المـأزق بالسعي لتأطير سياسي وايديولوجي للطبقات الوسطى وللطبقات الشعبية · ان

وظيفة جهاز الدولة في ايران قد عرفت تحولا هاما عما كانت عليه حتى بداية القرن العشرين نتيجة تبدل علاقة ايران بالاقتصاديات المهيمنة ٠

المؤسسات السياسية

خلال الحقبة التاريخية التي ابرزناها والتي تنتهي في اواسط القرن العشرين، كانت المؤسسات السياسية الايرانية وبالاخص التنظيم السياسي الداخلي ذات الطابع المتسلط او نصف الليبرالي ، متأثرة بالوضع الدولي لايران وبموقفها من الصراعات بين القوى المهيمنة ٠ ولن المدهش لمس انتظام التوافق القائم بين الصراعات او انعدامها بين القوى المهيمنة التي تدعي السيطرة على ايران من جهة ، ووجود او عدم وجود خصومات بين الاحزاب السياسية داخل البلاد من جهة اخرى ٠

خلال الفترة التي سبقت نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان البريطانيون والروس اللذين اقتسموا ايران الى منطقتي نفوذ، يتنافسان للسيطرة على حكومة طهران ٠ ووجدت في الداخل عدة احزاب وشرائح سياسية متنافسة قادت البلاد الى الثورة الدستورية والى اقامة نظام ديمقراطي نسبيا ثم الى نظام « أوليغارشي » قبل مجيء رضا شاه ٠

بعد الثورة الروسية ، وقعت ايران كليا تحت السيطرة الانكليزية، اما الاتحاد السوفياتي فلم يكن من جهته مهتما بهذا الوضع او بالاحرى كان يعتبر بان الكولونيل رضا خان يمثل البرجوازية الوطنية ويقوم بحملة مناوئة للامبريالية، لذا فلا يجب التعرض لـه ٠

ابتداءا من سنة ١٩٢٢ ، بدأ نظام متسلط يأخذ مكانه شيئا فشيئا الى ان انتصر عام ١٩٢٦ بتتويج الشاه رضا بهلوي ٠

في ١٩٤٢ ، بعدما احتل الروس والانكليز ايران ، خلعوا الشاه رضا ونصبوا مكانه نجله محمد رضا شاه ، لسبب لم يكن مطابقا تماما للحقيقة : وهو تعاطف الدكتاتور مع المانيا الهتلرية ، تعاطفا لم يكن في الواقع يشكل خطورة ٠ عندها، عادت الحياة السياسية الداخلية الى الوجود ، متجسدة في ثلاث تيارات : الاحزاب الموالية للانجليز والاحزاب الموالية للسوفيات واحزاب الاستقلال ٠ وفي الحالات الثلاث ، كان القيمون على هذه الاحزاب تابعين في معظمهم للارستقراطية وطبقة الملاكين ٠

فشل الانكليز بعد الحرب في محاولة مد سيطرتهم من خلال اللجنة الثلاثية (انكليزية ، روسية ، امريكية) بينما كان التوتر العالمي يتزايد (الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تحاولان الحصول على رحيل السوفيات لكنهما لم

تتمكنا من التوصل الى اتفاق حول الاشراف على ايران والنفط فيما بينهما) ٠ حاولت الاحزاب الموالية للانكليز ان تستولي على السلطة من الداخل لكنهـــا فشلت بعد مساهمتها في اجلاء القوات السوفياتية عن ايران ٠ كان الظـــرف السياسي الداخلي مؤاتيا لاحزاب الاستقلال التي تسلمت السلطة لفترة وجيزة زمن مصدق ٠ ان تأميم النفط دفع البريطانيين والامريكيين الى عقد اتفاق حول استغلال الابار الايرانية ، فاختفت الصراعات بين القوى المهيمنة للاشراف على ايران ، وحان وقت اقامة نظام تسلطي سيزيل عمليا وجـــود كل الاحـــزاب السياسية ٠

هذه المطابقات تثير العديد من الاسئلة : هل ان الطبقة المهيمنة تحس فعـــلا بالحاجة الى الاعتماد على الخارج ولماذا ؟ كيف ستبرر شرعية اللجوء الى هذا الدعم ؟ ما هي اشكال التدخل الخارجي ٠ واخيرا ما هي الآلية التي تربـــط وجود او انعدام الصراعات الدولية ، وفيما يختص بايران بين وجود او انعدام الاحزاب السياسية الايرانية ؟

منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اعتمدت الطبقة الحاكمـــة الايرانيـــة والارستقراطية في الحكم ، على المساعدة الخارجية المباشرة : تدخل فرقـــة من « القوزاق » بقيادة ضباط روس ضد البرلمان عام ١٩٠٧ وعام ١٩٠٨ ، توحيـد القوات المسلحة ابتداء من سنة ١٩٢٢ بفضل انجلترا ، والذي سمح بالقضاء على الحركات الشعبية ، وضغوط مورست في اواخر سنوات ١٩٤٠ علـى الاتحـاد السوفياتي من قبل الامم الغربية للجلاء عن ايران ، الحصار النفطي على ايران سنة ١٩٥٢ ثم انقلاب ضد مصدق نظمته وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية الى جانب تدخلات اخرى اقل تأثيرا وبالغالب اقل ظاهرية (من ابرزها ، ارسال « مورغن شاستر » وزير الخزانة البريطاني عام ١٩١١ الى ايران لتنظيم الامور المالية فيها) دون التدخل المباشر ٠ لا مجال للشك بأن الطبقة الحاكمة الايرانية كانت قد سقطت تحت احدى موجات التذمر الشعبي التي هزت ايران منذ بدايـة القرن ٠ والدعم الخارجي لم يقف عند المساعدات الآنية الهادفة الى تقويم وضع مهدد ، بل كان دعما ثابتا ٠ ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر لم تتوقـــف البلدان المهيمنة (بقدر ما كانت الخلافات في مصالحها تسمح لها) عن مساعدة الطبقة الحاكمة ، في بناء وتقوية الجهاز البيروقراطي للدولة وخاصـة جهـاز القمع ، من انشاء جهاز «القوزاق» من قبل روسيا القيصرية حتى تنظيم وتدريب وتجهيز الجيوش والشرطة من قبل الولايات المتحدة اليوم ٠ في بعض الحقبـات كما في الاربعينات وفي زمن اعادة الملكية ، حالت هذه البلدان دون حـــدوث الانهيار او شجعت على اعادة بناء الجهاز البيروقراطي والعسكري بواسطـة مساعدات او قروض غطت العجز في الميزانية الايرانية (الذي ارتفع احيانا حتى الـ ٧٠٪ من مجموع الميزانية) ٠ كانت هذه التدخلات اكثر فعالية لانها كانـت

مموهة تظهر وكأنها حصيلة آلية السوق والتبعية الاقتصادية والمالية لايـــران بالنسبة للدول المصنعة · وهكذا فكل هزة في العلاقات بين ايران ومشتـــري النفط تتحول الى ازمة قومية كبرى نظرا للانعدام التام في التكامل بين قطاعات الجهاز الانتاجي الايراني : كل توقف او تخفيض او تأخير في زيادة المداخيـــل النفطية يؤدي الى احتمال تقليص الركيزة الاجتماعية للنظام ، المتمثلة بالطبقات المتوسطة المستهلكة للمواد المصنعة في الخارج والتي يزيد عددها كلما تزايـدت مداخيلها من النفط (على سبيل المثال ، مراجعة ازمة بدايـــة الستينات التـــي وقعت على اثر تخفيض سعر النفط) ·

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر (بعد الهزائم العسكرية امام روسيا) اخذت الطبقة الحاكمة الايرانية التي كان حكمها مبنيا في الاساس على العنـف الذي تمارسه ، تعتاد الاتكال على الامم التي تسيطر عليها من اجل تدعيـــم حكمها الداخلي ، وذلك للتعويض عن ضعفها الـــذاتي (المـــالـي والاداري والعسكري) · بمعنى انها سمحت للبلدان المهيمنة بتحويل ايران الى شبـــه مستعمرة والطلب اليها من جهة اخرى بدعمها · هذه العلاقة تطورت من تلقـاء ذاتها ، اذ ان توفير التكنولوجيا الصناعية او العسكرية والخبراء واعطـــاء القروض المالية وتوجيه الاقتصاد الايراني تبعا لمتطلبات السوق العالميـة زادت باستمرار من التبعية الموضوعية والذاتية ·

تحاول الارستقراطية تبرير شرعية هذه التبعية التامة للخارج امام اعيـــن الشعب وخاصة الطبقات التي تشاركها السيطرة (البرجوازية الجديدة التابعة، الطبقات المتوسطة في اجهزة الدولة والانتلجنتسيا « العصرية ») باعتمادهـا عقيدة الغرب كنموذج تقني واقتصادي ـ سياسي وثقافي · وفقا لهذه العقيدة ، لا تستطيع ايران ان تجد في ذاتها ، حوافز نموها : ثقافتهـــا ومؤسساتهـــا السياسية ونشاطاتها الانتاجية مصابة نهائيا بالجمود : فهي لا تستطيع تخطي ذاتها لتصبح مصدر خلق · طالما اقتنع الجميع بهذ المبدأ يجدر الاسراع فـــي انحطاط هذه المقومات وتقليد الامم المهيمنة دون ان تكون الوسائـل المستعملـة لبلوغ ذلك مجرد نسخ النموذج المنقول والعمل باستمرار على تأجيـل الوصـول الى الهدف المزمع تحقيقه ·

وكانت اداة الدعاية الرئيسية لايديولوجية الغرب منذ نهاية القرن التاســع عشر ، حركة الماسونية الايرانية حين ولادتها (على سبيل المثال ، مراجعـــة كتابات ميرزا ماكلوم خان ، وميرزا حسين خان سيباه سالار) كان زعماؤهـا ينحدرون من الطبقة الارستقراطية ويلتف حولهم اشخاص ينتمون الى طبقـات حليفة (كبار الموظفين ـ تجار ومثقفين) وهذه الحركة قدمت بصورة مستمرة منذ الثورة ، عددا كبير من رؤساء البرلمان والوزراء ورؤساء الوزراء وتشكل التنظيم العقائدي الاساسي للطبقة الحاكمة ·

الى جانب عقيدة الميل للغرب ، تستعمل هذه الحركة اسطورة التدخل الغربي امام الطبقات التي تهيمن عليها للحيلولة دون نشوء اي تيار استقلالي ، وتعرف هذا التدخل على انه حدث غير مرتبط بالخيارات السياسية للايرانيين وممارساتهم ٠

في نطاق التبعية وايديولوجية التبعية للطبقة الحاكمة بالنسبة للخارج ، يبقى علينا ان نظهر الآلية التي تربط تعددية السيطرات الخارجية الى تعددية الاحزاب التي تكافح من اجل استلام الحكم في الداخل ٠

فلنبدأ بدراسة موقف القوتين المتنافستين لكن ذات التوجه السياسي المماثل واللتين تتصارعان للهيمنة على ايران (بريطانيا العظمى وروسيا القيصرية في بداية القرن ثم بريطانيا العظمى والولايات المتحدة في منتصفه) كلاهما بفضل التدخل المباشر والمساعدة التي يوفرها لادارات البلاد خلق تنظيماته الخاصة او حلقات نفوذه الخاصة ، الجغرافية او الوظيفية ٠

وهكذا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، بينما كان الانكليز والروس ، يتمركز كلمنهما بقوة في المنطقة التي يسيطر عليها ، كان جهاز « القوزاق » في الشمال الذي اوجده الروس يقابله في الجنوب جهاز الشرطة الذي انشأه الانكليز ، كل من هذين الجهازين مستقل عن الحرس الامبراطوري وعن الدرك اللذين هما وحدهما مرتبطين بالعرش الملكي ٠ كذلك في عهد « رازمارا » ، فقد كان الانكليز والامريكيون يتقاسمان النفوذ على الجيش الايراني فيما يتعلق بامدادات الاسلحة والخبراء ٠ لكن هذه التهديدات الحقيقية بالتقسيم الحاصل على ارض الوطن وفي اجهزة الدولة ، لا تجد مبررا لها فيما يختص بالصراعات الداخلية سوى لان بعض الفئات المتناقشة في الطبقة الحاكمة تعي بأنها تستطيع استعمال حلقات النفوذ التابعة لكل قوة عظمى من اجل التمسك بالسلطة ٠ بصورة عامة تحاول هذه الفئات ان تحصل على فوائد خاصة نتيجة الاصطدامات بين القوى الخارجية في ايران ٠ واخذت تدرك ، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بان الدعم الخارجي هو احد اضمن الوسائل للوصول الى مراكز المسؤولية السياسية والوسائل التي تستطيع القوى الخارجية ان تستخدمها لتأمين نجاح مرشحيها كثيرة : ابتداء من الحماية الشخصية ضد تعسف السلطة التي تسمح بتوجيه الانتقاد ضد ممارسات الحكومة القائمة دون التعرض للخطر ، حتى التوصيات التي تجعل من الشخص المرشح وزيرا للمالية او رئيسا للوزراء ، مرورا بالفوائد المادية التي تمكنهم من تجميع ثروة (قروض مصرفية في بداية القرن ، مساهمات في رأسمال شركة الزيت الانكلو ـ ايرانية حتى انحلال هذه الشركة ، مساهمات في اعمال صناعية وتجارية فيما بعد الخ ٠٠٠) ان استراتيجية الشخص الذي يريد ان يحظى بالدعم الخارجي

والتي يستقي مبادئها من ثقافته الذاتية ، تكمن برفع المزايدات وفقا للمنافسة القائمة بين القوى الخارجية وزيادة حدة خلافتها · الوضع واللعبة لا يتغيران في كل الاحوال كما كان الوضع مثلا في الاربعينات حين كان الاتحاد السوفياتي احدى القوى الخارجية المتنافسة ، اذا كان قادة الاحزاب الذين ينادون بالاشتراكية يعتمدون في نضالهم المعلن ، على الدعم الخارجي اكثر مما يعتمدون على تحريك الجماهير ، ويعلنون تأييدهم لاعطاء تنازلات نفطية لصالح الدول الحامية بينما يرفضون ذلك للقوى الغربية · ان ضعف القواعد الشعبية لهذه الاحزاب بدا جليا بعد انهيارها السريع والتفكك الفوري للجمهوريات الاذربيجانية والكردية بعد فقدان الدعم الخارجي ·

احدى نتائج الصدامات بيدن القوى المسيطرة بواسطة الاحزاب السياسية الايرانية كان احترام عدد من الحريات العامة (حرية التعبير والمشاركة والاجتماع) · هذه الحقبات سمحت بالتالي التعبير عن تيارات وطنية كان هدفها السياسي الرئيسي استغلال خلافات القوى الخارجية لصالح ايران · انها السياسة التي وصفها مصدق بأنها سياسة التوازن السلبي · لكن هذه الحركات الوطنية لم تتمتع سوى بالحريات العامة وليس بالدعم الذي تؤمنه القوى الخارجية للاشخاص الواقعين تحت حمايتها بفضل شبكات النفوذ التي تملكها داخل اجهزة الدولة · فبقيت تلك الحركات ، في معظمها ، حركات شعبية لم تتمكن الا بصعوبة ، في ان تجد لنفسها منبرا للتعبير على صعيد المؤسسات السياسية في البلاد · هكذا نرى بان مصدق الذي رغم نجاحه في تأمين حرية الانتخاب خلال الانتخابات النيابية السابعة عشرة (التي جاءت مؤيدة له في معظمها) في عدد من المدن الكبرى وطهران ، لم يستطع تأمين ذلك في الارياف والمدن الصغيرة وغيرها من المدن الكبرى (كشيراز) التي تعود الكلمة الاولى فيها لاجهزة الدولة وخاصة الجيش بفضل الشبكات الانكليزية والامريكية · عندما حمل مصدق الى الحكم طالب بالتالي بوزارة الدفاع التي لم يحصل عليها في تموز ١٩٥٢ الا من جراء تمرد شعبي ·

عندما كانت تحل الخلافات المصلحية بين الامم المهيمنة ، كانت تنتفي للتو كل فائدة للخارج يمكن ان تأتي من وجود الفئات المتعارضة في الداخل · هكذا ، بعد الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، لم يعد للطبقة الارستقراطية التي كانت تدعمها روسيا القيصرية بعد ان فقدت هذا الدعم ، سوى اللجوء الى كنف بريطانيا العظمى للحفاظ على مصالحها الطبقية ، ومن جهتها ، لم تعد انكلترا ترى اية مصلحة في المؤسسات الخاصة التي وضعتها في الجنوب او في الحركات الانفصالية التي تدعمها ، او في الاحزاب السياسية التي ما زالت قائمة بفضل دعمها · وسمحت هكذا بتوحيد القوات العسكرية في الشمال مع شرطة الجنوب ، وتخلت عن محاسيبها في الجنوب وشجعت صعود رضا خان ، احد

ضباط « القوزاق » · هذا الاخير سيعمل فيما بعد على توحيد ايران وحـــل الانقسامات داخل الارستقراطية (تصفية الحكم الذاتي النسبي للقبائل الكبيرة ، كقبيلة عرب خوزستان بزعامة الشيخ خزعل الذي كـان في احد الاوقـــات احد الادوات الرئيسية للعبة البريطانية في ايران) ، لكن ايضا سحق الحركـــات الاحتجاجية التي كانت تهدد الطبقة الحاكمة خاصة في اذربيجيان وخرســـان وغيـــــلان ·

كذلك فان الانسحاب الروسي بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦) وامساك الولايات المتحدة بزمام المصالح الغربية في ايران (١٩٥٣) ، سمحا بامتـداد سلطة حكومة طهران الى كافة انحاء البلاد والى مجمل اجهزة الدولة ، وزالت الفائدة التي كان يجنيها الخارج من الاحزاب او الفئات ، ان احياء الملكية التي هي اعادة لسلطة العرش المطلقة بينما كان النظام يعمل منذ عشر سنوات كملكية دستورية يسيطر فيها البرلمان ، من شأنه ازالة كل الاحـــزاب اكانت شيوعية ، وطنية ، او فقط ممثلة لبعض الفئات الارستقراطية ·

هذه الاخيرة لها طابع طبقة مسيطرة يخضـــــع في الوقت نفسه للسيطـــرة الخارجية · وهي هكذا لا تستطيع الا ان تتحمل نتائج مصالح الامم المسيطـرة وخلافاتها او ارتباطاتها · وهذه التبعية ناجمة اساسا عن توافق مصالح هـذه الطبقة مع مصالح الامم المسيطرة · وقد ظهر هذا التوافق بوضوح ، عبر اعادة الملكية · لم يكن باستطاعة الطبقة المسيطرة ان تناقش الطابع المتسلط للنظـــام الجديد ، ليس لانها لم تجد اي دعم خارجي ، بل لان هذا النظام يبعد عنهـــا شبح نهايتها الذي حركه الغليان الشعبي ·

هكذا نرى بان الحياة السياسية الايرانية هي نفسها تابعـــة ، فالحقبـــات الليبرالية او النصف ليبرالية والحقبات المتسلطة هي محصلة احداث خارجيـة اكثر من كونها تتبع منطقا سياسيا داخليا · ان نمو الصراعات الاجتماعية في الداخل انعكس على صعيد المؤسسات السياسية ، لكن طبيعة هذه الانعكاسات تظل متأثرة بالخارج · فنمو الصراعات قـد حـث الدول المهيمنة علـى تسوية خلافاتها (في عهد مصدق مثلا) والعمل بعد ذلك على تشجيع اقامة نظام متسلط والطلب منه باجراء اصلاحات كالاصلاح الزراعي في سنتـي ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ الذي يعود في النهاية لمصلحة الطبقة المهيمنة · فالتناقضات الاجتماعية لا يمكن ان تنتهي اذن لمصلحة الطبقات الشعبية الا من خلال النضال من اجل الاستقلال الوطنـي ·

ان العلاقة التي تقيمها الطبقة الحاكمة الايرانية مع الخارج ، مع القـوة او القوى التي تسيطر على البلاد ، تؤدي الى تأثـر الحيـاة السياسيـة الايرانيـة بالظروف الدولية ·

تقع المؤسسات السياسية الحالية التي تركزت منذ بداية الستينات ، ظاهريا ، في امتداد المؤسسات التي رافقت عهد احياء الملكية والتي تمثل اعادة لنظام متسلط يمتاز في الظرف الاقتصادي ـ الاجتماعي لبداية القرن العشرين ، بغياب المنافسة بين القوى الكبرى ، الهادفة الى السيطرة على ايران ٠ لكنها تتميز كذلك ، بالتحولات الاساسية المتصلة بالتغيرات البنيوية التي ادخلها النمو المفرط للقطاع النفطي والارتفاع الهائل للمداخيل البترولية ، تقوية اجهزة الدولة ووسائل عملها بصورة لم يسبق لها مثيل ، تركيز وجود الطبقة المهيمنة في اجهزة الحكم، انهيار الانتاج غير المرتبط بالسوق العالمي، انقسام المجتمع الى طبقات مستهلكة لمواد مصنعة في الدول الصناعية وطبقات محرومة من الاستهلاك ٠

ان المؤسسات السياسية منذ سنة ١٩٦٢ ، تهدف الى الغاء كل استقلال فعلي للمجتمع المدني ، محاولة تذويبه في المجتمع السياسي وبناء دولة متسلطة (من نتائج اعادة الملكية) ومهيمنة في نفس الوقت ٠ كما لاحظنا ايضا ارادة الحكم في الاشراف على مجمل الحياة السياسية والسيطرة على الانتخاب العام ، وتركيع البرلمان تماما ، وجمع كل الشعب في حزب واحد (حزب الانبعاث الذي انشأه الشاه عام ١٩٧٥) وجعل هذا الحزب الاطار اللازم للتعبير عن التوتر والتناقضات الاجتماعية ، كما ان التنظيمات الاجتماعية الناشئة عن توافق المصالح في مجال الانتاج (اتحادات مهنية ، نقابات ، تعاونيات وتنظيمات قبلية للرعاة البدو ٠٠٠) او في مجال الاستهلاك (مجالس بلدية ، مؤسسات قروية، وتنظيمات رياضية على سبيل المثال) تميل الدولة الى وضع اليد عليها لكي تصبح ادوات ادارة اشراف على نشاطات واراء الاشخاص من قبل اجهزة الدولة ٠ هذا النشاط اصبح اليوم احد اكبر وظائف شرطة التأطير والمراقبة ، الى جانب وظيفة القمع الفعلي المكملة لها ٠ الجيش من جهته اصبح اكثر من مجرد اداة وصل بالامبريالية ، بل اصبح يمثل بطريقة حاذقة ، خفية ، مركز الثقل التنظيمي والايديولوجي للامة كما يشاء الحكم ان ينشئها ٠ والجيش هو اولا مدار اهتمامات الدولة : اذ خصصت له وسائل مادية هائلة (يستوعب هذا الجهاز ، بالاضافة الى مختلف اجهزة الشرطة ١٤٪ من الدخل الوطني الصافي عام ٧٠ ، و ٢٠٪ حاليا) حرمت الاقتصاد الايراني من زيادة كان يجب ان تضاف الى الاستثمار الانتاجي ٠ والتجهيزات الجماعية المتعلقة خاصة بالاتصالات تجيب على متطلباته : فهو يستعمل اسلحة ذات تقنية متقدمة منتجة في الدول الصناعية ، وتعبىء في هذا المجال كفاءات عديدة للصيانة والاستعمال يحرم منها الانتاج الوطني ٠ ولان الجيش موجه ثقافيا نحو الغرب ، من جراء تبعيته التكنولوجية ، فانه يأخذ حصة متعاظمة في ادارة الجهاز البيروقراطي (عدة مراكز في الوظيفة العامة موكلة الى عسكريين ، كما ان الاحكام المدنية تشرف عليها بالواقع ، المحاكم العسكرية ٠٠٠) ويوكل اليها ايضا مهام التأطير

الايديولوجي للمناطق الريفية من خلال « جيوش » المعرفة والصحة والتنمية والدين التي انشئت ، لكي تحكم سيطرتها كليا على المجتمع المدني كان على الدولة ، في الواقع ، ان تحاول تأمين هيمنتها في مجال الثقافة الذي عرف تاريخيا بعدم خضوعه لها · رغم امتلاكها لوسائل الاكراه ، كان عليها ان تأخذ في حسابها هذا الواقع الذي بدأ ينشأ بشكل واسع خارجها ·

ان مشكلة العلاقة بين الضغط والواقع الجديد، يظهر على الفور في الملاحظتين المتكاملتين الآتيتين اللتين تتعلقان بالحقبة الظرفية الاولى الممتدة من القسم الثاني للقرن التاسع عشر الى القسم الاول من القرن العشرين خلال فترات التسلط ، قبل الثورة الدستورية ، في عهد رضا شاه او في السنين العشر التي تبعت اعادة الملكية في ١٩٥٣ ، بدا ان الدولة لم تكن تعتمد الا على العنف ، وغير قادرة على ايجاد حد ادنى من الاجماع بين الطبقات الشعبية والطبقات المتوسطة ، لا بل الطبقات العليا ايضا خلال الفترات الاوليغارشية والديمقراطية حين كان الحكم يتمتع بدعم شعبي اكبر ، كان ينمو تيار يساري · تطرح هكذا مشكلة المجتمع المدني ، مشكلة وجود او عدم وجود الاشراف الايديولوجي القادر على ضم الشعب في شبكة من القوانين تؤمن ثبات التكوين الاقتصادي ـ الاجتماعي بنفس الفعالية التي تؤديها وسائل الاكراه ·

من اجل ادراك الروابط بين ما هو ايديولوجي وما هو سياسي ، فان مراجعة صغيرة للتاريخ قد تكون مفيدة · اذا عدنا الى نهاية القرن التاسع عشر حيث كانت الاشياء واضحة نسبيا ، نجد ان اداة الاكراه واداة الادارة الفكرية والاخلاقية تبدوان متباعدتين بوضوح ، لا بل متعارضتين · ان السلطة السياسية التي تتلخص تقريبا في اجهزة الضرائب والشرطة والجيش ، كانت بيد سلالة « القاجار » · بينما كانت العلوم الاخلاقية والشرع والمعرفة بيد رجال الدين الشيعة · على امتداد التاريخ الايراني (حتى قبل مجيء الاسلام) كان الجهاز الديني معارضا للسلطة السياسية · هذه السلطة كانت دوما بيد قبائل اجنبية اخضعت ايران بالقوة ، بينما الجهاز الديني يمثل المؤسسة القانونية والثقافية للسكان الاصليين في مواجهة السلطة السياسية الخارجية · وكان هذا الاخير ، يضفي على المجتمع المدني تنظيما عقائديا يمكنه من المقاومة بشكل افضل ضد الميول الهدامة التي يخلقها الغزاة البدو ، ورغبتهم في تملك كل ثروات البلاد · لذا حاولت السلالة الحاكمة عند استلامها السلطة ان تبرر شرعيتها عبر محاولة التحالف عدة مرات مع الجهاز الديني · هذا ما فعلته السلالة الصفوية· فقد شارك الصفويون في البدء رجال الدين الشيعة في تسيير ادارة الدولة على اساس كونها جهازا عقائديا · فسمحوا بالتالي بنمو قوتهم الزمنية واعطائهم الوسائل التي تمكنهم من تكوين ثروة هائلة مستقلة : الاقتطاع المباشر

للضرائب الدينية ، التصرف بعائدات المؤسسات الخيرية التي ستتوسع بكثرة ٠ وفيما بعد ، وفقا للتتابع المعهود للسلالات ، بينما كان يضعف الصفويون ، كان رجال الدين يزدادون قوة٠ ووجد « القاجار » انفسهم منذ البداية امام وضع مفروض ليس باستطاعتهم تغييره : قوة واستقلال الجهاز العقائدي المتمثل برجال الدين الشيعة المعترف بهم عالميا على انهم القادة الفكريون والاخلاقيون للشعب الايراني ، والذين يملكون موارد تؤمن لهم استقلالية بالنسبة للامير ٠ وهناك سبب آخر لهذه الاستقلالية وهو وجود الاماكن المقدسة للمسلمين الشيعة خارج ايران ، مما يعني انها كانت بمنجى عن السلطة السياسية بينما كان المؤمنون حتى نهاية القرن التاسع عشر يتنقلون بحرية ٠

يتحدد النظام الاساسي للمؤسسة الدينية بالمسائل التالية : العقيدة السياسية للشيعة الاثني عشرية تؤكد قبل كل شيء بان الامام وحده يستطيع بصورة شرعية ان يطالب بالسلطة لانه لا يستطيع ان يرتكب خطأ او يقترف ذنبا ٠منذ غيبة الامام الثاني عشر ، اختفت امكانية ايجاد حكومة عادلة ، وكل سلطة حتى لو كانت بيد شيعي ، هي مغتصبة وغير عادلة ٠ ان عودة الامام مقابل ذلك ستحمل العدالة والتكفير ، وتصحيح الاخطاء ٠ وبانتظار هذه العودة يمكن ان يؤمن الحكومة الاقل سوء أولئك الذين يحضرون لهذه العودة وبالتحديد ذلك الذي اختارته الطائفة الدينية كزعيم لها ٠ هذا القائد الروحي هو قائد المجاهدين الذي يثبت بأنه الاكثر عدالة والاوفر علما ٠ وبالتالي الاكثر قدرة على اعطاء رأي موثوق به في مختلف القضايا (الدينية والاخلاقية ، والقانونية والسياسية) التي تطرح في الوقت الحاضر ٠ ان الرأي الذي يصدره مراجع التقليد ، يلزم كافة المؤمنين والملك نفسه ٠ ثم المظهر الثاني الرئيسي للمؤسسة الدينية هو ان الزعيم الروحي للطائفة تجري تسميته وفقا لاجراء غير تقليدي له طابع ديمقراطي ، اذ ان اجماع الطائفة الدينية وحده الذي ينظمه العلماء ، هو الذي يحدد القائد ٠ لكن بما أن حق الاكثرية على الاقلية ليس بالامر المثبت ، يمكن للطائفة الشيعية ان تعترف بعدة زعماء عندما يكون من الصعب الوصول الى اجماع قوي ! والمظهر الاساسي الثالث لنظام المؤسسة الدينية هو الصورة التي تكونها الطبقات الشعبية عن هذا الزعيم : انتظار عودة الامام الثاني عشر الذي ستعم في عهه العدالة على وجه الارض ، نضال الحسين ضد الامويين واستشهاده هو نموذج للنضال العادل ضد الاستبداد ، فالتاريخ الشيعي هو تاريخ نضال مستمر ضد سلطة مغتصبة وطاغية ، والتنظيم الكنسي القائم على الاجماع هو نموذج للتنظيم السياسي للدولة ٠

في القرن الثامن عشر ، وبدايات القرن العشرين ، كان تعارض الجهاز السياسي مع الجهاز الايديولوجي (او بصورة ادق الجهاز المنظم للحياة المدنية) ومنازعة الثاني لسلطة الاول ، والاشراف الذي يمارسه هذا على ذاك ، يؤدي

في اطار توازنهما وعدم استطاعة السلطة الدينية ان تحل محل سلطة الامير ، الى ايجاد نظام سياسي حيث التوتر المستمر (يستهوينا ان نتكلم هنا عن فصل السلطات) يجد حالة من التوازن المستقر ٠٠ ان التوترات والخلافات الحقيقية التي تجد مرتكزاتها في العلاقات الاقصادية والاجتماعية تستخدمها المؤسسة الدينية في مجال العلاقة القائمة على الصراع والتنافس بين السلطتين ٠ وهي لا تتجاوز هذه العوامل بقدر ما تعمل على ادخالها في صلب النظام المؤسسي ٠ العملية هي عملية تطهير ٠ يبدو الصراع بين الجهاز السياسي والجهاز الايديولوجي كعامل اساسي فيالتنظيم المدني وكأحد محركاته الضابطة ٠

لكن الامور تبدلت في نهاية القرن التاسع عشر ٠ ومالت العلاقات بين السلطتين الى التحول بسبب التداخل الاقتصادي والسياسي الخارجي في ايران٠ فالدولة الرازحة تحت الديون ، بدأت تزيد الضغط الضرائبي وتعطي الامتيازات للشركات الاجنبية ، مما ادى الى تصاعد التوتر الداخلي التي ردت عليه السلطة بدعم من القوى الخارجية (روسيا قبل الحرب العالمية الاولى) بتقوية وسائل الاكراه ومحاولة علمنة مؤسسات البلاد ، اي بتهديدها مباشرة او بصورة غير مباشرة للجهاز الايديولوجي المؤلف من هيئة العلماء الشيعة ٠ فضلا عن ذلك ، فان تكثيف التبادل الخارجي واستبدال المنتوجات الداخلية بمواد مستوردة ادت الى تذمر البرجوازية المتوسطة والصغيرة، «البازار» ٠ وانعكس هذا التذمر فيالجهاز الديني المرتبط تقليديا بهاتين الطبقتين ٠ فعدا عن الدور الذي تلعبه هذه الفئات الاجتماعية في تأمين الضرائب الدينية التي تؤلف مداخيل رجال الدين ، هناك القانون ، والاخلاق الاسلامية التي ينادي بها العلماء والتي تشكل الاطار المبدئي اللازم لتحقيق المبادلات ٠ كذلك فان التوتر الذي امتد الى الجماهير الريفية من جراء نفاذ حركة السوق ، تردد صداه داخل الجهاز الديني المرتبط بالريف بسبب اصل رجال الدين (اذ ان الاغلبية الكبرى من العلماء من اصل ريفي) وخاصة بسبب وظيفته في الحياة اليومية (ادارة القانون الخاص) وفي النشاطات الانتاجية (حق الماء مثلا) ٠

ان الرفضية الناشطة جدا التي اشترك بها رجال الدين في نهاية القرن التاسع عشر (قضية امتياز رويتر ، ١٨٦٣) ، (قضية التنباك، ١٨٩١/ ١٨٩٢) هي متصلة بشكل مباشر او غير مباشر بالانقطاع الحاصل من جراء التدخل الخارجي ، في التوازنات السياسية والاقتصادية الموجودة حتى الآن ٠ كذلك فان التهمة المزدوجة التي كان الجهاز الديني يوجهها دوما ضد السلطة السياسية لملوك « القاجار » و « بهلوي » ، هي حول طابعها المستبد وتبعيتها للخارج : ظاهرتان كانتا متكاملتين تاريخيا ٠

عندما دخل الجهاز الايديولوجي الشيعي ،منذ نهاية القرن التاسع عشر في

المعارضة النشطة ضد السلطة السياسية ، وقاد طائفة المؤمنين في هذا الطريق اي الطبقات الشعبية والمتوسطة ، وطبقة التجار ، بسبب تزايد التوتر ، فانه عرض نفسه ، اذا جاز التعبير ، لخطر لم يكن موجودا في السابق ، هو الانتصار وبالتالي الوصول مباشرة او غير مباشرة الى الحكم · لم تعد العملية تتميز بشيء من التطهير : الممثلين الشعبيين المجسدين لمثال في المعارضة ، اصبحوا الان صورا تقود الجماهير وتوجه الدعم الذي تعطيه للحكم الجديد · هذا هو اصل هذه الدينامية اليسارية التي تكلمنا عنها ·

امام هذا التيار كانت الخطوات الاولى للهيئة الدينية في الانطواء على الماضي مع ارادة بابقاء الصف الشيعي فيالمعارضة · هذا ما رأيناه فعلا في عهد الثورة الدستورية وعهد مصدق · خلال الفترة الاولى بالذات بعد النجاح الاول الذي تحقق ، اخذ قسم من رجال الدين يتراجع للوراء معلنا بأن الدستور الذي جاء هو ضد الاسلام : بانتظار المهدي ، لا يمكن للحكومة الا ان تكون غير شرعية · ورجال الدين لم يستطيعوا الاشتراك فيها او دعمها · هذا المبرر يغطي علنا تقريبا الخوف من ان تحل جمعية ممثلة محل رجال الدين في وظيفتهم الايديولوجية بالنسبة للاخرين الذين اعتبروا بان انتظار زمن الكمال لا يمكن ان يعطي جهدا لتقليص عدم الشرعية وبالتالي ايجاد شكل اقل سوء للحكومة ، ان الطريق الذي تم اختياره ليس خاليا من الصعوبة ، لان الجهاز الايديولوجي ليس مؤهلا بالتأكيد لقيادة الجماهير سياسيا ولان المؤسسات السياسية التي يجب اقامتها ليست ضمن العادات او متوفرة فيالتجربة التاريخية · نجد ان الهيئة الدينية اصبحت مدفوعة بسبب مشاكل استلام السلطة ومشاكل المعارضة للسلطة السياسية القائمة ، الى عملية تأمل لم تتوقف عمليا منذ منتصف القرن التاسع عشر · هذا التأمل ادى في عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١ الى مناقشة حول كيفية التعيين (التي لم تقنن ابدا) وحول الوظائف السياسية والدينية للزعيم الروحي·

لكن النقد لاعمال السلطة استمر ، فآراء رجال الدين الشيعة السياسية وتوجيهاتهم المتعلقة بالممارسات التي يجب اتباعها في وجه السلطة السياسية كانت كثيرة · توجيهات مقاطعة التبغ في اواخر القرن التاسع عشر تقابلها اليوم تعليمات لمقاطعة التظاهرات المؤيدة للسلطة السياسية وخاصة الانتخابات (مراجعة منع المشاركة باحتفالات الذكرى ٢٥٠٠للعرش الفارسي) ، ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت الدعوة الى مقاطعة انتخابات ١٩٤٧ هي الدعوة الاولى الصادرة في الوقت نفسه عن العلماء والمعارضة : حين اعترضت على تعميم الاكراه الانتخابي الذي نظمه الحزب الديمقراطي ، حزب رئيس الوزراء ·

منذ سنة ١٩٦٣ ، اصبح الامتناع عن المشاركة في الانتخابات شاملا والاسباب التي يعطيها احد الزعماء الدينيين هي الآتية : غياب حرية التعبير والصحافة

والاجتماع ، المخالف للدستور ، الطابع غير الديمقراطي للاجراءات المتعلقة بتسجيل الترشيحات وبالعمليات الانتخابية (عدم وجود لوائح او بطاقات انتخابية) رغم اهمية الانتخابات التي من شأنها التعبير عن الرأي الحر للافراد من اجل الاسلام وايران والشعب الايراني · منع التجمعات الدينية والمواعظ من قبل السلطة (تصريح شريعتمداري احد مراجع التقليد في ايلول ١٩٦٣) ·

ان الاشتراك في الانتخابات يبدو كرهان اساسي في الصراع بين السلطة السياسية والجهاز الايديولوجي · انه دليل ميزان القوى بين قوتين مهيمنتين متنافستين · الاولى ، قوة رجال الدين التي وجدت بالنهاية في الانتخابات والمجلس اشكالا تمكنها من الوصول شرعيا الى السلطة السياسية · والثانية، قوة الجهاز السياسي التي تحاول اليوم من خلال الاشكال نفسها ، تبرير شرعية مطالبتها بالقيادة الايديولوجية للامة · من اجل كسب هذه المعركة ذات الدلالة يملك الجهاز السياسي ادوات ضغط على الناخبين لا يتورع عن استعمالها · لكن خطته اوسع من ذلك واكثر جذرية · فهو يرمي الى جعل الجهاز الايديولوجي بيروقراطيا تابعا له (الاشراف على الطرق المادية المتأتية من الجمعيات الخيرية من اجل لجم رجال الدين ، انشاء جيش الدين الذي اطاح به العنف، الخ ··) وفي الوقت نفسه ، الاسراع في استبدال الثقافة الوطنية بثقافة مأخوذة عن الغرب ، وهو مطلب يذكر بتيار قديم ، رأيناه سابقا ، هو تيار الارستقراطية الذي لم يأخذ طابعا رسميا او شبه رسمي ·

ان التوجه نحو تغريب ايران (بضائع ، تكنولوجيا ··) يحدد بشكل فوري طبيعة التغريب المثالية · لكن هذه السياسة المتبعة ، تتوجه نحو طبقات اخرى لا تمتلك اسبابها من اجل قبولها · هذه الطبقات تؤلف اغلبية الشعب · لذلك ، فبواسطة العنف ، تحاول السلطة ازالة ثقافة واستبدالها بثقافة اخرى ، وهي تأمل أن تصل الى حالة تقبل بها هذه الطبقات الثقافة الجديدة · عندها يصبح العنف عديم الفائدة، لان هذه الثقافة تؤسس عندها من خلال اجماع وطني وتطور متداخل مع السوق العالمي ·

ترجم النص عن الفرنسية

ندره صولي

فيليب حتّي والتاريخ العربي

من الممكن لاي متصد لدراسة عن البحاثة الدكتور فيليب خطار حتي ، ان يتناول الموضوع من احد جوانبه الثلاثة او منها جميعا ، الا وهي :

١ ـ « المؤرخ العربي في الولايات المتحدة » ٠

٢ ـ « المؤرخ السوري في الولايات المتحدة » ٠

٣ ـ « المؤرخ اللبناني في الولايات المتحدة » ٠

ولدى التدقيق فيما انجزه مؤرخنا الممتاز في اكثر ما جاء له في هذه المجالات الثلاثة، تظهر الحقيقة التالية : ان مؤلفاته في موضوعي « العرب والعروبة » قد فاقت في كثرتها كل انجاز اخر ، ان عن سورية او لبنان ٠

ولعلنا لا نعدو الصواب ، اذا ما قررنا ان اقل انجازاته كان في حقل لبنان ، اما سورية الشقيقة ، حاضرا ، والام سابقا فكانت بين المجالين : اذ جاء حظها من تفكير مؤرخنا ، بعد حظ « العرب والعروبة » ولا لوم عليه ، في ذلك ، ولا تثريب ٠

على هذا الاساس ، لا نرى مندوحة من التجاوز عما وقع فيه الدكتور مسعود ضاهر ، من التقصير في حصر دراسته « فيليب حتي، المؤرخ العربي في الولايات المتحدة »، شؤون فلسطينية ٨٨/٨٧ في الجانب الاول من دراسته المشار اليها ٠

ولكن لما كان صاحب « الدراسة » لبنانيا ، وواحدا ممن يعنون كثيرا بشؤون « دولة لبنان الكبير » ، ذلك الركن الركين من الوطن العربي الاكبر ٠ فقد كان ينتظر منه الا يبخل ، ولو برأي عابر فيما خلقه « المؤرخ ٠٠٠ في الولايات المتحدة من ٠٠٠ ومن ٠٠٠ ومن ٠٠٠ بشأن لبنان » ، والمواطنين الانعزاليين من الموارنة ٠

وهذا ما جعل السيد غالب ابو مصلح ، ان يقوم ، مشكورا ، بتعويضنا عما قصر

فيه ، عن غير قصد طبعا ، الدكتور مسعود ضاهـــر « قراءة في نصوص فيليب حتي ، السفير ١٥ و ١٢ نيسان ٧٩ » · وهذا بالذات ايضا ما اهاب بكاتب هـذه السطور لان يدعم ابو مصلح في عمله ، وان يوجه العتب الاخوي للصديق مسعود ضاهر ·

لذلك عدت الى ما كنت قد نقدته من مؤلفات الدكتور حتي ، في جولة سابقة ، امتدت مـــا بين ١٩٦٢ و ١٩٧٢ فـــأقول : ان مـــن يطالـــع « لبنان في التاريخ » يتفحص وتقص ، لا يلبث ان يشعر بشيء من خيبة الامل ، حينما يلمس بين سطوره روحا عامـة لـــم نتعودها من قبل وخاصة حينما نتبين اولا ، عدم تقديره فضل العرب بتخليص البلاد واهلها من ظلم كانوا فيه ايام الحكم البيزنطي ، وثانيا ، الحط من شأن الدور الحضاري الذي قاموا به ، هذا ، فضلا عن متناقضات ومغالطات ، زل بها قلمه ، فشوهت الكثير مما كنا نحب ان نحافظ عليه من الاعتراف للفضل له ، والتقدير لما اتصفت به مؤلفاتـه السابقة من تجرد ، وموضوعية ، وعلم صحيح ، وتحر للحقيقة وثيق ·

ودونك الآن بعض ما جاء له من المغالطات في كتابـه ، « لبنان في التاريخ » ، مـــن ذلك ، مثلا خلطه بين « فينيقية » و « لبنان الكبير » بمدلوليهما الاصليين ، اذ ان الحقيقة المقررة لدى المؤرخين ، ان « فينيقية » كانت تشتمل السهل الساحلي ، الممتد على طـول الساحل الشرقي من البحر الابيض المتوسط، بدءا منااللاذقية شمالا، وانتهاء بحيفا جنوبا، واما « لبناننا » الحاضر ، بما فيه من « دولة حرة ذات سيادة » ، فيضم من فينيقية الجزء الاوسط دون جزئيها الاخرين ، مع جبل لبنان ، وسهل البقاع ، وجبل عامل ، وسهـــول عكار ، بينما كان « لبنان الصغير » منذ ١٨٦١ حتى ١٩١٥ ، ينعم بشيء من الاستقلال الاداري لا غير ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان « لبنان » اليوم بمحتـواه الوطـن والدولة ، « لم يظفره بالاستقلال ، قبل عام ١٩٤٣ · ولم يستكمل اسباب السيادة، الا في العام التالي لتلك السنة» ، هذا ما قرره الكاتب الكبير والسياسي المعروف ، المرحوم اميل الخوري في مقدمته للجزء الاول من كتاب « حقائـــق لبنانية » لصاحبه الرئيس بشارة خليل الخوري الراحل ·

ومن تلك المغالطات ما جاء له في صفحة ٢٩٨ ، حيث يقول : « يحيط بتاريخ لبنان ، في القرون الاربعة والنصف الاولى ، التي تلت الفتح العربي ، حجب كثيفة ، فاننا نجهل تاريخ الحقبة ، التي تقع بين الفتح العربي ، ومقدم الصليبيين ، جهلا ، يكاد يكـــون تاما » ! هـ ·

قلت : وفي هـــذا القول ، آية تنكره للعرب وتاريخهم ، اذ تناسى فيه ان العروبة قـــد تمثلت سورية بأجمعها بما فيها « جبل لبنان » ، حتى غدت تعرف بالديار الشاميـــة ، ودونك ما جاء للدكتور نبيه فارس بهذا الصدد عام ١٩٦٠ ، في مجلة « الابحاث » عـدد حزيران · اذ يقول : « فمؤرخو دولة الاتابكة الزنكيين ، والدولة الايوبية فمورثتها دولة المماليك ، قلما تعرضوا لشؤون لبنان « الجبل » الداخلية ، لان اهميته كانت عسكريـة اكثر منها سياسية » اهـ ، وهذا بالطبع يصدق عليه في العهود السابقة لقيام تلكم الدول الثلاث ، المشار اليها ·

ثـــم ان الدكتور حتي يعود ليقول مستدركا·، غير اننـا نقدر ان جزءا مـن الجموع العربية المتدفقة الى الهلال الخصيب ، اثر الفتوحات ، قد تابع تقدمه الى سواحل لبنان، لا الى جباله (كذا)، (وهذا يثبت القصد من ملحمة المؤلف)، واحتلوا المساكن المهجورة، التي كان يقطنها البيزنطيون واعوانهم ، او مساكن الذين ارغموا (؟!) على الفرار اثناء

الفتح » اهـ ٠

قلت : وهذا ايضا ، نلمس تجاهلا من المؤلف لحقائق تاريخيـــة ثابتة الا وهي : ان يزيد بن ابي سفيان، تقدم من دمشق نحو الساحل ، وكان على مقدمته اخوه معاويـة ، الذي لاقى « فتحا يسيرا » ، كمـــا يقول المؤرخ العربي البلاذري ، وممـــا لا شك فيه ان البيزنطيين قد انسحب منهم من كان من العسكريين وفر من فر منهم من المدنيين٠ واما اهل البلاد الاصليون فقد بقوا في بيوتهم ، ولم يغادرها منهم احد ، كما احب الدكتور حتي ان يوهمنا ٠ ونسوق هنا ، قول جاك جاري ، الوارد في الصفحة الثالثة مـن الملحق الادبي الاسبوعي لجريدة « الاوريان » البيروتية ، في عددها الصادر صباح يوم السبـــت ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٦٠ ، وهو : « ان ما لحق بالسوريين ، من الاضطهاد الديني ، على ايدي الروم البيزنطيين ، قد جعلهم يؤثرون الفتح العربي على اسيادهم التقليديـيـن اي الروم البيزنطيين » ٠

هذا بشأن الساحل ، واما قوله : « الا ان لبنـــان (الجبل) لم يكن ليستهوي (؟) فرسان الحرب ، وموظفي الدولة والبدو الرحل ، او نصف الرحل ، القادمين من الجزيرة العربية ، فانهم ارفع قدرا (!!) من ان يتعاطوا اعمال الزراعة والفلاحة » اهـ ٠ قلت : أفلا تعجب ،ايها القاريء الكريم ، من تلك العبارات ، والجمل ، التي تدل ، بوضوح ، على روح ، كان يحسن باستاذنا حتي ان يتحاشى مثلها وهو العالم الذي نكن له كـل حب واحترام ؟ ومع ذلك فهو يتابع ليقول : « ولم يكن ثلج لبنان بالشيء المستحب لديهم ، ناهيك عن ان الحرب في مسالك الجبل ووعره ، ليس بالامر ، الذي يميل اليه المحـــارب العربي ، الذي كان يألف السهل » اهـ ٠

وهنا ، ايضا ، يزداد العجب من الدكتور حتي ومن اقدامه على مثل هذا التعليـل ، الذي لم يقل به مؤرخ واحد قبله ، بل اننا لنقرأ للبحاثة ، المعتبر لدى الكثيرين مـــن الغربيين انفسهم ، عنيت به الاب هـ٠ لامنس اليسوعي، اذ يقول : « ان مشارف جبل لبنان، والجهات المعروفة بالمجرد بقيت الى القرن السابع (وهو عهد الفتوحات العربية)، **قليلة السكان** (كذا) **كثيرة الغابات** » اهـ ٠ (انظر ص : ٥٢ من ج (٢) من كتابه « تسريـــح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ») ٠

اذن يتضح من هذا ان « فرسان الحرب من ابطال العرب » لم يجـــدوا فائدة مـــن اقتحامهم الجبل ، (اذ لم يكن فيه احد ، يقاوم ، وامـــا موظفو الدولة فقد توغلوا في شعاب الجبل ، وتعرفوا الى غاباته ، واستفادوا منها في بناء العمارة البحرية العربية، ودليل ذلك بين فيما جاء للاب لامنس ايضـــا في ص ١٣٨ من ج (١) لتسريح الابصار ، وهو قوله : « لقد ذكر تاوفان ، المؤرخ اليوناني ان معاويـــة اول خلفاء بني امية ابتنى ١٧٠٠ **سفينة** شراعية ، واتخذ موادها من جبل لبنان ، ولم تمض سنوات قليلة ، بعد ذلك، حتى جهز ايضا اسطولا ثانيا اكبر عددا ، واشد هولا من الاول ، وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية ، وكانوا يجعلون اخص دور للصناعـــة في مدينة طرابلس ، نظرا لقربها من غابات الارز » اهـ ٠

ومن عسانا نأخذ بكلامه : الدكتور حتي المؤرخ اللبناني ام تاوفان ، المؤرخ اليوناني ؟

ومع ذلك فلم يتورع « مؤرخنا اللبناني الاصل » عن المضي قائلا : (ص ٢١٨) : « لم

يكن خلفاء الرسول في المدينة ، ليدركوا عن بعد ، **اهمية الجبل الاستراتيجية** ، فتركوه لشأنه (؟!) ولكن معاوية القريب من الجبل ادرك هذا ، فكان اول خليفة ، حاول ان يخضع سكان الجبل النصارى (!!؟) ولكن لم يفلح » اهـ ٠

والمستغرب جدا في هذا القول ، ان صاحبه اراد ان يوهم مطالعي « لبنان في التاريخ » ان الجبل كان يعج بالسكان ، والحقيقة التي لا يراء فيها ، ان « سكان الجبل النصارى » المزعومين ، لم يكونوا سوى « فرقة من الجند » ٠ وهم المردائيون ، والذين لم يخجل بعض الموتورين من ان يسميهم « المردة » ايغالا في الكذب والتضليل ، لكن تعريفهم « بالفرقة من الجنود » جاء دليلا ، على انهم لم يكونوا شعبا ، بل كانوا منظمة ، ليس الا ، « وقد ذكرهم مؤرخو اليونان ، لاول مرة سنة ٦٧٧ م٠ اي في عهد معاوية الاول ، ثم مالبث ملوك الروم ، الذين كان المردائيون يخضعون لهم ، ان امروهم بالانسحاب من جبل لبنان ،بعدظهورهم فيه ، ببضع سنين ، فاندثر امرهم على الفور ، كما ظهروا بغتة دون ان يخلصوا في لبنان (الجبل) اثرا لمرورهم فيه » اهـ ٠ انظر ص ٤١ ، ٤٢ من تسريح الابصار ج (١) ٠

« وتحت عنوان : يوحنا مارون ، يقول الدكتور حتي « اذا كان مارون (اعتبر) قديس الطائفة المارونية ، فان يوحنا مارون المتوفي حوالي ٧٠٧ م٠ كان بطل **القومية المارونية** (كذا) **وباني موطنها** (ايضا) ، على جانب وادي قاديشا ، وفي ظلال الارز » اهـ ٠

وهل بعد هذا من سبيل الى الشك فيما رمى اليه الدكتور حتي من تاليف « لبنان في التاريخ » ؟ وهو لم يقف عند هذا الحد بل اننا نقرأ في نفس الفقرة ما يلي : « وقد استطاع يوحنا مارون ، بقيادته الحكيمة ــ طبعا ــ ان يجعل من الموارنة شعبا ذا سيادة ــ كذا ــ فقد استطاع ، بدهائه ، ان يرد خليفة المسلمين باليد الواحدة ــ كذا ــ وامبراطور الروم باليد الاخرى » اهـ ٠

واذا ما بحثنا عن الخلفية، المشار اليه ، وجدناه اقوى الخلفاء الامويين على الاطلاق، وهو الوليد بن عبد الملك ، واما امبراطور الروم فهو : يوستيناتوس الثاني ، اعظم اباطرة الروم ٠

والآن فلنتحر صحة هذه الاخبار عن « البطل يوحنا مارون » لدى اهل البحث والاختصاص ، فلنستمع الى الدكتور اسد رستم ، اذ يقول: « واثبت ما يستنتج من تقاليد (كذا) الموارنة ، ان رهبان دير مار مارون نادوا بيوحنا مارون بطريركا على انطاكية وانه هو اول بطاركتهم » اهـ ، ويمضي قائلا : « ومما جاء في التقليد (كذا ايضا) ،انه (يوحنا مارون) رقد في جبل لبنان ، وتولى ، بعده ، بطاركة الموارنة » اهـ (انظر ص ٥٦٠ من ج٠ (٢) لكتابه : « تاريخ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى »)، ويحسن بنا ان نلاحظ ان المؤرخ المدقق ، الدكتور رستم ، قد اكد لنا ان هذه الاخبار عن يوحنا مارون ، انما تستند الى « التقليد » ، لا الى التاريخ الاكيد ٠٠٠

واما الدكتور كمال سليمان الصليبي ، وهو اول من تخصص ، مؤخرا ، في درس تاريخ الموارنة فيقول في ص : ٩٥ من كتابه : « المؤرخون الموارنة للبنان في القرون الوسطى » ٠ M. H. of Medial Volde Banon, 1959 فيقول لدى كلامه عن البطريرك اسطفان الدويهي صاحب كتاب : « تاريخ الطائفة المارونية : « ان يوحنا مارون،

المولود في مدينة سروم ، القريبة من انطاكية ، والذي هو مؤسس الكنيسة المارونية نصف اسطوري » ٠

وزيادة في تعريفنا القارىء بيوحنا مارون السروجي نقول : جاء للمؤرخ الشيخ طنوس الشدياق في « كتاب اخبار الاعيان ، في جبل لبنان » ، الذي نظر فيه ووضع مقدمته وفهارسه « الدكتور » فؤاد افرام البستاني ، (١٩٧٠ بيروت) فقد جاء فيه ، قوله في ص ٢٣ ، ج (١) ما يلي :

« قيل ـ كذا ـ انه سنة ٦٠٠ قدم **احد اعيان ملك فرنسا** الى سورية الثانية ، وتملكها فسمي كرلومانيا ، فاقام في مدينة انطاكية ابن اخته اليديبوس المسمى عند العرب عبدون (؟) فولد لعبدون هذا ولد سماه اغاثون ٠ وولد لاغاثون ولد ، وهو في قرية سروم من من اعمال السويدية ، فسماه يوحنا ، فلما شب يوحنا ترهب في دير مارون عند العاصي، ثم انتخبه **جمهور الافرنج** ـ كذا ـ الذين في انطاكية مطرانا على البترون وجبل لبنان ـ كذا ـ ليحفظ اهله من البدع ، ولما قوي الاسلام ـ كذا في تلك الديار ، رحل الى جبل لبنان ، ثم اقامه البابا سرجيوس بطريركا على جبل لبنان » اهـ ٠

فما رأيك ، ايها القارىء الكريم، بهذه الاخبار المتناقضة عن « يوحنا مارون، الافرنجي الاصل ؟!

والاغرب من كل ما بيناه ، اننا ما زلنا نجهل الى اي المـاردينيين تنتسب الطائفة ، أللقديس مارون الكورسي ، الذي عاش في القرن الرابع ، ام لمؤسسها النصف الخرافي ، يوحنا مارون الافرنجي الاصل ، الذي عاش في القرن السابع ؟

وياليت استاذنا « المؤرخ اللبناني في الولايات المتحدة » قد اكتفى بهذا القدر من تحديه للتاريخ ، لكنه لم يفعل ، بل راح يزيدنا من ذلك في ص : ٣٢٧ لدى كلامه عما اسماه : « بالثورة في لبنان » ، اذ يقول : « ٠٠٠ شبت اولى الثورات (؟!) في لبنان عام ٧٥٩ ـ ٧٦٠ في بلدة صغيرة في اعالي لبنان ، المنيطرة ، القريبة من افقا : لقد ثار نصارى هذه القرية ، ضد تعسف عامل العباسيين، وجوره في فرض الضرائب عليهم ، واستولوا على عدة قرى في البقاع ؛ وتقدموا نحو بعلبك ، التي كانت مقرا لعامل العباسيين وكان **زعيم هذه الثورة** شابا عملاقا ، شديدا ، يلقب نفسه بالملك ، وقد نصب له جنود العباسيين كمينا ،وهو في طريقه الى بعلبك ، فانقضت عليهم فرقة القرسان ، وفرقوا شملهم ٠٠٠ الخ » اهـ ٠

والآن فلنقرأ له ما جاء بشأن هذه « الثورة » المزعومة نفسها في ص ١٦٥ من ج (٢) بكتابه « تاريخ سورية ، ولبنان وفلسطين » حيث يقول : « ٠٠٠ فقد **لجأت جماعة من** نصارى الجبل الى السلاح ، تفاديا لمصادرات جديدة ، تنزل بهم **وانتهزوا وجود الاسطول البيزنطي في مياه طرابلس** ، وانقضوا من قاعدتهم (المنيطرة ـ في اعالي لبنان ـ **وافتتحوا** عددا من قرى البقاع ، وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية ، بلغ من جرأته **وتهوره** ٠ ان اقام نفسه ملكا ، **لكن العصابة** (كذا) اللبنانية قيدت ، بعد حين ، الى كمين قرب بعلبك ، نصبته لهم فرقة فرسان عباسية وفتكت بهم » اهـ ٠

أرأيت ، يا عزيزي القارىء ، الفرق الظاهر بين اسلوب النصين بشأن « العصابة اللبنانية » ، التي « انتهز » افرادها وجود الاسطول البيزنطي في مياه طرابلس ، فقاموا « بالفتنة » التي جاء ذكرها في « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » الصادر عام ١٩٥١ ،

ثم كيف اصبحت « ثورة من ثورات النصارى في جبل لبنان » حتى قص المؤلف نفسه خبرها في كتابه « لبنان في التاريخ » ، الصادر عام ١٩٥٩ ، اما قوله « انتهزوا وجود الاسطول البيزنطي الخ » ·· فيجب ان تقرأ بالاحرى : وقد انقادوا الى تحريض الاسطول الرابض في مياه طرابلس ، فكانوا عملاء مغرورين فنالوا جزاءهم الاوفى ···

ولننتقل الآن الى ما جاء له في كتابيه (١) « صانعوا التاريخ العربي » و (٢) « الاسلام منهج حياة » حيث جاء في هذا الاخير عن ابن سينا ما يلي : « وبرر ابن سينا **ادمانه** للخمر (!؟) فهو يقول : « ان الشرع حرم الخمر على القاصرين ، ولكن القانون العقلي حللها للاذكياء ، المفكرين » اهـ (ص ٢٢٥) ، علما انه لم يشر الى مستنده في هذا الكلام ، ويمضي في سرده فيقول : « ويخبرنا ابن سينا **انه بدأ يشرب الخمر في شبابه** ، حتى يستطيع ان يظل ساهرا في الليالي للدرس والتأليف » اهـ · فلنعد الآن للدكتور حتي نفسه في كتابه الآخر « صانعو التاريخ العربي » الصادر عام ١٩٦٨ اي في عام واحد قبل صدور « الاسلام نهج حياة » · ولنقرأ ماذا يقول بابن سينا ودونك هو ، « في سيرة حياته (ابن سينا) التي املاها على تلميذه الوفي ، وصديقه ، الذي عايشه طوال حياته ، ابي عبيدة الجوزاني ، ترك لنا ابن سينا صورة ممتعة ، مفصلة عن طريقة تحصيله ، وهذا الوصف تجده في الكتب الثلاثة ، التي تعنى بالسير : « القفطي ، **وابن** خلكان ، وابن ابي اصيبعة » اهـ · وهنا يقدم لنا النص التالي نقلا عن كتاب ابن ابي اصيبعة : « وكلما كنت اتحير في مسألة ، ولم اكن اظفر بالحد الاوسط في قياس ، **ترددت الى الجامع وصليت وابتهلت الى مبدع الكل** ، حتى فتح لي المغلق، وتيسر المتعسر، وكنت ارجع ، بالليل ، الى داري ، واضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم او شعرت بضعف ، عدلت **الى شرب قدح من الشراب** ، ريثما تعود الي قوتي ، ثم ارجع الى القراءة ، ومهما اخذني ادنى نوم احلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى ان كثيرا من المسائل ، اتضح لي وجوهها في المنام ، وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الامكان الانساني ، وكل ما علمته ، في ذلك الوقت ، فهو كما علمته الآن » اهـ (انظر ص : ٢٨١) ·

والآن يظفر السؤال التالي : على م اعتمد مؤرخ « الاسلام ، منهج حياة » ، حين قدم بين يدي هذه الوثيقة،تفسيرا لكلمتي « قدح من الشراب » لا يتفق مع الحقيقة في شيء ، نعم كيف سوغ لنفسه ان يفسر « قدح من الشراب » بكأس من الخمر ؟

فلنر نحن ما تعني كلمة « قدح » اولا ثم كلمة « شراب » ثانيا وبعد ذلك نترك الحكم للقارىء : فأقول : « والكأس : الاناء ، **اذا كان فيه خمر** ، والكأس **هي الزجاجة ما دام فيها خمرة ، واذا لم يكن فيها خمر فهي قدح** » « لسان العرب » واما كلمة « الشراب » فتعني : ما يشرب (بالضمة على الياء) من اي نوع كان، وعلى اي حال كان، اما «الخمر» فهي العنب دون سائر الاشياء (انظر لسان العرب في مادة : الخمر) ··

ثم جاء للمؤلف في كتابه : « موجز تاريخ الشرق الادنى » ، الصادر سنة ١٩٦٥ بالانكليزية قوله في « الترجمة » ، والصادرة عن « مكتبة دار الثقافة » بدون ذكر لعام صدوره ، يقول في ص ١٩٦ : لقد ترك علماء الطب والكيمياء العرب ، في اللغات الاجنبية بعض الالفاظ ، مثل ··· Syrup اي «شراب» ·

والآن اذا ما استطلعنا بعض القواميس الاجنبية عن معنى كلمة Syrup تقف على ما يلي : « شراب عصير فاكهة » (انظر كلمة Syrup في المورد ، قاموس انكليزي

عربي ، تأليف منير البعلبكي) ، واذا ما راجعنا بشأن « Syrup » (قاموس المدارس الثانوية لوابستر ، الاميركي) ، قرأنا ما يلي : ان كلمتي Syrop and Sirup مأخوذتان من الفرنسية « Sirop » المأخوذة عن العربية · « شراب » ، (وهو (الشراب) سائل لزج مصنوع من عصير الفاكهة ومغلي مع السكر) ·

ولعلنا في غنى عن الرجوع الى القواميس ، اذا تذكرنا اننا نقول اليوم : « اعطنـي » « قدح » شراب التوت ، او شراب تمر الهند ، او شراب الورد الخ » ·· ويحسن بنا هنا ان نتذكر جيدا ان تهمتي « المؤرخ العربي في الولايات المتحدة » ، لابن سينا « بادمانـه الخمر » « او شربها » لم تأتيا الا في كتابه: « الاسلام منهج حياة »، نعم فهو لم يذكر اية « منهما في كتابه » « صانعو التاريخ العربي » ، مع انه افرد فيه فصلا من صفحة ٢٧٧ الى صفحة ٣٠٠ خاصا بـ : « ابن سينا ، شيخ الاطباء والفلاسفة »·

والخلاصة : ان الدكتور فيليب خطار حتي ، البحاثة المتعمـــق في تاريخ « العرب ، وسورية ، ولبنان ، والشرق الادنى في الاسلام » قد دلل في بعض ما انجزه في هـــذه الحقول على أنه قد شذ حينا، وانحرف احيانا عن جادة الصواب، مبحرا الى هذا، وذاك، بشعور طائفي ، انعزالي ،وامبريالي ، الامر الذي يجدر بمطالعي كتبه العديـــدة ، ان يكونوا على حذر من بعض ما يقرأونه ، حتى لا ينخدعوا كبعضنا ···

زكي النقاش

تقارير

النشاط الإسرائيلي في أمريكا اللاتينية في مجال بيع الأسلحة

سعت اسرائيل منذ قيامها الى توطيد علاقاتها الاقتصادية مع افريقيا ودول امريكا اللاتينية ، في سبيل الحصول على سوق واسعة لمنتجاتها ، وعلى المواد الاولية اللازمة لصناعتها من جهة ، ولتفرض وجودها كدولة من دول المنطقة ـ عن طريق افريقيا ـ من جهة اخرى ·

ولكن الموقف الافريقي ، وخصوصا منذ عام ١٩٧٣ ، وقطع معظم دول القارة لعلاقاتها مع اسرائيل ، ثم تزايد الرفض الافريقي لسياسة التحالف بين اسرائيل والانظمة العنصرية في جنوب افريقيا وروديسيا ، اصاب النشاط الاسرائيلي هناك بضربة قاتلة ، قلصته الى حد الالغاء ·

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت اسرائيل تكثف جهودها في القارة الامريكية الجنوبية ، لتكون متنفسا اقتصاديا وسياسيا لها ولفك طوق العزلة الدولية التي تحيط بها ·

الا أن هذا لا يعني ان النشاط الاسرائيلي في امريكا اللاتينية قد بدأ متأخرا ، بل الصحيح ان هذا النشاط كان موجودا وقائما منذ البداية ، وسط غياب عربي شبه كامل · فقد شكلت اول جمعية صهيونية في امريكا اللاتينية عام ١٨٩٧ في الارجنتين ، وفي عام ١٩٣٧ اسس فرع للوكالة اليهودية في القارة ، كما عقد في عام ١٩٤٦ في مدينة « مونتيفيديو » أول مؤتمر صهيوني هناك ·

الا ان النشاط الاسرائيلي سجل تصاعدا خطيرا في دول القارة اللاتينية خلال السنوات الاخيرة ، نتيجة لما ذكرناه ، ولوجود عوامل اخرى مؤاتية · فكما هو معروف ، ترتبط الصهيونية ارتباطا وثيقا بعدد من الاحتكارات الامريكية العاملة في أمريكا اللاتينية ، ويشغل ممثلو هذه الاحتكارات مراكز قيادية في المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة ويتمتعون بتأثير فعال في مجال التجارة مع امريكا اللاتينية وفي مجال الاعلام الجماهيري الذي يمول الصهاينة العديد من اجهزته ·

وهكـــذا فقد اعتمد النشاط الصهيوني في امريكا اللاتينية اولا على الهيمنة الكاملة ، السياسية والاقتصادية للامبريالية الامريكية على معظم دول القارة· ومن ناحية اخرى فقد استفاد من وجود جاليات يهودية كبيرة ، متفاوتة حجما ، في كل بلدان القارة تقريبـا · وتتمتع بنفوذ سياسي واقتصادي كبير · ولعل اكبر هذه الجاليات هي الجالية اليهودية في الارجنتين وتليها البرازيل والمكسيك · ونذكر هنا بالمشروعات الصهيونية والاستعمارية التي فكرت ، في وقت ما ، في اقامة الوطن القومي لليهود في الارجنتين وما تبع ذلك من تدفق الهجرة اليهودية على هذا البلد الكبير والغني بامكانياته وبموارده الطبيعية الهائلة ·

وقد شكلت هذه الجاليات منذ البداية مجالا خصبا للنشاط الصهيوني ، كما تميزت بدقة تنظيمهـــا الذي مكنها من ان تقدم لاسرائيل مساعدات هامة سواء عـــن طريق جمـــع الاموال والتبرعات او عن طريق الهجرة وارسال المتطوعين · هذا طبعا بالاضافة الـــى الدعم السياسي الهام من دول القارة للكيان الصهيوني نتيجة لوضع هذه الجاليات المتميز ماليا واجتماعيا ، وسيطرتها على المقدرات الاقتصادية للعديد من تلك الدول · ونذكر على سبيل المثال ، انه في التصويت الذي جرى في الدورة السابعة والعشرين للجمعية العامة للامم المتحدة على مشروع القرار الخاص بالاراضي العربية المحتلة ، صوتت ضده سبـع دول كان من بينها ست من امريكا اللاتينية هي بوليفيا، كولومبيا، كوستاريكا، نيكاراغوا، الدومينكان والاوروغواي · كذلك فان اي مسح لخارطة التصويت في الامم المتحدة . وفي المحافل الدولية الاخرى سيظهر ان اسرائيل تمتعت دائما بتأييد كبير من دول القارة التي يبلغ عددها خمسا وعشرين دولة ·

وفي الوقت الراهن ، لا يكاد يخلو اي بلد في امريكا اللاتينية من العديد من المنظمـات الصهيونية ، والتي تشكل فروعا للمنظمات الاسرائيلية ، فمثلا هناك فروع لمنظمة النساء الصهيونية العالمية في ٢٢ بلدا ، وللمؤتمر اليهودي العالمي في اكثر من ١٩ بلدا ، ومنظمة « بناي بريت » تعمل في ٢٠ بلدا الخ · وفي الارجنتين ، التي تعد مركزا رئيسيا للنشاط الصهيوني ـ ومصدرا محتملا للهجرة الواسعة ـ هناك اكثر من ١٥ منظمة صهيونيـــــة وفروع للاحزاب الصهيونية المختلفة ، يقوم بالتنسيق بينها ما يدعى « باتحاد جمعيات بني اسرائيل الارجنتينيين ـ دايا ـ » والذي يضم اكثر من مائتي قسم، وتزيد موازنته السنوية ـ والمعفاة من الضرائب ـ على ٢ر٥ مليون دولار ·

وبالاضافة الى ذلك تصدر في امريكا اللاتينية اكثر من ١٣٠ صحيفة ومجلة صهيونية باللغات العبرية والاسبانية والانجليزية وغيرها ·

وعلى صعيد العلاقات السياسية ، فللكيان الصهيوني سفارات في معظم دول القارة ، كما زارها معظم القادة الصهاينة كبن ـ غوريون وغولده مئير ، وشازار ومناحيم بيغـــن وبغئال آلون ·

وربما كان من الضروري هنا الاشارة الى الجاليات العربية الواسعة ايضا والمنتشرة في كل بلدان القارة تقريبا والتي هي جاليات لبنانية وفلسطينية وسورية · وبالطبع ، ليس هنا مجال دراسة واقع هذه الجاليات لان ذلك يحتاج الى دراسة خاصة كانت وما تـــزال ضرورية وملحة · ولكننا نستطيع ان نقول ان هذه الجاليات تشكلت في معظمها ـ فـــي نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي ـ من سكان الارياف الذين نزحوا هربا من الظلم التركي او بسبب الضائقة الاقتصادية والخلافات الطائفية التي كانت تثيرها القـــوى الاستعمارية لتثبيت سيطرتهـا على الوطن العربي ·

ومن ناحية اخرى ، فان هذه الجاليات ، التي حملت معها الى اوطانها الجديدة ، كل رواسب التخلف والجهل ، ذات وضع اقتصادي متوسط او دون المتوسط ، حيث تتكون غالبيتهم من صغار التجار ، كما انها كانت تفتقر الى حد ادنى من التنظيم والرؤية السياسية الواضحة ، مما جعلها عاجزة عن ممارسة اي تأثير على سياسة البلدان التي استوطنتها · وطبعا لا يغير من هذا الوضع بعض الظواهر المعزولة والمتفرقة كوجود بعض النواب او الحكام والوزراء ، من اصل عربي في هذا البلد أو ذاك ·

وقد ساعد على هذا واقع الامة العربية في النصف الاول من هذا القرن ، حيث كان معظمها يخضع للسيطرة الاستعمارية ، وكذلك البعد الجغرافي لامريكا اللاتينية وضعف وسائل الاتصال في ذلك الوقت ، مما جعل ارتباط المغتربين العرب بوطنهم الام ضعيفا وعاطفيا ، كما حفزهم ـ على عكس اليهود ـ الى الاندماج في مجتمعاتهم الجديدة حيث حملوا اسماء جديدة وتزاوجوا واستقروا هناك ·

وفيما بعد ، اثر حصول الدول العربية على استقلالها ، ونتيجة للصراع العربي الصهيوني ولمعركة العرب التحررية ضد السيطرة الاستعمارية ، فقد بدأ المغتربون العرب يبدون اهتماما اكبر بقضايا وطنهم الاصلي · ولعل أهم الاسباب التي رفعت درجة الوعي لديهم كان تفجر الثورة الفلسطينية وتصاعد عملياتها ونشاطها منذ عام ١٩٦٥ وحتى الان· وقد ساعد على ذلك ايضا تطور وسائل السفر والاتصال ·

ورغم كل ذلك فقد بقي الموقف العربي ضعيفا في القارة ، نتيجة لضعف العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين البلاد العربية ودول امريكا اللاتينية ، ولغياب اي مخطط جاد لتنظيم المغتربين العرب والاستفادة منهم ، ما عدا بعض المحاولات السطحية والموسمية والتي لم تسفر عن اي شيء جدي · وعلى الصعيد الرسمي لم تبذل الدول العربية اي جهد يذكر لكسب هذه الكتلة البشرية الكبيرة ـ حوالي ٣٢٠ مليونا ـ ولا زال التمثيل الدبلوماسي ضئيلا او معدوما حيث ، على سبيل المثال ، لا يوجد في بلد مثل المكسيك ، يضم اكثر من (٧٠) مليونا من البشر سوى ثلاث سفارات عربية ومكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية ، في حين تكتظ اي دولة اوروبية ، قليلة الاهمية نسبيا بمثل هذه السفارات ·

ومن المؤكد ، دون الخوض في التفاصيل ، ان هناك تطورا ايجابيا برز في الفترة الاخيرة في العديد من دول القارة لصالح القضية العربية · كما ان العلاقات التي تبنيها الثورة الفلسطينية مع الاحزاب والحركات التقدمية والثورية هناك اصبحت عنصرا لا يمكن اغفاله ، ولعل العامل الحاسم في تغير الوضع في امريكا اللاتينية سيكون مرهونا بسقوط الدكتاتوريات الفاشية والعميلة للامبريالية الامريكية والتي تجثم على صدور شعوبها · ولكن ذلك لا يعفينا من ضرورة وضع مخطط عربي جاد لتنمية العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية مع دول امريكا اللاتينية ، وتنظيم الجاليات العربية ومحاربة النفوذ الصهيوني المتغلغل فيها ·

وقد كان من الطبيعي ، كما اسلفنا ،ان تجد اسرائيل مرتعا خصبا لنشاطها في امريكا اللاتينية · وما يهمنا التركيز عليه الآن ، هو ان اسرائيل بدأت تلعب دورا نشطا في مجال بيع السلاح لدول القارة ، مستغلة حاجة الدكتاتوريات الفاشية فيها لمقاومة الحركات الثورية المسلحة التي تندلع على ارضها ، ولاحكام سيطرتها على شعوبها ، وكذلك لمواجهة الحروب والنزاعات المحلية التي تندلع بين الحين والاخر ·

وقد تميز الوضع في أمريكا اللاتينية حتى الان بعدم وجود دولة كبيرة وقوية في المنطقة، تكون الاداة القمعية الرئيسية ، في يد الامبريالية الامريكية ، من حيث قدرتها على التدخل لحماية الانظمة الدكتاتورية العميلة ولحماية المصالح الامريكية ، مما جعل العبء يقع على الولايات المتحدة نفسها ، وعلى مخابراتها مباشرة للقيام بهذا الدور كما حدث في غواتيمالا ، والدومنيكان ، وكوبا وتشيلي ·· الخ ·

ونقول عدم وجود دولة كبيرة وقادرة ، نظرا لان الدول الكبيرة هناك ، والمرشحة لمثل الدور الذي كان يقوم به شاه ايران مثل البرازيل والارجنتين كان لديها دائما وحتى الان من المشاكل الداخلية ما يمنعها من القيام بذلك ·

وفي الفترة الاخيرة ، تحاول الولايات المتحدة ان تحسن صورتها أمام الرأي العام في أمريكا اللاتينية وذلك عن طريق تمويه حقيقة موقفها من الانظمة الفاشية والدكتاتورية في تشيلي ونيكاراغوا ، ومن خلال توقيعها لاتفاقية القناة مع حكومة بنما · لذلك فقد نظرت الى دور اسرائيل الجديد في أمريكا اللاتينية، كمورد رئيسي للاسلحة لها ، بكل العطف والرضا ، لانها تتصور ان ذلك سيرفع عنها تهمة المشاركة المباشرة في قمع حقوق الانسان التي تزعم انها تدافع عنها ·

أما بالنسبة لاسرائيل فعدا عن الفوائد الاقتصادية والسياسية التي تجنيها من لعب مثل هذا الدور ، فانها تنسجم مع نفسها في دعم الانظمة الفاشية والدكتاتورية في القارة اللاتينية لان طبيعة الكيان الصهيوني لا تختلف عن طبيعتها · ولعل من الضروري ان نتذكر ان اسرائيل كانت الدولة الثانية (بعد امريكا) التي اعترفت بنظام بنوشيت العميل في تشيلي · وفي الحفل الذي اقيم مؤخرا لتقليد السفير الصهيوني وساما بمناسبة انتهاء فترة عمله ، اشار وزير خارجية تشيلي الى ان « العلاقات التشيلية ـ الاسرائيلية مليئة بالمثل العليا والخبرات المشتركة » !!

ومن ناحية اخرى ، فقد استفادت اسرائيل من عاملين آخرين : اولهما هو ما تدعيه عن وجود خبرة لديها في مقاومة الثورات المسلحة ـ وقد جربت ذلك في فيتنام ! ـ ، وهو ما تحتاجه بالضبط العديد من الدكتاتوريات الدموية في امريكا اللاتينية ، وثانيهما صغر حجم اكثرها ـ ونشير بشكل خاص الى دول امريكا الوسطى ـ وضآلة احتياجاتها من الاسلحة نسبيا ، مما يجعل اسرائيل قادرة على تلبية كافة متطلباتها ·

والمعلومات التي يتضمنها هذا التقرير ، عن مبيعات السلاح الاسرائيلي لدول امريكا اللاتينية رغم انها ليست كاملة تماما ، نظرا للسرية التي يحاط بها الموضوع ، الا أنها تدل دلالة واضحة على خطورة الامر وعلى ضرورة فضحه والتصدي له ، لانه يمثل حلقة جديدة في المؤامرة الامبريالية ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية وشعوب امريكا اللاتينية ، وفيما يلي ما توفر لدينا من معلومات حول هذا الموضوع :

١ ـ الارجنتين

نشرت جريدة « البلاد » الصادرة في مدينة « مونتيفيديو » عاصمة الارغواي ، والصادرة بتاريخ ١٩٧٧/٣/١٣ تقريرا لمؤسسة رسمية سويدية ، هي « المؤسسة الدولية للابحاث من اجل السلام » جاء فيه ان البحرية الارجنتينية قد ابتاعت عددا غير محدد من

الصواريخ الاسرائيلية بحر ـ بحر قيمة كل صاروخ منهـــا (٩٠) تسعون الف دولار ، لتركيبها على زوارق سريعة ٠

٢ ـ بوليفيا

نشرت صحيفة « التجارة » الصادرة في البيرو في ٧٧/٣/١٠ خبـــرا قالت فيـه ان بوليفيا اشترت عددا من الطائرات الاسرائيلية الصنع ، ماركة (عارافا ٢٠١) تستعمل بشكل خاص لنقل الجنود ٠ وذكرت صحيفة « البلاد » السابق ذكرها ان عدد هذه الطائرات هو (٦) ستة وان بوليفيا حصلت عليها في عام ١٩٧٦ ٠

٣ ـ شيلي

ذكرت مجلة « نيوز ويك » ان التشيلي اشترت في اكتوبر ١٩٧٦ م صواريخ اسرائيلية جو ـ جو ماركة (شافيرا) ٠ وهناك معلومات تشير الى ان التشيلي التي تربطها الان علاقات ممتازة باسرائيل قد ابتاعت اسلحة اسرائيلية متعددة الا انها حافظت على سريـة هذه العمليـــات ٠

٤ ـ غواتيمالا

اشترت غواتيمالا من اسرائيل اسلحة تقدر قيمتها بـ (١٨) مليون دولار كما اصبحـت اسرائيل حاليا المورد الرئيسي للاسلحة لهذا البلد خصوصا بعد ان اوقفت امريكا مبيعاتها لهم بسبب خلافها مع انجلترا حول مستعمرة Belice) التي تطالب بها غواتيمالا٠ وقد جاء في تصريح لرئيس الدولة في ٢٢ (مارس) الماضي ان حكومته لن تشتري اسلحـــة من امريكا وانها تخلت عن المساعدات العسكرية الامريكية بسبب انتقاد الولايات المتحدة للنظام هناك لخرقه حقوق الانسان ، واكد ان غواتيمالا تعتمد الان على نفسها لشـــراء مستلزماتها من السلاح من خارج الولايات المتحدة ٠ وتشير المعلومات الى ان غواتيمالا قد حصلت فيما بعد على اسلحة اسرائيلية تتكون من المدافع والرشاشات الخفيفة والطائرات وغيرهـــا ٠

٥ ـ نيكاراغوا

باعت اسرائيل لهذا البلد في عام ١٩٧٣ (١٤) طـائرة من طراز (عارافا ٢٠١) وقد نشرت هذا الخبر وكالة الاسوشيتدبرس مـــن نيويورك كمـــا اكدته جريدة صادرة في اورغواي في ١٩٧٧/٣/١٣ وتدل المعلومات على ان مبيعات السلاح الاسرائيلي لهذا البلد قد استمرت فيما بعد ، وخصوصا منذ اندلاع الثورة الشعبية المسلحة ضد الدكتاتـــور سومـــوزا ٠

٦ ـ هنـدوراس

باعت اسرائيل لهذا البلد مؤخرا ست طائرات مقاتلة (سوبر مستير) مع اسلحة اخرى بلغت قيمتها حوالي ستين مليون دولار ٠ وهناك محادثات تجري حاليا لبيعها عددا مماثـلا

من هذه الطائرات · ومن المعروف ان هذه الطائـــرة هي فرنسية الاصل ولكن اسرائيل زودتها بمدافع امريكية ·

٧ ـ المكسيك

اصبح معروفا الان ان اسرائيل قد اقامت في المكسيك مصنعا لطائراتها من طـــراز « عرافا » وانها اشترت ، اي المكسيك ، عددا من هذه الطائرات لتزويد جيشها بها · وقـــد اكد الرئيس المكسيكي الجديد هذا الامر لعدد من الصحفيين الاسرائيليين الذين زاروه مؤخرا · كما اكده رئيس العلاقات الخارجية لصناعة الطائرات الاسرائيلية حيث قال « ان عملية اقامة صناعة الطائرات في المكسيك تسير سيرا حسنا وستتحول منطقـــة « يوكاتان » الى مركز اقليمي لاصلاح · الطائرات التجارية والعسكرية · واكد انه سيكون هنا في مدينة المكسيك نفسها مصنع لطائرات (عرافا) » ·

وقد اقامت اسرائيل في شهر ابريل الماضي معرضا في المكسيك لصناعاتها العسكرية عرضت فيه زوارق من طراز (دابور) وصواريخ بحر ـ بحر من طراز (جبريل) ·

٨ ـ السلفادور

تشير تقارير المعهد السويدي السابق ذكره الى ان السلفادور كانت المشتري الرئيســي للاسلحة الاسرائيلية · فقد حصلت في عام ١٩٧٣ على ٤٦ طائرة · وما بين ٧٣ ـ ٧٦ فقد باعت اسرائيل الى السلفادور عددا غير معروف من الصواريخ البحرية والجوية وكذلك (٢٠٠) مدفع طويل المدى ومدافع مورتر قاذفة وناقلات جنود ·

وتشير المعلومات الى ان الطائرات الاسرائيلية التي اشترتها السلفادور هي (١٨) ـ طائرة قديمة ولكنها حسنت في اسرائيل ، وست طائرات تدريب من طراز « مستير » ، وعشرين طائرة من طراز (عرافا ٢٠١) · وقد اكدت صحيفة (الحرية) التي تصدر في « كوستاريكا » ان مبيعات اسرائيل للسلفادور قد بلغت اكثر من (٦٠) مليون دولار ·

٩ ـ الاكوادور

تشير المعلومات الى ان الاكوادور واسرائيل قد بدأتا محادثاتهما لتمتين العلاقات بينهما منذ عام ١٩٧٤ · وقد قام وفد من رجال البوليس في الاكوادور بزيارة الى اسرائيـــل في ١٩٧٤/٧/٢٢ م · وفي شهر فبراير من العام ١٩٧٧ عقدت الحكومة الاكوادورية اتفاقا مع اسرائيل لشراء اربع وعشرين طائرة من طراز « كفير » ولكن اعتراض امريكـــا على الصفقة اوقفها مؤقتا ·

١٠ ـ الدومينيكان

ليس هناك معلومات مؤكدة عن قيام هذا البلد بشراء اسلحة اسرائيلية الا ان النشاط الاقتصادي الاسرائيلي هناك مهم جدا ، كما ان هناك ظواهر تدل على وجود علاقة لبيـــع الاسلحة · ففي ١٥ (ديسمبر) ١٩٧٦ اقامت اسرائيل عرضا لطائراتها « عرافا ٢٠١ » في

الدومينيكان بحضور نائب رئيس الجمهورية وضباط الجيش وسفير اسرائيل وممثـــــل صناعـة الطائرات الاسرائيلية · كما ان هناك معلومات تـدل علىان هذا البلد يستعمل عربات مدرعة مجهزة برشاشات عيار (٣٠ ـ ٥٠) ومدافع ١٠٥ مم شبيهة بتلك المستعملة في القوات المسلحة لاسرائيل ·

١١ ـ هايتـي

ليست هناك معلومات مؤكدة حول بيع اسلحة اسرائيلية لهذا البلد حتى الان ، الا ان النشاط الاقتصادي الاسرائيلي فيها واسع جدا ، حيث يسيطر الاسرائيليون على مناجـم الحديد والنحاس سيطرة كاملة كما يسيطرون على مناطق شاسعة لزراعة القهوة والرز كما يتمتعون بالحرية الكاملة وبنفوذ واسع في العمل الصحفي والاعلامي ·

واخيرا هناك معلومات متزايدة عن تصاعد النشاط الاسرائيلي في الاوروغواي ، وفي مناطق اخرى من القارة لا بد من رصدها وتسليط الاضواء عليهـا ·

عصام كامـل

L'Iran contre Le chah - Ahmad Faroughy et jean - Loup Reverier (Editions Jean - Claud Sinoéu Paris 1979) .

في بلد مثل ايران ، حيث كانت الحياة الديمقراطية ملغاة ايام الشاه ، اتخذت الحركة الجماهيرية عدة اشكال في التعبير عن نفسها · فلم تكن المظاهرات الضخمة التي عرفتها المدن الايرانية في النصف الثاني من عام ١٩٧٨ سوى الوجه الابرز الذي جاء بعد حقبة طويلة من الاضرابات والكفاح المسلح · ان الحركة الجماهيرية الواسعة ضد الشاه تمتد بعيدا في تاريخ ايران ولم تكن سنة ١٩٧٨ سوى نقطة التقاء اشكال النضال تلك التي نجحت في عزل وخلخلة سلطة ال بهلوي التي كانت معظم القوى الخارجية تلتقي على دعمها· وقد برز في خضم هذه الحركة دور رجال الدين ، بقيادة اية الله الخميني ، الذين اظهروا انهم القوة الرئيسية في التصدي لسلطة الشاه والقادرة على ابتكار اشكال من التعبئة الجماهيرية المستمدة من التراث الديني الاسلامي تحت شعار بناء الدولة الاسلامية ، وهو ما طرح على الفكر السياسي العربي اكثر من تساؤل واثار جدلا وان تفاوت في مواقف الاطراف من الثورة الايرانية ، فقد بقي يعوزه وضوح المعطيات التي مهدت لهذه الثورة وطبيعة القوى الفاعلة فيها ·

وهذا الكتاب الذي صدر قبيل انتصار الثورة الايرانية، يلقي ضوءا على مقدمات هذه الثورة وهو احد الكتب القلائل التي صدرت عن ايران هذه السنة ، شارك في كتابته سينمائي وصحفي ايراني ·

عقدة سيروس

يبدأ تاريخ ايران الحديث بالنسبة للايرانيين فجر ١٩ اب ١٩٥٣ حين قام الجنرال زاهدي (١) بقلب حكومة محمد مصدق · وهكذا انطفأ الامل الذي عقده الشعب الايراني على الحكومة الوطنية التي دامت ٢٧ شهرا وسحقت في بحر من الدم وبلغت تكاليف سحقها ١٠ ملايين دولار لوكالة الاستخبارات الاميركية و ٥٠٠٠ قتيل للشعب الايراني وحركة قمع واعتقالات لم تعرف ايران لها مثيلا · وهكذا عاد شاه ايران من ايطاليا ليتسلم السلطة · ولا يمكن فهم سياسة التعمية التي مارسها الغرب باعطاء صورة مشوهة عن ايران الا بالعودة الى تاريخ ايران · فايران ، كالصين ، هي احدى الدول العريقة التكون التي لم تتعرض ـ مثلها مثل اليابان ـ للاحتلال الاوروبي المباشر في القرن التاسع عشر · فالدولة الايرانية في حدودها الحالية لم تكن صنيعة القوى الاستعمارية · فالنظام الامبراطوري الذي جدد الانكليز والاميركان جهازه القمعي هو حصيلة صراع امتد ٢٥٠٠ سنة بين الدولة والشعب تجسد حديثا في الملكية المطلقة ·

ان ايران التي تساوي مساحتها ضعف مساحة العراق وسوريا والاردن ولبنان

(١) جمع الجنرال زاهدي ثروة ضخمة خلال الحرب العالمية الثانية بتعاونه مع النازيين ·

معا هي اكثر بلـــدان الشرق الاوسط اتساعا بعد السعودية · وسكانها البالـغ عددهم ٣٥ مليونا (١٩٧٨) هم الوحيدون الذين لا يتحدرون في المنطقة من اصـل سامي بل من اصل هندو ـ اوروبي ·

في الالف الثاني قبل الميلاد قامـت هجرة هندو ـ اوروبية من سهول روسيا نحو الاناضول (امبراطورية الحثيين) ونمو المنطقة الممتدة بين بحر قزويـن والخليج العربي ، حيث عرفت هذه المنطقة نظام ري جوفي (قنوات) متطور ساهم في تنوع اسباب المعاش والسكان اذ تنوع السكان بين بدو وحضر وفلاحيـن ورعـاة ·

فيالالف الاول قبل المسيح قامت هجرة هندو ـ اوروبية ثانية نحو اوروبا واسيا الصغرى واستقر قسم من هؤلاء الآريين او الايرانيين في ايران موزعين على قبيلتين: الميد ، في الشمال والغرب وعاصمتـهم حمدان الحالية · والفرس فـي الجنـوب والشرق وعاصمتهم قرب شيراز الحالية · وبعد حرب طويلة ودامية انتصروا علـى امبراطوريـة اشور السامية واسسـوا مملكتهم بقيادة سيروس الكبير رأس سلالة الاشمينيديين واصبـح سيروس (٥٥٠ ق·م) اول « ملك للملوك » ومؤسس اول دولة موحدة في ايران قائمة علـى امبراطورية ممركزة ، عسكرية وذات سلطة ملكية مطلقة يحاول محمد رضى بهلـوي ان يكون امتدادها المعاصر ·

وبدون الدخول في تفاصيل الصراعات التي توالت على ايران خلال ١٢ قرنا حتى مجيء الاسلام ، يمكن تقسيم هذه الحقبة الى خمس مراحل : الاشيمينيديون (٥٥٠ ـ ٣٣٠ ق·م) الاسكندر الكبير (٣٣٠ ـ ٣٢٣ ق·م) ، السلاجقـة (٣٠١ ـ ١٤١ ق·م) البارت (١٤١ ق·م ـ ٢٢٦) الساسانيون (٢٢٦ ـ ٦٥١) ·

ومع الفتح الاسلامي تبدأ مرحلة جديدة تمتد نحو ١٣ قرنا · واذ اندمجت ايران في الامبراطورية الاسلاميـة وارتبطت بالخلافة الى ان نكبت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالغزو المغولي الـذي اعاقها اربعة قرون عن استعادة قوتهـا واستقلالها (بعد الغزوات المَنغوليـة والتركية والافغانية) في القرن السادس عشر تحت لواء السلالة الصفوية وبقيادة الشاه عباس الكبير معاصر لويس الرابع عشر · وانهارت هذه السلالة سنـة ١٧٢٢ امام الغزو الافغاني الذي اغـرق ايران في الرعب · وعام ١٧٩٦ نجح آغـا محمد خان ـ زعيم قبيلة القاجار التركية ـ في تتويج نفسه في طهران ·وهكذا حكمت سلالة القاجار ايران حتى ١٩٢٥ حيـن انتزع رضى بهلوي السلطة منها بمساعدة الانكليز ·

وقد حاول القاجار ، للحفاظ علـى وضعهم ، الاستفادة من التناقض القائم بين مصالح كل من بريطانيا وروسيا ،وهم اذ نجحوا في تحييد هاتين القوتين وانقاذ ايران من الاحتلال في القرن التاسع عشر ، فقد دفعوا ثمن ذلك غاليا بالتنازلات التـي قدموها للطرفين خاصة في مجال امتيازات التنقيب عن النفط حيث استولى الانكليز منذ ١٩١٢ على ٥١٪ من اسهم شركـة النفط الانكلو ـ ايرانية · وحصل الروس سنة ١٨٧٩ على حق تكوين كتيبة القوزاق الخاضعة نظريا للشاه وعمليا لسفيـر روسيا في طهران ·

ولكن التدخل الاجنبي ادى سنة ١٩٠٥ الى خلق حركة اصلاح ضمت المثقفيـن المتأثرين بالغرب والقبائل ورجال الديـن وتصدت لاستبداد سلالة القاجار واسفرت عن ثورة دستورية انصاع لهـا الشاه ، وولد بذلك دستور ١٩٠٦ المستوحى مـن دستور بلجيكا لعام ١٨٣١ وتـم معـه اول انتخاب عرفته البلاد ، ادى الى انشـاء

مجلس نيابي من ١٣٣ عضوا · وجاء الرد الانكليزي الروسي مباشرة سنة ١٩٠٧ فقسما ايران الى منطقتي نفوذ بينهما : الشمال لروسيا والجنوب لانكلترا وقصفت كتيبة القوزاق المجلس وتنازل محمد علي شاه عن العرش لصالح ابنه سلطان أحمد ـ آخر حكام القاجار ـ واعيدت الحياة الديمقراطية البرلمانية ولكن ما لبثت الحرب العالمية ان قلبت الموازين ·

فبعد الحرب العالمية الاولى وانكفاء روسيا البولشفية على نفسها ، تنامي دور انكلترا في ايران مع تنامي مصالحها البترولية محاولة توقيع اتفاق ١٩١٩ الذي اعترض عليه المجلس · حينذ اتجه الانكليز نحو التخلص من سلطان احمد شاه واستبداله بسلطة عسكرية تحت امرتهم ووقع اختيارهم على رضى بهلوي، قائد كتيبة القوزاق ، الذي قلب سلالة القاجار عام ١٩٢١ ونصب نفسه شاهاعام ١٩٢٦ · واسم بهلوي الذي اختاره يشير الى اللغة والكتابة السائدة في عهد السلالة الساسانية قبل دخول ايران في الاسلام ، ولهذا دلالته بالنسبة لشيعة ايران ·وبذلك بدا عهد الديكتاتورية العسكرية في ايران· ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، حاول رضى شاه التخلص من الوصايةالانكليزية بالتحالف مع هتلر ، مما حمل الانكليز والروس على احتلال ايران عام ١٩٤١ ونفي رضي شاه الى افريقيا الجنوبية حيث توفي عام ١٩٤٤ · وخلفه ابنة محمد رضى بدعم من بريطانيا ، واعاد الحياة الديمقراطية الى البلاد ·

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية شجع السوفيات قيام « جمهورية اذربيجان الديمقراطية » في تبرير عام ١٩٤٥ ، وقامت في سياقها جمهورية كردية مستقلة عاصمتها مهاباد ، ولكن هذه التجارب انكفأت حين اجبرت الولايات المتحدة الاتحاد السوفياتي على الجلاء عن ايران عام ١٩٤٦ ·

ونتيجة لازمة ١٩٥٠ الاقتصادية الخانقة والحاح الحكومة الايرانية لدى الانكليز على اعادة النظر بالاتفاقات البترولية المعقودة معهم ، اجتمعت الاحزاب التقدمية في جبهة وطنية استطاعت ان توصل محمد مصدق الى ترؤس الحكومة في نيسان ١٩٥١ وهو من سلالة القاجار لجهة والدته · وكان اول قرار اتخذه ، رغم معارضة الشاه ، هو تأميم الصناعة البترولية واستبدال الشركة البترولية الانكلو ـ ايرانية بشركة وطنية وطرد البريطانيين من البلاد · واستعان الانكليز بالاميركيين الذين رأوا الفرصة مناسبة للتغلغل في ايران التي كانت حكرا على النفوذ الانكليزي ، في حين بقي الاتحاد السوفياتي متحفظا تجاه مصدق ، لان التأميم يضرب طموحاته في المناطق الشمالية من ايران ، لذلك لم يلق مصدق الدعم من حزب تودة الشيوعي الموالي لموسكو · وحين قرر الانكلو ـ اميركيون مقاطعة البترول الايراني ، توجه مصدق نحو موسكو لاسترداد الذهب الايراني المودع لديها ، فرفضت ، ومع ذلك صمدت تجربة مصدق بفضل الدعم الشعبي الى ان قرر الاميركيون اللجوء الى القوة ، ونفذوا حركة الانقلاب بواسطة الجنرال زاهدي في آب ١٩٥٣ كما رأينا سابقا ·

ان المقاومة الشعبية ضد النظام لم تتوقف يوما منذ انقلاب ١٩٥٣ · فالشاه الذي اعادته وكالة الاستخبارات الاميركية الى العرش بعد ان طردته الارادة الشعبية وجد نفسه محروما من الدعائم التقليدية الثلاث التي بغيابها كان دائما ملوك ايران لا يحكمون الا بدعم خارجي : موافقة الاسلام الشيعي ، الاجماع السياسي ، وولاء القبائل ·

ان العقيدة الشيعية تفترض مبدأ العدل (الامامة) · وبذلك فالشيعي ملزم حسب عقيدته بالثورة على الحكم الجائر · من هنا كانت حركات المعارضة ضد سلالة القاجار بقيادة رجال الدين · فعندما منحت الحكومة الايرانية عام ١٨٩٠ الانكليز رخصة احتكار الدخان ، تصدى لها اية الله شيرازي واجبرها على التراجع · كذلك فاننا نجد رجال الدين على رأس ثورة ١٩٠٥ الدستورية ولكنهم انقسموا بين تقليديين (مع الشريعة الاسلامية) تحالفوا مع الشاه ودستوريين تحالفوا مع الليبراليين وزعماء القبائل والبورجوازية الصغيرة المدينية · وفي الصراع بين مصدق والشاه وقف رجال الدين مع مصدق (باستثناء آية الله كاشاني الذي فقد اي تأثير في حين ازداد نفوذ اية الله الخميني حين وقف جذريا ضد النظام وبدءا من عام ١٩٦١ مما ادى الى نفيه عام ١٩٦٣)· وكذلك وقفت المعارضة السياسية ضد اجراءات النظام القمعية ·· بالاضافة الى خروج القبائل على شرعية النظام · من هنا عزلة نظام الشاه ولجوئه الى الدعم الخارجي ·

بداية الجوع او جذور الاصلاح الزراعي

لقد كانت القوة المسيطرة في ايران (انكلترا) حتى مصدق تهتم فقط بالمواد الاولية كالبترول وبيع انواع من السلع البريطانية للطبقة الحاكمة · ولكن الامر اختلف مع الولايات المتحدة التي بدأت تحل في ايران محل بريطانية منذ ١٩٥٣ · ففي عام ١٩٦١ بدأت ادارة كينيدي تضغط على معظم بلدان العالم الثالث لاحداث اصلاحات زراعية تسمح بتوسيع السوق التي تحتاجها السلع الاميركية ففي بداية الستينات كانت النشاطات الزراعية تمثل ٥٥٪ من السكان العاملين · و ٧٠٪ من الايرانيين كانوا يعيشون في مناطق زراعية · وكان المجتمع الايراني اقطاعيا بشكل يختلف عن الغرب ، وكانت بعض العائلات الكبيرة تملك نصف الاراضي المزروعة · وكان اكثر من نصف سكان الريف لا يملكون ارضا · وقد بادر الشاه بعد قلب مصدق الى الغاء الاصلاحات الزراعية التي حاول هذا الاخير اجراءها·

القبائل ضحية الاصلاح الزراعي

تشكل القبيلة في ايران وحدة سياسية اقتصادية اجتماعية وثقافية · وقد لعبت القبائل تاريخيا دورا مهما في تكون ايران فكل امبراطور كان يتحدر من قبيلة او اكثر · وكان تغير التحالفات بين القبائل هو الذي يرفع او يزيل الاباطرة · اما سلالة بهلوي التي استندت الى انقلابين بدعم خارجي بمعزل عن القبائل فقد خرجت عن تقليد ايران السياسي وحاولت احلال الجيش الحديث مكان القبائل المقاتلة التي اخذ وزنها السياسي على الدولة يخف مما ادى الى سلسلة من التمردات والانتفاضات خاصة في الستينات لذلك بقيت المسألة القبلية في ظل الشاه بدون حل ، وقد جاء الاصلاح الزراعي في محاولته تحضير القبائل ليؤزم وضعهم اكثر اذ ادى الى اقتلاعهم من حياتهم القبلية دون ان يؤمن لهم البنى البديلة ـ ان في الريف الزراعي او في المدن ـ القادرة على استيعابهم ، اذ كانت سياسة الرسملة الزراعية المعتمدة بشكلها الحديث تفيد الفئات الاجتماعية القريبة من السلطة او من الاحتكارات الزراعية الاميركية · تنقسم القبائل الايرانية الى خمس قبائل اساسية : الاكراد في مرتفعات زغروس في الغرب وفي الشمال الغربي (حوالي المليون) وهم يتكلمون لهجة ايرانية ويطالبون بالاستقلال · التركمان في منطقة غورغان قرب بحر قزوين · البختيار في منطقة اصفهان ، القشقايس في الوسط الجنوبي (فارس) يعدون حوالي الـ ٢٠٠

الف ويتكلمون لهجة تركية ، البالوتش في المنطقة الحدودية مع باكستان · يشكل مجموع القبائل الايرانية حوالي ثلاثة ملايين نسمة · ان شكل التبادل السائد بينها هو المقايضة · لذلك شكل البازار تاريخيا نقطة اللقاء بين عالمين : الريفي والقبلي · وبرزت الجوامع الى جانب البازارات ·

امل الفلاحين الضائع : كان الفلاحون يخضعون للعائلات الاقطاعية « الالف عائلة » · الذين يملكون الاراضي ويقدمون للفلاحين الارض ، والمياه ، والاسمدة ، والسلفات ويقدم الفلاح الحيوانات وعمله، ويتقاضى الاقطاعي ٦٠٪ من الانتاج في حين يتولى رجل الدين مسألة توزيع المياه بالتساوي · وحين اعلنت حكومة علي اميني الاصلاح الزراعي وتوزيع الاراضي على الفلاحين بدأ التحرك الفلاحي يتنظم، وخوفا من ان يكسب هذا التحرك وزنا سياسيا بادر الشاه « باحداث ثورة من فوق خوفا من ان تحدث من تحت » وبذلك دعيت « بالثورة البيضاء » ، و « ثورة الملك والشعب » · وبذلك اجهضت الحركة الفلاحية · وبدل ان تفتح هذه « الثورة » الباب نحو نشوء دولة بورجوازية بالغاء الاقطاع، ادت الى مركزة الاقطاع وجعلت من الشاه الاقطاعي الاقوى · في حين اقتصر توزيع الاراضي على قسم من الفلاحين اذ بقي ٣٥٪ من الفلاحين بدون اراضي و ٤٠٪ منهم اصبحوا يملكون بين ١ و ٢ هكتار · تجاه هذا الوضع نمت الدولة وحدات استثمار : تعاونيات انتاجية شركات زراعية مقفلة ، وشركات تصنيع زراعية ادت الى ربط الفلاحين بديون باهظة. وتحريرهم من الاقطاع ادى الى ربطهم بالبؤس والى حركة هجرة فلاحية مكثفة نحوالمدن · وقد كانت حصيلة هذا الاصلاح الزراعي فشل ذريع في محاولة الشاه تقليد الغرب بفرض وسائل «حديثة» على القطاعات التقليدية التي تفككت دون ان تستوعب في بنى بديلة مما ادى الى تكثيف التصنيع والتنمية بالزراعة ·

بلد في طريقه نحو التخلف

« سنجعل من ايران احدى القوى الصناعيةالخمس الاولى قبل نهاية القرن » ·

كان هذا شعار الشاه وكان البترول يشكل قاعدته المادية (ارتفع دخلهالبترولي بعد ١٩٧٣ من ٥ الى ٢٠ مليار دولار سنويا) · وارتفعت ارصدة الخطة الخمسية عام ١٩٧٤ الى ٧٠ مليار دولار· مما اسال لعاب الشركات الاجنبية ودفعها نحو ايران ·

اعادة تحويل البترو ـ دولار : بدل ان يؤدي تضخم الثروة البترولية الى تنمية داخلية ، ادى الى تقوية تبعية ايران تجاه الغرب الرأسمالي · وهذا ما تؤكده دراسات الخبيرات (بني صدر وبول فييل)· ويمكن اختصار هذه الدوامة بما يلي :

زيادة صادرات البترول تؤدي الى تضخم نقدي · وزيادة الطلب الداخلي تؤدي الى زيادة صادرات البترول والثروات الطبيعية الاخرى · وخوفا من خطر انتهاء الاحتياط البترولي ، اتجه الشاه نحو تصنيع سريع باموال النفط يجعل من ايران يابان الشرق الاوسط ·· ولكن عدم توفر شروط مساعدة في ايران حول انظار الشركات المتعددة الجنسيات عن ان تجعل من ايران قاعدة لتغلغلها في الشرق الاوسط ، واكتفت بجعلها اخر حلقة فيعملية انتاجها ، اي حلقة تمويلية باستثناء الصناعة البتروكيميائية · وهذا ما جعل من ايران حلقة تابعة للشركات المتعددة الجنسيات وكانت الوسيلة الانجع لهكذا وضع تتمثل في خطط التنمية التي انطلقت من دور الدولة الاقتصادي في خلق

قطاعات حديثة تستدعي استيراد الكفاءات الاجنبية وخراب القطاعات الصغيرة المحلية بسبب سياسة الاستيراد الموسعة كما ادى كل ذلك الى اخلال فاضح في التوازن الديمغرافي للبلد · اذ لا يكفي لبناء قوة صناعية لجوء الدولة الى الشركات الاجنبية لبناء المصانع ، بل يتطلب معرفة تشغيلها بالكفاءات المحلية ، وهذا ما يلقي ضوءا على افلاس الثقافة البهلوية المغربة والمعادية لتقاليد بلد يشكو في غالبيته من الامية ويشعر بالغربة الثقافية عن اوساط النخبة الدينية المتعلقة باهداب الحضارة الغربية ومظاهرها الجوفاء · وفي هذا الوضع بقي البازار محافظا على دوره في المدن الايرانية وبقي يمثل عصب النشاط التجاري · ولا يفسر دوره الوطني المعادي للشاه والذي برز خلال احداث عام ١٩٧٨ الا عبر تعلق تجار البازار بالتقاليد الشيعية من جهة وتناقضهم في عهد الشاه مع غرف التجارة التي تتحكم بها السافاك وكبار التجار المقربين من السلطة ، حيث تسود الرشوة ويعم التزلف والفساد على اعلى المستويات وصولا الى عائلة بهلوي التي تشكل قوة اقتصادية لا تضاهي والى الشاه شخصيا الذي يملك ثروات لا تقدر ·

تجاه هذا الوضع يتساءل الجاهل بوضع ايران عن سبب سكوت الشعب الايراني كل هذه الفترة وانفجار نقمته فجأة عام ١٩٧٨ · من المفيد في هذه المناسبة التنويه بقصة متداولة في الاوساط الشعبية حدثت في افغانستان المجاورة لايران · يروي ان كلبا فارسيا قويا دخل الى افغانستان ، فتحلقت حوله كلاب افغانية حالتها يرثى لها وتساءلوا عن سبب مجيئه الى بلدهم التعيس فاجابهم الكلب الفارسي : « لقد قصدت بلدكم لكي اتمكن من النباح » · ولكن الشعب الايراني لم يفعل مثل كلب القصة ، رغم ان بعضا من ابنائه قد نفي مدة ربع قرن ، ولكن الشعب انتهى به الامر ان ثار ولو متأخرا ولتأخر ثورته سبب جوهري يكمن في الوسائل القمعية التي كان يملكها الشاه·

جيش من صنع الولايات المتحدة الاميركية

اذا كان انخراط الاقتصاد الايراني في السوق العالمي اصبح امرا واقعا ،فذلك لم يتحقق الا بفضل ارتباط النظام البهلوي بالامكانيات العسكرية الاميركية · اذ ان تدمير جهاز الانتاج غير البترولي تدميرا منهجيا ، والحاق مصادر البلد بالبترو ـ دولار ، واعادة تحويل البترو ـ دولار الى الاقتصاد الاميركي عبر عملية الاستيراد ، كل ذلك لم يكن ليتحقق الا بشرط ان تتمسك الولايات المتحدة مباشرة بالسلطة السياسية الايرانية ـ من اجل ذلك فقد خلقت جهاز رقابة على كل المستويات اذ كان المقصود بعد سقوط مصدق ، ليس فقط السيطرة على الشاه بل بسط شبكة سلطتها لتشمل كل نشاطات البلد وربط هذه الشبكة باستراتيجية الولايات المتحدة السياسية · وقد اختير جيش الشاه لهذه المهمة ·

تكاليف التسليح الاميركي : عامل تبعية : تؤكد تقارير الكونغرس الاميركي ان الشاه اشترى اسلحة اميركية بخمسة مليارات دولار من ١٩٥٣ الى ١٩٧٣ · وقد ازداد التسليح الاميركي بعد ١٩٧٥ لسببين : الاول اقتصادي ، ذلك ان الشاه الذي اخذ يدفع مسبقا ثمن الاسلحة ، قد اخذ يشكل مساعدة لا تضاهى للصناعة العسكرية الاميركية نفسها · والثاني : مبدأ نيكسون الموضوع سنة ١٩٦٩والقاضي بتقوية حلفاء الولايات المتحدة لكي يتصدوا بقواهم الذاتية للمد الشيوعي والاستغناء عن التدخل الاميركي المباشر خاصة بعد

تجربة فيتنام · وتطور دور الشاه في المنطقة من «حامي ايران» من المد الشيوعي الى « حارس الخليج الفارسي » والبترول العربي في الشرق الاوسط · وانطلاقا من عام ١٩٧٤ اصبح الشاه يشتري اكثر من ٣٥٪ من صادرات الصناعة العسكرية الاميركية · وتبلغ ميزانية الجيش الايراني عام ١٩٧٥ ١٠ مليارات دولار · وهذا ما جعل الجيش الايراني يحتكر مراقبة توجه البلد الاقتصادي في مختلف قطاعاته · وهدف الولايات المتحدة ليس ان تجعل من الجيش الايراني القوة الوحيدة في البلد بل ان تمسك بهذه القوة بشكل دائم ، من هنا جعلت هذا الجيش مرتبطا بها عضويا خاصة من الناحية الاقتصادية ، والتقنية ·

طبيعة الاسلحة الاميركية : عامل انخراط عسكري

اذا كان انفاق هذه الرساميل الضخمة في شراء الاسلحة يضاعف تغريب الاقتصاد الايراني ، فانه يؤدي الى نفس النتيجة بالنسبة للجهاز العسكري نظرا لطبيعة الاسلحة الاميركية التي تبيعها اميركا للشاه · « لان الولايات المتحدة اصبحت المسلح الوحيد للجيش الايراني ، فقد ادى ذلك الى نتيجتين : تبعية هذا الجيش وارتباطه بالتقنية والتجهيزات الاميركية بشكل سافر · وطبيعة التسلح المتقدمة تقنيا والتي تستوجب وجود خبراء اميركيين دائمين في ايران يتعدى دورهم الاطار التقني ·

الخبراء العسكريون الاميركيون : عامل رقابة : ان ايران هو البلد الذي يتواجد فيه اكبر عدد من الاميركيين الذين يعملون لحساب حكومة اجنبية : ٢٤ الف حسب تقديرات عام ١٩٧٦ للمقيمين في ايران فقط حيث لا يخضعون للقانون الايراني وليسوا مسؤولين لا امام الجيش الايراني ولا امام الدولة الايرانية بناء « لقانون الامتيازات ، لعام ١٩٦٣ الذي وقف ضده آية الله الخميني والوطنيون الايرانيون ·

عيون واذان الشاه

اذا كان الجيش يشكل القوة الضاربة لاي تحرك عسكري مناوىء لسلطة الدولة في الداخل ، فان السافاك هي المتمم لدور الجيش على صعيد التكتلات السياسية المعارضة للنظام وللحياة اليومية في البلد وهي تشكل القوة الرئيسية في ايران · انها في الحقيقة دولة داخل الدولة ·ولدت هذه المنظمة عام ١٩٥٧ وارتبطت مباشرة بالشاه من جهة وبوكالة الاستخبارات الاميركية من جهة اخرى حيث يتلقى ضباط المنظمة دورسهم في مركز المارينز في فرجينيا للتخصص في الاساليب المضادة للعمل الفدائي وفي الاساليب المتممة للعمل المخابراتي · بالاضافة الى البعثات التي ترسل الى اسرائيل بالتنسيق مع الموساد · وقد لعبا معا دورا مهما ضد عبد الناصر خاصة في حرب اليمن وقاما بعمليات مشتركة في لبنان وسوريا والعراق والاردن الذي اصبح في الستينات مركزا لعمليات السافاك في الشرق الاوسط· تضطلع السافاك ، بالاضافة الى دورها في قمع المجتمع الاهلي الايراني ، بدور مراقبة القوات المسلحة الايرانية بالتنسيق مع وكالة الاستخبارات الاميركية · وقد لجأت الى كل الوسائل من اجل ترسيخ سلطة الشاه : اغتيالات ، خطف ،اعتقالات تعذيب ، رقابة الصحف والمنشورات ، ابتزاز ، ضاربة عرض الحائط بابسط الحقوق الانسانية للفرد والمواطن ·

انا الدولة

ان حقيقة المؤسسات الايرانية تختصر بالجيش والسافاك · فمنذ سقوط مصدق،

اصبح دستور ١٩٠٦ من ذكريات الماضي . فقد حرم الشاه الاحزاب السياسية من اية حياة شرعية . فمن ١٩٥٧ الى ١٩٦٤ سمح فقط لحزبين ان يترشحا في الانتخابات : حزب مردم (اي حزب « الشعب ») الذي اسسه اسد الله علام ، وزير البلاط عام ١٩٥٧ ، وحزب مليوم (اي حزب « الامة ») الذي اسسه مانوتشهر اقبال ، الصديق الشخصي للشاه .

« ان قدر حزبنا ، صرح يوما علام زعيم حزب مردم ، ان يخدم الشاهنشاه بلا شروط » ، « ان سبب وجود حزبنا ، صرح بدوره اموزيغار احد زعماء حزب مليوم ، هو فخامته الامبراطورية » . لذلك اطلق الايرانيون على الاول : حزب « نعم سيدي » وعلى الثاني : حزب « بالطبع سيدي » . وعام ١٩٦٤ قرر الشاه حل حزب مليوم واستبداله بحزب ايران ـ نوفين (ايران الجديدة) بزعامة امير عباس هويدا الذي خدم الشاه ١٢ عاما كرئيس للوزراء . وفي عام ١٩٧٥ قرر الشاه وضع حد لهذه المهزلة السياسية واعلن ان ايران سيحكمها من الان وصاعدا حزب اوحد هو حزب راستاخيز (حزب البعث) .

شعب مناضل

ان انفجار عام ١٩٧٨ العظيم قد برهن انه بالرغم من فعالية الجيش والسافاك، فان معارضة الشاه لم تنقطع منذ سقوط مصدق . ولكن القمع المنهجي الذي مورس على المعارضة الايرانية ادى الى ان هذه القوى وجدت نفسها في نهاية عام ١٩٧٨ غير قادرة على المجابهة الفعلية ضد النظام وهذا ما يفسر الطابع العفوي للمظاهرات من جهة والنمو المطرد للقوى الاسلامية من جهة اخرى . لذلك قامت الانتفاضات الجماهيرية خارج تنظيمات المعارضة . وكانت المؤسسة الشيعية ، بشبكتها الضخمة من الملا والجوامع وقوتها المادية والايديولوجية ، هي الوحيدة القادرة على قيادة الحركة الجماهيرية وطرح البديل لسلطة الشاه . ولكنها ليست الوحيدةبين القوى السياسية فهناك حركتان تشاركانها النضال ضد السلطة: الماركسة والقومية.

الماركسيون : ينقسمون الى مجموعتين متناقضتين : حزب توده (او حزب « الجماهير ») والماركسيون اللينينيون التوريون .

حزب توده : من الانشقاق عن الثورة البولشفية عام ١٩١٧ انشأ العمال الايرانيون الذين يعملون في حقول النفط في اذربيجان الروسية ـ والتي يستثمرها روتشيلد ونوبل ـ مجموعة « عدالة » التي تحولت عام ١٩١٩ الى حزب ايران الشيوعي الذي ما لبث ان انتشر في البلاد وعقد مؤتمره الاول عام ١٩٢٠ . من بين قياديه نجد بيتشيفاري . وقد تمثل الشيوعيون الايرانيون بوفد في اول مؤتمر لشيوعيي الشرق انعقد في باكو عام ١٩٢٠ برئاسة زينوفييف وكان الوفد الايراني اقوى وفود الشرق . وفي عام ١٩٢٩ قام الحزب الشيوعي الايراني في مؤتمره الثاني ضد ديكتاتورية رضا بهلوي ، فاعتبرته السلطة غير شرعي . ومع ذلك نشأ تجمع من المثقفين اليساريين بقيادة طاقي ارعني واسسوا عام ١٩٣٣ مجلة « دنيا » التي اصبحت فيما بعد من سجلات الحزب الرسمية . وبعد خروج من بقي حيا من هذه المجموعة من السجن (مجموعة الـ ٥٣) انضموا الى حزب توده الذي انشىء عام ١٩٤١ ، وانتخب الحزب لجنة قيادية مؤلفة من ١٥ شخصية تقدمية وليست شيوعية يرئسها امير سليمان اسكندري من سلالة القاجار ونور الدين عالموتي من اعيان المسلمين ، واعلن

الحزب عن خط اصلاحي موال للدستور ، وعن برنامج اجتماعي متقدم ولكنه متناقض لجهة مطالبته بتأميم الاراضي التي سبق لرضا بهلوي ان استملكها ، بينما طالب برد الاراضي التي انتزعت من القبائل وهذا ما يتلاءم مع وجهة الاتحاد السوفياتي في تدعيم القبائل لاضعاف السلطة المركزية ٠

في عام ١٩٤٣ دعا حزب توده الاحزاب والحركات القومية للدخول في « جبهة من اجل الحرية » دفاعاً عن الديمقراطية في ايران ٠ ولكن حينما تفرد حزب توده بموقفه المطالب عام ١٩٤٤ بمنح الاتحاد السوفياتي حق استثمار الحقول النفطية في شمالي ايران في الوقت الذي كان فيه مصدق ـ النائب في البرلمان ـ يؤكد على ان ايران قادرة على استثمار حقولها بنفسها ، حينذاك قرر القوميون قطع تحالفهم مع حزب توده ٠

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، انشأ الاتحاد السوفياتي « جمهورية اذربيجان الديمقراطية » ونصبوا عليها بيتشيفاري من حزب توده ، وحين سحب الاتحاد السوفياتي الجيش الاحمر من شمال ايران عام ١٩٤٦ بضغط من الولايات المتحدة ، انهارت هذه الجمهورية واتهم القوميون حزب توده بدعم التسلط الاجنبي على اذربيجان وخيانة الوطن ٠

وفي نهاية الاربعينات تبلورت حركة تطالب بتأميم الصناعة البترولية ٠ لكن حزب توده الذي لا يريد ان يحرم الاتحاد السوفياتي من آبار البترول في شمال ايران ، وقف ضد هذه الحركة ٠ وحين وصل مصدق الى السلطة عام ١٩٥١ على راس تحالف من الاحزاب القومية وباشر بتأميم الصناعة البترولية ، شن حزب توده حملة ضد مصدق واعتبره متآمرا مع السياسة الاميركية ٠ ولكن التأييد الشعبي الذي لقيه مصدق اجبر حزب توده على تغيير تكتيكه ، فطالب بتأميم الصناعة البترولية في جنوبي ايران فقط٠ ولكن حزب توده حافظ على بعض النفوذ في اوساط الجيش ، وحين قام الاميركيون بالانقلاب ضد مصدق عام ١٩٥٣ لم يعط حزب توده اوامره لعناصره في الجيش لدعم مصدق مما سرع سقوطه وسقوط حزب توده معه الذي تعرض مثل بقية الاحزاب للقمع والتصفية ٠ فاعدم من حزب توده من وقع بايدي السلطة ٠ اما غالبية اللجنة المركزية فقد التجأت الى المانيا الشرقية ٠ كل هذه المواقف ضاعفت في عزله بين الجماهير الايرانية وذلك لجيل بكامله ٠

الماركسيون ـ اللينيون الثوريون

بعد انقضاء عشر سنوات على سقوط مصدق قامت حركة ماركسية ـ لينينية على انقاض حزب توده ٠ اذ نشأت « مجموعات تأمل » في الوسط المثقف والجامعي مناوئة للستالينية وضد تبعية توده لموسكو ٠ حاولت هذه المجموعات التفكير في اسباب هزيمة الحركة القومية وفي سمات الاستراتيجية الامبريالية الجديدة ، وفي اشكال النضال الجديدة والملائمة ٠ من خلال ذلك برز اتجاهان داخل الحركة الماركسية : الاتجاه الاول يقول « بنظرية الاستمرار في الحياة » ويعطي الاولوية لبناء خلايا سياسية بانتظار تأزم الوضع الاقتصادي ٠

الاتجاه الثاني يقول بان الوسيلة الوحيدة لتعبئة الجماهير هي اعتماد الكفاح المسلح الذي يسمح للماركسيين ان يقودوا الانتفاضة الجماهيرية ٠ ومنذ ١٩٦٣ بدأت المجموعات الماركسية تلتقي لانشاء مجموعات عسكرية في الوسط القبلي والريفي ، ولكن سرعان ما اخترقت هذه المجموعات من قبل السافاك كالمجموعة التي اعتقل من ضمنها بيجان دجازاني

احد ابرز المفكرين الشيوعيين الايرانيين واحد مؤسسي منظمة فدائيي الشعب الايراني · بدأت المجموعات العسكرية نشاطها عام ١٩٦٧ ، ولعبت هذه العمليات دورا معنويا وسط الجماهير وانضمت الى الكفاح المسلح مجموعات اسلامية وقومية ولكن الاساليب المعتمدة من قبل السافاك اضطر هذه المجموعات ان تبقى حذرة مما حرمها من مضاعفة نشاطها السياسي وسط الجماهير لاعطاء نشاطها العسكري بعدا جماهيريا ، وهذا ما حصر نشاطها بالعمل العسكري البطولي المعزول عن خط الجماهير ·

القوميون ـ وهذا التيار يضم قسما من الماركسيين ومعظم الذين يناضلون من اجل حكومة اسلامية ·

الجبهة الوطنية : وهي تجمع يضم اتجاهات مختلفة ـ ماركسية ، اشتراكية، ليبرالية ، اسلامية ـ وجد رغم تشتته الايديولوجي نقطة مشتركة : الوطنية الايرانية المتمثلة برفض التسلط الاجنبي، وهذا هو الشعار الذي حكم نشوء الجبهة الوطنية عام ١٩٥١ التي اوصلت مصدق الى الحكم وكانت تضم : حزب ايران (جذري ذو اتجاه علماني) حزب شعب ايران (جذري ذو اتجاه ديني) منظمة « القوة الثالثة » (اشتراكية) ، حزب امة ايران (اقصى اليمين) ، اتحاد تجار وحرفيي البازار ، مجلس علماء طهران ، النقابات ، الاتحاد الوطني للصحافيين، واخيرا « حرس حركة ايران الوطنية » المؤلف من عسكريين · وبعد سقوط مصدق وضرب هذه القوى ، نظم مناضلوها سرا حركة المقاومة الوطنية ـ التي رفضت « القوة الثالثة » الانضمام اليها لاسباب ذاتية ـ واصدرت جريدة راحي ـ مصدق (طريق مصدق) ·

ومع وصول كينيدي الى الحكم عام ١٩٦١ فرض على الشاه تليين موقفه تجاه الجبهة الوطنية التي كانت حركة دستورية غير مناوئة للملكية · فسمح لها بالخروج للعلن واقامة المهرجانات شرط الا تتعرض للشاه والا تتلفظ باسم مصدق · وبذلك تشكلت الجبهة الوطنية من جديد وانضم اليها الحزب الاشتراكي الايراني المنشق حديثا عن «القوة الثالثة» ـ التي حملت اسم « عصبة الاشتراكيين» ـ وبذلك وضعت الجبهة الوطنية ميثاقا تطالب فيه باحترام الدستور وتقييد صلاحيات الشاه بالدستور وبحل السافاك، وبمحاكمات عادلة للمعتقلين السياسيين وباعادة النظر بالاتفاقات البترولية · ولكن ما لبث الخلاف ان نشب داخل الجبهة فانشق الاتجاه الاسلامي ليكون حركة تحرير ايران التي اضافت الى توجهات الجبهة مبدأ اسلاميا يحاول ان يقيم جسرا بين المثقفين اليساريين ومؤمني الشيعة · ولكن انفجار حزيران ١٩٦٣ وضع حدا لسياسة الانفتاح التي اتبعها الشاه خلال بضعة اشهر تجاه المعارضة وبدأت حملة اعتقالات وتصفيات ونفي وقمع تفكك تنظيمات المعارضة ·

التيار الشيعي الثوري : وهو تيار ينتمي الى الحركة الوطنية الايرانية والناطق الاول باسمه هو آية الله روح الله الخميني · ولد في٩ نيسان عام ١٩٠٠ في خمين ـ قرية تقع قرب اصفهان ـ من اب هو عالم شيعي مرموق قتل في نضاله مع الدستوريين اثناء ثورة ١٩٠٥ ·

بعد دراساته الفقهية في قم ، قام الخميني بنشاط شبه سري بهدف تأمين « استقلال البلاد الاسلامية وتأسيس تقدم شعب القرآن » وهي موضوعة صاغها في كتاب وضعه عام ١٩٤٢ ·

عام ١٩٦١ ، حين سكت معظم علماء الشيعة ، دخل الخميني في تناقض مفتوح

مع الشاه ووقف ضد الاصلاحات التي فرضتها ادارة كينيدي على ايران ناعتا اياها بالاجراءات التي تمهد الطريق للتسلط الاجنبي » ٠

في حزيران ١٩٦٣ ، اعتقل الخميني بسبب مواقفه المعلنة ضد «الثورة البيضاء» وادى اعتقاله الى تمرد شعبي اجبر الشاه على اطلاق حريته ٠ ولكن الخميني عاد فوقف بعنف ضد القانون الجديد الذي يعطي الحصانة القانونية لالاف الخبراء العسكريين الاميركيين الموجودين في ايران فبادر الشاه الى نفيه عام ١٩٦٤ الى تركيا ثم الى العراق ، النجف الاشرف ٠

تبلور هذا التيار الشيعي الثوري الذي يمثله الخميني انطلاقا من مجازر حزيران ١٩٦٣ ، حين بادر مناضلو المعارضة الدينية ـ مثل رفاقهم الماركسيين ـ اللينينيين ـ الى تحضير الكفاح المسلح ٠

في عام ١٩٦٥ بادر ثلاثة من مناضلي حركة تحرير ايران ـ محمد حنيف نجاد ، علي اشفر يديزاديغان وسعيد محسن ـ الى انشاء منظمة مجاهدي شعب ايران المعروفة باسم المجاهدين ٠ وتوسعت المنظمة وتدرب اعضاؤها عسكريا في المخيمات الفلسطينية ٠ ولكنها ، وكبقية التنظيمات، اخترقت من قبل السافاك واعتقل عام ١٩٧١ ، ٧٥ من اعضائها من بينهم المؤسسون الثلاثة ٠ وفي مرافعته امام المحكمة العسكرية ، رسم سعيد محسن الخطوط العريضة لهذه الحركة التي اصبح الان الخميني رمزا لها ـ (راجع وثائق الحركة الثورية الايرانية ، منظمة مجاهدي شعب ايران) ٠

ونظرا لهول القمع ، لم يستطع المجاهدون ان يؤمنوا اللحمة السياسية مع الجماهير وحصروا نشاطهم من ١٩٧٣ الى ١٩٧٧ بالعمليات العسكرية ، وهذا ما اعترفوا به في نقدهم الذاتي الذي قدموه في اذار ١٩٧٨ ، لذلك قرروا الانخراط في الحركة الجماهيرية التي بدأت تنمو عام ١٩٧٨ ٠

وقد حاول بعض المثقفين ان يعيدوا قراءة القرآن على ضوء فهم تقدمي وتبلور ذلك في انتاج علي شريعتي الذي مات في لندن عام ١٩٧٧ وهو ما ساهم في ابراز الوجه الثوري للشيعة ٠

هذه هي اللوحة العامة بما فيها من تناقضات التي ادت الى الانتفاضة الجماهيرية العارمة التي عرفتها ايران عام ١٩٧٨ ٠

سهيل القش

الدكتور اميل توما « ستون عاما على الحركة القومية العربية الفلسطينية »

بيروت ، دار ابن رشد ودائرة الاعلام والثقافة ـ م٠ت٠ف الطبعة الثانية ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ ، ٢٧٤ صفحة ٠

اميل توما اسم لا يحتاج الى اضاءة ٠ فممارساته السياسية الوطنية تشير اليه وترسم صورته ، وكتاباته التي تجاور ممارساته تعطي للصورة كل ابعادها ٠ فتوما ، مؤرخ وشاهد على تاريخ شعبه ، وعلاقة فاعلة في هذا التاريخ ومنذ

البداية حاول هذا « المثقف العضوي » ان يكتب تاريخ بلاده ، فكتب « جذور القضية الفلسطينية » ، وكتب في صحيفة «الاتحاد» وفي مجلتي «الجديد» الشهرية و «عراخيم» النظرية ، التي يصدرها حزب راكاح · وفي كتابه الجديد لا يشذ عن مساره بل يتابع نقطة البداية ·

مشروع « مؤرخنا » طموح ·· يبدأ من السنوات الصعبة الاولى ومن بدايات التآمر ليصل الى السنوات الصعبة « الاخيرة » · وتتراكم صفحات الكتاب لترسم التاريخ بين ضفتين : وعد بلفور وحاضر المقاومة الفلسطينية ·

ان طموح المشروع « الدراسي » لا يعطيه قيمته بالضرورة ، فقد يبقى بين المشروع والتحقق مسافة ، وهذه المسافة تحاصر الطموح وترجعه الى عمل عادي ·

ان طموح توما الذي حاول رصد كل التاريخ ارجع عمله الى مجرد دراسة وثائقية تفتقر الى التحليل والى الانارة الكافية · والكتاب في اكثر من مكان يتجلى كعمل ناقص ومبتور ، كأجابات على اسئلة غائبة او كأسئلة لاجابات يعوزها الحضور والوضوح ·

بدأ الشعب الفلسطيني يتلمس اخطار المشروع الصهيوني منذ نهاية القرن التاسع عشر · ومنذ ذلك التاريخ تواصل النضال الوطني الفلسطيني واخذ اشكالا مختلفة، وتلاحق وتطور كنضال فلسطيني وعربي ·

يستعرض كتاب توما تطور الحركة القومية العربية في الشرق العربي ، وانتقالها من شكلها القومي الشامل الى حركة قومية اقليمية ذات تيارات متباينة · وفي عملية التقاء وتفارق النضال العربي تكونت الحركة القومية العربية في فلسطين وعبرت عن نفسها في حركة الجماهير العفوية وفي نشوء الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية · الا ان انتقال الحركة القومية من شكلها العام الى شكلها الخاص لم يلغ طموح « الوحدة السورية » لان الالغاء « يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية ·· وبمصالح الوطنيين الثورية المحلية » ·

وفي هذا المسار انقسم القوميون في فلسطين الى قسمين ، الاول انخرط في التيار القومي والاقليمي الذي فرضته الظروف الجديدة التي خلقها اقتسام القوى الامبريالية العالم العربي ، واستمر الفريق الثاني يعمل من اجل معركة قادمة تطمح الى تحرير وتوحيد سوريا الطبيعية ·

اعتبر توما انعقاد المؤتمر الفلسطيني الثالث (١٩٢٠/١٢/١٤) بداية التنظيم القومي العربي في فلسطين ·

وفي المؤتمر الخامس (١٩٢٢) رفض المحتمعون بضغط من الجماهير مشروع المجلس التشريعي الذي طرحته بريطانيا · اما لماذا رفض المشروع رغم انتساب اكثرية القادة الى طبقة اسياد الارض ذوي العقلية الاقطاعية بغض النظر عن مشاعرهم القومية ، ورغم اعتقادهم بامكانية التفاهم مع الامبريالية البريطانية ، فيرجع ذلك الى الضغط الشعبي المذكور والى التناقض الذي برز داخل المؤتمر بين اولئك الذين ارادوا المهادنة مع بريطانيا واولئك الذين ارادوا موقفا صلبا من المناورات البريطانية · ويقول توما ، ان قبول المجلس التشريعي كان سيوهن الكفاح الوطني ويضعف الكفاح القومي ، ويستنتج : « وهكذا صدق القوميون في موقفهم » ·

عبر التناقض في القيادة القومية الفلسطينية عن نفسه في المؤتمر وفي نشوء منظمات سرية تدعو للكفاح المسلح ، كمنظمة « الكف الاسود » ·

واجـــــه المؤتمر السادس (١٩٢٣) مشروع المعاهدة البريطانية ـ الحجازية وبرز جديا الصراع بين القيادة القومية التقليدية والقيادة الوطنية· وقد استطاعت الاولى فرض سياساتها وافشال قرار يدين الملك حسين ·

ادى هذا الخلاف الى تجزئة القيـــادة القومية وبداية نشوء الاحـــزاب ، الا ان « غياب التنظيم الحزبي حتى هذا الوقت يعود الى ان العناصر النشيطة في الميدان كان عليهـــا ان تستوعب التطـــورات السياسية ·· وبدء ارتباط محافل اجتماعية معينة بالانتداب » ·

ابرز توما علاقة الاحزاب الناشئـــة بالانتداب من جهة ، وبالحركة الصهيونية من جهة اخرى · فعينت بريطانيا الحاج امين الحسيني رئيسا لـ « المجلس الاسلامي الاعلى » (الهيئة العربية العليا فيمـــا بعد) وعينت راغب النشاشيبي رئيســـا لبلدية القدس ، وخلقت بذلك مركز قـــوة من جديد · ونشأ ايضا « الحزب الزراعي» « الذي زرع الفرقة بين المدينة والريف »، و « الحزب الوطني » و « حزب الاهالي » و « حزب الدفاع » · والى جانب دعـــم بريطانيا احزاب الاقطاعيين الكبار ، دعمت الحركة الصهيونية ماليا و « استشاريـــا » الحزبين الوطني والزراعي والجمعيـــة الوطنية الاسلامية ·

بعد ذلك « ينسف » توما مزاعم الحركة الصهيونية التي صورت الحركة القومية في فلسطين كحركة افندية ازاء بنـــاء صهيوني تقدمي ، فالصهيونية فـــي ممارستها اعتمدت على الافندية بالضبط، ومن صفوفهم خرج اولئك الذين باعـوا الارض واعطوا الضوء الاخضر لطـــرد الفلاحين من اراضيهم ·

اما في السنوات ١٩٢٥ ــ ١٩٢٨ ، التي تسمى سنوات « الهدوء » في فلسطين ، فلم تكن جمودا ، بل كانت الحركة القومية تشهد تفاعل القوى الاجتماعية فتفرز هذا التنظيم او ذاك وفي الوقت نفسه تواصل القيادة التقليدية العمل ·

ويتحدث عن دور الحزب الشيوعـــي الفلسطيني في الحركة القوميـة العربيـة الفلسطينية ، الذي على الرغـــم مـــن مطاردات السلطة له ، طرح امام الحركة القومية بديلا لسياسة المهادنة مع بريطانيا فحدد العدو الجوهري ولم يهمل الصهيونية او القيادة الرجعية العربية ·

يعرض لاحداث تمرد الفلاحين (١٩٢٩) وخلفيتها الاقتصادية والسياسية ، والتباعد الذي نشأ بين القيادة التقليدية والجماهير الشعبية ، ولمؤتمر العمال العـــرب الاول عام (١٩٣٠) ·

ويتابع توما عرض النضال الفلسطيني: الاضراب التاريخي وثورة (١٩٣٦) ، والرد العربي القطري والقومي على مخطط التقسيم وتراجع بريطانيا عنه ، ثـــم صدور الكتاب الابيض والحرب العالميـــة الثانية ووضوح التناقض بيـن المصلحـــة القومية للفلسطينيين والقيادة التقليدية ·

طوال تلك الفترة تتابع التضاد بيـــن الجماهير والقيادة السياسية · واتسمـت العلاقة بينهما بالفراق والاحتواء · تبدأ الاولى انطلاقتها وتتحول الى سيل عـارم وطني يهـــدد المصالح الصهيونيـــة والبريطانية ، ثم تأتي القيادة التقليديـــة لتركب الحركـة وتستثمرهـا سياسيـــا وتدفعها الى الفشل والهزيمة · ومنـــذ الثلاثينات ، وقف الانسان الفلسطينـــي بمجموعه الفلاحية اصلا والمدينية امـــام تآمر ثلاثي المحاور : الرجعية ، الاستعمار الصهيونيه ·

لقد قدمنا عرضا مقتضبا وموجزا ، لمادة الكتاب ، لكن هذا الشكل من العرض لا تمليه ارادتنا بل مادة الكتاب وشكلها ،

فاميل توما لا ينطلق من موضوعات نظرية او مقولات ومفاهيم تاريخية ، بل يقدم عرضا تجريبيا للتاريخ (كرونولوجي) انه يراكم معلومات احصائية وتواريخ واستشهادات ٠

ان الكتاب الذي بين ايدينا يحتوي على معلومات غزيرة وعلى وثائق عديدة مبوبة في فصول تعكس عناوينها فقط المنحى الذي يعرضها فيه الكاتب ٠ فأمامنا كتاب وثائقي اكثر منه تحليلي وكان من غير الممكن عرضه في هذا المجال سوى باعادة تلخيصه ، الامر الذي تفاديناه ٠

يبرز امامنا تساؤل ، لماذا نعيد كتابة التاريخ ؟ كيف نكتبه ؟٠ هل كتابة تاريخ ما او تاريخ حقبة معينة هي بهدف اعادة التذكير به ام اعادة رسم احداثه وتطوراتها واعادة ترتيب هذا التاريخ ورسم معالمه البارزة ؟٠ولماذا نختار هذه الحقبة ؟ ما هو الهدف الابعد لكتابة التاريخ ؟ هل لحفظه ام لرؤيته من موقف نظري مغاير لما هو سائد ؟ ام لاستنباط « امثولات » منه وتجارب تفيد في ضبط مجريات الحاضر وفي صنع المستقبل ؟٠

لعل اعادة كتابة التاريخ هي بهدف فهم الحاضر وامكانيات تطوره والفعل فيه ٠ اذا كان هذا هو الهدف ، فان كتاب توما لا يؤدي الى هذه الغاية على الاطلاق ٠ بل هو ، مع اعتبار حجم واهمية المادة المطروحة فيه ، لا يمكن ان يصنف الا كتابا يحفظ الوثائق والمعلومات بطريقة مبوبة٠ ومما يجدر ذكره ، ان هذه المادة التي ضمها الكتاب نشرتها مجلة « الجديد » على حلقات عام (١٩٦٩) تحت عنوان « دراسات في القضية الفلسطينية » ما عدا فصوله الاخيرة التي نشرت بعد العام (١٩٧٠) ٠

ان الافكار الواردة في الكتاب او الاستنتاجات ، غير مدعومة على الاطلاق بتحليل من قبل الكاتب ، ولذلك امكن ازاءها « تأويل » المعلومات التي اوردها للوصول الى استنتاجات مغايرة ٠

نورد فيما يلي بعض الملاحظات النقدية التي تشير الى عدم التوافق بين اسلوب طرح المعلومات والتوصل الى الاستنتاجات بشكل يبدو مفاجئا او غير مدعوم بتحليل مسبق :

١ ـ « اعرب هذا الانقسام [جمعية العهد التي انقسمت الى قسمين سوري وعراقي اثر وضوح نيات الحلفاء واغراضهم] ٠٠ عن عمق خطوط التجزئة الاقليمية التي خلفتها الاقطاعية (الشرقية) التي انتشرت في عهد اضمحلال الامبراطورية العربية الاسلامية وثبتتها السيطرة العثمانية ـ» ٠ ص ١٨

وردت هذه الفقرة دون ان يسبقها حديث عن الاقطاعية الشرقية في العالم العربي٠ ما هي علاقة الاقطاعية الشرقية بالتجزئة الاقليمية العميقة ، في حين كان امل الوحدة العربية ولا يزال مطروحا في معظم برامج الاحزاب العربية حتى الان ، ناهيك عن التيار الشعبي العام ٠

٢ ـ « فجرت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى موجة ثورية في انحاء العالم ٠٠ هزت هذه الموجة العالم العربي ٠٠ فشهد ثورات واصطدامات مسلحة في مصر (١٩١٩) والعراق (١٩٢٠) وسوريا (١٩٢٠) والمغرب الاقصى (ثورة الريف في العشرينات) » ص ٢٢ ٠

لم يذكر هنا ايضا كيفية تأثير هذه الموجة الثورية على العالم العربي ٠ هل تم التعبير عن هذا التأثير في شعارات الثورات والاصطدامات المسلحة وبرامجها، ام كان التأثير فقط بـ « الايحاء » الثوري لاستلام العمال والفلاحين السلطة في اول بلد اشتراكي في العالم ٠ وهل كانت هذه الثورات على نفس المستوى من

« التأثر » ؟· ما هي العوامل المفجـــرة لهذه الثورات واين التقى فيها تأثير الثورة الاشتراكية الكبرى بالاهداف الخاصة لهذه الثورات ؟·

٣ ـ « ان الحركة القومية العربيـــة في فلسطين ثورية ولا يغير من طبيعتهـــا الديمقراطية تشجيع الامبريالية البريطانية عن طريق المتعاونين معها من الرجعيـــين العرب ، الاصطدامات العنصرية ··· » · « هذاما لاحظته القوى التقدمية فـــي العالم » ص ٢٤ ·

ـ اما مؤتمر الشعوب الاول (باكـــو ١٩٢٠) فاعتبر ان بريطانيا تحاول زرع « الخلاف والتذمر والبغضاء بين جميـع الاطراف ولتضعف كلا الجانبين فتنفرد هي بالسيطرة » ص ٢٤ ·

هل كانت الاصطدامات بين العـــرب والصهيونيين في فلسطين « عنصرية » ؟ اذا كانت كذلك فلماذا لم تقع قبل الهجرات والمستوطنات الصهيونية ؟

هنا ايضا نجد عدم مناقشة او تحليل المعلومات او على الاقل الحديث عـــن مقدمات توصل الى القول بان الهـــدف البريطاني كان الانفراد بالسيطرة ،وليس اعداد الصهيونيين ليكونوا قوة متكافئـــة من ناحية عدد السكان والمركز ، مـــع العرب · رغم انه يذكر لاحقا (ص ٢٨) ان بريطانيا اعلنت ان هدفها هو ان يصبح لليهود في فلسطين مركزا يكون موضـــع اهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينيـــة والقومية ·

٤ ـ تميز المؤتمر العربـــي الفلسطيني الخامس بالصراع بين المهادنين مـــع بريطانيا « وفي مقدمتهم موسى كاظـــم الحسيني » والمطالبين بصلابة الموقف ازاء المناورات البريطانية « ومن ابرز دعاتهـم توفيق حمد من نابلس ،المدينة التي مثـلت الى حد ما الصناعة الجنينية العربية » · ص ٣٥ ·

هنا ايضا لا نجد علاقة بيـــن نابلس وصناعتها الجنينية وبين توفيق حمـــد وموقفه الصلب · بالاضافة الى انه لـــم يسبق هذا الربط اي حديث عن الاصـــول الطبقة للقيادات الفلسطينيـــة وعلاقـــة ذلك بمواقفها السياسية · ومن البديهي ان تلك العلاقة لا يمكن ان تكون ميكانيكيـــة واحادية البعد كما ورد في الكتاب ·

٥ ـ « وغياب التنظيم الحزبي ·· يعود الى ان العناصر النشيطة في الميدان كان عليها ان تستوعب التطورات التي حصلت بعد الحرب العالميـــة الاولى وثبـــات [الانتداب] آنيا وبدء ارتباط محافـــل اجتماعية معينة معه · ثم ان الحركـــة الصهيونية ·· بدأت هي بدورها تسعى الى التسرب الى داخـل الحركة القوميـــة العربية ·· » ص ٤٢ ـ ٤٣ ·

لا نستطيع ان نقر بـــان « استيعاب » العناصر النشيطة كان وحده قادرا علـــى نشوء التنظيم الحزبي · كان من المحتـم ان يفرز النضال الوطني والافتـــراق والتباعد بين القيادات التقليدية (لاسبابها الذاتية في معظـم الاحيـان) احزابـــا ومؤسسات سياسية · الا ان هذه الاحزاب كانت محكومة بالمصالح الخاصة لقياداتها العائلية وبعلاقاتها الداخلية العائليـــة · تطرح مسألة نشوء الاحزاب تشتت القاعدة الجماهيرية الموضوعي وضياعها امـسام احزاب لا وجود لكبير فرق في شعاراتهـا السياسية ولا اهدافها ·

السؤال الذي يجب طرحه هنا هو غياب التنظيم او الحزب الطليعي الذي تلتقي فيه حاجة الجماهير الى تعبير سياسي متقدم وقائد ، مع طليعة ثوريـــة مبـــادرة ، اي الحزب الوطني القادر على رسم سياســـة وطنية تستطيع قيادة الجماهير والدفـــاع عن مصالحها الوطنية والاجتماعية ·

٦ ـ « القيادة القوميـــة التقليدية ،

المتمثلة في الهيئة العربية العليا ، رفضت قرار التقسيم وساندتها دول الجامعة العربية التي اعلنت عزمها على احباطه · اما عصبة التحرر الوطني فايدت القرار» · ص ٢١٠ ·

كلنا يعرف ان قرار التقسيم كان مسألة على درجة كبيرة من الحسم والمصيرية بالنسبة للقضية الوطنية الفلسطينية · من الصعوبة بمكان ادراج موافقة العصبة عليه دون أن يورد الكاتب حيثيات الموافقة · في حين انه ذكر في موقع سابق (ص ٢٠٤) ان العصبة التزمت بقرار مقاطعة اللجنة الدولية « لا اقتناعا بصدقه بل رغبة منها في صيانة الوحدة الوطنية» · اذن ، كان هاجس الموقف الوطني الموحد قائما في احد مواقف العصبة ، فاين كان هذا الهاجس لدى موافقتها على قرار التقسيم ؟ وما هو معيار الوحدة الوطنية في هذه الحال ؟

لكن لا يمكن انكار موقف الشيوعيين الفلسطينيين الحازم ضد الحاق الضفة الغربية بالنظام الهاشمي ، وضرورة قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة ، وقيادتهم النضال الشعبي ضد الالحاق ·

٧ ـ « الغزوات الاسرائيلية ضد السكان الآمنين وضد اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات ، منها ما جرى في غزة (١٩٥٣) و (١٩٥٤) · ص ٢٣٤ ·

لا يورد الكاتب اي جملة تتناول دفاع الشيوعيين في قطاع غزة ضد الغزوات الاسرائيلية ، ولا نضالهم الوطني المستقل هناك ولو انه دام فترة زمنية بسيطة ·

٨ ـ « اهملت واعيا ظاهرة ، الفدائيين ، الذين نشطوا في اواسط الخمسينات وخصوصا قبل حرب سيناء او العدوان الثلاثي على مصر في خريف (١٩٥٦) ، لان هؤلاء نشأوا في اطار سياسة مصر آنذاك ، ولم يمثلوا في رأي الكثيرين من القوميين العرب الفلسطينيين ، تنظيما فلسطينيا ··· وقد توقف نشاطهم فعلا واختفى تنظيمهم بعد تلك الحرب ولم يؤلفوا خميرة المنظمات الفلسطينية التي تؤلف اليوم الحركة القومية العربية الفلسطينية » · ملاحظة (١٠) ص ٢٤٤ ·

ـ « ان الهوية القومية الفلسطينية لم تختف ، بل اختفى تعبيرها السياسي المنظم ···اما تعبيرها الثقافي فاغتنى ، كما ذكرنا ، بأدب الحنين الى فلسطين » · ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ ·

يبدو من المقتطفين السابقين ، ان توما ، ولانه يتابع في كتابه النضال الفلسطيني كنضال اقليمي مستقل ، « اهمل واعيا » ظاهرة انخراط عدد من الفلسطينيين في العمل المسلح في اطار سياسة مصر ·

لم يكن هذا الانخراط بعيدا عن انخراط مجمل الحركة الوطنية الفلسطينية في اطار الاحزاب القومية العربية · ورغم « اختفاء تعبيرها السياسي المنظم » ، الا انها انخرطت واعية في ذلك الاطار العربي الشامل على قناعة بشعار ان الوحدة العربية تقود الى فلسطين ·

لذلك كان من المهم دراسة هذه المرحلة بدلا من تجاهلها ، لانها سادت فترة تشكل حوالي ٢٠٪ من سنوات النضال الفلسطيني التي يغطيها الكاتب · اضف الى ذلك ، ان هذا الانخراط شكل قاعدة لوعي فلسطيني جديد ، وعي يربط الخاص بالعام · فلا يمكن دراسة « الظاهرة الفدائية » دون دراسة تكوين الوعي الفلسطيني وتشكل الشخصية الوطنية الفلسطينية المتميزة ·

٩ « واخيرا ، ان التطرق الى موضوع المنظمات الفلسطينية المسلحة ، التي برزت بشكل جدي بعد (١٩٦٧) ، والى منظمة

التحرير الفلسطينية ، بشكل سريع (٢٠ صفحة) ، بالطبع سيكون مقتضبا وغير ملم بكافة حيثيات النضال وظروف نشأته مستقلا · لذلك جاءت بعض احكامه سريعة وغير مفندة ، ولا تقدم للقاريء مواقف هذه المنظمات او رأيها فيما يعتبره توما ، عناصر اضعاف ·

يقدم عمل توما مادة تاريخية اولية لعمل نظري فالمؤلف يحاول تقديم رؤيا مادية لنضال الشعب الفلسطيني ، المرتبط جملة من المستويات السياسية والاقتصادية والايديولوجيةالتي تؤلف بنية المجتمع الفلسطيني · لكنه لا يدرس هذه المستويات ويعتبرها تحصيل حاصل او بداهة لا تحتاج الى برهان ·

اذا كان مسار الشعب الفلسطيني قد اضاء حاضره ، فان توما ينطلق من وضوح الحاضر ليشرح الماضي لكن المجهول بقي مجهولا · فهو يسقط الصراع الراهن والقائم في الحاضر على الماضي و « يشرح » « الماضي بلغة الحاضر ·

ان كتابة التاريخ تعطي من حيث المبدأ انارة نظرية ومساهمة نضالية · لكننا نعتقد ان اميل توما لم يحقق مشروعه، فقد بقيت « الانارة الضرورية » غائبة ، وكسب الارشيف مع ذلك مادة هامة جيدة العرض ·

غادة كنفاني

SAMI KHALIL MAR'I, ARAB EDUCATION IN ISRAEL ,

(SYRACUSE UNIVERSITY PRESS, SYRACUSE : 1978)

في معرض تعليقه على النشاط السياسي الذي يمارسه الطلبة العرب في الجامعات الاسرائيلية ، تفوه السيد اوري لوبرانسي مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية في عام ١٩٦١م بهذه الكلمات : « من المحتمل جدا ان الوضع سيكون افضل اذا لم يكن هناك اي طالب عربي في الجامعة · ومن المحتمل ان تكون السيطرة عليهم اسهل اذا ظلوا يعملون حطابين وسقائين · ولكن هناك اشياء لا تعتمد على التمنيات » · هذه العبارة تلخص سياسة السلطات الاسرائيلية تجاه تعليم العرب · مفهوم لن سيكون الوضع افضل اذا لم يلتحق اي عربي بالجامعة وظل يعمل حطابا او سقاء ·

تعليم العرب في اسرائيل موضوع هام حظي بعناية واهتمام عدد من الدارسين والباحثين الفلسطينيين · وترجع اهمية الموضوع الى حقيقة ان الدراسات والابحاث التي عالجت الموضوع اشارتالى ان السلطات الاسرائيلية تستخدم جهاز تعليم العرب كأداة لتحقيق اهدافها وترسيخ اقدامها في فلسطين . وكوسيلة لانتاج جيل عربي ذليل يخدم السياسة الصهيونية دون ابداء معارضة · ورغم اهمية الموضوع فان الدراسات والابحاث الموضوعية التي عالجته لا تزال قليلة ·

الدراسة موضوع المراجعة هي احدى الدراسات القيمة والشاملة في هذا الموضوع ·

المؤلف الدكتور سامي خليل مرعي خبير في الموضوع الذي يكتب عنه · فهو احد الفلسطينيين الذين خضعوا للحكم الاسرائيلي بعد عام ١٩٤٨ م · وهو قد عاصر واختبر نظام تعليم العرب في اسرائيل · حصل المؤلف على البكالوريوس والماجستير من « الجامعة العبرية » في القدس والدكتوراه في التربية من جامعة « وسكنصن » في الولايات المتحدة · عمل مدرسا في المدارس العربية وفي كليات اعداد المعلمين · كذلك شغل وظيفة باحث مشارك في « معهد التجديدات التربوية » ومديرا « لمعهد بحث وتطوير التعليم العربي » التابعين لجامعة حيفا · وهو يعمل محاضرا بنفس الجامعة · شغل المؤلف ايضا وظيفة استاذ مشارك زائر في جامعة ولاية ميتشيغن في الولايات المتحدة اعد خلالها للدراسة موضوع المراجعة · وللمؤلف عدد من الابحاث والدراسات التي تتناول تعليم العرب في اسرائيل ·

الدراسة موضوع المراجعة تقع في ٢٠٩ صفحات : مقدمة ومدخل وتسعة فصول وملحقان · يذكر المؤلف في المقدمة بان الكتاب فضلا عن انه يعالج موضوعا معينا وهو تعليم العرب في اسرائيل فانه يتعرض لعدد من القضايا والمسائل ذات البعد العالمي ، مثل التربية والسياسة والتربية المقارنة ، وتربية المجتمعات النامية وتربية الاقليات · يناقش المؤلف في مدخل الكتاب الوضع الفريد

والمتناقض الذي وجد العرب انفسهم فيه بعد قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ م· فمن جهة اصبحوا يشكلون اقلية ـ بعد ان كانوا أغلبية ـ تعيش مع اغلبية يهودية كانت ولا تزال في حالة حرب مع اخوانهم وبني وطنهم · ورغم انهم قد اصبحوا اقلية من الناحية العددية فهم لا يشعرون كما تشعر الاقلية ، اذ يدركون انه يعيش بجوارهم اغلبية من الفلسطينيين والعرب· ومن جهة اخرى يتعرض المجتمع العربي في اسرائيل ـ كغيره من المجتمعات النامية ـ الى مظاهر التحديث المختلفة · غير ان مصدر التحديث في هذه الحالة هو الاغلبية اليهودية والتي هي عدوهم ·هذا الوضع الفريد والمتناقض للعرب في اسرائيل يطرح عددا من المسائل والقضايا التي تستحقق الدراسة · الا ان الدراسة موضوع المراجعة تركز كما يذكر المؤلف على فحص لنوعية وكفاءة نظام تعليم العرب في اسرائيل في ضوء القوى المختلفة التي شكلته وصاغته ·

يمهد المؤلف لدراسته في الفصل الاول بعرض موجز للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي بما في ذلك الوضع التعليمي للعرب في فلسطين منذ العام ١٨٧٥ م ، وخصوصا في الفترة بعد عام ١٩٤٨ م· ويحتوي الفصل على مقارنة احصائية بين السكان العرب واليهود ونسب كل منهم في مراحل التعليم المختلفة ·

يتضح من المقارنة الفجوة الكبيرة في التعليم لصالح اليهود · ففي الوقت الذي تصل فيه نسبة الملتحقين بالمدارس الابتدائية بين اليهود الى ٩٩٪ لا تصل بين العرب الا الى ٨٢٪ ، وفي الوقت الذي تصل فيه نسبة الطلبة العرب الذين هم في سن الدراسة الثانوية (بين ١٤ و ١٨ سنة) الى ٢٠٪ ، فان نسبة الملتحقين فعلا هي ١٠٪ ، أما فيما يتعلق بالتعليم الجامعي فقد كانت نسبة الطلبة العرب الملتحقين بالجامعات الاسرائيلية في عام ١٩٧٤ م أقل من ٢٪ رغم ان نسبة السكان العرب الى اليهود كانت ١٥٪ في عام ١٩٧٣ م ·

يعالج المؤلف في الفصل الثاني تحت عنوان « المدرسة والمجتمع » وضع

المدرسة في القرية العربية كما يراها اولياء الامور وكذلك طبيعة العلاقة بين المدرسة والمجتمع العربي الريفي · ويتعرض للتغييرات التي طرأت على المجتمع العربي في اسرائيل وتأثير هذه التغييرات على : ـ العلاقة بين اولياء الامور والمدرسين ، المدرسة والحمولة ، نسبة العنصر النسائي في مهمنة التدريس ، المساواة في الفرص التعليمية والمناهج المدرسية واهدافها ·

اهداف وسياسات قسم تعليم العرب ، والوضع الاداري لهذا القسم هي موضوع الفصل الثالث · يبين المؤلف أنه حتى عندما شكلت السلطات الاسرائيلية لجانا مهمتها وضع اهداف لتعليم العرب ـ مثل اللجنة التي شكلت عام ١٩٧٢ م والتي اصدرت ما يعرف باسم « وثيقة ياذين » ـ جاءت الاهداف طامسة ومشوهة للهوية العربية · كما ان هذه الاهداف تحاول تنشئة الطالب العربي على اعتناق وتقبل القيم السائدة في المجتمع الاسرائيلي · لقد كان اعضاء هذه اللجان من اليهود . ولذا فليس من الغرابة ان تعالج الاقلية العربية في توصياتها معالجة هامشية وان تنحصر جهودها في كيفية استخدام التعليم للتلاعب والسيطرة على الاقلية العربية لمصلحة الاغلبية اليهودية · اما بالنسبة للوضع الاداري لقسم تعليم العرب فهو يتفق مع الاهداف التي توختها السلطات الاسرائيلية من هذا النظام ·

فللعرب نظام تعليم منفصل تسيطر عليه السلطات الاسرائيلية سيطرة كاملة ويرأسه يهودي كما هي الحال في بقية الاقسام المختصة بشؤون العرب · ويشكل نظام تعليم العرب اداة من خلاله يتم التلاعب والسيطرة على الاقلية من خلال نظام ثواب وعقاب · فتعيين الموظفين والمدرسين لا يخضع للكفاءة وانما للولاء ومن لم يطبق سياسة الحكومة يفصل من عمله ·

يعالج المؤلف في الفصل الرابع المناهج المدرسية ، ويقارن بين المناهج في كل من المدارس العربية واليهودية في مواد التاريخ واللغة والادب والعقيدة · تشمل المقارنة اهداف دراسة كل مادة والساعات المحددة لدراستها والموضوعات التي تدرس · يتضح من المقارنة ان المناهج في المدارس العربية ـ المعدة من قبل السلطات الاسرائيلية ـ تتجاهل الهوية العربية وهي بذلك تتفق مع اهداف السلطات الاسرائيلية في السيطرة على العرب ·ففي مادة التاريخ مثلا تؤكد الاهداف في المدارس اليهودية على غرس الشعور بالانتماء للشعب اليهودي وتشجع على اعتناق الاهداف الصهيونية ، بينما في المدارس العربية تنحو هذه الاهداف الى طمس وتشويه الشعور القومي لدى الطالب العربي وتتجاهل الهوية الفلسطينية تجاهلا تاما · هذا علما بان المناهج المعدة للطالب العربي تؤكد على تطوير الانتماء للقيم اليهودية وتعمل على اشباع الطالب العربي باتجاهات الود والاعجاب نحو اليهود ودولة اسرائيل · وقد دفع هذا الطالب العربي الى التوجه الى وسائل التعليم غير الرسمية خارج اسرائيل مثل الاستماع الى برامج دور اذاعة وتليفزيون الاقطار العربية المحيطة باسرائيل · وقد كان لوسائل التعليم غير الرسمية هذه اثر كبير في تلافي النقص والتشوية في التربية الوطنية التي يتلقاها الطلبة العرب في اسرائيل من خلال المناهج الرسمية ، وكذلك في ربط الانسان العربي بأبناء وطنه وقوميته ·

الدمج والعزل الاجتماعي والتعليمي بين العرب واليهود هو موضوع الفصل الخامس · يتعرض المؤلف الى تجارب الدمج المحدودة في اماكن الاقامة والتعليم بين العرب واليهود ويخلص الى انها كانت محاولات فاشلة بسبب التمييز وعدم

الثقة والكراهية المتبادلة التي تراكمت على مدى السنين بالاضافة الى خوف العرب من فقدان هويتهم الوطنية · ويؤكد المؤلف ان محاولات الدمج هذه لم تكن الا محاولات قامت بها الاغلبية اليهودية لتكريس سيطرتها السياسية والاقتصادية على الاقلية العربية ·

يعالج الفصل السادس من الكتاب التعليم الجامعي للعرب في اسرائيل · وتظهر المعالجة ان نسبة عدد الطلبة العرب في الجامعات الاسرائيلية اقل بكثير من نسبة عدد الطلبة اليهود ·وتزداد الفجوة اتساعا بالمقارنة مع الفلسطينيين في الضفة الغربية حيث نسبة عدد الطلبة الجامعيين الى السكان تصل الى اكثر من عشرة اضعاف النسبة بين العرب في اسرائيل · هذا علما بأن نسبة التعليم الجامعي بينالفلسطينيين من اعلى النسب في العالم بالمقارنة ليس فقط مالدول العربية والدول النامية بل والدول المتقدمة· يصف المؤلف هذه النسبة العالية بـ « الظاهرة الفلسطينية » ويشرح بشيء من التفصيل العوامل التي سببت الفجوة الكبيرة في التعليم الجامعي بين الفلسطينيين في الضفة الغربية واخوانهم في اسرائيل · يتعرض المؤلف في نهاية الفصل للدور القيادي الاجتماعي والسياسي الذي يقوم به الطلبة العرب في الجامعات الاسرائيلية · ويميز المؤلف بين فترتين من فترات نشاطهم · في الفترة الاولى ـ قبل عام ١٩٦٧ م ـ تركز نشاط الطلبة العرب على المطالبة بالحقوق المدنية والسياسية ، بينما اتخذ نشاطهم في الفترة الثانية ـ بعد عام ١٩٦٧ م ـ طابعا سياسيا وطنيا تمثل فيالاضرابات والمظاهرات بهدف ايقاف مصادرة الاراضي واطلاق سراح السجناء السياسيين والعمل على اقامة الدولة الفلسطينية ·

الفصول الثلاثة الاخيرة من الكتاب تعالج مواضيع متفرقة · في الفصل السابع يتعرض المؤلف لعدد من المتغيرات الطلابية ، كالتحصيل الدراسي والقدرات الفكرية ويقارن بين الطلبة العرب في اسرائيل والطلبة العرب في الضفة الغربية ، والطلبة اليهود بالنسبة لهذه المتغيرات· يعالج الفصل الثامن التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي طرأت على المجتمع العربي في اسرائيل ومدى استجابة نظام تعليم العرب لهذه التغييرات ·

كذلك يناقش المؤلف التعليم الفني والتكنولوجي للعرب من خلال استبيان قامت به سلطة البحث بوزارة التربية الاسرائيلية · في الفصل الاخير يتعرض للتغيير المقصود وغير المقصود ويناقش الافكار والمفاهيم التربوية السائدة المتعلقة بقضية تعليم الاقليات في المجتمعات ذات الثقافات والاجناس المتعددة ومدى تطبيقها على الاقلية العربية في اسرائيل ·

فيما يلي بعد هذا العرض للموضوعات التي عالجتها الدراسة بعض الملاحظات الانتقادية :

١ ـ اسلوب المؤلف ليس بالاسلوب السهل في بعض اجزاء الكتاب كما انه لم يكن موحدا في كل فصول الكتاب · كاستخدام المؤلف للجمل الطويلة المعقدة التي يصعب استيعاب معناها عند قراءتها للمرة الاولى ·

٢ ـ معالجة المؤلف لموضوع دراسته لم يكن متساويا خلال فصول الكتاب ·· فالفصل الثاني يبدو في غير محله ،وتبدو عناوين موضوعاته غير متصلة ببعضها البعض · وبالمقابل فالفصل الاخير يشكل وحدة متكاملة عالج فيها المؤلف قضايا وثيقة الصلة ببعضها البعض بطريقة جيدة ·

٣ ـ كان من الافضل لو تعرض المؤلف بشيء من التفصيل في الفصل الثالث للوضع الاداري والممارسات الادارية في

قسم تعليم العرب ·

من الامور التي كان يمكن معالجتهـا بشيء من التفصيل في هذا المجال :

اجراءات تعيين المدرسين والموظفيـن ـ القوانين والاجراءات التي تتحكم بادارة القسم ـ مصادر تمويل القسم ·

٤ ـ وردت بعض الاحكام والتي نبدي تحفظنا عليها · مثال ذلك ما ورد فـي صفحة ٦ حيث يذكر المؤلف « خضـع تعليم العرب في اسرائيل من الناحيـة التركيبية والثقافية للمبدأ العام « منفصل ولكنه مساو » · حقيقة ان العرب فـي اسرائيل خاضعون لنظام تعليم منفصـل ولكنه غير مساو لنظام تعليـم اليهود · والمقارنات الكمية والنوعية التي يوردهـا المؤلف في كثير من فصول الكتاب تشير الى ان تعليم العرب لم يكن مساويـا لتعليم اليهود ·

الملاحظات السابقة لا تنقص باي حـال من الاحوال من قيمة هذه الدراسة القيمة والشاملة · وقيمة الدراسة تكمن في انها تناولت موضوعا هاما تنقصه المراجـع وتعوزه الاحصاءات الدقيقة الشاملة · لقد قدم المؤلف في دراسته الكثير من المعلومات عن تعليم العرب في اسرائيل واعتمد في معلوماته على المصادر الاولية وعلـى الابحاث التي شارك هو في جزء منها · كذلك فان معرفة المؤلف والمامه بمشاكـل تعليم الاقليات وخاصة في الولايات المتحدة مكنته من اضافة بعد جديد الى دراسته · ولا شك ان الدراسة جديرة بالترجمـة لتصبح في متناول قراء العربية ·

احمد محمود بدر

المناطق المحتلة

أبرز ما ميز الفترة القصيرة الماضية وضوح الفهم الاسرائيلي تجاه مستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة ، المرفق باجراءات استيطانية وما يستتبعها من مصادرة للاراضي وهدم للبيوت ،والمصاحب بفظائع همجية ارتكبها غلاة المتطرفين المستوطنين في الكيان الاسرائيلي بتشجيع من السلطات نفسها ·وفي المقابل شهدت المناطق المحتلة حالة من النهوض الوطني للجماهير الفلسطينية تمثلت في الاضرابات والتظاهرات العامة وعقد المؤتمرات بهدف التصدي لاطراف ثلاثة : سلطات الاحتلال وغوش ايمونيم وسياسة النظام المصري ·

الفهم الاسرائيلي للحكم الذاتي

مع اقتراب المفاوضات بين مصر واسرائيل والولايات المتحدة حول ماهية الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، اخذت ملامح السياسة الاسرائيلية تكتسب مزيدا من الوضوح ، بحيث اصبح معروفا ان الفهم الاسرائيلي للحكم الذاتي الوارد في اتفاقيتي كامب ديفيد هو : استمرار السيطرة الاسرائيلية على جميع الاراضي الفلسطينية بدون محاولة التستر على ذلك بعبارات غامضة كما كان الامر في السابق ·

ويمكن استشفاف الفهم الاسرائيلي من خلال الوثيقة التي كتبها بيغن لتسترشد بها الحكومة الاسرائيلية في مفاوضاتها مع مصر حول مصير الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومن تصريحات الزعماء الاسرائيليين· ففي الثالث من ايار الماضي عرض بيغن امام مجلس الوزراء وثيقة من خمس صفحات تعتمد على مشروعه ذي الـ ٢٦ بندا ، الذي كان قدمه الى الرئيس السادات في الاسماعيلية ـ ورفضه الاخير في حينه ، الى جانب عدد من البنود المستوحاة من اتفاقية كامب ديفيد ·

وقد اوردت وسائل الاعلام الاسرائيلية البنود الرئيسية في الوثيقة الجديدة، وهي: منح مجلس الحكم الذاتي صلاحيات ادارية فقط دون الصلاحيات التشريعية التي ستبقى وفق الوثيقة بيد اسرائيل ، وسريان مفعول الحكم الذاتي على السكان دون الارض · وفيما يتعلق بالاراضي العامة فستعد « للخدمات العامة » بحيث تأخذ بعين الاعتبار « متطلبات الاستيطان اليهودي » وكذلك متطلبات « تأهيل اللاجئين العرب » · اما السيطرة على الامن الداخلي والخارجي والنظام العام ، وما تستدعي من وجود قوات عسكرية ، فستكون بيد اسرائيل التي ستتعاون ـ وفق الوثيقة ـ مع قوة شرطة محلية · وتؤكد الوثيقة ايضا في اكثر من مكان على حق اليهود في الاستطان في مناطق الحكم الذاتي الى جانب حق العرب في الخيار بين جنسيتين فقط : الجنسية الاردنية او الاسرائيلية · كما وتؤكد على زوال معالم « الخط الاخضر » الى الابد وعلى حرية

الحركة والتنقل (سكانيا وتجاريا) بين قطاعي الحكم الذاتي واسرائيل (هآرتس ١٩٧٩/٥/٤) ٠

لم يدع مناحيم بيغن مناسبة الا واعرب عن موقف حكومته ، المستمد من روحية وثيقته والداعي الى مواصلة النشاط الاستيطاني في المناطق العربية المحتلة ، مؤكدا على ان ليس في ذلك ما يتنافى مع معاهدة السلام ، اعتقادا منه ـ كما قال امام مركز حيروت ـ « اننا لم نتعهد ابدا ولن نتعهد بعدم اقامة مستوطنات جديدة في مرحلة السنة الاولى من المفاوضات حول الحكم الذاتي ٠ ولم يسبق لنا ابدا ان قبلنا الرأي القائل بأن الاستيطان في يهودا والسامرة غير قانوني ويشكل حجر عثرة امام السلام » ٠ وكشف بيجن النقاب عن اقامة ٣٦ مستوطنة جديدة في الضفة الغربية وقطاع غزة وهضبةالجولان ابان فترة حكمه ، وتهجم على اولئك الذين يدعون ان العمل الاستيطاني يتنافى والفقرة ٤٩ من ميثاق جنيف بقوله : « ان هذا اتهام خطير ٠٠٠ اننا لم نطرد ولم نبعد العرب عن اراضيهم من جراء استيطاننا ٠ ولم نسلب اي عربي ارضه» (دافار ١٩٧٩/٤/٣٠) ٠

التحرك الاستيطاني

رافق الفهم الاسرائيلي لمصير المناطق العربية المحتلة تحرك استيطاني « رسمي » وآخر « غير رسمي » تخللته اعمال همجية ٠ وقد انصب هذا التحرك في الاراضي السورية والفلسطينية المحتلة ٠ ففي التاسع عشر من نيسان اعلنتالحكومة الاسرائيلية عن قرارها باقامة مستوطنتين جديدتين في هضبة الجولان ، تقعان في القسم الجنوبي من الهضبة عند التقاء الحدود السورية الاردنية الفلسطينية ، وهما « سخيخ » و « دباسيه » الى جانب المستوطنات الثلاث التي كانت سلطات الاحتلال قد اقرت قيامها قبل مدة ٠ واعلن وزير الزراعة ارئيل شارون امام المستوطنين هذا القرار بقوله : « لقد حئت هنا مبادرة مني لاتحدث امامكم عن موقف الحكومة باسم رئيس الحكومة والوزراء ، القائل بعدم الانسحاب من هضبة الجولان » ٠ واعاد شارون تمسك اسرائيل « الى الابد » بالجولان الى ثلاثة عوامل : (١) صغر حجم الجولان ، (٢) احتياطي المياه الموجودة فيه ، (٣) التغيير التام الذي طرأ على الوضع عقب ما اسماه بـ « سيطرة السوريين على لبنان » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٤/٢٠) ٠

وفيما يخص النشاط الاستيطاني في الضفة الغربية ، فقد اتخذت الحكومة الاسرائيلية في العاشر من نيسان الماضي قرارا باقامة مستوطنتين جديدتين في منطقة نابلس ، احداهما مستوطنة مدنية، تم تخصيص الاراضي لهما ٠ هذا الى جانب اعتزام الحكومة الاسرائيلية اقامة عشر مستوطنات جديدة اخرى في الضفة الغربية « في اقرب وقت » كما جاء على لسان الوزير حاييم لانداو (ر٠ا٠ ، ١٩٧٩/٤/١١) ٠

الا ان القضية التي فرضت ظلالها على الضفة الغربية ، والناجمة اصلا عن سياسة الاستيطان ، هي مصادرة الاراضي ٠ ففي شهر نيسان الماضي زارت التراكتورات الاسرائيلية منطقة نعالين في قضاء رام الله، واحتلت ٧٠٠ دونم من اراضي القرية ، لتقوم بعملها المعتاد لاقامة مستوطنة يهودية عليها ، الامر الذي دعا الاهالي للتوجه بشكوى الى الحاكم العسكري لمدينة رام الله ، ومن ثم الى محكمة « العدل العليا » التي لم تجد امامها الا اصدار امر احترازي ضد وزير الدفاع وحاكم الضفة الغربية تطلب فيه منها ان يوضحا سبب « عدم اخلاء التراكتورات » من منطقة نعالين ٠

وامتدت يد المصادرة ايضا الى اراضي منطقة سلفيت حيث وضعت سلطات الاحتلال يدها ، بشكل « رسمي » هذه المرة ، على اكثر من ٣٠٠٠ دونم لتوسيع مستوطنة هرئيل · وازاء ذلك تحركت بلدية سلفيت والقرى المجاورة لها مدعومة بالمجالس البلدية والمحلية في الضفة الغربية ، وارسلت برقيات الى المسؤولين الاسرائيليين وكذلك الى السكرتير العام للامم المتحدة تشجب اعمال مصادرة الاراضي ، وتدعو الى رفع المصادرة عنها ولا تكتفي سلطات الاحتلال بمصادرة الاراضي العربية لاقامة المباني اليهودية فوقها ، بل تنشط بين الحين والاخر بهدم البيوت العربية · ففي الثامن من نيسان زارت معاول الهدم الاسرائيلية منطقة قرية الرام العربية الواقعة بين القدس ورام الله وهدمت احد البيوت بحجة انه يعيق شق الطريق الجديد الذي سيربط بين المستوطنات الاسرائيلية في تلك المنطقة · والانكى من ذلك هو مطالبة سلطات الاحتلال صاحب البيت ، المسؤول عن تربية عشرة افراد ، بـ « دفع اجرة جرافة الهدم » (الاتحاد ، ١٠/٤/١٩٧٩) لمخالفته الامر الصادر بهدم البيت ولم يقم هو بهدم بيته بنفسه · وقد وجهت رسائل هدم الى عدد اخر من اصحاب البيوت في تلك المنطقة ·

وكانت سلطات الاحتلال قد اقدمت عند مطلع نيسان على اغلاق خمس ممرات في مخيم العمرية للاجئين بأسوار من الباطون بهدف فصل المخيم عن القدس · وقد تصدى الاهالي لهذا الاجراء وقاموا بهدم اجزاء من الاسوار ، الا ان سلطات الاحتلال عادت واشادتها تحت حراسة مشددة ·

تحرك غلاة المستوطنين

وفي غضون ذلك تحرك غلاة المستوطنين واقترفوا فظائع ضد السكان العرب وبساتينهم ، واخذ التحرك اشكالا عدة ، من اهمها :

١ ـ مسيرة جوش ايمونيم : في الثاني من ايار الماضي قامت حركة جوش ايمونيم بمسيرة استيطانية ضخمة ، اشترك فيها حسب مصادر الحركة قرابة ٨٠ الف شخص ، اخترقت مناطق مختلفة من الضفة الغربية وتمركزت في مستوطنة تبوح بين نابلس ورام الله · وتحدث احد قادة الحركة عن هدف المسيرة بقوله انها « تشكل جوابا حاسما لكل اولئك الذين ادعوا بأن الجمهور المستعد للقتال من اجل تكامل البلاد يوشك على الاختفاء تماما على اثر السلام · ان هذه القوة ستهب ، اذا ما تطلب الامر ، للتصدي للمؤامرة التي تستهدف التخلي عن اجزاء من ارض اسرائيل » (معاريف ، ٣/٥/١٩٧٩) ·

وفي الطريق الى نقطة التجمع ، اصطدم المستوطنون مع السكان العرب في اماكن مختلفة ، كان اشدها الاصطدام في بير زيت ، حيث واجهوا تظاهرة طلابية في شوارع المدينة ، ترفع الاعلام الفلسطينية والشعارات الوطنية · وعند ذلك تقدم المستوطن البروفيسور عزرا زوهر ، عضو سكرتارية جوش ايمونيم واطلق رصاصة من مسدسه نحو الطالب الفلسطيني رائد داوود (١٨ سنة) لتستقر في صدره وينقل بعدها الى المستشفى في حالة خطرة · وقد فر الجاني بعد ذلك الى مستوطنة نفيه تسوف القريبة · وبقيت الاشتباكات قائمة الى ان قدمت قوات الجيش الاسرائيلي واشتبكت مع المتظاهرين العرب وفرقتهم ، وفرضت حظر التجول في منطقة جامعة بير زيت واعلنت اقفالها « حتى اشعار اخر » وألحقت هذا العمل باعلان اخر اغلقت فيه جامعة بيت لحم وعددا من المدارس الثانوية في الضفة الغربية بسبب

التظاهرات الوطنية ٠

والجدير بالذكر ان مستوطني نفيه تسوف اعلنوا الاضراب احتجاجا على « وضعهم الامني » ورفضوا التعاون مع رجال الامن للتحقيق في اصابة الطالب العربي ٠ ومع ذلك ، وتحت ضغط بعض الصحف التي اخذت تتحدث عن البروفيسور الجاني ، اجرى « القضاء » الاسرائيلي تحقيقا شكليا مع عزرا زوهر ، واطلق سراحه واعاد اليه المسدس الذي ثبت في التحقيق ان النار اطلقت منه (هآرتس ، ١٩٧٩/٥/٤)٠

وفي الوقت الذي وقف فيه القضاء الاسرائيلي الى جانب الجاني ، اتخذ خطوتين تشيران الى مدى « نزاهة » القضاء في دولة ترتكز في اساسها على الاحتلال : الاولى بحق طالب عربي ، اذ صادقت محكمة « العدل العليا » على ابعاد الطالب الفلسطيني ، رياض ابو عواد ، لنشاطه الوطني ، من جامعة بير زيت الى لبنان ٠ ولم ير القضاة في ذلك ما يتنافى مع ميثاق جنيف « لان الميثاق » ، حسب رأي القضاة « لا ينقص من واجب الدولة المحتفظة بالمناطق بالاهتمام للحفاظ على النظام العام فيها ، ولا من حقها في ان تأخذ الوسائل اللازمة من اجل امنها » (معاريف، ١٩٧٩/٥/٤)٠

والخطوة الثانية تتمثل في تخفيف الحكم الصادر بحق المستوطن اليهودي يسرائيل لدرمان قاتل المواطن العربي خليل الصمان ، في ايلول ١٩٧٨ ، من ٢٠ عاما الى ٣ اعوام !

ويبدو ايضا ان حمى الاستيطان قد دفعت بعدد من المستوطنين الى استخدام الاسلحة النارية في مواجهة الاهلين العرب، فقد تكرر ما حدث في بير زيت في قرية معليا العربية في الجليل ، وفي اليوم ذاته ، حين تصدى سكان القرية لمجموعة استيطانية هجرت مستوطنة اوفيرا في شرم الشيخ ، وقدمت لتقيم واقعا في اراضي القرية ٠ فما كان من احد المستوطنين الا ان اطلق النار نحو سكان القرية ٠ مما اجج الاشتباك الذي اسفر عن اصابة ثلاثة من المستوطنين بجراح وطرد افراد المجموعة من اراضي القرية ٠

٢ ـ الاعتداء على اشجار الكرمة : وفي غضون ذلك كشف النقاب عن عمل همجي ارتكبه مستوطنو كريات اربع ، ضد بساتين كروم العنب العربية القريبة من المستوطنة ، يعيد الى الاذهان العمل « الهمجي » الذي حدث ابان حكم التجمع العمالي لحقول قرية عقربة العربية حين قامت طائرة اسرائيلية بزيارة حقول القمح والخضرة اليانعة لتحولها ، من خلال السموم التي قامت برشها ، الى حقول صفراء ميتة ، وذلك بهدف خلق الواقع الجديد المتمثل في مستوطنة غيثيت على اراضيها ٠ ونفس الشيء فعله مستوطنو كريات اربع بكرم عنب في تلة الجعابرة ، حيث هاجموا تحت ستار الظلام الكرمة في ليلتي الرابع عشر والرابع والعشرين من نيسان الماضي ، واقتلعوا ٧٦٠ شجرة عنب بواسطة الآلات الحديثة ٠ وعلى الرغم من ان الاهلين العرب قدموا شكوى ضد مستوطني كريات اربع بعد الحادثة الاولى ، لم تحرك قوات الاحتلال ساكنا ، مما شجع المستوطنين على اعادة الكرة ثانية لاستكمال عملية الاقتلاع ، وكان يمكن لهذه القضية ان تطمس ، كمعظم القضايا المخزية التي تقع ، لولا ان قام ضابط اسرائيلي (احتياطي) يدعى مئير اوزن ، بكشفها امام الرأي العام بعد ان انهى خدمته العسكرية ٠ وقد اجاب ردا على سؤال وجه اليه عن السبب بعدم تصدي جنوده لهذا العمل المشين ، بقوله ان

« معظم رجال الوحدة يسكنون في كريات اربع ومن الصعب الطلب منهم نصب كمائن لزملائهم والابلاغ عنهم » (دافار ، ١٩٧٩/٤/٣٠) ٠

وبعد ان شاع خبر اقتلاع اشجار العنب ، توجه خمسة صحفيين اسرائيليين واجانب الى تلة الجعابرة برفقة صاحب الكرم ـ فلاح عربي طاعن في السن ـ وفوجيء هؤلاء اثناء تجولهم في البستان المقتلع ، برجال حرس الحدود يحيطون بهم ، ويأمرونهم بالتوجه معهم الى كريات اربع ، بحجة دخولهم منطقة محظورة وفي الوقت نفسه قام الجنود « بابعاد العربي الطاعن في السن من التلة بفظاظة ، بينما كان طاقم التلفزيون الاميركي يخلد هذا المنظر » (هآرتس ، ١٩٧٩/٥/٤) ٠

وقد اعتقل الصحفيون لبضع ساعات ، لم يتمكن خلالها الجنود الاسرائيليون من مصادرة الفيلم من الصحفيين الاجانب ، بينما كانوا في السابق قد صادروا افلاما من صحفيين اسرائيليين ٠

ومن الجدير بالذكر ان مستوطني كريات اربع اقاموا للمرة الاولى منذ سقوط مدينة الخليل احتفالا في قلب المدينة بمناسبة اعلان قيام اسرائيل ٠ ومن بين الذين حضروا الاحتفال النائبة غيئولاه كوهين التي القت كلمة شجبت فيها اقتلاع اشجار العنب ، وسخرت من « الحلف » الذي يسعى السادات لاقامته مع المرأة الاسرائيلية ، بقولها ان « المرأة اليهودية التي يسعى السادات لعقد حلف معها من اجل مواصلة الانسحاب من ارض اسرائيل ، كانت دائما شريكة المقاتل الاسرائيلي من اجل ارض اسرائيل» (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٥/٣) ٠

ويبدو ان عملية الاقتلاع التي «شجبتها» كوهين ، وعدد من الوزراء الاسرائيليين وعلى رأسهم وزير الدفاع عيزر وايزمان ، قد اثارت « انسانية » حركة « السلام الآن » ، فتوجه اعضاء منها حاملين اشتالا من العنب نحو البستان ، واخذوا يغرسونها على مرأى من مستوطني كريات اربع وجهاز الحكم العسكري، في محاولة واعية منهم لـ « تلطيف » الوضع ، متغاضين عن اساس البلاء المتمثل في واقع كريات اربع فوق الاراضي العربية٠ بيد ان السكان العرب الذين اكتسبوا بفعل واقع الاحتلال خبرة ودراية بالافكار الصهيونية ومنطلقاتها المختلفة ، لم يقبلوا هذا « الكرم » ، وتوجهوا الى البستان ، واقتلعوا ، هم هذه المرة ، اشتال العنب ، لسببين : الاول تمتع العرب بدراية افضل في غرس اشجار العنب ، والثاني وهوالاهم : تخوفهم من ادعاء اليهود مستقبلا بملكية البستان ، على اساس ان أنامل يهودية اعتنت بغرسه (ر٠أ٠أ، ١٩٧٩/٥/١٣) ٠

٣ ـ الحاخام مئير كهان ينشط ٠٠٠٠ : في وسط اجواء غطرسة جوش ايمونيم ومستوطني كريات اربع ، تحرك الحاخام مئير كهانا لاعداد « حرس يهودي » مسلح في مدينة القدس العربية ، بحجة توحيد الشرطة في مجال « حماية » اليهود من « الاعتداءات » العربية ٠ واوضح كهانا في مقابلة اذاعية (ر٠أ٠أ، ١٩٧٩/٤/٩) مشروعه بقوله : « لقد عرضنا على الشرطة مساعدتنا ، ولكن عندما رفضت قررنا ان نطبق القانون بأنفسنا » ، واضاف ان قواته ستعتقل كل « من يثير الشغب » من العرب ، وبرر قيام حرسه بتعرض « العرب لفتيات اسرائيل واغتصاب العديد منهن !» ٠

٤ ـ صحفي فلسطيني يواجه صنوف التعذيب: في غمرة الحديث عن الاعتداءات « غير الرسمية » كشف النقاب مؤخرا عن اعتداء « رسمي » ، تعرض له الصحفي

الفلسطيني يوسف العجوة ، الذي كان قد اعتقل اداريا في كانون الاول من العام الماضي ، واطلق سراحه في نيسان دون محاكمة ، حاملا على جسمه بصمات التعذيب · ويعود الفضل في شق بصمات التعذيب هذه طريقا لها الى الرأي العام الى الصحفي الاسرائيلي عكيفا الدار (هآرتس ، ٢٧/٤/١٩٧٩) الذي كتب مقالا في صحيفته حول صنوف التعذيب التي واجهها الصحفي الفلسطيني ، داعيا « القضاء » الاسرائيلي الى التحرك · وسنكتف هنا باقتطاف نماذج منها كما وردت على لسان يوسف العجوة الذي يعمل في صحيفة « الشعب » :

« ادخلوني الى الغرفة رقم ١٠ ، انها في الحقيقة زنزانة صغيرة دون نوافذ ودون سرير · وفي الزاوية ثغرة لقضاء الحاجيات · استلقيت على البلاط البارد ، والتحفت بأربع بطانيات قديمة ··· » ··

ويصف التحقيق بقوله : « اوقفني عوزي وظهري الى الحائط ، واخذ يضغط على حلقي ، حتى امتد لساني الى الخارج · قل نعم ، توجه نحوي صارخا ، واخذ يكرر خنقي» ويصف وجبة اخرى ، حيث اوقفه المستجوبون الى جانب حائط ، وكبلوا يديه من خلف ظهره وربطوهما بانبوب في الحائط ، « وهكذا قيدوا يدي ، وربطوني بالانبوب · وبقيت في هذا الوضع ٧٢ ساعة متتالية ووجهي مغطى بكيس » · ويضيف « هل يعقل حدوث ذلك · استغرب ··· لقد كنت اقضي حاجياتي في ملابسي الداخلية ···· »·· ويذكر الصحفي الفلسطيني ان التحقيق استمر على هذا المنوال قرابة ٦٠ يوما ثم نقل الى السجن ، وهناك « قالوا لي ان امرأتي تضاجع الرجال في الضاحية ، اجبتهم بتهكم ، ان لا غبار في ذلك لاننى سمحت لها القيام بهذا العمل : الا ان روحي كسرت ، تخوفت على مصير اولادي وامرأتي الحامل الذين بقوا لوحدهم · لا ارغب في العمل بعد فى الصحافة · سأكسر قلمي وافتش عن عمل اخر » ·

مؤتمر نابلس

تصدى الاهلون العرب وعلى رأسهم الطلبة ، بالتظاهرات والاضرابات والاعتصامات ، بشكل يكاد يكون يوميا ، لسياسة الاحتلال ، وغدا منظر الاعلام الفلسطينية فوق الجامعات والمدارس امرا مألوفا · كما واصبح من المألوف ايضا منظر الاطفال العرب وهم يركضون وراء وسائط النقل الاسرائيلية ليلقوا عليها حجرا · وقد واجهت سلطات الاحتلال حالة النهوض الوطني بوسائل عدة من بينها فرض حظر التجول على هذه البلدة او تلك لفترات طويلة ، واغلاق المدارس والجامعات « حتى اشعار آخر » ، كما حدث لجامعتي بير زيت وبيت لحم ، واعتقال الطلبة ، والافراج عنهم بعد توقيعهم على تعهد « حسن سلوك » ·

في هذا الجو ، عقد في الثاني من ايار رؤساء البلديات والشخصيات الوطنية ، اجتماعا وطنيا في مدينة نابلس ، تمخض عن قرارات ومذكرات وقع عليها الى جانب رؤساء البلديات والمجالس المحلية ، ممثلو الاتحادات العمالية والمهنية والتجارية والاتحادات النسائية ·

اقر المؤتمرون ثلاثة قرارات (١) التمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وادانة الرئيس السادات لخروجه عن الخط العربي ، (٢) اعلان الاضراب العام في الاراضي الفلسطينية المحتلة في الخامس عشر من ايار ذكرى اغتصاب فلسطين ، (٣) القيام بمسيرة احتجاجية من نابلس الى سلفيت احتجاجا على اعمال المصادرة والاستيطان · كما وبعث المؤتمرون بمذكرة الى الامين العام للامم المتحدة استنكروا

فيها «ما جاء في بيان السادات عن التمثيل الفلسطيني » مؤكدا على « تمثيلنا بقيادة م٠ت٠ف لشعبنا الفلسطيني ٠ كما نؤكد رفضنا لاتفاقيات كامب ديفد والحكم الذاتي ٠٠٠ » ٠

وبعث المؤتمرون بمذكرة احتجاج الى الحاكم العسكري للضفة الغربية جاء فيها : « على اثر حملة الاستيطان الشرسة التي قامت بها السلطات ، والتي كان اخرها مصادرة اراضي قرية عصيرة الشمالية واراضي سلفيت واقامة مستوطنتين عليهما متحدين بذلك مشاعر وحقوق المواطنين العرب اصحاب هذه الاراضي ، وضاربين بعرض الحائط كل القوانين والمواثيق الدولية تنادت الهيئات التمثيلية للضفة الغربية الى ضرورة الوقوف في وجه هذا الخطر الداهم الذي يتهدد اراضيهم ومستقبلهم ، وحاولوا التعبير عن شعورهم بالقيام بمسيرة سلمية الى الاراضي المصادرة ٠ الا انهم جوبهوا بالرفض ومنعوا من الوصول الى هدفهم وقد توافق هذا مع قيام السلطة بتقديم كافة التسهيلات والحماية لآلاف المستوطنين من جماعة جوش ايمونيم الاستيطانية وموقف السلطات المؤيدة لجماعات المستوطنين في حين منعنا نحن اصحاب الاراضي من التعبير عن رفضنا لهذا الاستيطان ، وهذه التصرفات الاستيطانية من قبل المسؤولين ٠

« اننا نطالب الجهات المسؤولة بايقاف اجراءات المصادرة والاستيطان فورا ٠ ان هذه الاجراءات لن تزيد شعبنا الا مزيدا من التمسك بحقوقه الوطنية والقومية على ترابه الوطني حتى تتحقق له حقوقه في تقرير مصيره على ارضه ، مهما ارتفعت دعوات الاستسلام المشبوهة والتي تحاول ايهام العالم بأن هناك اجراءات من اجل السلام في منطقتنا ، فأي سلام هذا الذي يتحدثون عنه في ظل اجراءات المصادرة والنهب » ٠

عبد الحفيظ محارب

إسرائيليات

الموقف الاسرائيلي من العمليات الفدائية

شهدت الفترة الاخيرة تصاعدا ملحوظا في النشاط الفدائي ، وتتوقع دوائر الامن الاسرائيلية استمرار تصعيد هذا النشاط ، بهدف مواجهة اتفاقية السلام المنفرد بين مصر واسرائيل من جهة ، ومنع تمرير مشروع الادارة الذاتية في المناطق المحتلة من جهة اخرى ٠

والتصعيد الاخير للنشاط الفدائي لا يدع مجالا للشك بأن اسرائيل تقف امام ظاهرة غير عادية تشير الى تصميم المقاومة على التصدي لتكريس الاحتلال ، متبعة جميع الوسائل والطرق الممكنة بدءا بزرع العبوات الناسفة ، مرورا بمحاولات التسلل بمجموعات مسلحة عبر الحدود ، وانتهاء بعمليات انزال عن طريق البحر ٠

« ٠٠٠ واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانيات الهائلة المتوفرة لدى المنظمات ، سواء من الناحية المادية او البشرية لادركنا بأنها لن تخطط لتوسيع نشاطها فحسب وانما ستعمل جاهدة من اجل رفع مستوى عملياتها ضد اسرائيل ٠٠٠ » ٠
(معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٣) ٠

حجم العمل الفدائي ومستواه الراهن

فعلى صعيد العمل الفدائي في الداخل تعترف الدوائر الاسرائيلية المسؤولة ان المقاومة الفلسطينية قطعت شوطا طويلا منذ الفاتح من كانون الثاني عام ١٩٦٥ ، عندما وضعت عبوتها الاولى على ارض مشروع نقل المياه القطري في الشمال ، « ... وحركة فتح بالذات ، التي قام افرادها بوضع تلك العبوة البدائية لم تعد تلك المنظمة الهزيلة التي تفتقر الى الامكانيات والقوة البشرية كما كانت عليه آنذاك ... » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) .

لقد استفادت المقاومة من اخطائها وتجاربها السابقة على صعيد نشاطها في الداخل ، واستخلصت العبر منها ، سواء فيما يتعلق بمستوى التخطيط والتسليح والتنظيم، الامر الذي « ... زاد من صعوبة عمل رجال الامن ، وخلق مستوى عال في وحدة العمل الفدائي وزاد من امكانيات تنفيذه » (المصدر نفسه) .

ومما يقلق جهات الامن الاسرائيلية بصورة خاصة ظاهرة ملفتة للنظر ، وهي « ... ان حوالي ٣٠ بالمئة من مجموع الفدائيين في المناطق ينضمون الى صفوف المنظمات دون علم قياداتها في الخارج .

وغالبا ما تكون دوافعهم نتيجة طبيعة العلاقات بين ادارة الحكم العسكري والسكان ، فالشخص الذي لا يحصل على ترخيص معين او الذي تصادر ارضه يتخذ لنفسه قرارا بأن يصبح فدائيا ... وحتى يترجم قراره هذا الى الناحية العملية ، يقوم بطبع منشور ، او قطع كابل كهربائي او خط للهاتف ... وفي حالات معينة يحاول انتاج مواد تخريبية بنفسه ... » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٢/١٦) .

كما ان المستوى الثقافي والشخصي للفدائيين الناشطين ارتفع هو الآخر في الآونة الاخيرة . وتقول جهات امنية ان نسبة خريجي الكليات والجامعات من بين افراد الخلايا التي القي القبض عليها مؤخرا كانت مرتفعة بشكل ملحوظ ، واصبحت الدوافع لدى هؤلاء الناس ترتكز على النواحي الوطنية والايديولوجية .

وبالنسبة لتسليح الفدائيين ، تعترف دوائر الامن الاسرائيلية انه لم يكن في حوزة الفدائيين في اي وقت من الاوقات كميات كبيرة من الاسلحة في المناطق المحتلة كما هو الحال عليه اليوم ، اذ طرأ تحديث جدي فيما يتعلق بوسائل التسليح وتهريب الاسلحة الى داخل المناطق المحتلة ... « ... فقبل سنة واحدة كانت ٧٥ بالمئة من المتفجرات والعبوات « بدائية » . غير انه في هذه السنة بالذات كانت ٨٠ بالمئة منها ، سواء تلك التي انفجرت او التي تم اكتشافها من نوع ممتاز وذات قوة تدميرية عالية . وهذا هو السبب في ارتفاع عدد الاصابات .. » . (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) .

وكان ضابط المتفجرات القطري في شرطة اسرائيل قد علق على هذا التحديث بقوله « ... لقد كنا نبدي دهشة كبيرة عام ١٩٧٧ عندما نعثر على عبوة زنتها ٧٦ غراما من المواد المتفجرة البلاستيكية، ولكن اليوم وصل بنا الحال الى تفكيك عبوات بزنة ٧ او ٨ وحتى ٣٨ كلغ . واخطر من ذلك كله ، فقد عثرنا على متفجرات مصدرها في اسرائيل نفسها ، كتلك التي تستعمل في الكسارات ، ولاغراض مدنية اخرى ، وحتى متفجرات مصدرها الجيش الاسرائيلي نفسه .. » (معاريف ، ١٩٧٩/٤/٣٠) .

والاحصائيات الاسرائيلية الاخيرة عن الفدائيين والعمل الفدائي في الداخل

تعطينا الصورة التالية فيما يتعلق بالتوزيع التنظيمي : ٥٠ بالمئة ينتمون لحركة فتح، ٢٠ بالمئة لباقي التنظيمات ، و٣٠ بالمئة لا ينتمون رسميا لأي تنظيم ، ولو ان معظمهم علاقة بفتح ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ٠

اما فيما يتعلق بالجيل فان ٧٥ بالمئة تتراوح اعمارهم بين ١٧ ـ ٢٤ سنة و ٧ بالمئة تتراوح اعمارهم بين ١٥ ـ ١٦ سنة ٠

وبالنسبة للمستوى التعليمي فان ٦٥ بالمئة ذوو ثقافة توجيهية وابتدائية و ٢٥ بالمئة ثقافة اكاديمية و ٧ بالمئة اميين ٠

وتورد المصادر الاسرائيلية الاحصائيات التالية عن حصيلة النشاط الفدائي سنة ١٩٧٧ : ٨٠ عملية « ساخنة » ، ٧٠ عملية « باردة » مثل الطعن بالخناجر والرشق بالحجارة ، الخ ، ٣٠٠ عملية مخلة « بالنظام » ، ٢٠٠ حادث طبع منشورات ورسم شعارات ، الخ ٠ سنة ١٩٧٨ :

٨٠ عملية « ساخنة » ، ٨٠ عملية « باردة » ، ٢٨٠ عملية مخلة « بالنظام » ١٨٠ حادث طبع منشورات ورسم شعارات ٠ وسنة ١٩٧٩ (حتى شهر نيسان) : ٨١ عملية فدائية ادت الى مقتل ٨ اشخاص واصابة ١٧٩ آخرين ٠ وكانت ٨٠ بالمئة من العبوات التي استعملت من النوع الممتاز ذا القوة التدميرية العالية ٠

وتحتل القدس المرتبة الاولى بالنسبة لعدد العمليات التي تم تنفيذها ٠ ففي سنة ١٩٧٨ نفذت في المدنية ٥٠٪ من مجموع العمليات ، اما النصف الباقي فقد نفذ منه ٣٠ بالمئة داخل اسرائيل ، و ٢٠ بالمئة في المناطق المحتلة (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٢/١٢ ومعاريف ، ١٩٧٩/٤/٣٠)٠

الحدود اللبنانية

استعادت المقاومة الفلسطينية عافيتها واعادت تنظيم صفوفها بعد « حرب الليطاني » ٠ كما ان ثقتها بالنفس في تزايد مستمر واصبحت لديها الجرأة في الاقدام على خطوات لم تكن لتقوم بها في السابق ٠ « ٠٠٠ ففي ١٨ نيسان ١٩٧٨ سقطت اكثر من ٦٠ قذيفة على المستوطنات الاسرائيلية ، الامر الذي يعتبر بمثابة تجديد يعود الى الثقة العالية بالنفس ٠٠٠ » (عل‌همشمار ، ١٩٧٩/٤/٢٠) ٠

وقد اعترف يتسحاق رابين رئيس وزراء الاسرائيلي السابق « ٠٠٠ بأن امكانية ضرب « المخربين » بصورة مستمرة لعرقلة اعادة تنظيم صفوفهم محدودة جدا ، ومحاولات التسلل البرية الاخيرة اثبتت بأن منطقة الحزام الامني التي تسيطر عليها قوات سعد حداد لا تشكل عائقا جديا ٠٠٠ اما بالنسبة للقصف الفدائي بالمدفعية والصواريخ ضد القرى الحدودية فان الجيش الاسرائيلي لا يملك ردا حاسما عليها ٠٠٠ واصبح موضوع قصف القرى سلاحا للرد في يد الفدائيين على عمليات الجيش الاسرائيلي ضدهم ، ٠٠٠ ولم يبق امام اسرائيل غير الاعتماد على الاجهزة الحديثة التي تم انشاؤها على طول الحدود خلال السنوات الماضية ، وعلى يقظة الجيش ٠٠٠ » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) ٠

ومن ناحية اخرى ، يستبعد المسؤولون الاسرائيليون ان يكون الملك حسين قد وافق على استئناف النشاط الفدائي من الاردن ، على الرغم من عمليات التسلل الاخيرة عبر الحدود الاردنية ، لانه ـ اي الملك ـ « ٠٠٠ يبدي حذرا فائقا تجاه اسرائيل والمنظمات على السواء ٠ غير ان التقارب بين الاردن ومنظمة التحرير قد يدفع الاخيرة للمغامرة بالانطلاق عبر الحدود الاردنية الى داخل اسرائيل ٠٠٠ » (هآرتس ، ١٩٧٩/٤/٢٤)٠

ولا تستبعد اسرائيل امكانية دخول

فدائيين غير مسلحين الى الاردن والتزود هناك بالاسلحة التي خزنوها قبل عدة سنوات ومن ثم التسلل الى اسرائيل ، او التسلل الى الاردن عبر هضبة الجولان ، ومن هناك الى اسرائيل ٠

ويرى البعض ايضا « ٠٠٠ ان استئناف العمل « التخريبي » ضد اهداف اسرائيلية في اوروبا الغربية مرهون بقرار حركة فتح ، فاذا شاءت وقعت عمليات في الخارج ٠ واذا لم تر امامها اي سبيل اخر للتقدم فالسنة اللهب ستتصاعد في باريس وبون وروما ولندن وبروكسل وامستردام ٠٠٠ » (يديعوت احمونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) ٠

الردود العسكرية الاسرائيلية ضد المقاومة

في الخطاب الذي القاه مناحيم بيغن امام الكنيست في ١٩٧٩/٥/٧ قال بالحرف الواحد « ان سياسة اسرائيل هي ضرب « القتلة » في اي وقت وفي اي مكان وبكل قوتنا ٠٠٠ فنحن نعرف قواعدهم ووحداتهم وسنعمل على تدميرها » ٠

ومما لا شك فيه ان تصريح بيغن هذا يعكس النوايا الاسرائيلية المبيتة ضد المقاومة ، ولسنا في حاجة لتأكيدها ٠ ولو كان بيغن قادرا على تنفيذ ذلك كله لما انتظر يوما واحد ٠

والسؤال المطروح اذا ما هي البدائل والامكانيات العسكرية والامنية المفتوحة امام اسرائيل لتحقيق اهدافها في ضرب المقاومة او تحجيمها ؟ ولقد اصبح هذا السؤال اكثر الحاحا في ضوء قناعة المسؤولين الاسرائيليين باستحالة القضاء على المقاومة وعلى النشاط الفدائي عن طريق الحلول العسكرية ٠ « فجميع الاجراءات الامنية والعسكرية المكثفة « ليست كفيلة بمنع حدوث اي عمل « تخريبي » لانها لا تستطيع الغاء التفوق الطبيعي الذي يتمتع به المهاجم ٠٠٠ ويجب على الشعب الاسرائيلي ان يدرك بان الحرب مع المخربين هي حرب شاملة وطويلة » (هآرتس ١٩٧٩/٤/١٩) ٠

غير ان استحالة القضاء على المقاومة عسكريا لا يعني اطلاقا بأن العدو لن يبذل كل ما في وسعه لضربها ومحاولة تحجيم نشاطها ٠ ويمكن القول بأن الاجراءات الامنية والعسكرية الاسرائيلية لمواجهة المقاومة ترتكز على الاسس التالية : ١ ـ جعل الثمن الذي تدفعه المقاومة باهظا في حال استمرار نشاطها ٠ ٢ ـ ضرب المقاومة وقادتها باستمرار ، ومتى سنحت الفرصة لذلك ، على ان يحدد التوقيت على ضوء اعتبارات الواقع السياسي ٠ ٣ ـ العمل على تقليص عدد الاصابات في صفوف الاسرائيليين بالاضافة الى تطوير وسائل مواجهة النشاط الفدائي ٠

وتبغي اسرائيل من وراء ذلك تحقيق عدة اهداف منها : ١ ـ ايقاع اكبر قدر من الخسائر في صفوف المقاومة وتدمير قواعدها ٠ ٢ ـ اتباع سياسة الهجوم المستمر وقصف مناطق التواجد الفلسطيني بهدف التشويش على عملية اعادة تنظيم الصفوف ، وارغام المقاومة على اتخاذ موقف الدفاع لا الهجوم ٠

٣ ـ ارباك المقاومة واستنزاف جهودها لاشغالها عن التركيز على القيام بنشاطات فدائية في الداخل ٠

والسؤال المطروح هو الى اي مدى نجحت اسرائيل في تحقيق هذه الاهداف ؟ ان جميع الدلائل تشير ، باعتراف الجهات الاسرائيلية المختلفة ، ان الاسلوب الذي تتبعه اسرائيل لتحقيق هذا الغرض لم يثبت نفسه في الواقع ، وهو اقرب الى كونه اسلوبا استعراضيا ٠ فبالنسبة لتكتيك

ضرب قواعد المقاومة اعترف يغئال يادين نائب رئيس الوزراء « ... بأن المشكلة التي تواجهها اسرائيل في هذا الصدد هي تواجد الفدائيين في مناطق متفرقة ... الامر الذي يحتم استخدام وسائل متطورة للتمكن من ضربهم ... » .

اما الجنرال حاييم هرتسوغ فيري « ... ان الغارات الجوية الاسرائيلية على مواقع الفدائيين تعكس عمق المشكلة التي تواجهها السياسة الاسرائيلية في مجال الرد عليهم ... فهذه السياسة تمتاز بطابع التلقائية وعدم التجديد ، فضلا عن كونها تثير مشاكل عسكرية من شأنها الاساءة لنا مستقبلا ... واذا كان القصف الجوي هو الرد الوحيد الممكن ، فذاك ما يصمنا بالعجز ... » (معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٠) .

وعقب احدهم على القصف الجوي والبري والبحري ضد المخيمات الفلسطينية والطلعات التي تقوم بها الطائرات الاسرائيلية فوق بيروت بقوله : « ... ان على اسرائيل ان تكون مستعدة لاحتمال استئناف حرب واسعة النطاق ضد المنظمات ، على ان تكون تلك الحرب محسوبة ومتزنة ، لا حربا استعراضية لا تعود باية فائدة عملية ... » (دافار ١٩٧٩/٤/١٧) .

وفي الوقت الذي وجهت فيه الانتقادات لسياسة الغارات الانتقامية الاستعراضية التي تستهدف المدنيين في المخيمات وسكان القرى الجنوبية ، هناك شبه دعوة للقيام بالمزيد من محاولات اغتيال قادة المقاومة . « ... فطالما استمرت الحرب مع المنظمات، ليست اسرائيل بحاجة لان تقدم المبررات لضرب اهدافهم ... او اغتيال قادة من امثال علي حسن سلامة . ولا يجب ان تخشى اسرائيل ملاحظات التنديد التي تصدر عن الامم المتحدة او حتى عن وزارة الخارجية الاميركية ... » (هارتس ، ١٩٧٩/٤/٢٤) .

ويعتقد المتحمسون لهذا الاسلوب الارهابي بأنه سيساعد على عرقلة النشاط الفدائي ، علاوة على كونه يشكل متنفسا جيدا لنقمة الاسرائيليين على نتيجة العمليات الفدائية . « ... ان الرد على الارهاب يجب ان يكون بالاسلوب نفسه .. والعمل ضد القواعد والتجمعات الكبيرة او مراكز الدول التي تسمح لهم بانشاء قواعد فيها ... » (هرتسوغ ، معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٠) .

وعلى صعيد اخر ، تتخذ السلطات الاسرائيلية اجراءات امنية مختلفة ، بغية تحقيق هدف اساسي ومحدد ، هو تقليص حجم الخسائر التي يلحقها العمل الفدائي بالاسرائيليين في الداخل والخارج . وللوصول الى هذا الهدف تتبع وسائل امنية وقائية معينة ، يأتي في مقدمتها العمل على تقوية اجهزة الامن الاسرائيلية وخاصة الشرطة والحرس المدني وحرس الحدود ، فضلا عن تكثيف دوريات الحراسات على طول الشواطىء والحدود الاسرائيلية . كما برزت مؤخرا الدعوة الى تسليح المدنيين للدفاع عن انفسهم ، وانتشرت ظاهرة التسلح الشخصي بشكل ملحوظ : « وفي اعقاب الهجوم الفدائي على مدينة نهاريا بدأت حركة نشيطة جدا لشراء الاسلحة والتدرب على استخدامها ... » معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٣) .

ومن الجدير بالذكر ان رئيس الاركان رفائيل ايتان كان قد اصدر امرا في شهر حزيران ١٩٧٨ ، يلزم كل ضابط في الجيش بحمل السلاح .

ومن بين الاجراءات العملية التي تقرر اتخاذها فرض عقوبة الاعدام ضد الفدائيين الذين ينفذون عمليات كبيرة .

وقد اعرب رابين في هذا الصدد عن شكه في ان يؤدي هذا الاجراء الى « ردع الفدائيين عن تنفيذ عمليات ضد اسرائيل »٠

ويتضح من كل ما تقدم ان اسرائيل ، رغم يقظتها العالية واستعداداتها القصوى، عاجزة عن تطويق العمل الفدائي وكبحه ٠ ويبدو ان اجراءاتها المستقبلية لن تحول ايضا دون تصاعد النشاط الفدائي وتشعبه على مختلف الاصعدة ٠ « ٠٠٠ فعلى الرغم من الانجازات الهامة التي حققتها اجهزة الامن ، الا انه لم يطرأ تحسن ملموس على ارض الواقع ٠ فعدد العمليات في تصاعد مستمر وفرص نجاحه اكبر ، ويرجع ذلك الى التزايد المستمر في عدد الخلايا الفدائية وكميات الاسلحة والمعدات واستخدام المواد المتفجرة الحديثة والفتاكة ٠٠والمشكلة الاساسية التي تواجهها اجهزة الامن الاسرائيلية الحفاظ على التوازن بين زيادة وسائل الوقاية والامن من جهة والمحافظة على سياسة « التعايش المشترك » بين العرب واليهود من جهة اخرى ٠ فاغلاق مناطق معينة وفرض نظام منع التجول ، وما الى ذلك ، قد يساهم في احراز تقدم في مكافحة الارهاب ، الا انه قد يؤدي ايضا الى انهيار تام « للتعايش بين الشعبين »٠٠ (معاريف) ١٩٧٩/٤/٣٠ ويديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) ٠

نزيه مراد

قضايا دولية

اذا استثنينا حدثين جديدين على الصعيد الدولي ، هما تشكيل حكومة للمحافظين في بريطانيا والاعلان عن التوصل الى معاهدة ثانية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، فان الاحداث الدولية خلال شهر مضى تميزت في الاساس باهتمام بدور الدول الاسلامية والتطورات الداخلية فيها ٠

☐ فقد افتتح مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في فاس (المغرب) يوم ٨ ايار (مايو) ، واصدر قراراته في ١٢ ايار ٠

☐ كذلك تتابعت احداث ايران على نحو لم يخل من حدة وعنف وتميزت الاحداث بمحاولة شق صفوف الثورة الايرانية اما عن طريق اللعب على التطرف الديني او معارضة الوجه الديني للثورة وتوجهاتها ٠

☐ وتميزت احداث افغانستان بالمثل بمحاولة لخلق صدام اسلامي ـ ماركسي في البلاد بين الجماعات التي ترفع الشعارات الدينية والسلطة الاشتراكية ٠

☐ولم تخل احداث اوغندا ايضا من الطابع الديني الذي فسرت به ـ على الاقل بعض الدوائر ـ التطورات التي انتهت بسقوط نظام الرئيس عيدي امين ٠

☐ في الوقت نفسه كانت المعالجة الاعلامية ـ في العالم الغربي كله ـ تعمق تيارا يراد به تصوير وجود « خطر

اسلامـــــي » على الحضارة الغربية ·· ويـــراد به في الوقت نفسه اثـــارة الاضطرابات داخل البلدان الاسلامية باسم الحرص على « اسلامية » تلك البلدان ·

ويدل استمرار هذا التيار في المعالجة الاعلامية على ان « المسألة الاسلامية » ستستمر في احتـــلال مكانة بارزة فـــي الاحداث لفترة تالية ، خاصة حول مصدر قضية الصراع العربي الاسرائيلي فـــي منعطفها الجديد الذي ادخلها فيه توقيع « معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية، وبروز مسؤولية « العالم الاسلامي » ازاء هذا الصراع ·· وبصفة خاصة ازاء جانب له طابعه الديني الخاص في هذا الصراع ، وهو الجانب المتعلق بالقدس ·

المؤتمر الاسلامي

افتتح (٥/٨) مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في مدينة فاس (المغرب) تحت اسم « مؤتمر فلسطيـــن والقدس » بمشاركة اربعين دولة ، قدر انها تضـــم نحو مليار مسلم في انحاء العالم · وقد سبق افتتاح المؤتمر جـــدال واسع بيـــن السلطات المغربية ـ المضيفة للمؤتمر ـ والسلطـــات المصرية التي كانت تريد ان تشارك فيه على اساس حاجة نظام القاهرة الى تعويض عزلته العربية بمشاركة فـــي مؤتمر اسلامي · وقد حسم الامر قرار من وزراء الخارجية (٥/٩) بتجميد عضوية مصر في المؤتمر الاسلامي والاجهزة التابعة له الى اجل غير محدد ، ردا على قيـــام مصر بتوقيع معاهدة صلح مع اسرائيـــل بمـــا ينطوي على اعتراف باسرائيـــل وبالقدس عاصمة لها ·

وقـــد تبين ان ٨ دول امتنعت عـــن التصويت على قرار تجميد عضوية مصر هي السودان وعمان والسنغال والنيجـــر وفولتا العليا والغابون وغينيا (بيساو) وغامبيا · (الدولتان الاوليان عربيتان ، والدول الست التالية افريقية وقد بنـــت موقفها على اساس ضرورة العودة الـى موقف منظمة الوحدة الافريقية من مصـر قبل الموافقة على قرار بتجميد عضويتها)·

وقد حرص ممثلو الدول الافريقية التي امتنعت عن التصويت ان يوضحوا ان هذا الامتناع لا يعني اطلاقا عدم موافقة منهـا على قرار التجميد ، انما هو مجـــرد تفصيل لاجراء مشاورات مع باقي الدول الافريقية · واكدوا مساندتهم الكاملـــة للقضية الفلسطينية ولمنظمة التحريـــر الفلسطينية ·

خطاب افتتاح المؤتمر كان للملك الحسن الثاني ملك المغرب الذي دعا الى وضـــع مشروع « حد ادنى » يكفل للفلسطينيين ان يتولوا مسؤولياتهم على الساحـــة الدولية · وقال ان العالم الاسلامي لـــم يسر حتى الان في الطريق الملائمة التـــي توصل الى حل للمشكلـــة الفلسطينية · واكد انه ليس لاحد ان يتكلم باســـم الفلسطينيين او ان يقرر شيئا بدلا منهم · « ان الفلسطينيين ، ناضجون بالدرجـــة التي تسمح لهم بان يتولوا امورهـــم بانفسهم ، وان ما يحتاجون اليه هـــو مشروع حد ادني يكفل ارضاء الجميـــع ثم يتيح لهم ان يتولوا بعدها مسؤولياتهم على الساحة الدولية » ·

وناشد الملك المغربي كل الدول الاعضاء في المؤتمر بان تقرر معونة اقتصاديـــة كحد ادنى لمساعدة الفلسطينيين الذيـــن « يريدون المساعدة الاقتصادية لا المساعدة الكلامية » ·

وردد الملك الحسن العبارة الشهيـرة التي سبق ان قالها الملك السعودي الراحل فيصل : سوف نصلي في القدس ·

في اليوم الثاني من اعمال المؤتمـــر (٥/١٠) قدمت السعودية ـ التي مثلها وزير خارجيتها الامير سعود الفيصـل ،

اقتراحا بتشكيل لجنة عليا لتحرير القدس برئاسة الملك الحسن الثاني · وتكون مهمة اللجنة العمل على اقناع العالم بضرورة عودة القدس الى السيادة العربية ، واجراء الاتصالات مع دول العالم من اجل تحقيق هذه الغاية · واعلن الوزير السعودي ان بلاده « تعتبر القضية الفلسطينية جوهر قضية الشرق الاوسط ، وان القدس جوهر القضية الفلسطينية »· كما قال ان السعودية « لا تقبل بأي حل للقضية الفلسطينية ينسى او يتناسى قضية القدس وهي قضية اسلامية جوهرية » ·

اما وزير الخارجية الليبي عبد السلام التريكي فقد دعا الى « توحيد الامة الاسلامية وايجاد تعاون اقتصادي مستمر بينها ، وايجاد تحالف عسكري بينها في المستقبل من اجل الدفاع عن الاسلام » ·

واثار التريكي بصفة خاصة (٥/١٠) مسألة « الغزو التانزاني »لاوغندا ووصفه بانه سابقة خطيرة جدا في افريقيا ، وانه يعني ان اي بلد يملك اسلحة كثيرة وقوات كبيرة حر في غزو بلد اصغر واضعف ·

ودعا التريكي الى « حل عملي حقيقي يضمن تحرير القدس بالكامل » ، وقال ان تحرير القدس واجب اسلامي يهم جميع المسلمين في العالم · وقال ان الجماهيرية اقترحت تشكيل قوة عسكرية للدفاع عن المسلمين وعن كرامتهم ، مشيرا الى ان المسلمين يتعرضون لحروب ابادة جماعية في مناطق مختلفة من العالم وخاصة في فلسطين والقدس المحتلة ·

وفي اليوم الثالث من اعمال المؤتمر (٥/١١) قال عبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا امام المؤتمر ان معاهدة الصلح التي وقعها السادات مع اسرائيل تشكل طعنا مباشرا للمسلمين · وقال ان المعاهدة تتناقض اساسا مع قرارات الامم المتحدة التي تصر على اشراك كل اطراف النزاع في اية تسوية ، بينما لم تؤد معاهدة الصلح الا الى اتفاق منفرد ·

وتناول خدام مسألة القدس فقال ان السادات « اكمل مسلسل خيانته للامة العربية بخيانة المسلمين جميعا عندما فرط في القدس الشريف ثاني الحرمين » · واضاف : « في الوقت الذي كان فيه السادات يطعن العرب وشعب فلسطين كان يوجه الطعنات للعالم الاسلامي » ·

وفي ١٢ ايار (مايو) اصدر المؤتمر قراراته التي يتلخص اهمها في النقاط التالية :

☐ اعلان القدس عاصمة لفلسطين واقرار مشروع باقامة منظمة للعواصم الاسلامية ، بما فيها القدس · ودعوة الدول الاسلامية الى زيادة الدعم السياسي والمالي لحملة من اجل تحرير المدينة المقدسة من السيطرة الاسرائيلية ·

☐ التنديد باتفاقات « كامب ديفيد » ورفض اخذها في الاعتبار ، والتنديد بمساعي الولايات المتحدة الاميركية التي تعرقل مسيرة الشعب الفلسطيني نحو الاستقلال ، وكذلك التنديد بالسياسة العدوانية الاسرائيلية ·

☐ تعهد بتقديم الدعم لحركات التحرير الافريقية لازالة الاستعمار والانظمة العنصرية من افريقيا ، وتوثيق التعاون مع منظمة الوحدة الافريقية · والتمسك بقرارات المقاطعة التي فرضتها الامم المتحدة على انظمة الحكم العنصرية في جنوب القارة الافريقية ومواصلة الجهود لتوسيع مدى هذه المقاطعة ·

☐ تقديم مساعدة لنحو ٢٥ الف لاجيء اوغندي في السودان خاصة وان السودان يعاني من نقص في المواد الغذائية · والاشارة الى الوضع في اوغندا وما تعرضت له من « الغزو الخارجي » وخرق سلامة الاراضي الاقليمية والعدوان ضد السيادة ·

☐ توصية بانشاء صندوق خاص لمساعدة البلدان الافريقية المنكوبة بالجفاف ·

☐ مناشدة جميع الدول الاعضاء اتخاذ الاجراءات الضرورية لدعم التضامن مع المسلمين في قبرص · ودعوة الطائفتين اليونانية والتركية في الجزيرة الى ايجاد حل سلمي للنزاع بينهما عن طريق المفاوضات المباشرة ·

☐ الاعراب عن اسف المؤتمر الشديد لعدم التزام حكومة الفلبين باتفاقية طرابلس التي اعتبرها المؤتمر اساسا مناسبا « لحل مشكلة مسلمي الفلبين ، في اطار الوحدة الوطنية » · ودعا المؤتمر الى تقديم « الدعم السياسي » لمسلمي الفلبين في حالة عدم احترام الحكومة ، بنود هذه الاتفاقية ·

☐ احالة عدة بنود من جدول اعمال المؤتمر الى اجتماع يعقده وزراء خارجية الدول الاسلامية في نيويورك على هامش انعقاد الدورة الرابعة والثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) القادم ·

ايران الثورة
تواجه الثورة المضادة

في الاول من ايار (مايو) وقع حادث اغتيال سياسي خطير في ايران هو اغتيال اية الله مرتضى مطهري ، وهو من اقرب تلاميذ الخميني ويعتقد انه كان عضوا في « مجلس الثورة » الايراني ، بل تردد انه كان رئيسا لهذا المجلس ، وتردد ايضا انه كان رئيسا للمحاكم الثورية الايرانية·

وقد اطلق مجهولون النار على مطهري بينما كان يغادر منزل الدكتور مهدي بازركان رئيس الوزراء الايراني في طهران ويعد هذا ثاني حادث اغتيال سياسي خطير بعد اغتيال الجنرال ولي الله قرني اول رئيس لاركان حرب الجيش الايراني بعد انتصار الثورة ·

واعلنت منظمة « الفرقان » مسؤوليتها عن اغتيال اية الله مطهري ، وكانت المنظمة نفسها قد اعلنت مسؤوليتها عن اغتيال الجنرال قرني قبله · واعلنت المنظمة في الوقت نفسه ـ عن طريق الاتصال بمكاتب بعض الصحف ووكالات الانباء · انها تعتزم اغتيال اربع شخصيات اخرى هي امير عباس انتظام نائب رئيس الوزراء لشؤون العلاقات الخارجية ، وابراهيم يزدي وزير الخارجية ، وصادق قطب زادة نائب رئيس الوزراء لشؤون الاذاعة والتليفزيون ، وابو الحسن بني صدر المستشار الاقتصادي للامام الخميني·

كانت جنازة الامام مطهري (٥/٣) مناسبة لمظاهرات عارمة ضد « الشيوعيين ومنظمة فدائيي خلق الماركسيه ـ اللينينية» كما قام الحرس الثوري الاسلامي بتوزيع منشورات تندد بهذه المنظمة · وكانت الهتافات التي ترددت اثناء تشييع الجنازة والتي اشترك فيها عدة مئات من الالاف : الخميني زعيم الثورة والمطهري شهيدها ـ النصر للاسلام والدمار للشيوعية ـ يا حزب توده ، ايها الفدائيون ما انتم الا طفيليون تعيشون عالة على المجتمع ـ طبيعة الشيوعية تتعارض مع الدين بشكل عام ومع الاسلام بشكل خاص ·

ووجهت اتهامات من الجماعات الخمينية في الوقت نفسه الى « الفدائيين » بالمسؤولية عن اثارة « حركات التمرد » في المقاطعات الكردية والتركمانية وشمال ايران منذ بداية الثورة ·

في الوقت نفسه اتهم حزب « تودة الشيوعي (٥/٣) رئيس الوزراء بازركان بالضعف ، ولكنه اكد تأييده للامام الخميني · واقترح الحزب على القوى الديمقراطية والشعبية تبادل الاراء لايجاد

حلول لمواجهة مؤامرات الامبريالية والصهيونية والماوية ، وشل حركة « الشركاء الذين يثيرون الشقاق داخل صفوف الثورة » ٠

ودعا حزب توده ايضا الى تشكيل حكومة ائتلافية تشترك فيها جميع القوى الفعلية في الثورة ٠

وذكرت وكالة يونايتدبرس (٥/٤) نقلا عن « مصادر ايرانية مطلعة » ان قادة ومسؤولي الاحزاب والتجمعات اليسارية في ايران قد بدأوا عملية « النزول الى الارض » (الى العمل السري) خوفا من مضاعفات الموقف بعد المظاهرات الصاخبة المعادية للشيوعية التي تخللت جنازة مطهري ٠ وقالت الوكالة ان بعض معسكرات التدريب التي كانت منظمات يسارية قد اقامتها غداة انتصار الثورة قد اقفلت في الايام الاخيرة كجزء من العودة الى السرية ٠

اما وكالة تاس السوفياتية (٥/٤) فقالت ان منظمة « الفرقان » التي اعلنت مسؤوليتها عن اغتيال مطهري ليست سوى امتداد للسافاك ٠ وقالت « ان هذه الجريمة تثبت ان القوى اليمينية او المجموعات الارهابية تعمل جنبا الى جنب مع عملاء المخابرات الاميركية ـ الاسرائيلية ولم تكف عن محاولاتها الرامية الى احباط الثورة الايرانية » ٠

واصدر الامام الخميني اوامره (٥/٥) الى مجلس الثورة الاسلامي للبدء في تشكيل « جيش حرس الثورة الاسلامية » لحفظ الامن والدفاع عن الثورة في البلاد٠ وقالت اذاعة صوت الثورة من طهران انه تم بالفعل تعيين قيادة لهذا الجيش ، الا انها لم تفصح عن الاسماء ٠

وقد اتخذت الثورة الايرانية ـ قبل ايام من بدء اجتماعات مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي قرارا بقطع العلاقات مع مصر (٥/١) ، وحث الامام الخميني ـ في برقية بعث بها (٥/٨) الى العقيد معمر القذافي جميع البلدان الاسلامية على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ٠ ووصف انور السادات بانه « خائن جلب العار للاسلام » وينبغي ان « تقطع يده » « لمحو هذا العار عن الاسلام ، اذ انه خادم للامبريالية والصهيونية » ٠

وفي برقية اخرى الى سفير الصومال في طهران (٥/٨) قال الخميني انه «اذا اتحدت جميع الدول الاسلامية تحت لواء واحد فانها ستشكل اكبر قوة في العالم »٠ وقال ايضا « ان على جميع المسلمين في العالم ان يشتركوا في حركة العدل الكبرى التي بدأت في ايران » ٠

في الوقت نفسه صرح محمد مقري سفير ايران الجديد لدى الاتحاد السوفياتي ٠ في مؤتمر صحفي في موسكو (٥/٨) بان بلاده مرتبطة بحركة عدم الانحياز ولن تشترك في اية احلاف عسكرية موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ـ وقال « اننا لن نسمح بعد الان بان تصبح ايران مرة اخرى قاعدة للتجسس ضد الاتحاد السوفياتي » ٠ واعرب عن اعتقاده بان الاتحاد السوفياتي ابدى تعاطفا تجاه قضية الثورة الايرانية خلال الثورة ٠

وعلى الرغم من المصاعب الداخلية التي تواجهها الثورة الايرانية وحتى « الخلافات » بين الامام الخميني ورئيس الوزراء بازركان حول احكام الاعدام التي تصدرها المحاكم الثورية الاسلامية ، ومواجهة مشكلات الاقليات ، فقد واصلت الثورة الايرانية مواقفها المناهضة للامبريالية والداعمة للثورة الفلسطينية بقوة ٠

في ١٥ ايار (مايو) ـ ذكرى اغتصاب فلسطين ـ نظم في طهران مهرجان شعبي كبير تضامنا مع الشعب الفلسطيني ،وتليت فيه رسالة من الامام الخميني قال فيها :

« ان الشعب الفلسطيني لم ينس مفتاح وطنه الام ، وانا ارغب بشكل كبير في ان آخذ هذا المفتاح واذهب الى فلسطين لافتح ابواب الناصرة » ٠

وحمل الخميني السادات وبيغن وكارتر مسؤولية الام الشعب الفلسطيني ٠ وقال انه اذا قتل وهو يمارس خلف رشاش فلسطيني فهو يريد ان يدفن في فلسطين ٠

اميركا تهدد

في الوقت نفسه تواصل الولايات المتحدة تهديداتها لفرض «السلام الاميركي» بالقوة في منطقة الشرق الاوسط تحت شعار حماية المصالح الاميركية والغربية في المنطقة ، خاصة المصالح النفطية ٠

ففي اليوم نفسه الذي صدرت فيه قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي (٥/٩) عاد هارولد براون وزير الخارجية الاميركي للحديث عن « احتمال تدخل عسكري اميركي في الشرق الاوسط في حال انتهاك معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية » ٠ وقال براون : « لا استبعد استعمال القوة العسكرية للدفاع عن مصالحنا الحيوية في المنطقة٠ الا ان تحديد هذه المصالح يجب ان يتم وفق معيار احداث خاصة » ٠

واشار وزير الدفاع الاميركي الى ان التدخل الاميركي سيقتصر « على الارجح » على « تزويد اسرائيل بكميات من الاسلحة وارسال سفن وطائرات حربية لاظهار العلم (الاميركي) في المنطقة » ٠

وقد جاءت تصريحات براون هذه ردا على اسئلة لجنة الكونغرس التي تدرس طلب الرئيس الاميركي جيمي منح اسرائيل ومصر مساعدات مالية في اطار « معاهدة السلام » ٠

وقد جاءت تصريحات براون هذه ردا على اسئلة لجنة الكونغرس التي تدرس طلب الرئيس الاميركي كارتر منح اسرائيل ومصر مساعدات مالية في اطار « معاهدة السلام » ٠

واستكمالا لسياسة التهديد العسكري قامت الطائرات الاميركية المحمولة على حاملة الطائرات الاميركية ايزنهاور الراسية في مواجهة حيفا بعرض جوي (٥/١٠) شاهده مناحيم بيغن الذي قال بالمناسبة ان اسرائيل « على استعداد لان تعرض على الولايات المتحدة اية تسهيلات قواعد قد تحتاجها » ٠ وقال بيغن ايضا « لا اخفي سرا اذا قلت انه عندما تريد الولايات الحصول على تسهيلات فستكون هذه التسهيلات تحت تصرف قوات الولايات المتحدة » ٠ واضاف انه « في اعقاب معاهدة السلام قد تكون حيفا والاسكندرية نقطتين مفيدتين للرسو للبحرية الاميركية » ٠

والقى السفير الاميركي في تل ابيب كلمة في المناسبة نفسها قال فيها انه « لا يمكن لاية معاهدة سلام ان تلغي حاجة اي بلد لان يكون قويا ، وان يكون له اصدقاء يعول عليهم في حال وقوع الحرب ٠٠وان وجود هذه السفينة (في حيفا) يوضح ان اسرائيل تملك هذا الصديق الوفي والحليف » ٠

عودة المحافظين

اسفرت الانتخابات العامة التي جرت في بريطانيا (٥/٤) عن فوز حزب المحافظين بفارق ٤٣ مقعدا عن حزب العمال ، واصبحت مارغريت تاتشر زعيمة حزب المحافظين اول سيدة تتولى رئاسة الوزارة في بريطانيا والعالم الغربي عامة٠ وقد توزعت مقاعد مجلس العموم نتيجة لهذه الانتخابات على النحو التالي :

المحافظون : ٣٣٩ مقعدا ٠

العمال : ٢٦٨ مقعدا ·

الاحرار : ١١ مقعدا ·

الاحزاب الاخرى : ١٧ مقعدا ·

لقي فوز المحافظين تأييدا واضحا واحيانا حماسيا في الدوائر اليمينية في اوروبا وخاصة في الدوائر الاطلسية وفي الولايات المتحدة وفي النظم العنصرية في جنوب افريقيا وكذلك في اسرائيل · بينما قوبل بنقد شديد من الاوساط السوفياتية التي وصفت حزب المحافظين بانه «وكيل اعمال كبار رجال الاعمال » وبانه من مؤيدي زيادة النفقات العسكرية·

والملاحظ بالفعل ان تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية الجديدة قالت في اول تصريح لها (٥/٧) ـ ادلت به الى مجلة «التايم » الاميركية ـ ان حكومتها ستزيد نفقات بريطانيا الدفاعية ،ودعت الى انشاء قوة ردع ثلاثية بمشاركة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا « لمواجهة هدف السوفيات غير المتغير ، وهو السيطرة على العالم بواسطة النظام الشيوعي » ·

واشارت تاتشر الى احتمال اعتراف حكومتها بالحكومة الجديدة التي «انتخبت» في روديسيا (تحت هيمنة البيض) برئاسة الاسقف موزوريوا ·

وشنت تاتشر في هذا الحديث حملة شديدة على الاتحاد السوفياتي ودعت الى « ضرورة الوحدة بين البلدان الديمقراطية » · وقالت « انني اعتبر التهديد الروسي امرا يشمل العالم كله ، وليس هناك سوى ٣٥ بلدا ديمقراطيا من اصل ١٢٠ بلدا ، وعلينا معا بوسيلة او باخرى ان نضمن الا يفوز السوفيات بتحقيق اهدافهم » ·

وعلى الرغم من انه لم تصدر بعد تصريحات عن مسؤولي حكومة المحافظين الجديدة بشأن الشرق الاوسط الا انه يعتقد بوجه عام ان حكومة تاتشر ستكون اشد تبعية من حكومة العمال السابقة للمواقف التي تمليها الولايات المتحدة بالنسبة الى هذه المنطقة وغيرها · ومن المتوقع ان تكون الحكومة الجديدة اكثر صراحة في التعبير عن تأييد بريطانيا لمعاهدة « السلام » المصرية ـ الاسرائيلية·

وينتظر ان يتضح المزيد عن سياسة هذه الحكومة عندما تستقبل لندن مناحيم بيغن في زيارة تقرر ان يقوم بها لبريطانيا في اواخر شهر ايار (مايو) ·

سمير كرم

قضايا عسكرية

« استمرار تصاعد الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية »

تمشيا مع سياسة تصعيد النشاط العسكري للثورة الفلسطينية ضد اسرائيل، التي بدأت عقب توقيع معاهدة الصلح بين مصر واسرائيل ، استمرت عمليات الثوار الفلسطينيين داخل الارض المحتلة، واستمرت في الوقت ذاته عمليات الرد العسكري الاسرائيلي على الوجود الفلسطيني في لبنان طوال الشهر الماضي ،

بحيث اصبح الوضع بمثابة حرب فلسطينية ـ اسرائيلية محدودة وشبه مستمرة ٠ ففي ليلة ٧٩/٤/٢٢ هاجمت مجموعة من اربعة فدائيين تابعين لجبهة التحرير الفلسطينية مستوطنة نهاريا الاسرائيلية ، التي تبعد نحو ١٠ كلم عن الحدود اللبنانية ، وذلك عن طريق البحر الابيض المتوسط الذي نزلوا منه على الشاطىء ، مستخدمين زورق مطاط مزود بمحرك قوته ٥٥ حصانا ويمكن ان تصل سرعته القصوى الى نحو ٨٨ كلم في الساعة ٠ وقد اقتحمت المجموعة المذكورة بناية تحمل الرقم ٦١ ، بعد ان حاولت في البداية اقتحام منزل يقع على الشاطىء مباشرة ، واخذوا اثنين من الرهائن ، ثم اشتبكوا مع دورية من الشرطة الاسرائيلية قرب الشاطىء ، حيث دارت معركة اسفرت في النهاية عن استشهاد اثنين من الفدائيين ومقتل اربعة من الاسرائيليين ، بينهم شرطي ، ووقوع اثنين من الفدائيين اسرى ٠ وتعكس هذه العملية قدرة متزايدة لدى تنظيمات الثورة الفلسطينية المسلحة على تنظيم وتنفيذ الاغارات البرمائية ، على الرغم من الاجراءات الامنية الاسرائيلية المتشددة، التي تزايدت دقتها وكثافتها منذ عملية « كمال عدوان » التي جرت على طريق « حيفا ـ تل ابيب » في ٧٨/٣/١١ ، وردت عليها اسرائيل بهجوم شامل على الجنوب استمر لمدة ثمانية ايام ، ابتداء من ٧٨/٣/١٤ حتى ١٩٧٨/٣/٢١ ٠

واثر عملية « نهاريا » ، التي اطلق عليها اسم عملية « جمال عبد الناصر » ، اعلنت حالة التأهب بين القوات الاسرائيلية الموجودة على مقربة من الحدود اللبنانية ، وهدد « مناحيم بيغن » باتخاذ اجراءات انتقامية في خطاب القاه في مأتم اثنين من المدنيين قتلا في العملية ، وذلك في مستوطنة « كريات تيفون » قرب « حيفا »٠ وفي الوقت ذاته حضر وزير الدفاع الاسرائيلي « عازر وايزمان » دفن الشرطي « الياهو شاهار » في مستوطنة « معلوت » وقال « ان الجيش سيتصرف بحيث لا تكون تضحيات اخرى ٠٠٠ ان هدف « المخربين » هو الهاؤنا في الوقت الذي نقيم فيه السلام مع مصر » ٠

وبدأت اسرائيل تنفذ تهديداتها ، وتشن حربا شبه مستمرة على الشعبين الفلسطيني واللبناني ، وخاصة في الجنوب ، وذلك من خلال قصف مدفعي وبحري لمنطقة « صور » ومخيمي البص والرشيدية يوم ١٩٧٩/٤/٢٣ ٠ ثم بواسطة قصف جوي على المنطقة الساحلية الممتدة من الصرفند حتى عدلون ، وعلى منطقتي شبريحا والبرغلية في منطقة صور ، وعلى ارنون في منطقة النبطية ، مستخدمة مختلف انواع القنابل التقليدية والعنقودية والمضادة للافراد الممنوعة دوليا ، وذلك في ١٩٧٩/٤/٢٤ ٠

كما قصفت ثلاثة من الزوارق المسلحة من طراز « ساعر » ، او « رشيف » ، تحميها ٣ طائرات مقاتلة ، مخيم نهر البارد قرب طرابلس في شمال لبنان بعد ظهر يوم ٤/٢٢ ، اي في اليوم التالي مباشرة لعملية « نهاريا » ٠

وتوالى بعد ذلك قصف القرى والمخيمات ومختلف المواقع العسكرية المشتركة شمال نهر الليطاني في جنوب لبنان ، بصورة شبه يومية ، والتي شاركت فيها مدفعية الميليشيات التابعة لسعد حداد ، الذي اعلن ما سماه بدولة « لبنان الحر » في ٧٩/٤/١٨ ، ضمن منطقة الشريط الحدودي الامني ، الذي حالت اسرائيل دون دخول قوات الامم المتحدة فيه عقب انسحابها منه في العام الماضي اثر هجومها الشامل الذي جرى في اذار (مارس) ، عقب عملية « كمال عدوان»٠

وفي جميع هذه العمليات ، او تلك التي لحقتها حتى منتصف ايار (مايو) ٧٩ ،

كان الطابع العام هو تجنب الاشتباكات المباشرة بين القوات الاسرائيلية والقوات المشتركة ، حتى لا يتكبد الجيش الاسرائيلي اي خسائر بشرية جديدة كما قال « وايزمان » . ولذلك اقتصرت العمليات المذكورة على القصف من بعيد ، سواء بالمدفعية البرية او بمدافع الزوارق البحرية المسلحة او بقذائف ومدافع الطائرات المقاتلة ، وفي ٧٩/٥/٦ اغارت الطائرات الاسرائيلية ، في الساعة ٩ر٥٥ صباحا على قرية المحمرة قرب مخيم نهر البارد ، فقتل وجرح عشرات من المدنيين اللبنانيين .

وفي صباح يوم ٧٩/٥/٩ تقدمت قوة مدرعة اسرائيلية ، ضمت نحو ٢٠ دبابة « شيرمان » تصاحبها وحدات من المشاة الميكانيكية داخل الاراضي اللبنانية ،وذلك عبر منطقة الشريط الامني الحدودي ،حتى قرية « شقرا » ، الواقعة ضمن منطقة تواجد القوة الايرلندية التابعة لقوات الطوارىء الدولية ، حيث قامت بتفتيش القرية واعتقال عدد من سكانها والتحقيق معهم للتوصل الى معرفة صلاتهم المحتملة مع الفدائيين الفلسطينيين . وبعد اتصالات دولية انسحبت القوة الاسرائيلية بعد ان قصفت بلدة « صفد البطيخ » بعشرات قذائف ، وهي في طريق انسحابها .

وقد تمت هذه العملية كرد مباشر ، او كنوع من المطاردة كما زعمت المصادر الاسرائيلية ، لمجموعة فدائية تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، هاجمت خلال ليلة ٩/٥ مستوطنة المنارة القريبة من الحدود اللبنانية ، حيث قصفت مكمنا عسكريا اسرائيليا بالقذائف الصاروخية ، واشتبكت اثر ذلك مع القوات الاسرائيلية والمليشيات المحلية بالرشاشات والقنابل اليدوية ، ثم نجحت المجموعة ، المؤلفة من اربعة افراد ، في الانسحاب عائدة الى قاعدتها ، بعد ان اسر احد افرادها .

وهكذا ثبت مرة اخرى ان الشريط الامني لا يمكنه منع ، ليس فقط قذائف الثوار الفلسطينيين ، وانما ايضا وصول مقاتليهم الى داخل الارض المحتلة عبر مختلف الحواجز والاسلاك وحقول الالغام واجهزة الانذار . هذا وقد قالت اذاعة الجيش الاسرائيلي يوم ٧٩/٥/١٠ ان القدائي الذي اسر خلال هذه العملية ، التي قامت بها مجموعة « ابو امل » ، قد توفي متأثرا بجراحه !

وفي يوم ٧٩/١١/١٠ قامت مجموعة الشهيد « ابو حسن سلامة » ، داخل الارض المحتلة ، بوضع عبوات ناسفة في مصنع يعمل لحساب الصناعة العسكرية الاسرائيلية ، في ضاحية « رامات هاشارون » بتل ابيب ، مما ادى الى اصابة ١٥ شخصا بجروح ، وفقا لبيان الشرطة الاسرائيلية . ونفى الجيش الاسرائيلي ان يكون الانفجار نتيجة عملية فدائية ، وذلك في بيان صادر عن الحادث قال فيه : ان الانفجار نتج عن حادث اصاب احدى الات المصنع ! وهكذا تمضي الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في التصاعد المستمر منذ توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وسوف تزداد حدة واستمرارا بعد ان طرح « بيغن » مشروعه للصلح مع لبنان ، يوم ٧٩/٥/٧، في خطابه امام « الكنيست » ، الذي دعا فيه الى اعادة توطين الفلسطينيين الموجودين في لبنان في كل من السعودية وسوريا والعراق والجماهيرية الليبية ، كاشفا بصورة صريحة وكاملة حقيقة كل ما يجري في لبنان منذ ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ وحتى الان ، وما سوف يجري في المستقبل ايضا . ولذلك كانت وستكون الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان حربا قاسية ومستمرة ، بحكم انها حرب بقاء او فناء للثورة الفلسطينية .

« الطيران السوري فوق بيروت »

تميزت المرحلة الاخيرة من الهجمات بالنيران البرية والبحرية والجوية الاسرائيلية ، التي اعقبت عملية «نهاريا»، بكثرة تحليق الطيران الاسرائيلي فوق « بيروت » على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة وتصدي وسائل الدفاع الجوي الارضي لها بكثافة ، سواء تلك التي لدى قوات الردع العربية او المقاومة الفلسطينية او الحركة الوطنية اللبنانية وفي الوقت ذاته تميزت المرحلة المذكورة بتحقق قدر جيد من الوجود الجوي السوري فوق « بيروت » للمرة الاولى منذ انتهاء حرب ١٩٧٣ ٠

ففي ٧٩/٤/٢٥ حلقت بعد الظهر ٣ طائرات سورية مقاتلة هجومية من طراز « سوخوي ـ ١٧ » على ارتفاع منخفض فوق بيروت واتجهت شرقا ٠ وتعتبر هذه الطائرات من احدث الطائرات المقاتلة الهجومية لدى الاسلحة الجوية العربية التي تتسلح بالطائرات السوفييتية الصنع ، مثل سوريا والعراق (وكذلك يوجد منها لدى الطيران المصري نحو ٤٦ طائرة)، اذ تأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد « الميغ ـ ٢٧ » في هذا المجال ٠ فقد دخلت « السوخوي ـ ١٧ » الخدمة العملية بالسلاح الجوي السوفييتي عام ١٩٧١ ، ثم دخلت الخدمة بالسلاحين الجويين المصري والسوري في اوائل العام ٧٣ ، وقد شاركت اعداد منها في حرب تشرين (اكتوبر) على كلا الجبهتين ٠ وهي مقاتلة ذات قدرة خاصة على القصف الارضي ، مع توفر قدرة ذاتية للدفاع عن نفسها ضد مقاتلات العدو ، خاصة على الارتفاعات المنخفضة، نظرا لقدرتها الكبيرة على المناورة العنيفة على الارتفاعات المذكورة الناتجة عن طبيعة تصميمها ٠ ومما يساعدها على ذلك ان اجنحتها ذات هندسة متغيرة (اي قابلة للحركة للخلف والعودة للوضع العادي مرة اخرى وفقا لمتطلبات المناورة والتسارع الخ ٠٠) ، ولذلك كانت الطائرات السورية المذكورة تحلق طاوية اجنحتها للخلف بزاوية تقدر بنحو ٦٠ درجة ٠

وهي مزودة بمحرك نفاث تبلغ قوة دفعه (عند استخدام الحراق الخلفي) نحو ١١٢٠٠ كلغ وسرعتها القصوى على ارتفاع سطح البحر نحو ١٣٠٠ كلم / ساعة ، اما على ارتفاع ١٢ الف متر فتصل السرعة المذكورة الى ٢٣٠٠ كلم ٠ وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم ، فضلا عن امكان تسليحها بعدد من الصواريخ جو ـ جو قصيرة المدى للقتال التلاحمي، خاصة على الارتفاعات المنخفضة ، وهذا هو ما نرجح حدوثه بالنسبة للطائرات الثلاث التي حلقت فوق بيروت ، نظرا لاحتمال مواجهتها للطائرات الاسرائيلية المحلقة على ارتفاع منخفض فوق المدينة وعموما فان « السوخوي ـ ١٧ » لهما ٨ نقاط تعليق تحت هيكلها واجنحتها ، يمكن تحميلها بحمولات مختلفة (قنابل ، مقذوفات صاروخية ، صواريخ جو ـ ارض ، صواريخ جو ـ جو ، خزانات وقود اضافي) وفقا لطبيعة المهمة التكتيكية المكلفة بها الطائرة ، ومدى الطيران المتوقع لها خلالها ٠ ولذلك تستطيع الطائرة حمل ٥ اطنان من القنابل كحد اقصى عند الضرورة ٠ ولكن حمولتها النموذجية هي ٣٫٥ اطنان وخزاني وقود اضافي ، وفي الحالة الاخيرة يكون المدى القتالي لها ٣٦٠ كلم اذا ما كانت الرحلة ذهابا وايابا تجري على ارتفاع منخفض ، ونحو ٦٣٠ كلم اذا ما كانت الرحلة تجري على ارتفاع عال ـ منخفض ـ عال (اي يتم القصف فقط على ارتفاع منخفض) ٠٠ وتجدر الاشارة ان المصادر الدولية تقدر عدد

طائرات « سوخوي ـ ١٧ » (وتسمى احيانا في بعض المراجع الغربية « سوخوي ـ ٢٠ » على أساس ان رقم ٢٠ خاص بالنوع الخاص بالتصدير للخارج الذي تقل فيه الاجهزة الالكترونية ، على حد زعمها) الموجودة لدى السلاح الجوي السوري بنحو ٥٠ طائرة ٠

ولم يقتصر الوجود الجوي السوري فوق « بيروت » ، والعديد من مناطق وسط وشمال لبنان ، على طائرات « السوخوي ـ ١٧ » وانما شمل ايضا طائرات « الميغ ـ ٢١ » ، التي ظهرت عدة مرات في الاسبوع الاول من ايار (مايو) ثم كانت المفاجأة الهامة يوم ١٤ / ٥ / ٧٩ ، حين حلقت طائرتان مقاتلتان سوريتان من طراز « ميغ ـ ٢٣ » في سماء بيروت مرتين على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة ، وامكن بوضوح في المرة الاولى مشاهدة الطائرتين وهما تحركان اجنحتهما من الوضع المائل الى الخلف الى الوضع العادي ، اثناء مناورة ارتفاعهما لتجنب نيران المدافع المضادة التي اطلقت عليها من قبيل الخطأ والاعتقاد بأنهما طائرتان اسرائيليتان ٠

و « الميغ ـ ٢٣ » هي احدث المقاتلات السوفييتية الصنع الموجودة لدى السلاح الجوي السوري (وكذلك لدى السلاحين الجويين العراقي والليبي) ، ويقدر ما لديه منها بنحو ٥٠ طائرة ٠ وهي تفوق طائرات « الفانتوم » من حيث قدرات القتال الجوي ، ويمكنها ان تواجه بكفاءة طائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » الاميركية ٠ وهي طائرة مقاتلة معترضة وذات قدرة تحقيق تفوق جوي (اي قتال جوي قريب وليس مجرد الاعتراض من بعيد بصواريخ جو ـ جو) ، كما انها يمكن ان تستخدم في مهام القصف التكتيكي ٠ ومزودة بمحرك نفاث من نوع حديث تبلغ قوة دفعه القصوى ، عند استخدام الحراق الخلفي ، نحو ١٢٥٠٠ كلغ ، يكفل لها نسبة قوة دفع الى الوزن (على اساس الوزن القتالي في مهام الاعتراض والتفوق الجوي البالغ نحو ١٣ الف كلغ) تبلغ ٠٫٩٦ كيلو ضغط لكل كيلو وزن ، مقابل نسبة ٠٫٩٢ للفانتوم ٠

وهي تستطيع ان تلتف ضمن شعاع التفاف قدرة ٦٠٠ متر ، مقابل ٩٠٠ متر للفانتوم ، وهذا كله يعني ان قدرتها على المناورة القتالية افضل من « الفانتوم »٠ كما ان قدرتها على التحليق من فوق مدرج طوله نحو ٨٠٠ متر فقط ، مقابل ١٣٨٥ مترا للفانتوم ٠ وتستطيع ان تصعد بمعدل يبلغ ما بين ٢٥٠ و ٢٧٥ مترا في الثانية ، مقابل ٢١٠ مترا للفانتوم ، مما يعني قدرة افضل على سرعة الاعتراض الجوي ٠ وتبلغ سرعة « الميغ » ـ ٢٣ » القصوى على ارتفاع ١٢ الف متر نحو ٢٤٤٦ كلم / ساعة ، مقابل سرعة ٢٣٠٤ كلم / ساعة للفانتوم٠ ويبلغ المدى القتالي للميغ ـ ٢٣ بتسليح ٤ صواريخ جو ـ جو وخزان وقود اضافي نحو ٨٠ كلم ، مقابل ٣١٥ كلم فقط لفانتوم في الحالة المماثلة ٠ وتستطيع « الميغ » ـ ٢٣ » في حالة استخدامها في مهام القصف الارضي (وهي مهمة تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لقدرتها الاساسية في القتال الجوي) ان تحمل ٣ اطنان من القنابل فضلا عن خزان وقود اضافي ٠ ويبلغ مداها في الحالة المذكورة نحو ٤٠٠ كلم، في حالة التحليق على ارتفاع منخفض، ونحو ٨٠٠ كلم في حالة التحليق على ارتفاع عال ـ منخفض ـ عال ٠

وفي الوقت ذاته فان التجهيزات الالكترونية المختلفة للميغ ـ ٢٣ تتماثل تقريبا مع تجهيزات « الفانتوم » ٠

« حاملة الطائرات « دوايت ايزنهاور » في حيفا »

في ١٠/٥/١٩٧٩ قام « مناحيم بيغن » بنزهة فوق ظهر حاملة الطائرات الاميركية « دوايت ايزنهاور » ، التي كانت في زيارة لميناء حيفا ، في صحبة وزير الدفاع الاسرائيلي « عازر وايزمان » والسفير الاميركي في اسرائيل « صمويل لويس » والاميرال « روبرت شولتز » المسؤول عن القطع البحرية المقاتلة في الاسطول الاميركي السادس ٠

وهذه هي ثاني حاملة طائرات اميركية تزور « حيفا » خلال عام ، ، فقد سبق للحاملة « نيميتز » ان زارت « حيفا » في ٧٨/٤/٦ ، كما سبق ان زارت الغواصة النووية الاميركية « لابون » حيفا في ١٩٧٨/٦/١٤ ٠ وتأتي زيارة الحاملة « دوايت ايزنهاور » لحيفا هذه المرة ضمن الظروف الجديدة في منطقة الشرق الاوسط ، المترتبة على الثورة في ايران وتوقيع معاهدة الصلح الاسرائيلية ـ المصرية ٠ وكذلك في اعقاب زيارة وزير الدفاع الاميركي « براون » لاسرائيل في منتصف شباط (فبراير) ١٩٧٩ ، التي بحثت فيها مسألة تحويل حيفا الى قاعدة اميركية في شرقي البحر الابيض المتوسط٠ والحاملة « دوايت ايزنهاور » هي ثالث حاملة طائرات اميركية تسيرها الطاقة النووية تدخل الخدمة العملية ، بعد حاملتي الطائرات « انتربرايز » و «نيميتز، وذلك في ١٨/١٠/١٩٧٧ ٠ ويبلغ وزنها بحمولة كاملة ٩١٤٨٧ طنا ، ويبلغ طولها ٣٣٢ مترا ، وعرض هيكلها ٨ر٤٠ مترا ، وعرض سطحها المخصص للطيران ٨ر٧٦ مترا ، ولها مهبطان للطائرات ٠ وتبلغ قوة دفع محركاتها التوربينية البخارية ٢٨٠ ألف حصان ، وهي مزودة بمفاعلين نوويين ، وتصل سرعتها القصوى الى اكثر من ٣٠ عقدة (اي اكثر من ٥ر٥٥ كلم في الساعة) ٠ وتستطيع ان تحمل اكثر من ٩٠ طائرة قتال من مختلف الانواع ٠ ويتألف طاقمها البحري من ٣٣٠٠ رجل ، يضاف اليهم ٣٠٠٠ رجل اخرين يشكلون افراد الجناح الجوي الذي يعمل على سطحها ٠ ومن المتوقع ان تجهز الحاملة المذكورة بمركز سيطرة مضاد للغواصات، وطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات، بحيث يتم تعديل مهام الحاملة الحالية من حاملة طائرات هجومية الى حاملة طائرات متعددة المهام ، لتتوفر لها قدرة اضافية ضد الغواصات الى جانب قدرتها الهجومية الجوية ٠

« السعودية تقاطع مصر عسكريا »

اعلنت السعودية ، باسم الدول العربية الثلاث (عدا مصر) المشاركة في الهيئة العربية للتصنيع الحربي ، يوم ١٤/٥/٧٩، انهاء وجود الهيئة من الناحية القانونية اعتبارا من اول تموز (يوليو) المقبل ، وتشكيل لجنة من الدول الاربع المؤسسة للهيئة وهي السعودية وقطر ودولة الامارات ومصر للبدء في تصفية اموال الهيئة ، على ان تجتمع فورا في مقر الهيئة في باريس ٠ وذلك نظرا لاعتراف مصر باسرائيل بصورة منفردة ، الذي اوجد ظروفا تصطدم مع البواعث والاهداف التي قامت من اجلها الهيئة المذكورة ٠

وقد انشئت الهيئة منذ ٤ اعوام برأس مال قدره ١٤٠٠ مليون دولار ، ساهمت فيه اساسا الدول النفطية الثلاث المشار اليها انفا ٠ وبدأت اولى خطواتها العملية على طريق تصنيع بعض انواع الاسلحة والمعدات العسكرية في ٧٨/١/١٤ ، حين اعلن « الجمسي » ، وزير الحربية المصري وقتئذ ، عن توقيع بروتوكول للتعاون الفني بين الهيئة وبريطانيا في مجالات الصناعة الحربية ٠ وكان من

المفروض ان تنشأ بمقتضاه ثلاث شركات مشتركة لتصنيع الصواريخ المضادة للدبابات من طراز « سوينغ فاير » ، ومحركات وهياكل طائرات الهليكوبتر من طراز « لينكس » ، وعلى ان يبدأ الانتاج في اواخر العام ١٩٧٨ (راجع شهريات عدد ٧٨ من شؤون فلسطينية) ٠

وقد اعلنت مصر اثر ذلك ان قرار السعودية وقطر ودولة الامارات لن يؤثر على استمرار الهيئة ، وتنفيذها لتعاقداتها والمضي في سياسة التصنيع الحربي المفترضة وفقا لوجودها ٠ ولكن الشركات البريطانية والفرنسية التي تعاقدت معها الهيئة ، او كانت على طريق التعاقد معها، تبدي قلقها العميق وشكها في امكان استمرار مصر منفردة في تنفيذ برامج الهيئة المذكورة ، بسبب مشكلات التمويل المالي في ظل الظروف الاقتصادية والمالية الصعبة التي تواجهها مصر ٠ كذلك فانه ليس من المتوقع ان تقدم الولايات المتحدة الاميركية مساعدة مالية تكفل استمرار الهيئة بدون تمويل الدول العربية المذكورة، نظرا لكثرة التزامات الولايات المتحدة المالية نسبيا تجاه مصر ، نتيجة لتوقيعها المعاهدة مع اسرائيل ٠ فضلا عن عدم حماسها اصلا لتشجيع قيام صناعة عسكرية عربية تعتمد على دول اوروبا الغربية ، التي كانت ستستفيد من فوائض الدخول النفطية العربية عند تنفيذ مثل هذه المشروعات ٠

٠ وفي الوقت نفسه صرح الامير فهد ، ولي العهد السعودي ، يوم ٧٩/٥/١٣ عقب اجتماعه بالرئيس الفرنسي « ديستان » بباريس ، ان « السعودية لن تدفع ثمن طائرات « ف ـ ٥ اي تايغر ٢ » الخمسين التي طلبت مصر شراءها من الولايات المتحدة كما كان مقررا » ٠ وكان « الكونغرس » الاميركي قد وافق على بيع مصر الخمسين طائرة المذكورة في ٧٨/٥/١٦ ، ضمن ما عرف بصفقة الطائرات الثلاثية لكل من مصر والسعودية واسرائيل ، التي شملت بيع اسرائيل ٧٥ طائرة « ف ١٦ » و ١٥ طائرة « ف ـ ١٥» وبيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، فضلا عن الخمسين طائرة « ف ـ ٥ اي » المذكورة لمصر ٠ (راجع شهريات عددي ٧٧ و ٧٩ من شؤون فلسطينية) ٠ وكان من المفروض ان تتسلم مصر الدفعة الاولى من هذه الطائرات ، وقدرها ١٠ طائرات، في اواخر ايلول (سبتمبر) ٧٨ ٠ ولكن ذلك لم يتم بسبب رفع الولايات المتحدة لثمن الطائرات الى ٧٣٠ مليون دولار ، بدلا من ٤٠٠ مليون دولار كما كان مقررا في الاصل ، بحجة ان مصر تطلب اضافات تقنية معينة على الطائرات ٠ وقد امتنعت السعودية عن المضي في تمويل الصفقة على هذا اساس ، ثم عادت ووافقت على تمويلها بسعر ٥٢٥ مليون دولار ، اثناء زيارة « براون » الاخيرة للمنطقة فيشباط (فبراير) ١٩٧٩ ٠ وذلك بعد ان تنازلت مصر عن بعض المعدات التي تجهز بها الطائرات المذكورة ، وتعدل موعد تسليم الدفعة الاولى منها الى مصر بحيث اصبح من المرجح ان يبدأ التسليم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ ٠ وقد اعلن « السادات » ، في حديث له يوم ٧٩/٥/١٣ ، انه سيطلب من الشعب الاميركي جمع الاموال والتبرعات لتغطية قيمة الصفقة المذكورة عندما تبلغه السعودية رسميا بقرارها بعدم تمويلها ٠

وتجدر الاشارة ان هذه الطائرات كان من المفروض ان تحل جزئيا محل ٢٥٠ طائرة « ميغ ـ ٢١ » موجودة لدى مصر ، علما بأنها اقل قدرة من طائرات الجيل الثاني من «الميغ ـ ٢١» المعروفة باسم « م ف » ٠

محمود عزمي

سامية حلبي

ألفنّ ونيويورك

انا فنانة فلسطينية اقيم في مدينة نيويورك منذ اربع سنوات · وقبل المجيء الى هنا ،كنت اقيم وادرس في الولايات الاميركية الغربية المتوسطة · ولدت في القدس عام ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٨ انتقلت مع عائلتي الى بيروت ، وبعد اربع سنوات أي عام ١٩٥٢ غادرنا الى الولايات المتحدة · وهذه المقاله ، هي عبارة عن بعض انطباعاتي حول الفن في اميركا ·

نيويورك هي السوق المركزي للفن التشكيلي في الولايات المتحدة · والمراكز الفنية الاخرى كشيكاغو ولوس انجلوس تسلم بهذه القيادة ، كما انها تكرم معروضات فناني نيويورك اكثر من تكريمها لفنانيها ، وهكذا ، فان هواة جمع اللوحات الفنية ، يسافرون غالبا الى نيويورك من اجل اقتناء لوحات لفنانيهم المفضلين ·

وفي النتيجة ، فالجميع هنا ، هواة الرسم والرسامون الذين يشعرون بضرورة الاقامة الدائمة في المدينة ، وذلك بسبب امتناع الوكلاء عن عرض اعمال الفنانين الذين يقيمون خارج المدينة · وبينما تعج المدينة بآلاف الرسامين ، فان عدد الوكلاء قليل جدا ، مما يسمح للوكلاء بحرية اختيار اللوحات والاساليب · اما الفنان ، فان جل طموحه هو ان يقع عليه اختيار احد الوكلاء من اجل أن يستطيع الوصول الى جمهوره · وهذا ، يعطي الوكيل مركزا كبيرا ، ويشجع النظرة الى الفنان باعتباره شيئا · ومن جهتي ، فانا لا اعرف تجربة اقل انسانية من تلك التي يتعرض لها الفنان عندما يقف في المعارض ، امام صور فوتوغرافية عن لوحاته على امل ان تنال رضى احد الوكلاء ·

ويصبح الامر اكثر صعوبة عندما يكون الفنان امرأة او زنجيا او اميركيا هنديا او أجنبيا غير اوروبي ·لقد حاولت شخصيا ، ولعدة سنوات ، ان أنال فرصة عرض لوحاتي في معارض نيويورك · واعرف الان كم هو هراء القول ان جودة الرسم هي قاعدة العرض· انه نظام يلغي مقاييس الفن ، بحيث لا يعود أحد قادرا على نيل فرصة الاستفادة من المعارض الا بتوصية من أصحاب النفوذ او بكسب رضاهم ·

كما أن الفنانين ، محكومون بالمنافسة الشرسة ، على الرغم من صداقاتهم · فتبادل

الافكار بين الفنانين ، مثلا ، ليس أمرا عاديا كما يمكن الاعتقاد · ان منبر تبادل الافكار هو مجلات نيويورك الفنية ·وعادة ما يكون الشارح ناقدا او مدير متحف او عالما جامعيا في شؤون الفن · ونادرا ما تنشر هذه المجلات مقالات لفنانين · فالعادة ان يكون الفنان أخرس ومضطربا · وتصبح بذلك اللوحات عرضة للتفسير ، وغالبا ما تفسر على غير ما هي عليه · والامر هذا يصح على الرسومات الواقعية والمجردة · والاكيد ان الرسم يعاني من حساسية دقيقة عند تعرضه لهذا المستوى من الاستغلال · حتى ان المجموعة التي تضاف اليها لوحة ما تغير من معناها · والفنانون عاجزون في هذه الحالات· ذلك انه في حال بيع لوحة ما يصبح للمالك الحق القانوني في التصرف الكامل بهذه اللوحة وحتى في اتلافها ·

وبموجب هذا النظام لا تتمتع اللوحات بقيمة نقدية ذاتية · بل ان بعضها يصبح ذات قيمة سلبية الى درجة لا بد من وضعها في الاستيداع · كما ان الفنان عاجز عن تنمية قيمة لوحاته ، الا في حال استثمار هذه اللوحات من احد الوكلاء عن طريق وضعها في تصرف النقد ، والحاقها بنظام شهادات البراءة المكتوبة · وبذلك يمكن شراء لوحة ما على ضوء قيمتها في المستقبل بموجب هذه الشهادة الممنوحة لها · وفي حال ابداء احد الهواة رغبته شراء لوحة ما يسارع لسؤال الوكيل عن الشهادة الممنوحة لهذه اللوحة من المتاحف أو المعارض · وكلما اشترى متحف او وكيل لوحة ما أو وضعها في العرض ، وكلما تناولت مجلة ، تصدر في نيويورك ،اعمال فنان ، كلما ارتفعت القيمة النقدية لهذه الاعمال · وفي مطلق الاحوال لا يمكن للفن المرئي تجنب هذه المصائد · وبقدر ما يكون الفن مصنوعا من مادة ، اي مادة ، وبقدر ما يكون فريدا او مكررا بدرجة محدودة جدا ، بقدر ما يمكن تغييره ونسخه · حتى ان الاعمال الفنية التي ظهرت منذ العصور القديمة والتي لا علاقة لانتاجها بهذه الانظمة ،هي عرضة لهذه العملية من التقييم والتبادل ·

ان اكثر من تسع وتسعين بالمئة من فناني مدينة نيويورك لا يمكنهم العيش من مردود انتاجها الفني · وهناك قلة من الاسماء اللامعة والثرية · الا ان الفوائد الكبيرة هي التي يجنيها هواة الفن والوكلاء · حتى أن بعض الرسومات تصبح ذات قيمة مرتفعة جدا بعد تنسيبها الى بعض المتاحف ، على الرغم من انها بيعت في البداية بأسعار متدنية ·

ان هذا الادعاء هو وسيلة لتخفيض قيمة الضرائب · فالنتيجة ان الذين يدفعون ثمن المجموعات المنسوبة الى المتاحف هم في غالبيهم من الذين يدفعون الضرائب ، ومن الذين يفقدون الخيار خارج هذه المجموعات · وعلى الرغم من ذلك فان متاحف نيويورك تبقى مكتظة بالزبائن ·

الا ان هذا النظام يبقى قادرا على تسليط الاهتمام على الفن الرفيع لانه يشتمل على جمهرة كبيرة من الناس ولان اتفاقا عاما يبقى ضروريا لتقدير المستوى الرفيع · كما ان هذا النظام يبقى قادرا ايضا على تسليط الاهتمام على المزيف ، كما يمكنه التأثير سلبيا على كل الفنانين ، ويضعنا جميعا في العذاب · وبالنسبة لي فانه امر مؤلم ان ابيع لوحة غير معروضة ·

ان بعض الاراء عن تاريخ الفن السائد هنا يجب تصحيحها ·البعض يسميها بنظرية طريق سكة الحديد بسبب سلوكها طريقا مرسومة من غير محطات فرعية · وهذه الاراء تنظر الى الفن الغربي باعتباره متفوقا · وتصف كل من لا ينطبق عليه تعريفها بأنه بدائي مبسط او انه تزييني بلا قيمة · كما ان هذا الفن المتفوق يكون اجمالا من صنع الرجال ·

وينظر الى النساء باستخفاف ، من قبل علماء الفن ·كما ان اعمال النساء الفنية (مثل اغطية السرائر والسجاد) تصنف على أنها ادنى قيمة من فن الرجال المتفوق (مثل الرسم والنحت والهندسة) · وحسب ما تقول هذه النظرية ، فلقد بدأ الفن المتفوق مع اليونان القديمه وبعدها مع عصر النهضة الايطالي والفن الروماني الاوروبي · وعندها اصبح يعرف بفن الباروك الايطالي ، ثم الروكوكو الفرنسي طوال فترة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين · ثم وصل خلال الحرب الكونية الثانية الى نيويورك وما زال يقيم فيها · هذه النظرية البائسة ، لا علاقة لها بالفن ، انها جزء من ممارسة اجتماعية سحرية ، تحاول ان تقنع المجتمع بكامل افراده بأن بعض الاجناس والمجتمعات متفوق على العكس من بعضها الاخر · لكن الثابت ان الامور لم تتطور هكذا · فالفن المعاصر لمدينة نيويورك مدين للمصادر الافريقية والهندية الاميركية بقدر ما هو مدين للمصادر الاوروبية · كذلك هو مدين للعالم الثالث بقدر ما هو مدين للعالم المتفوق · الحقيقة انه لا بد من اعادة كتابة تاريخ الفن · ومن الخطأ أن ندين الفن نفسه ، من خلال ادانتنا لنظام نقد الفن وكتابة تاريخه ·

والسؤال هو : لماذا يؤمن عدد كبير من الفنانين أن طريق نيويورك للنجاح هي الطريق الوحيد لنيل المصداقية لرسوماتهم ؟ بعيدا عن الواقع الذي يعترف لمدينة نيويورك بالزعامة الفنية في جميع انحاء العالم ، علينا ان ندرس التعليم الفني حتى نفهم ظاهرة تدريس عبادة الابطال للطلاب من خلال المناهج التعليمية · وهذه الشخصيات مثل ، مايكل انجلو وفان كوخ وسيزان ، يعاد صنعها لكي تصبح مقدسة ، ويصبح الاخذ بها كمثل اعلى للالهام · كما أنه يعاد بناء اسطورة الفقر ، الذي يرافق الفنان ، بناء رومانتيكيا ، من اجل ان يبقى الرسامون مستسلمين لداخيلهم المتدنية ، ومعرضين عن وسائل الترفيه المادية من أجل التمسك بعملهم الشريف · ويصبح كل رسام او رسامة مقتنعا في داخله انه يملك شيئا خاصا يضيفه الى المجتمع · كما يشحن طلاب الفن بخصوصية معينة في داخلهم تختلف عن كل انسان آخر ، وتحقيق الاعتراف الاجتماعي بالفنان ، هو في الحقيقة، تأكيد لهذه الخصوصية الفردية الانسانية · وبذلك يتحول الرسم رديفا الى الحاجة لتأكيد الانا الذاتية ، مما يدفع الفنان الشاب للبحث عن افكار عن الرسم ، تدور في جوهرها حوله كفرد ، اكثر مما هي موجهة من أجل افكار عالمية او جتماعية ، او من اجل التعاون في سبيل حاجات المجتمع الجمالية · ان الصياغة الرومانتيكية لتاريخ الفن ، تقود الى هذا البحث الداخلي · فتحقيق « الانا » ، يشبه وضع الاعشاب امام الحمار ، فنترك الفنان وحيدا معزولا فقيرا · كما ان تاريخ الفن وأدبه مثل الاغطية التي توضع على جانبي رأس الفنان ـ الحمار على طول الطريق الضيق الذي يقود الى النجاح ، حتى ولو كان الجميع يعرف ان هناك مكانا لما نسبته واحد بين كل خمسمائة على رأس هرم النجاح ·

واستعمار العالم يقدم اضافة ، كما يبدو ، لهذا الفن · فمن المؤكد ان الفنانين التعبيريين الفرنسيين مدينون الى حد كبير الى الكتابة اليابانية · كما ان التعبيريين بالخطوط الهندسية نقلوا الكثير عن فن النحت الافريقي · تماما كما هي حال التعبيريين التجريديين الذين نقلوا افكارا من سجاد قبائل نافاجو الهندية · واصبح تقليديا هنا البحث عن افكار واشكال من العالم لاستخدامها في الفن · والفن العربي غير مستثنى في اي حال من الاحوال · ومن سخرية القدر أن تستطيع الدعاية الصهيونية استخدام الفن العربي · كما يظهر أليل الاستعماري عندما تنسب الفنون المنقولة من العالم الثالث على انها اكتشافات · ان الاسطر التي مهرت بها الصور الفوتوغرافية لبعض المنحوتات الافريقية ، باعتبارها

براءة اكتشاف ، غالبا ما تكون اسم الرجل الذي احضرها من افريقيا · ان عملية بنـــاء الاسطورة تحيط بالاكتشافات وليس بفناني العالم الثالث ·

وفي الوقت ذاته فان فنون شعوب العالـم الثالـث تأثـرت هي ايضـا بالفنون الغربيـة والاميركية · والسؤال هو : لماذا تكون التأثيرات الغربية والاميركية على العالـم الثالـــث سلبية بشكل دائم ، بينما تكون تأثيرات العالم الثالث على الفنون الغربية ايجابية ومنتجة؟ هل هي الثقة عند الفنانين الغربيين والمظاهر السحرية الاحتفالية التي أقنعتهم بأنهم يحيون تاريخا بارزا بينما يعيش فنانو العالم الثالث داخل مشاعر الانحطاط في بلدان مجهولـة ؟ ام أن الامر يعود لدعم يقدم للفنان ؟ الحقيقة انه نادرا ما وجد فنـان من العالـم الثالـث مجتمعا يعتبره مبدعا · ويجد هؤلاء الفنانون ضرورة ان يعترف بهم الغرب حتى تعترف بهم شعوبهم · من جهتي ليس لدي ما أقوله · يمكنني فقط القول أن هناك سببا أساسيا غيـــر الذي أظنه وان الاحتمالات التي اصفها ليست الا عوارض فقط ·

لكن هناك احتمالا آخر لتفسير الظاهرة : أن بنية الفن المعاصر تقوم على ان مقياس الفن وجودته هو باستمرار تدفقه واندفاعه · اي ان الفن يجب ان يكون رائدا ودائم التقـدم · الا انه في حال التدقيق برسم فنان وبأسواق نيويورك فمن الممكن التوصل الى نتيجـة ان ليس لدى الفنانيين تعريفا « للتقدم » · انهم الرهبان الكبار للادب وتاريخ الفن المعاصـــر الذين يحددون « الرواد » والجدد والاتجاه الذي يسلكه الفن · ومن بين الاف الفنانين الذين تضمهم نيويورك من السهولة تصنيف عدة مجموعات كل مجموعة من خمسة فنانين تتشابه رسوماتهم الى حد ما ، كما يمكن الكتابة حولها الى لا نهاية ، غير ان النقد هو الذي يضع التصنيف والذي يحدد المجموعة التي يتناولها بالتعليق مما يسلط عليها الاهتمام بحجة انها مدرسة جديدة واصيلة · وبالمقابل يمكن اهمال ونسيان الفن الجيد · وفي سبيل الاحتفـاظ بسطوتهم وهيبتهم ، يحتفظ النقاد بحركة المسرح وصعوده وهبوطه · فليس هناك شيئـا ما يسبق زمن شخص ما · وما على الفنان الا ان يلعـب لعبة النقـاد انفسهم : أي ان يضـع رسوماته ، التي سيتعرض لها النقاد فيما بعد ، بموجب ما كان النقاد انفسهم قد كتبوه من قبل · وفي حال القيام باللعبة جيدا وسبقت النقاد ببضع خطوات فلن تمنح الاعتراف مـن أحد · وربما أتهمت بالحماقة وشيـدت عمارة باتجـاه آخر · ان فنانـي مدينـة نيويـورك يعيشون بالقرب من بناء أداب النقد ومن السهولة معرفة الاتجاهات دائمـا · وعلـى عكس ذلك ، فان فنون العالم الثالث متأخرة عن ذلك بنحو ثلاثين سنة · والنقاد لن يعترفـــوا بالذين يحققون ماضيهم بقدر اعترافهم بالذين يحققون نظراتهم المستقبلية · وبقدر ما يبقـى فنانو العالم الثالث يسيرون بخطى مؤسسات الرواد الاوائل ، بقدر ما يعجزون عن اللحاق بهم · وعندما يغامرون على حسابهـم الخاص سيكونـون جديرين ومستقلين عن طغيـان التأثيرات الغربية وامكانية استخدامها بشكل منتج ·وهي تشبه الرغبة المستحيلة للاخـت الصغرى التي تسعى بين ليلة وأخرى للحاق بجيل شقيقتها الكبرى ·

كان لكل هذه الاسئلة أهمية شخصية عندي · هل أنا رسامة فلسطينية اسكن في اميركا ام انا فلسطينية اسكن كفنانة اميركية ؟ هل بمقدوري ، وأنا اسكن هنـا فـي نيويورك ، ان اسلك طريق الفن العربي او اسمح لرسوماتـي ان تتأثـر بفن مدينـة نيويورك ؟ ربمـا كان السؤال نفاقا · وربما كان بمقدور علمائنا ومنظرينا اعطاء جواب · لكن من جهتـي اعتقد ان من واجبنا ، نحن الفنانين ، الشروع في الكتابة عن الفن في المنابر العامة · واضافـة الى المنابر العامة ، فان امرا بارزا يتملك ذهني ومجرى تفكيري · فلان لغتي مرئيـة ، ولا تهدف ان تكون شفهية او متصلة بالكلام ، فان كل ما أقوله عن رسوماتي هو في النهايـــة

ترجمات مفيدة غير مؤذية · ان كل لوحة هي تراكمات من عدة أفكار مرئية ، على المستويات المختلفة للحقيقة من تجربة المشاهدة الى التفكير في مسألة او مضمون او شكل او مادة ما · ان الرسم يساعد في تعلم طرق المشاهدة· فنحن نشاهد من خلال مصادر معارفنا وحاجاتنا، كما نشاهد من خلال ستائر حاجبة للنور تشكل ثقافتنا وحاجتنا للبقاء وسلامتنا الشخصية· علينا ، بطريقة ما ، ان نشاهد غرفة او شارعا يمكننا المناورة فيه بأمن وسلامة ، ونكون قادرين على الوصول الى وجهتنا بنجاح · تماما كما نشاهد ، بواسطة أجهزة التصوير الفوتوجرافي وبواسطة الفلم ، كل سلالة نظريات البرت الثاقبة عن عصر النهضة ونماذج المشاهدة الغربية البارزة · ففي حالة رجل أعمى أعيد اليه بصره بعملية جراحية غالبا ما يقطع المسافة التي يراها خلال نافذة غرفته في الطابق الثالث من المستشفى لانه يعجز عن استيعاب المسافة · فهو لا يعرف كيف يراها ·

ولوحاتي هي محاولات واعية في تجارب مرئية · أنني اشاهدها كلها كأفكار عقلية رغم انها احيانا توحي بأشياء خرافية وتجارب خيالية · لقد كانت لي اهتمامات خاصة ببعض الافكار الهندسية وعلاقاتها بالروحانيات ولهذا السبب تتعلق معظم لوحاتيبالشكل الهندسي· وعشقي للروحانيات والاشكال الهندسية كان حدسيا وغريزيا · ولم أتمكن من التحقق من أصولة العربية حتى وقت زيارتي للقدس ودمشق واسبانيا سنة ١٩٦٦ · في ذلك الوقت صورت قبة الصخرة والجامع في دمشق والحمرا في اسبانيا ، وبعدها بعض المساجد في تركيه · ولقد تفحصت كل الذي شاهدته بدهشة عندما اكتشفت الاسس الروحية لافكار لوحاتي · ومنذ الوقت وانا أعاني العيش في الوحدة · وخلال تدريسي الفن في الولايات الاميركية المتوسطة الغربية ، لم اكن أحظى بأي دعم يؤكد افكاري وتصوراتي ، او بنقد يعلن خطأي · وتطورت افكاري ورسوماتي بشيء من الاستقلالية وسط هذه الدراسات · ولا زلت ابحث بين الاشكال العربية والهندسية لاستخدامها كمصدر لرسوماتي ·

ولقد بدأت منذ فترة قصيرة ، في محاولة متواضعة ، لدراسة الفلسفة الصوفية باللغة العربية ، واكتشفت انها تحمل افكارا عن طريقة تفكيرنا ورؤيتنا للاشياء · وهي تقدم مساعدة كبيرة من اجل توضيح الافكار عن ان العين ترى ما يراه العقل · والسؤال هو : هل ان تقليد شخص ما في رسم معين ، حسب ما تراه العين ، يوضح تماما ويكشف بنفسه من غير اعتبار لتجربة القلب والعقل مع ذلك الانسان ؟ وكيف يمكن للفهم والشعور والتفكير ان يكون في الرسم من غير أن تكون تقليدا لما تراه العين ؟ وتصبح هذه الاعتبارات اكثر تعقيدا في حال وضع اسئلة عن الذي تراه العين بشكل مستقل عن الثقافة · ان معظم الناس يعتقدون انه حتى يصبح ممكنا رسم لوحات واقعية عن الاشياء التي تراها العين ، يجب ان يكون هذا الرسم شبيها برسوم ليوناردو دافينشي او الرسم التعبيري الفرنسي· وبالنسبة لي فان هذا الافتراض هو افتراض كاذب ·لقد علم هؤلاء الفنانين العظام وبفعالية كبيرة ، كيف يمكن النظر اليهم بالقياس العالمي ، بحيث نتج عن هذه الفكرة لوحات تسمى ، نفاقا ، بالواقعية والتجريدية ·

أميره الزين

بدو الجحيم

وحدنا مع الفجر الملكيّ:

ايها المبحرُ في طوفانٍ يغسلكَ من البشر ، يا سجينَ السفينةِ يا نوحُ يا ابانا البعيدَ اوقفْ زحفهم نحو شواطئنا ٠

الموتُ لا موتَ فوق البحر الميِّت ، والملحُ لا ملحَ في البحر الميِّت ٠

وجنود جهنم يوقدون النارَ ، يقيسون خطوطَ الطول وخطوط العرض ٠ سآتيكنَّ يا اخواتيَ الخمس ، يا اخواتي الثكالى على ضفاف البحر الميت ٠ القدس عمان دمشق بيروت القاهرة ٠ الليل يشتعل فوقكنَّ وانتن تضربنَ بايديكن الناحلاتِ اسواراً عاليةً ٠ سآتيكنَّ بنور اشجار اللوز وخضرة ثمارها ٠ يا قدس يا محكمة الاقفال ساتيكِ ٠

آهدلنَ يا اخواتي الخمس مع المساء ، وانسجنَ شفقاً ليس ميتا ٠

يهدلن مع ذهب الشمس السائل عند عمان ٠٠ يصمتنَ ٠٠ يتمدَّدن كما تستسلم للعرافة الكفُّ ٠

الساعةُ اتيةٌ لاريبَ والمحو وشيكٌ لاريبَ ٠ ثمة خبرٌ يتكاثر سنبلهُ ، يقول الموتُ ليس لعنةً والبحرُ ليس ميتا ٠

الليل ٠ لا نرى لا نسمع سوى ضرب الجذور العمياء في الارض ٠ والليل لا

يخرج من أوّله · ننصت لهن تصطك رئاتهنّ · لا كفّ تحجب الرعبَ · لا نومَ يغلّفُ بضبابهِ ، لا أفقَ يشطرُ الارضَ ·

حين أسروا بالتيار الكهربائي في اجنتهن التوى عنق المدينة · وحين انبتوا الكف قبل اوانها زلزلت الارض وانشقّ القمرُ · وحين شوهوا قلوب الاجنّة ضجت المدينة بأدغال تقرعُ حتى الأذان · وعلمنا ان الاجنة صارت مسوخاً تلبطُ في الارحام ·

انشدنا · قلنا للقمحِ تعالَ ، للغيثِ أَمطِرْ · قلنا ازحفْ يا برتقالَ يافا ·

انشدنا: يا نوحُ يا صديقنا البعيدَ · يا كفاً نورانية · عبثا تنسل الاجنة المسوخ من الارحام ، وتتمتم فوق المقابر · ما بين الخيط الابيض والاسود انشدنا دعونا · دعاءٌ · همس في المدن العربية · تأكل من صدرنا · دعاءٌ وباطنيةٌ · ومركبتنا تنزل عشرَ درجاتٍ في الجحيمِ ·

انشدنا دعونا حتى انتحر فجرنا ، وسكنتنّ رؤانا :

رمل الصحراء يلفح القاهرة ، وفوق الجيزة يقلب الاهرام · في الطرقات اناسٌ مضغوطة فرّت من معلّباتها ·

مياه ليطانيّةٌ تهرول نحو بيروت يشطرُ سيلُها المدينةَ ذاخراً باللاجئين ·· راحلين الى الحربِ ·

مخيم الرشيدية بعد القصفِ ارحام الامهات تحبك عناكب تضلل الاجنة · اسلاك شائكة في دورة الدمِ · اسلاكٌ ، يأتونكَ سعيا وعلى كلّ ضامرٍ والحجّ اسودُ اسودُ · بلقيس تنتحر برمال معلّقةٍ ·

حشرٌ من الحمالين في ازقة القدس يصعدون ينزلون · كلٌّ حجرُهُ الاسودُ في عنقهِ · وفي حي « مياشريم » قداديس دامية لروح العرب · بدوي يرعى ولا قطيعَ ، يهش بعصاه على الفضاء العربيّ ، وشريط غزة يستقيم يداخل الضفة بالجليل · واجهة جهنم في ارض النقب والبدو صابرون حتى مطلع القدس · تأخذك الصيحة يا عمان وتخرين بجبالكِ ·

عبثا تقفل بيروت قلبها · يغشاها غزاة البر والبحر · و « وصور الملعونة » تهدر بالنار وتطفو بالجثث رحلة الشتاء والصيف · والجنوب بين داخلٍ وخارجٍ فصلٌ في الجحيمِ ، وللساحل العربي شكلُ انفِ الموتِ وفمِ الموتِ ·

ربّتنا · دعونا · يا نوح يا ابانا البعيد · يا كفا نورانية اوقف زحفهم نحو شواطئنا ·

قوافلَ قوافلَ يجيءُ البدو ملتهبةً ذيولُهُم · يتوسلون للشمس تنزل عليهم بردا وسلاما · وجوههم مشبكة وارجلهم ضريرة توسوس ساعية الى طريق لا يتلقفها حَزنةُ جهنم ·

ايُّ شهاب يذيلهم ، ايُّ نبات يخبئهم في انغلاقه ، ايُّ ظهيرةٍ تجلوهم ؟
الليل يسبح في عباءة موته ، يتقدم بدو النقب نحو الاخوات الخمس · لا افق يرعاهم · لا دوار يردهم.ينتشرون · يشدهم اليهن عفنٌ بعيد ، ورطوبة مرمدة كرطوبة جهنم بعد ان يطفيءَ الالهُ نارها ·

سأتيكنَّ يا اخواتيَ الخمس · اخواتي الثكالى على ضفاف البحر الميِّت · اسمعكن تفحُحْنَ كالحيات ، تتنفسن بقية ·· ارى اطفالكن يتقلبون · شيوخكن يلتهون مثل الرياضيين في نهاية الشوط ·

يا نوح يا ابانا البعيد · يا كفا نورانية ، هلا اخرجتنا من صحراء الحناجر ، وشككتَ بنا في قدس القلبِ ·

مباركةٌ يدٌ لم تُصَبْ بجذام العدو ·

مباركٌ الفراشُ ، ما زال سعيدا في الضفة ·

محمد أبي سمرا

مسرح بلا أقنعة
يكشف "أقنعة مسرح الكيان"

- ١ -

من عادة الكتابة الصحفية ، في اعلانها وكتابتها ، عن النشاطات والاعمال الفنية ونقدها ان تبدأ الحديث عن المؤلف او المخرج ، عن الممثل او المحاضر ، عن المفكر او الشاعر او الرسام · عن دار النشر او مكان وزمان العرض ··· البدء بالكتابة على هذه النقاط ، يحمل دلالة ، تتعلق بكيفية انتاج العمل وتوزيعه واستهلاكه وعلاقة الجمهور به ·

تتبدى هذه العمليات واضحة في انتاج الاعمال المسرحية والكتابة عليها · فالمسرح اللبناني ، منذ نشأته « الحديثة » يرتبط بأسماء المخرجين او المؤلفين او الممثلين وهوياتهم · كما وتخضع امكنة العرض لتقاليد موسمية دورية راسخة ، تضفي طابعا من التمركز والثبات والهوية ، تحدد كيفية استدعاء المشاهد وحضوره ، واحيانا هويته الاجتماعية والثقافية ، وحينا اوليات وخصائص تعاطيه مع العمل · وكان هذا النشاط المسرحي يتركب عميقا ، على خارطة توازن الكيان اللبناني ، الذي ترافق انهيار رموزه السياسية ـ الاجتماعية ، اثناء الحرب الاهلية ، مع انهيار رموزه الفنية والثقافية ، وتبدت للجميع استحالة استكمال مشروعاتهم وتوجهاتهم · لان الجبهات والقذائف لا تتيح ذلك اولا ، لان روح الاعمال المسرحية وامكنة عرضها ، كانت تقوم وتتأسس على استمرارية وثبات التوازن · اما الاعمال والعروض التي عاودت نشاطها ، بعد انخفاض حدة الحرب وتقلصها ، على نفس المعادلة السابقة ، مثل (« بترا ـ للرحبانية » و « اخوت لبنان ـ نبيه ابو الحسن » و « بالنسبة لبكرا شو ـ زياد الرحباني ») فقد كانت تهجس استمرارية المعادلة ، وهي تشهد احتضارها ، ولم تستطع تركيب نص مسرحي يهجس الحالة الجديدة · وربما تدل هذه المسألة على امانة صارمة وجدية ومسؤولة ، رغم مأساويتها ، تجاه تاريخ تشكل تجاربهم ، خاصة مع الاخوين وزياد رحباني ·

ان النصوص المسرحية وامكنة عرضها ، كانت تمر عبر خارطة توازن الكيان · فليس

صدفة ان تكون مواقع « المسرح الوطني ، ومسرح بعلبك ، ومسرح البيكاديللي ، ومسرح الاورلي ... وغيرهم » في الوسط التجاري للمدينة ، على خطوط التماس العسكرية ، حيث كانت تتشكل مدينة « الكيان » الكرتونية المسالمة الموحدة ، تنمو وتزدهر ، تصطنع وتؤسس وطن المصارف والاستهلاك والتجارة والزينة ، على انقاض الهوية والانتماءات الفعلية للمجتمع ، وخارج قواه واستقطاباته « الاهلية ـ المحلية » في الداخل . ورغم ان امكنة العرض كانت تؤسس لوحدة تستوهمها وتسقطها ، من ايديولوجية وحدة الكيان ، على انقساماته وتراتباته وصراعاته الفعلية ، رغم ذلك لم تستطع مضامين النصوص المسرحية وكيفية ادائها ومخاطبتها لجمهورها ، من اخفاء عناصر تكونها وتماسكها الداخليين . اذ كانت هذه الاعمال تستلهم وتتحدث خصوصيات ازمة فئات الكيان ، من ضمن غطائه ووهمه الايديولوجي الذي يفترض الوجدة الموهومة ، دون ان تخدش (هذه الاعمال) الغطاء ، لا على مستوى النص والاداء ، ولا على مستوى علاقتها بجمهورها . لذا كانت تحمل خصوصياتها ، فلكلوريا وسياحيا ، كما هي ايديولوجية سلطة الكيان . وتعرضها وسط المدينة الذي يتشكل موحدا على الاستهلاك السريع الذي لا زمن له ولا هوية سوى التجارة والاستلاب .

تجارب اخرى كانت تقوم على فسحة الاندماج الثقافي لفئات الكيان اللبناني ، ولكن هذا الاندماج كان لا يطال الا فئة من المثقفين ، بانفصالهم عن الزمن الشعبي . لذا كانت هذه الاعمال تشتغل على هموم وهواجس النخبة ، وهم يتحدثون من مواقعهم وبلغتهم الثقافية ، مسرحيا ، عن ذلك الزمن الشعبي . كذا بقيت هذه الاعمال التجريبية محصورة في الهامش الثقافي الذي تتيحه ايديولوجية الكيان ، دون ان تتمكن من خرقه ، لانها في مثل هذه الحالة مضطرة الى اعادة النظر جذريا بمادة النص المسرحي ولغته وطريقة ادائه وعلاقته بجمهوره وهويته . فأيديولوجية الكيان تسمح للمثقف بالنقض والنقد بلغته وقيمه ولهجته الثقافية المنفصلة عن القيم واللغة واللهجة الشعبية ، لانه نقد لا يطال مرتكزات هذه الايديولوجية في مواقعها الفعلية . لذا لم ترس هذه التجارب تقاليد مسرحية ذات افق ، فانهارت جميعا مع انهيار الكيان ، وكأنها لم تكن الا وليدة توازنه وسياق تطوره ، مثبتة ان لا فعالية للثقافة الا باستلهامها للزمن الشعبي ، الذي لا تحيا الثقافة ويكون لها معنى ، الا بتماسها معه وتمثله في التفاصيل .

أما الاعمال التي بدأت تظهر استنادا الى افرازات الحرب الاهلية معطياتها الجديدة ، والتي تقوم بانتاجها فرق مسرحية شابة ومبتدئة ، فلا تعدو كونها اعمالا سريعة تعتمد على خطابية درامية مفتعلة ، مستمدة من ضجيج الحرب الخارجي ، مفتقدة الحساسية الفنية والفكرية . وهي بهذه الطريقة تبتذل العمل المسرحي بتحويله الى خطاب انفعالي مسطح عن الواقع . هذه الاعمال والنشاطات ، في اغلبها ، وليدة ظروف استثنائية سريعة ، غير جدية في تعاملها مع الفن عامة والمسرح خاصة ، لانها اعدت في زمن الانهيار والتغيرات والانكسارات العميقة ، لتملأ فراغا محدقا ... ورغم ذلك ، تبدو هذه البداية الخيار الوحيد الملائم لهذه الظروف المرتبكة الراهنة ، وربما حتى انقشاع الافق .

ـ ٢ ـ

الحرب الاهلية التي فجرت توازن الكيان كما فجرت ليبرالية ثقافته الاستهلاكية الرائجة القائمة على تهميش وتهجين ايقاع الحياة الشعبية بحيويتها وقيمها ووسائل تعبيرها ،

اوصلت المثقفين وثقافتهم وانتاجهم الفني الى المأزق القعلي · فبانكسار ذلك الزمن الملفق، انطرحت مسألة التعبير الفني والثقافي ، بكافة مستوياتها ، بحثا عن زمن وهوية وعن علاقة بالزمن الحي الذي يصنع · نموذج المثقف الحديث الهامشي انكسر الى الابد ويبدا ان لا ثقافة ولا تعبير فنيا يتمكن من العيش على لاهوت ونبوية حداثة تضرب الزمن الشعبي المتدفق · انها تجربة الحرب ، حين تقلب الرؤية الثقافية والفنية للمثقف الذي لا يريد العيش على استهلاك ثقافة الكتب وتكرارها ··· المسألة ليست بهذه السهولة والحتمية المتفائلة ، ولكنها الوجهة الوحيدة التي تستطيع مواكبة ومعايشة الزمن الوجودي الحي ، لخلق ثقافة وفن جديدين يستلهمان غزارة تجربة هذه الحرب المريرة وافقها ·

اتضحت هذه المشكلة ـ المأزق باقصى صورها على مستوى التجربة المسرحية· فبينما استعادت الانواع الفنية والثقافية الاخرى ، بعد الحرب ،بعض نشاطها بتفاوت ، بدا ان المسرح يعاني شرخا فعليا ، لا يستطيع العاملون به القفز من فوقه · فانطرحت امامهم خيارات جدية ، تطال بنية توجههم جذريا ، خاصة بالنسبة للمحترفين الذين شاركوا بخلق التجربة المسرحية اللبنانية الحديثة ، منذ بداياتها ·

روجيه عساف احد هؤلاء المشاركين المحترفين ، وربما هو اول من عانى هذا المأزق ووضع نفسه امام الخيارات الصعبة · في العام الماضي ، عندما تنقلت « فرقة مسرح الحكواتي » في عديد من المناطق والضواحي ، عارضة مسرحية « بالعبر والابر » ، ورغم اننا لحظنا بدايات تغير نوعي في التعامل مع المسرح ، لم نكن نضع في حسابنا ولم ننتبه للمشروع الجديد الذي ينخرط روجيه عساف باعداده وترسيخه ، ربما لان الرؤية والظروف لم تكن ناضجة لتلمس وجهة الخيار وافقه والحاجة اليه · ولكن العمل الثاني « لفرقة مسرح الحكواتي » ، الذي شاهدنا اولى عروضه في الجامعة العربية والامريكية، تحت عنوان « مشاهد من ١٩٣٦ » افسح لنا تلمس وجهة المشروع ، ومكننا من تتبع سياق ونوعية وافق التجارب المسرحية ، وصياغة رؤيتنا وملاحظاتنا لما انتجته سابقا ··· فما هو هذا المشروع ، وما هي وجهته ؟؟·

المسافة بين الجمهور والمسرح في « مشاهد من ١٩٣٦ » موضوعة دائما قيد الكسر ، سياقا وتفاصيل · الممثلون ليسوا ابطالا ، ولا هم نماذج مركبة معدة او مؤلفة في الذهن او على الورق · الزمن ليس زمنا مسرحيا ، يتشكل منفصلا ومقفلا على الخشبة · انه زمن مفتوح ومتقطع ، لا يبدأ ولا ينتهي ، لا يتصاعد ولا ينخفض ، ولا يدور حول عقدة تتشابك حولها العناصر حتى تنفجر بحثا عن حل تراجيدي او درامي · انه ليس مسرح الممثلين ولا المخرج ولا النص ولا الديكور ولا الملابس ولا الماكياج ولا الادوار ، بل مسرح عار ، بلا اقنعة وبلاقفازات ، كأنك تعيش معه في الهواء الطلق ، خارج القاعة ، وخارج حدود الخشبة · ليس الاعتماد هنا على الادوار الفردية المنمذجة المنمقة التي تحتكر الزمن وتختزله في حركتها الذاتية الخاصة · وتدهشك هذه الحيوية الحميمة الجماعية ، التي تتحرك على المسرح وبين المقاعد ، لممثلين شبان لم تأسرهم وترهلهم مهنة الاحتراف والنجومية ، فيتسرب استفزازهم الى اعصابك المسترخية ، وتنكسر بينكما المسافة ، لتدخلا طقسا يشبه العيد ، ولتطفح حواسك بما يشبه الفرح السري ··· لتتحول القاعة الى حقل مغناطيسي آسر ·

الواقع بحركته التفصيلية المنفلشة الحية هو النص · الرؤية الفكرية غير مسقطة على الخشبة والواقع المحول الى حركة مسرحية لا تترابط في سياق الفكر ، بل في سياق الاداء

الطبيعي للتفاصيل الحياتية · الادوار ليست نمطية ، ولا تسعى الى ترسيخ او محاكاة او فبركة هالة مسرحية · انه مسرح بلا اطلالة مسرحية مفخمة ، وكأنك تشاهد فصولا من حياة جارية · المسرح هنالا يشتغل على ديناميكية داخلية خاصة به ، يقفل الخشبة على زمنها ويفصلها عن المشاهد · الممثل الذي يؤدي دوره يتذكرك دائما ، يحاورك ويثير انتباهك ، لا ينساك ولا يدعك تنساه ، فتنسى انك امام خشبة مسرح وينسى هو انه فوق الخشبة ، فتنعقد تلك الصلة الحميمة الحادة بينكما وتنكسر المسافة المنمقة الباردة التي تعودها المسرح الكلاسيكي والممثل الكلاسيكي ، بينه وبين المشاهد ·

وانت تدخل الصالة ، تجد المسرح بلا ستار وبلا ديكور · الممثلون ليسوا في الكواليس يتهيأون · بل هم يتجولون في القاعة بين الحضور ، يغنون ويتحدثون معهم · العرض يبدأ دون اعلان ودون ان تدري ، يبدأ في وسط والقاعة وينتقل الى الخشبة ويغادرها من حين لآخر · انه مسرح يكشف لك تفاصيل اللعبة ، اخراجا وادارة ممثلين ، ينزع عن حواسك وهم التمثيل ، ويمنك من الانسياق وراء مناخ تحتشد فيه طاقات انفعالية يستحضرها او يحفظها الممثلون لايهامك واستبعادك ، لكي تسيطر عليك تقنية الاداء والديكور والاضاءة ·

على هذه المسافة المنكسرة تبدأ « مشاهد من ١٩٣٦ » ، بمعاهدة « سايكس ـ بيكو » لتقرأ لحظة تاريخية من افواه وهموم ولهجة ناس جبل عامل ، لحظة تاريخية كما عاشها رجال ونساء « بنت جبيل » ، في بيوتهم وحقولهم وسهراتهم ، وبالتفاصيل · فترى التاريخ الذي تقرأه كلمات في الكتب قد تحول ، على المسرح ، الى تفاصيل حياتية حسية ملموسة · صورة الحدث والتاريخ ، في الكلمات ، مجففة وباردة ، خطابية او ايديولوجية ، لكنه هنا على المسرح يستعاد كزمن حياتي ، بدون بطولة او نمذجة ، فتدخل كمشاهد ومشارك ، في متعة السياق ومتعة التفاصيل · فقط الشعر وحده يستطيع ان يصفعك بهذه الحيوية للزمن · والمسرحية ، بهذا المعنى ، وثيقة شعرية باللغة العامية ، وثيقة تؤدي بتلقائية الزمن الشعبي ولهجته الحميمة ، احيانا تكثفه وتضغطه ، وحينا تتركه ينساب حتى الاقاصي · انه النص حين يصير على المسرح بشرا عاديين ، او العكس · الانسياب التلقائي يقع في التفاصيل والترابط يقع في السياق الفكري او الثقافي · لذا تبدو المسرحية وكأنها تعرض معنى او رؤية فكرية للحظة عيش تاريخي · ولذا يبدو قصدها سياسيا مباشرا · في كل لحظة تفصح المشاهد المسرحية عن دلالة تخدم السياق الفكري ـ السياسي ، اما السياق الفني فلا تستطيع لمسه ، لانه يتركب امامك مباشرة ، في كل لحظة ، ثم ينكسر ويختفي · التعبير المسرحي يعتمد دائما على طريقتين في الاداء : الكوميديا التلقائية والحماس الجماعي ، كي ترى ان ادوات وطرائق التعبير الشعبي ، عن الاحلام والهموم والمشاعر والتناقضات والاستياءات والفرح ، بسيطة ومعقدة ، في اللحظة نفسها ، مفتوحة ولا تنضبط في اتجاه محدد متساوق · طريقة غريزية حسية في التعبير ، تتدفق بتلقائية حيوية ، تتحدث العيش الوجودي للجماعة والافراد ··· هكذا يتحدث الناس ، دائما ، همومهم ، سياسيا ، بغزارة لا يعرفها ولا يستطيع ان يلتقطها المقال السياسي النظري ، لتنكشف اسطورة التسييس المفتعل لمشاعرهم وهواجسهم ، حينما توظف في بنية كلامية مفهومية مجردة ·

« مشاهد من ١٩٣٦ » تصف زمن العيش الشعبي وردود فعله المباشرة اثناء وبعد معاهدة « سايكس ـ بيكو » ، مسرحيا · وهي بهذا المعنى تقدم قفزة نوعية عن مسرحية « بالعبر

والابر » التي سقطت احيانا كثيرة في الخطابية والترميز السياسي ـ النظري ، المسقـــط على الادوار والخشبة ، اسقاطا ثقافيا · وهي من ناحية اخرى ، تتحرك خارج زمـــن توازن الكيان اللبناني ، ليس لانها تتناول حقبة لم يكن الكيان اثناءها ناجزا بعد فحسب ، بل لانها ، فنيا ، كشفت اقنعة « مسرح الكيان » ، باعتمادها على دينامية مسرحيـــة مغايرة تماما للتناول السائد للتاريخ ··· مسرح بلا اقنعة يكشف اقنعة التاريخ · لهذا تستطيع ان تعاين ، من خلال الماضي ، ازمة حاضرة ··· ازمة التجزئة العربية وفكرها· ازمة الفكر الوحدوي المنفصل عن الزمن الشعبي ، والقائم على تهميشه ··· ويبقـــى السؤال قائما :

لماذا لا نستطيع رؤية الوحدة الا في حقبات التاريخ البعيدة او القريبة ، بينما مقاربة الحاضر تبدو مستحيلة من منظور هذه الرؤية ؟

نوريت غـيرتـز

الـــرّوائيّون الإســرائيليّون شهـودٌ عـلى المعـاناة

على عكس ما كان الامر خلال السنوات الاولى من ربع القرن الاخير ، بات القـــاريء العربي مؤخرا يعرف أشياء كثيرة عن الادب « الاسرائيلي » ٠٠ كما عن الفنون الاخرى، وذلك بفضل مجموعة من الدراسات والكتب التي صدرت تباعا ٠

في كتاب عاموس كنعان « الذبيحة ٢ » (١٩٧٦) ، يقيم لاجئو تل ـ ابيب المدمرة ، في مخيم كبير لا سماء له ، ولا نهار فيه ولا ليل ، لا عصافير ولا شجر ولا طبيعة ، ولا ماض له ولا مستقبل٠ وفي قصة يتسحاق بن نير «بعد المطر» (١٩٧٦)، نتواجه مرة اخرى معمدينة تل ـ ابيب بعد الدمار : مدينة عابقة بالفوضى تهيمن عليها العصابات ، ويجول فيهـــا اناس وحيدون خائفون يملأون شوارعها لانهم خائفون من البقاء وحدهم في المنازل ٠٠ وكل واحد منهم يأمل بحدوث المعجزة الفجائية ٠

وفي رواية أ٠ب٠ يهوشـواع الجديدة « العاشق » (١٩٧٧) يطالعنـــا صاحب كـاراج اسرائيلي فقد قدرته على العيش بشكل طبيعي : هناك عرب يعملون عنده ، وعرب يقاتلون عنه ، وهو الآن بحاجة الى من يحب زوجته بدلا منه ، ومن يحلم بدلا منه ، ويعتمر قلبـــه بالامل بدلا منه ٠

*** ضمن اطار هذا التعرف المشروع يأتي المقال التالي الذي كتبه نوريت غيرتز الاستاذ في جامعة تل ـ ابيب ، عن الرواية والقصة الحديثـــة في الدولة الصهيونية ، ونشرته صحيفة « لوموند دبلوماتيك » في عددهـا الاخيـر (نيسان) ١٩٧٩ ٠ اهمية هذا المقـال ، الذي قد لا يكون من السهل موافقته على بعض ما يرد فيه من مفاهيم وتعابير ومصطلحات تطرح على شكل مسلمات وبديهيات ، اهميته تكمن في انه يطرح الادب الاسرائيلي مـن منظور اجتماعي يربط « رؤيته للعالم » بالواقع الراهن في الدولة الصهيونية ٠ من هنا ، حين يقول الكاتب ان الروائيين الاسرائيليين انما هم شهود على المعانـــاة ، فهو يعنـــي التعبير عن روح عامة قد يكون من الخطأ عدم التعاطي معها بكثير من الجدية والاهتمام ٠**

اما قصة عاموس اوز الاخيرة « تلة النصيحة السيئة » (١٩٧٦) ، فانها تروي حكاية دمار عائلة في القدس ، قبل انشاء دولة « اسرائيل » ، والقصة تروي ، عبر تلك الحكاية، حكاية انعدام الحلم بانشاء الدولة ، حتى قبل ان يبدأ الحلم بالتحقق ٠

ماذا في الامر ؟ هل يتوقع الادب الاسرائيلي مذبحة جديدة ؟ حربا اخرى ؟ من أيـن يأتي هذا الشعور القوي بحتمية وقوع الكارثة ؟

تقول الفكرة السائدة إن حرب الغفران (١٩٧٣) هي التي الهبت الوعي الاسرائيلي، ودمرت شعور الامان الذي كان يخالج المواطن الغازي والمظفر ٠ غير ان الواقع يقـول لنا بان القلق يعود الى فترة زمنية اكثر قدما ، فخلال الفترة القصيرة التي فصلت بين الحربين الاخيرتين ، بل وقبل حرب العام ١٩٦٧ ، في نفس اللحظات التي ازهر فيهـا لدى الاسرائيلي الحس بالامان القومي ، كان الادب الاسرائيلي يلح بدأب على هـذه الموضوعات : موضوعات المعاناة والدمار ٠٠ مع فارق بسيط هو ان هذه الموضوعـات ظلت ، الى سنوات قليلة ماضية ، معكوسة في الداخل ، حيث لم تظهر الا على شكـل مجازي ، وعلى صور حبكات ثانوية ، بل وحتى حين كانت تصاغ بصورة جلية وواضحة، لم يكن النقاد والقراء ينظرون اليها على هذا الاساس ٠

بالتحديد ، حين وصلت القوة الاسرائيلية الى ذروتها ، كان الادب يصر على الوقوف طويلا عند آلام « اليهودي المضطهد » الذي لم يجد بعد مأوى له ، حتـى ولا في ارض فلسطين التي يعتبرها « وطنه التاريخي » ، وهذا اما لان ماضي الدمار والكارثة لا يمكن له الا ان يتكرر (كما في كتابات أهارون ابلفلد) ، واما لان الماضي الحقيقي ، واستطرادا، المستقبل الحقيقي في هذه المنطقة يرتبطان بالعربي وليس باليهودي (كما في كتابـات أ ٠ ب ٠ يهوشواع) ، واما لان « هذه الارض اللعينة وسكانهـا من العـرب وبنات آوى ، « معادون لنا » (كما يقول عاموس اوز) ، وامـا اخيـرا لان الحرب « كجبرية قائمة معلقة فوق رؤوسنا » تشكل تهديدا دائما (كما تشير الموضوعة الخفية في كتاب أماليا ـ كاهانا كارمون « انت ايها القمر ، فوق وادي ايالون » (١٩٧١)) ٠

في بداية سنوات الستين ، بدأ كتاب اسرائيل بانتاج ادب تطبعه رغبة حاسمة في تفادي اي التزام سياسي ، وتميزه كتابة مجازية ورمزية ٠ انذاك كان المؤلفون من الكتاب الشبان الذين لم يشتركوا في « حرب الاستقلال » (١٩٤٨) ، وكانوا في معظمهم خاضعين لتأثير فرانز كافكا وأغنون ٠أما اعمالهم فكانت تشهد على رد فعلهم المعادي لادب البالمـاخ السياسي ـ الاجتماعي ٠

غير ان كتابا مثل عاموس اوز ، وأ٠ب٠ يهوشواع، ودافيد شاهار، ويتسحاق اورباز ويهودا اميهاي ، وهم جميعا من الذين اتخذوا على الدوام مواقف يسارية ملتزمة ، لـم يتمكنوا ابدا من تفادي مجابهة المشكلات الاجتماعية والقومية ٠ وفي معظم الحالات ، كانت الدلالات الاجتماعية مبطنة في كتاباتهم ، بواسطة بنيان رمزي ، مجازي ٠٠ او كـانت تشهد على تلك الدلالات رؤية ما للعالم (حسب تعبير لوسيان غولدمان) مطبقة على مواقف خاصـة (وبالتحديد ، رؤية متحدرة من ، او مرتبطة بـ « الايديولوجيـة الاشتراكية ـ الصهيونية اليسارية) ٠

الاتصال المستحيـل

بوسعنا ان نلخص تلك الرؤية على النحو التالي : ان كافة القيم الما ـ بين ـ الافراد

التي يأمل ابطال الروايات والقصص في الانتماء اليها (الاخر ، الطبيعة ، القوى الالهية التي تحكم العالم بصورة تعسفية ٠٠٠ الخ ٠) ، كل هذه القيم يمكن الحصول عليها ، ولكن الثمن سيكون دمارا متوازيا للطرفين ، الذي يحصل والذي تأخذ منه ٠ انها مغامرة بطل متوحد ، مهجور ، غريب ، يحاول (او بشكل اكثر تحديدا ، يدفع الى المحاولة ، لان هذا النوع من الابطال هو نوع سلبي ، لا يمكنه ان يقوم بأية مبادرة من تلقائه) يحاول ان يقيم علاقة ، او اتصالا بامرأة او برجل ، او بالطبيعة او القوى الالهية ، او القوى المتوحشة ، خلال مجرى القصة ، وفي اللحظة التي يتم فيها انجاز الاتصال او الحلم ، يبدو واضحا (للقارىء اكثرمما للبطل) ان العالم الذي يحاول هذا البطل ان يقيم اتصالا به ، انما هو عالم مشوه ، وان البطل نفسه مشوه ، او انه لا يتمتع بما يكفي من القوى لمقارعة محيطه ٠وهكذا ، في النهاية ، نجد ان اللحظة التي يتم فيها الوصول الى الهدف ، هي هي لحظة انبثاق الاهواء ، والدمار والكارثة ، ان البطل هو الذي يدمر ذاته ، او يدمر ما يقرب منه ــ انها الاسطورة العريقة ، اسطورة تضحية اسحاق ، وحكاية يافت ، تقدم ها هنا في صورتها الحديثة المعاصرة ، على شكل تضحية بـ / أو دمار ، الاطفال على يد اقربائهم باسم هدف مشبوه او هدام ٠ ان مثل هذه الحبكة موجودة في شكلها الاكثر نقاء ، بشكل خاص في الاعمال الاولى لكل من اورباز واوز ويهوشواع ٠ وهذا الاخير يقدم لنا مثالا جيدا عليها في قصته «قافلة ياطر الليلية» (١٩٧٢)٠ في هذه القصة يصف لنا الكاتب قرية معزولة في الجبال ، يقرر سكانها اقامة اتصال مع العالم ، مع البشر الاخرين ، عبر اخراج القطار السريع الذي يمر بالقرية مرتين في اليوم ، عن سكته الحديدية ٠ وهكذا بشكل مفاجيء ، وسط بريق الحادثة ، وصراخ المتألين والجرحى ، يتمكن القرويون من الحصول على لحظة ارتقاء روحي ، ومشاركة حقيقية مع الآخرين ، وعند هذا فقط يمكن للبطل ان يتحد بمحبوبته « في تلك الارض غير المزروعة ، والتي مرت بالتجربة ، ارض البلد الحبيب » ٠

في بداية سنوات الستين ، لم تكن المستتبعات السياسية لمثل هذا البنيان الروائي ، جلية ٠ كانت الاهداف المنشودة اهدافا انسانية وشخصية ، لكنها كانت محملة احيانا بدلالات سياسية سوف تتخذ مكانتها المهيمنة خلال السنوات اللاحقة ٠

الواقع ان هذه التوليفة بين المخطط الفردي ، والدلالة السياسية ، تظهر لنا كيف ان الادب الاسرائيلي كان في سنوات الستين ، متأثرا ، على طريقته الخاصة ، بأدب فرانز كافكا ، وبالفكر الوجودي الغربي ٠ غير ان استحالة اقامة علاقة مع طبيعة لا مبالية وغريبة ، كانت تتخذ في اسرائيل تفسيرا قوميا : ان الطبيعة غريبة لان الاسرائيليين لم يتمكنوا من الاندماج في بلد غريب ليس هو بلدهم ٠ لقد بدت الحياة ها هنا وكأنها مجموعة من اللحظات المفككة ، وكأنها استمرارية حاضر دائم غير ذي دلالة ، وليس ذلك فقط على نحو ما صاغه البير كامو في « الغريب » بل على نحو آخر ، حيث ان الماضي والمستقبل في هذا البلد ، هما ملك قوم آخرين ٠ ان الابطال يهتزون ويثورون في عالم الرواية ، وحيدين ومقتلعين ، ليس فقط لانهم سوف يموتون وحيدين (تبعا لتعبير هيدجر) بل لانهم عاجزون ، لان ثمة عجزا عن اقامة اتصال بين اشخاص لا يجمعهم ماض اجتماعي مشترك، اي انهم ــ استطرادا ــ لا يمتلكون امكانية بناء مستقبل اجتماعي مشترك،٠انطلاقا من ذلك الماضي ٠ ان المعاناة ليست هنا معاناة وجودية وحسب ، وهي لا تنتج فقط عن واقع ان الفرد قد القي به في هذا العالم ، بل ايضا عن واقع ان هذا الفرد القي به في بلد غريب يستعد للفظه ٠

من ناحية ثانية نرى انه ، فيما كان البطل الوجودي الذي اثر على البطل الاسرائيلي، يكتشف امكانية التوحد مع الطبيعة عن طريق الانعزال والوحدة المطلقة (كما في « الغريب ») او عن طريق النضال الاجتماعي اليائس (كما في « الطاعون » لكامو ، و « الوضع الانساني » لاندريه مالرو) ، كان البطل الاسرائيلي الذي طبعته تجربة اجتماعية خاصة ــ هي انجاز الحلم الصهيوني بعد حرب قاسية ومرة ــ لا يصل الى التوحد المنشود الا عبر الدمار والحرب ٠

على هذا المزيج من الموضوعات الوجودية والقومية ، والمواقف السياسية الاجتماعية والانسانية ، يمكننا ان نصر على مثل جيد في كتاب عاموس كنعان « الذبيحة ٢ » (١٩٧٦) فاحداث هذا الكتاب تدور في معسكر وهمي ، في مستقبل خيالي يلي دمار الدولة والعالم ٠ غير ان هذا المكان الوهمي يوصف هنا ، في الوقت نفسه ، بتعابير الوجودية ، وتعابير الواقع السياسي الاسرائيلي ، واخيرا ، بتعابير اجتماعية ذات قيمة كونية ٠ في كل يوم يتم تنفيذ حكم الاعدام بنزيل من نزلاء المعسكر ٠ ولكن ، لان لا احد ، من المحكومين او من الاصدقاء ، يعلم من سيكون ضحية اليوم ، يبدو كل يوم وكأنه يوم موت ممكن لكل واحد من النزلاء ٠ ان ما نراه هنا هو التعريف بوضع وجودي لا ينتمي بالضرورة الى معسكر محدد ، غير ان السبب سياسي واجماعي : انها مذبحة قومية ٠ وبما ان كل لحظة ها هنا هي اللحظة الاخيرة ، صار بالوسع التحدث عن زمن برغسوني ــ نسبة الى برغسون ــ : ما امامنا هو تتابع لحظات في حاضر لا ماضي له ولا مستقبل ٠ في المعسكر ليس ثمة من امل ، لكن الذكريات تتشوش ايضا ، ان البطل يحاول باستمرار ان يتذكر مدينته العتيقة تل ــ ابيب ، غير ان ذكرياته سرعان ما تتحول الى ذكريات موت ودمار ٠ يحاول ان يتذكر الكثبان الذهبية ، لكنه لا يتذكر سوى المأساة ٠ يحاول ان يتذكر الجمال لكنه لا يتذكر سوى احداث يوم دمار المعبد (تيشا بيعاف) ٠ الحقيقة انه حين ينعدم الامل تنعدم الذكريات ٠ الذكريات الوحيدة الممكنة هي ذكريات الموت ٠ يظهر الموت والمستقبل الفردي ها هنا وكأنهما مستقبل المذبحة والدمار القومي (والعالمي ــ طالما ان المذبحة التي تطالعنا هنا ليست سوى جزء من مذبحة البيئة ، العالمية) ٠

ليس الانفتاح على زمن آخر هو الامر الوحيد المستحيل ، المستحيل الآخر هو الانفتاح على مكان آخر ٠٠ فذكرى الغابات الصنوبرية البعيدة والسماء الزرقاء والبراري المغمورة بالثلوج تتحول الى صور قوافل تتجه نحو معسكر الاعتقال ٠ ان كل ما يتم لمسه هنا يتحول ، ليس الى ذهب ، بل الى دم وحرب وموت ٠ كذلك تتحول لحظة الحب بدورها، الى لحظة اعدام ٠

يشكل معسكر الاعتقال هنا ، مكان الوقائع المختلفة : الوضع الانساني ، الواقع السياسي الراهن في اسرائيل ، والواقع السياسي العالمي ٠ كذلك تتقاطع اساليب مختلفة: الريبورتاج الصحفي الذي يصف الواقع الاسرائيلي على نحو شبه وثائقي ، الوصف الشاعري الذي يدخل في الموضوع دلالات كونية ، وكتابة الحكاية ، التي تعزز ما في القصة من عنصر تخييلي ٠

ان ثمة كتابا آخرين لجأوا الى نفس هذه الوسيلة التي تتقاطع عبرها الموضوعات ، لوصف اوضاع مجازية مختلفة٠ وعلى هذا النحو، مثلا ، نجد بطل أ٠ب٠ يهوشواع الذي

يعمل حارس احراج في رواية « في مواجهة الغابات » ، يحلم بالحرارة والضوء ، مما يفسر رمزيا انجذابه الى النار · ان الحلم الشخصي هنا يتحول الى حلم اجتماعي حين يكتشف البطل ان هذه الغابة اليافعة ، انما تخبيء في باطن ارضها اطلال قرية عربية· عندئذ ، وانطلاقا من تلك اللحظة تتخذ النار دلالتها الاجتماعية : احراق الغابة بهدف الكشف عن ماض مخبوء ، حقيقي ودال ·

من « السوبرمان » الى البطل السلبي

ان الادب الاسرائيلي ، في ارتباطه الزماني والمكاني ، يعطي في تطوره فرصة طيبة لتحليل العوامل الاجتماعية التي كانت ذات تأثير عليه ·

في اربعينات هذا القرن وخمسيناته ، تميز « ادب جيل البالماخ » خاصة بنوع من الواقعية الاشتراكية ، وبدا متشابها ـ على طريقته الخاصة ـ مع الادب الاميركي الذي ساد في سنوات العشرين ، وعرف باسم « ادب الفعل »· هنا ليس البطل شخصا متوحدا، بل هو فرد محاط بالناس وبالقيم · شخص مندمج في بيئته ـ كيبوتز في غالب الاحيان ـ يشارك اصدقاءه في حمل امل اجتماعي وقومي واحد · اما المشكلة الرئيسية التي يتصدى لها فتكمن في ضرورة المصالحة بين نظامين للقيم ، في الانجاز الاجتماعي (في المجتمع والعمل والحرب) وفي الانجاز الفردي (في الابداع الفني والحب والعائلة) · احيانا كان الهدفان يتناقضان ، وغالبا ما كان البطل مرغما على التضحية بعالمه الفردي على مذبح المجتمع ، الجماعة ، غير ان هذه التضحية نفسها كانت ترتبط باختيار قيم صحيحه ·· على الرغم من انه اختيار جزئي · وهكذا ، مثلا ، نرى في قصة موشي شامير « حتى الفجر » (ضمن مجموعة « نساء ينتظرون في الخارج » (١٩٥٢) ، بطلا مثقلا بعمله في الكيبوتز ينتهي به الامر الى تجاهل اسرته ، وزوجته وابنه · وعندما تترك زوجته الكيبوتز ، يراجع صاحبنا ضميره بشكل جدي فيكتشف خطأه ويلحق بها باحثا عنها في المدينة · مثل هذه الموضوعة تلوح لنا ، بشكل اكثر او اقل تعقيدا ، في عدد آخر من قصص هذا المؤلف نفسه ، وفي روايته المسماة « حدث في الحقول » (١٩٤٧) ، وكذلك في اعمال اهارون مجيد (١٩٥٧)، وناثان شاهام (١٩٦٠) ، وايغال موزنسون (١٩٤٦) وبارتوف (١٩٦٢) وغيرهم ···

ثمة نوع آخر من القصص ينتمي الى هذا الجيل نفسه ، ويحمل حبكة لا يكون فيها سبب الصراع داخليا بل خارجي : العدو ·· كما في رواية موشي شامير « بيديه » على سبيل المثال ، حيث يكون البطل مزيجا من سوبرمان الغرب الاميركي ومن مقاتل الصابرا · ان الحبكة تتألف هنا من سلسلة من الاحداث المتحلقة حول بنية متواترة : مهمة مستحيلة ، معركة صعبة ، امرأة محبوبة ينبغي انقاذها ··· الخ · ان امامنا ابطالا مختلفين يجربون قوتهم ويفشلون · لكن البطل الرئيسي ينجح بفضل مزاياه وشجاعته ومثابرته ، ويكسب وينقذ الوضع : ينقذ الكيبوتز ، والمرأة والشعب ·

ان رؤية العالم ـ حسب تعبير لوسيان غولدمان ايضا ـ التي يمكن استخلاصها من هذه الاعمال ، قريبة من رؤية المجموعة الاجتماعية ، ومن رؤية مقاتل البالماخ : الحلم الاشتراكي ـ الصهيوني ومعه على الارجح كل الاحلام الاخرى التي يمكن انجازها خلال الحرب والنضال والعمل · ولسوف تمضي عشرة اعوام قبل ان يبدأ الكتاب الاسرائيليون المميزون بطرح مسالة الثمن الهدام لانجاز مثل هذا الحلم على بساط البحث ·

الواقع ان الشاعرية المهيمنة في هذا الادب ، تتوافق تمام الموافقة مع هذه الرؤية

للعالم . هنا نرى الراوي ، قابلا لان يصدق دائما ، والبطل يقبل الضوابط الجلية كلها. لم يكن الخطأ ممكنا ، كذلك لم يكن بوسع البطل ان يخطيء . ان مثل هذه الشخصية لا يمكن التفكير فيها لدى كتاب الجيل التالي . فالابطال الرواة لدى اوز ويهوشواع واورباز يكذبون ويخفون الحقائق ـ عن انفسهم وعن القراء ـ ويفتقرون الى سلم للقيم يمكنهم من فهم الواقع والحكم عليه .. ثم ، في معظم الحالات ، نجد ان القارىء ، حتى بعد ان يكتشف اكاذيب الراوي ومخاتلاته ، غير قادر على ان يستخلص من العمل ضوابط جلية وواضحة .

كان عالم القيم لدى جيل البالماخ بسيطا وقادرا على ان يتجسد في العمل : كذلك كانت حبكة القصص اشبه بحبكة عمل ذات سببية بديهية . كان البطل يجابه المعضلات ويتصرف بهدف حلها ، ثم يحلها بشكل خاطيء او صحيح ، اما لحل فكان يؤدي الى نتائج ، وهذه النتائج كانت تطلق معضلات جديدة وهكذا دواليك . ان مثل هذه السيرورة باتت مستحيلة بالنسبة الى الجيل التالي . فالقصص هنا صارت اشبه بتركيبات تتجمع فيها تفجرات متتالية للغرائز الداخلية والكوارث الخارجية . اما البطل ، السلبي ، فلم يعد بامكانه لا ان يفهم ذاته ولا ان يفهم العالم الذي يحيط به ، لم يعد هو الذي يحدد مصيره : بات خاضعا لتاثيرات الغرائز العميقة او القوى الخارجية القدرية .

واللوحة نفسها باتت مختلفة . بالنسبة الى الجيل السابق كان المكان ذا اطار محبوب ومعروف . كان البطل يشعر وكأنه في بيته ، والراوي يصفه بكل ما فيه من تفاصيل . بالنسبة الى الجيل الاصغر اضحت البيئة بيئة معادية ، مليئة بجبال ترتادها بنات آوى ، والعرب ، والقوى الضارية الاخرى . لم يعد المكان قابلا لان يوصف بشكل محدد ومفصل ، بل صار يذكر وكأنه يرمز لقوى ضارية دائمة التهديد وعابقة بالخطر .

لقد ضاع اولئك الذين اصطدموا بالبريطانيين وحلموا بالدولة الصهيونية وحاربوا العرب ، صاغوا ادبا ، كان البطل فيه قادرا على الحفاظ على احتكاكه بالعالم . لدى الجيل التالي اختفى هذا الاحتكاك مع فقدان الثقة بالقيم الصهيونية ، وخاصة ، بوسائل انجاز تلك القيم . ويبدو ظاهريا كأنه قد حدث نوع من الانفلات الشامل لرؤية العالم وللشاعرية الادبية ، خلال الجيلين الاخيرين . لكن الحقيقة هي ان هذا الانقلاب كان موجودا كنواة لدى بعض كتاب الجيل الاسبق ، ولا سيما لدى يزهار سميلانسكي ، الذي يعتبر واحدا من اهم كتاب جيل البالماخ . البطل لدى سميلانسكي لا ينتمي الى ذلك النوع من الصابرا ـ المقاتلين ، الذين يحتلون الارض بالجسد والسلاح . انه كائن سلبي لا يجد موقعه الطبيعي بين صفوف فريق العمل او فريق العراك (حتى ولو كان ، بشكل عام ، يقبل كل قيم الفريقين) . بالتعارض مع ابطال شاميير ومجيد ومزنسون ، نلاحظ ان وسيلة التعبير لدى بطل سميلانسكي ليست العمل ، بل المونولوغ الداخلي ذو النمط الشاعري .

لقد مارس يزهار سميلانسكي اكبر قدر من النفوذ على كتاب الجيل التالي ، ولا سيما عبر قصتيه السياسيتين « خربة خزعة » و « الاسير » (١٩٤٩) اللتين كانت لهما اصداء عديدة ، وثارت حولهما مناقشات شغلت الاوساط الثقافية لفترة طويلة .

في « خربة خزعة » يصف سميلانسكي احداث يوم عند نهاية حرب العام ١٩٤٨ ، يتلقى خلالها البطل الراوي واصدقاؤه امرا باحراق وتدمير قرية عربية وطرد سكانها . بين المعسكرين (معسكر الجنود الاسرائيليين القساة الغلاظ ، ومعسكر العرب الضحايا المطرودين العزل من السلاح والذين يتجاوزهم القدر الغاشم) بين هذين المعسكرين يختار

البطل الانتماء الى معسكر العرب ، وذلك لانهم هم (وخاصة عند نهاية القصة) الذين يعتبرون بالنسبة اليه ، الممثلين الحقيقيين لعالمه ٠

الواقع المحطم

الواقع ان تاريخ الادب الاسرائيلي في سنوات الستين انما هو تكرار لقصة « خربة خزعة » ، وذلك لان قرية سميلانسكي كانت المكان الذي فيه قطع مقاتلو « حرب الاستقلال » كل علاقة مع عالم القيم الجوهرية ٠ فالغريب في ان يستيقظ الكاتب الاسرائيلي غداة « خربة خزعة » ليكتشف ان كل ما له معنى قد صار في الجانب الاخر : التاريخ الامكنة ، الطبيعة ، الزمن ، الاخلاق الاجتماعية والقوى الالهية ؟ كل هذا موجود الآن في الجبال ، لدى العرب وبنات آوى ، وهؤلاء ينتظرون معا لحظة الدمار والثأر ٠

في تلك الفترة بالذات كانت مجموعة سياسية معارضة تحمل اسم « الكنعانيين » تمارس نوعا آخر من الكتابة (نوعا له اشكال حديثة وتحديثية سوف يستعيرها كتاب الجيل التالي) وذلك بهدف التعبير عن رؤية للعالم ، هامشية واحتجاجية ٠

المحور الرئيسي الذي تمركز حوله ذلك النوع هو السخرية التي تهاجم ضوابط ونمط بطل تلك المرحلة عبر تسخيف الحبكة والشخصيات ، وكل ما حفلت به المرحلة من اغنيات وقصائد ٠٠ كما فعلت قصة ايتان نوتيف « معركة قلعة ويليامز » (التي نشرت في مجلة الف ، التي كانت الجماعة الكنعانية تصدرها في العام ١٩٥٠) وتتحدث القصة عن معركة حقيقية من معارك حرب العام ١٩٤٨ ، مقارنة اياها بكل المعارك الكبرى التي شارك فيها البطل حيث كان طفلا ، ابتداء بثورة اليهود على الرومانيين ، حتى غزو الغرب الاقصى في اميركا الشمالية ٠ كانت هذه القصة تمهد الطريق لكتابات الجيل التالي انطلاقا من انها كانت ، للمرة الاولى ، تحطم وهم الواقع الادبي ، لم يعد هذا الواقع سوى لعبة ايهامية ، وسخرية تسخف البطل ، السوبرمان ، رجل البالماخ ٠ اضف الى هذا ان هذه القصة قد اطلقت موضوعة لن تصبح مركزية في الوعي الادبي الاسرائيلي الا لاحقا : موضوعة ان الحرب مع العرب انما هي حرب ضد اشباح تمتليء بها هواجس « الشعب » الاسرائيلي القومية٠ اما الوسيلة الثانية التي استخدمها ادباء تلك الجماعة الهامشية لمواجهة الادب والوعي السائدين ، فهي ازالة العلاقات الزمنية ، التأريخية والسببية ، بالتعارض مع الوصف الذي لجأ اليه مؤلفو البالماخ ٠ لقدلعبت كتابة مجموعة « المجلة الف » لعبة تعسفية مع الزمن٠ مونولوغا قصيرا لشخصيتين ، بين ثلاثة ازمان ، بحيث انه لا يعود واضحا في النهاية ما اذا كان الاخ الكبير موجودا فعلا ، ما اذا كان له وجوده الان ، او ما اذا كان حلم يقظة ، سيصبح في الغد حلما عاديا ٠ ان هذا الارتباك في الزمن يأتي ليحطم الواقع الذي كان جيل البالماخ يؤمن به بشكل يفوق كثيرا ايمان الجيل التالي به ٠ لقد عمد كتاب جيل « الكنعانيين » الى تحطيم بنية الزمن والحبكة (وشخصية البطل ايضا) بشكل اكثر حدة ٠٠ ولعل هذا هو السبب الذي جعلهم حتى الان غير مقبولين لدى الاوساط الادبية في اسرائيل ٠

يمكن اعتبار قصة عاموس كنعان « الحصان المتقن » (١٩٦٦) نوعا من القصة ــ المضادة، ببطل ــ مضاد وحبكة ــ مضادة ٠ هنا لا يمكن للحبكة ان تنمو ، لان البطل يبني لنفسه،

في كل لحظة من لحظات الحاضر ، حلما عن المستقبل ، وهذا الحلم يتحول الى ماض قبل ان يصبح واقعا وحاضرا · في مثل هذا القلب للزمن ، ليس ثمة وجود او واقع لاي ظاهرة من الظواهر : كل شيء يختفي قبل ان يحدث ، المرأة المحبوبة تصبح امرأة عجوزا تكنس الارصفة وتدهسها القاطرة · والبطل يتحول الى بديلة ، رجل عجوز يقف في الجانب الاخر من السكة ·· ومن بين كل هذه التحولات نجد ان الشيء الوحيد الذي يظل قائما ، هو القطار الذي يمر ويدهس ويرمز الى الرحلة الهدامة والعدوانية التي تتم في الزمان والمكان في ظل هذه الحبكة ، تقوم رؤية سياسية لكاتب سبق له ان خاض « حرب الاستقلال » ·· لكنه بدأ في الوقت نفسه ينتقد تلك الحرب وغاياتها ووسائلها ·

في نهاية سنوات السبعين ، وفي رواية « الذبيحة ٢ » نلاحظ ان الايديولوجية الاجتماعية التي كانت مطمورة في البنية الزمانية لقصة « الحصان المتقن » ، باتت تبدو بوضوح : « عندما نصبح كبيرين ، هاباكوك وانا ، سوف نقيم وطنا جديدا · وفي وطننا الجديد هذا ، لن يفعل الناس الا الاشياء التي يحبون فعلا ان يفعلوها » غير ان الحلم سرعان ما يتحول الى حلم جرحى ينبغي رتقهم : « هناك سوف نداوي الجرحى ، ونقيم اود كل ما يمكن اقامة اوده ، وبعد ذلك سوف نعلمهم الكلام من جديد ، كما سنعلمهم كيف يمشون ويتذكرون ويبولون كما يحلو لهم ·· كذلك سنعلمهم كيف يحيون من جديد الحياة العائلية وكيف يكفون عن الصراخ ليلا » ·

نلاحظ هنا ان الامل الكبير والحلم الكبير لم يشوها على يد الواقع ، بل هما تحولا الى حالة الحلم · بطريقة او باخرى ، ولا سيما بعد الحربين الاخيرتين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) ، حين اصبح الادب الاسرائيلي اكثر واقعية ، وصارت البنية السياسية التحتية اكثر ظهورا ، كانت حالة الحلم تلك شعورا عبر عنه معظم الكتاب الاسرائيليين الجيدين : اناس لا يكفون عن السير باتجاه « اورشليم » لكنهم لا يصلون اليها ابدا · وفي خلال طريقهم، يتشوه حلمهم ، ويسقط عالمهم الداخلي طللا ·· اما العالم الخارجي فيتحطم (عاموس اوز « حتى الموت » ١٩٧١) ويظلون وحيدين في ظل سماء خاوية وصامتة ·

ان السماء صامتة كلية الصمت بالنسبة الى اليهود ، منذ ايام بسكال ·· وهي هكذا بالنسبة الى الاسرائيليين كما بالنسبة الى غيرهم · ولكن الفارق الاساسي بين الاسرائيليين و ·· الفرنسيين على سبيل المثال ، هو ان المعضلة الوجودية بالنسبة الى الاوائل ، معضلة سياسية : في اسرائيل « نكون او لا نكون » ليس مسألة فردية ، بل مسألة جماعية · والكتاب يعالجون المشاكل القومية ليس لانهم قرروا بان على الكاتب ان يكون ملتزما ، بل لان السؤال الوجودي الاساسي هو سؤال مشترك بين جميع الافراد : ان السيرة الفردية لكل اسرائيلي ، هي تاريخ المجتمع بأسره ·

نقل النص الى العربية

ابراهيم العريس

جـدول بالعـمليّات العسكريّـة لقوّات الثورة الفلسطينيّة من ١٩/٢ ـ ٢٥/٤/٧٩

١٥ـ ٧٩/٣/٢٣	١٥ر٠٠	القدس ـ موقف سيارات القدس ـ تل ابيب ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	مقتل وجرح (٣٠) من افراد العدو	ـ قتل وجرح ما لا يقل عن ثلاثين من افراد العدو· ـ تضرير واعطاب عدد من السيارات · تدمير مداخل وواجهات عدد كبير من المحلات ·	ـ	ـ	٧٩/٣٣	ـ	٧٩/٣/٢٤
١٦ـ ٧٩/٣/٢٥	٢٣ر٠٠	القدس ـ مطعم دولفين ·	هجوم	قنابل يدوية	غيرمحدد	اصابة عدد من افراد العدو · ـ اتلاف جزء كبير من محتويات المطعم · ـ تحطيم عدد من السيارات المتواجدة قرب المطعم · اصابة العشرات من المتواجدين في المطعم ·	ـ	ـ	٧٩/٣٤	ـ	٧٩/٣/٢٦
١٧ـ ٧٩/٣/٢٦	٢١ر٠٠	القدس ـ احد المطاعم شرقي المدينة ·	هجوم	قنابل يدوية	غيرمحدد	ـ اتلاف جميع محتوياته · تحطم زجاج الابنية المجاورة ·	ـ	ـ	٧٩/٣٥	ـ	٧٩/٣/٢٧
١٨ـ ٧٩/٣/٢٧	٩ر٠٠	اللد ـ السوق المركزي ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ قتل وجرح العشرات من افراد العدو · ـ اصابة العديد من المحلات التجارية باضرار بالغة ·	ـ	ـ	٧٩/٣٦	ـ	٧٩/٣/٢٧
١٩ـ ٧٩/٣/٢٨	ـ	الشاطيء المحتل ـ جنوب تل ابيب ·	معركة بحرية	صواريخ واسلحة رشاشة	سبع اصابات	وقوع سبع اصابات في صفوف العدو · اصابة زورق واشعال النيران في جزء منه واصابة زوارق اخرى	٣	٣	٧٩/٣٧	٢	٧٩/٤/
٢٠ـ ٧٩/٤/٤	١٩ر١٥	نابلس ـ سيارة عسكرية·	هجوم	قنابل يدوية	قتل وجرح (٦)	ـ مقتل وجرح ستة منافراد العدو · اعطاب السيارةالعسكرية·	ـ	ـ	٧٩/٣٨	٥	٧٩/٤/

[illegible]	[illegible]	تل ابيب – احد الباصات العسكرية التابعة لشركة ايجد ·	هجوم	اسلحة رشاشة	–	غيرمحدد	– اصابة عدد غير محدد من افراد العدو · – وقوع اضرار كبيرة في الباص ·	–	–	٧٩/٣٩	٧٩/٤/ ٧ *
٢٢– ٧٩/٤/٦	٩٫٣٠	طبريا – احد الباصات·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	(٣)	* اصابة خبير المتفجرات واثنين من افراد العدو ·	–	–	٧٩/٤٠	٧٩/٤/ ٦
٢٣– ٧٩/٤/٦	٢٢٫٠٠	القدس – مطعم دولفين ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	مقتل وجرح اكثر من (٢٠)		– مقتل وجرح اكثر من عشرين من افراد العدو · – تدمير المطعم تدميرا تاما· – تحطم معظم زجاج الابنية المجاورة · – اعطاب عدد من السيارات القريبة من مكان الانفجار ·	–	–	٧٩/٤١	٧٩/٤/ ٧
٢٤– ٧٩/٤/٨	٧٫٠٠	القدس – احراش جبل المكبر ·	قصف	صواريخ ثقيلة	–	–	– اكتشف العدو احد الصواريخ وقام بتفكيكه·	–	–	٧٩/٤٢	٧٩/٤/ ٨
٢٥– ٧٩/٤/٩	٢٫٠٠	يافا – احد المطاعم التي يرتادها ضباط العدو ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	(٢)	– اصابة اثنين من الحرس المدني · – تدمير اجزاء كبيرة من واجهات وجدران المطعم· – اتلاف محتويات المطعم ·	–	–	٧٩/٤٣	٧٩/٤/ ٩
٢٦– ٧٩/٤/٨	١٨٫١٥	عسقلان – اسفل احد السيارات العسكرية ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	–	– اكتشفت العبوات وتم تفكيكها ·	–	–	٧٩/٤٤	٧٩/٤/ ٩
٢٧– ٧٩/٤/٨	١٥٫١٥	دير البلح – المغازي – احد باصات شركة دان·	هجوم	اسلحة رشاشة	–	غيرمحدد	– اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ·	–	–	٧٩/٤٥	٧٩/٤/ ٩
٢٨– ٧٩/٤/١٠	١٢٫١٥	تل ابيب – سوق الكرمل المركزي ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (٥٠)		– قتل وجرح ما لا يقل عن خمسين من افراد العدو· – تدمير اربع محال في السوق تدميرا تاما · – تدمير جزء كبير من شبكة الكهرباء ، وانقطاع التيار الكهربائي ·	–	–	٧٩/٤٦	٧٩/٤/١٠

تاريخ العملية الرقم	اليوم	الساعة	موقعهـــا	نـوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	شهيد	البلاغ العسكري الرقم	التاريخ
١ ـ ٧٩/٢/١٩		٣ر١٥	تل ابيب ـ بيت حركـــة المستوطنات ، الموشافيم،	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ٠ ـ اتلاف جميع محتويـــات الطابق الاول ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/١٩	٧٩/٢/٢٠
٢ ـ ٧٩/٢/٢٠		٦ر٥٠	القدس ـ موقف باصات شركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	غيرمحدد	ـ جرح عدد غير محدد مـن المستوطنين الصهاينة ٠ ـ تحطيم جزء من موقـف الباصات ٠ ـ اصابة المبنى المجـاور للموقف باضرار بالغة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٢٠	٧٩/٢/٢٠
٣ ـ ٧٩/٢/٢٠		٧ر٢٥	بتاح تكفا ـ داخل محطة الباصات المركزية ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ غير محدد ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٢١	٧٩/٢/٢٠
٤ ـ ٧٩/٢/٢٧		٩ر١٥	خان يونس ـ المحطـــة المركزية للباصات ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ تدمير جزء كبير مـــن الباص واصابة احـــد الباصات المجاورة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٢٢	٧٩/٢/٢٧
٥ ـ ٧٩/٢/٢٧		١٤ر٥٠	القدس ـ سوق محنـــى يهودا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	(١٠)	ـ اصابة حوالي عشرة من افراد العدو ٠ ـ تصدع جدران احد المحال التجارية ٠ ـ اتلاف محتويات عدد مـن المحلات ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٢٣	٧٩/٢/٢٧
٦ ـ ٧٩/٢/٤		صباحا	القدس ـ القطار بين بيتر ـ وبيت صفافا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ قتل وجرح عدد غير محدد من ركاب القطار ٠ ـ قتل خبير المتفجـــرات واصابة عدد من رجـــال الشرطة ٠ ـ تدمير جزء كبير من خـط سكة الحديد ٠	ـ	ـ	ـ	٧٩/٢٤	٧٩/٢/ ٤

٧ ـ ٧٩/٣/٧	٧ر٣٠	القدس ـ داخل احد الباصات ·			موفوته		الباص نهائيا · ـ اصابة عدد غير محدد بينهم اثنين من شرطة العدو ·	ـ	ـ	٧٩/٣/ ٧
٨ ـ ٧٩/٣/٧	ـر٩	القدس ـ احد الباصات التابعة لشركةالسياحة·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (١٥) من افراد العدو		ـ قتل وجرح ما لا يقل عن خمسة عشر شخصا من افراد العدو · ـ تدمير جزء كبير من الباص ·	ـ	ـ ٧٩/٢٦	٧٩/٣/ ٧
٩ ـ ٧٩/٣/٧	١٢ر٣٠	العفولة ـ احد الباصات التابعة لشركةالسياحة·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبوات وابطل مفعولها ·	ـ	ـ ٧٩/٢٧	٧٩/٣/ ٧
١٠ـ ٧٩/٣/٨	١٨ر٣٠	القدس ـ محطة الباصات المركزية ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبوات وابطل مفعولها ·	ـ	ـ ٧٩/٢٨	٨ /٣/ ٧٩
١١ـ ٧٩/٣/٩	٧ر٠٥	تل ابيب ـ فندق بلازا ·	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد	ـ	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو · ـ احراق محتويات الطابق التاسع ، واتلاف محتويات الطوابق العليا·	ـ	ـ ٧٩/٢٩	٩ /٣/ ٧٩
١٢ـ ٧٩/٣/١١	٦ر٣٠	ايلات ـ مدخل بناية للمخابرات ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو · ـ تدمير المدخل والمكتب المحاذي له ·	ـ	ـ ٧٩/٣٠	٧٩/٣/١١
١٣ـ ٧٩/٣/١٤	٨ر٠٠	القدس ـ داخل احد باصات العدو ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد-	ـ قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو · ـ تدمير الباص واشتعال النيران فيه ·	ـ	ـ ٧٩/٣١	٧٩/٣/١٤
١٤ـ ٧٩/٣/٢٠	١٠ر١٥	نابلس ـ مقر الحاكم العسكري ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	(١)	ـ اصابة خبير المتفجرات بجروح خطيرة · ـ اصابة مبنى الحاكم العسكري باضرار بالغة·	ـ	ـ ٧٩/٣٢	٧٩/٣/٢٠

							ـ اعطاب ثـــلاث سيارات كانت متوقفة داخ ـــل السوق ٠
٢٩ـ ٧٩/٣/١٠	٠٠ر٢٤	اريحا ـ	معركةمواجهة	اسلحة مختلفة	غيرمحدد ـ	غيرمحدد ـ	ـ سقوط عدد كبير للعدو من القتلى والجرحى ٠
٣٠ ـ ٧٩/٤/١٤	٠٠ر٢٣	مستوطنة الزراعة « طيرة تسفي » ٠	هجوم	اسلحة رشاشة وصاروخية	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ وقوع عدد كبير مـــن الخسائر البشرية فـــي صفوف جنود العدو ٠ ـ تدمير اليتين بما فيهمـــا من جنود ٠ ـ ايقاع خسائر في عد من المراكز العسكرية فـ ـــي المستعمرة ٠
٣١ ـ ٧٩/٤/١٦	٠٠ر٢٣	الجليل ـ مستعمـــــرة زرعيت ٠	هجوم	اسلحة مختلفة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ تدمير مريض مدفعيـــ تدميرا كاملا ٠ ـ تدمير مهجع لجنود العدو نهائيا بعد اشتعال النيران فيه ٠ ـ تدمير مستودع للذخيرة ٠ ـ تدمير دبابـــة واليتيـــ مدرعتين ٠
٣٢ ـ ٧٩/٤/١٧	١٢ر٠٥	القدس ـ احد الباصات	تفجير	عبوات ناسفة موقوته	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ قتل وجرح عدد غير محد من ركاب الباص ٠ ـ تدمير الباص نهائيا بعد ان اشتعلت فيه النيران ـ تدمير وتحطيم زجـــا وواجهات المحال والبيو القريبة من مكان الانفجـ
٣٣ ـ ٧٩/٤/١٨	٩ر٣٠	القدس ـ الطريق الترابي المؤدي الى منطقـــــة تلبيوت ٠	تفجير	عبوات ناسفة مشتركة	قتل وجرح خمسة من افراد العدو		ـ قتل وجرح جميع افـــ الدورية البالغ عددهـ خمسة ٠
٣٤ ـ ٧٩/٤/١٨	١١ر٠٠	الجليل الغربي ـ مرابض مدفعية العدو ٠	قصف	صواريخ ثقيلة	ـ	ـ	ـ اصابة الصواريخ اهدا المحددة ٠
٣٥ ـ ٧٩/٤/٢١	٢٠ر٣٠	القدس ـ موقف سيارات العدو العسكرية فيبوابة يافا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوته	ـ	٣	ـ اصابة خبير المتفجـــر واثنين من جنود العدو
٣٦ ـ ٧٩/٤/٢٥	بعدالظهر	مستوطنات العدو فـــي منطقة الجليل ٠	قصف	صواريخ ثقيلة	ـ	ـ	ـ تكبيد العدو خسائـــر عسكرية بشرية ومادي كبيرة ٠
٣٧ ـ ٧٩/٤/٢٥	٠ر٢٠	تل ابيب ـ مبنى لمخابرات العدو في « حي شابا » ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ قتل وجرح عدد من افراد العدو ٠ ـ تدمير جزء من المبنـــى واشتعال النيران فيه ٠